التكفيريون

من الخوارج إلى داعش

بحث في أصول وعقائد الفرق والجماعات
والتنظيمات الإسلامية ومنهجها الإقصائي وموقف
الإسلام من التكفير وآثاره على المجتمعات والأوطان

نجاح العشري



بطاقة فهرسة

اسم الكتاب: التكفيريون «من الخوارج إلى داعش»

اسم المؤلف: نجاح العشري

رقم الايداع ٢٠١٧/٧٩٨٣

الترقيم الدولى / ٩-٧٣-٦٥٦٥-٩٧٧-٩٧٨

الطبعة الأولى ٢٠١٧



مكتبة جزيرة الورد

القاهرة : ٤ ميدان حليم خلف بنك فيصل

ش ٢٦ يوليو من ميدان الأوبرا ت : ٠١٠٠٠٠٤٠٤٦ ـ ٢٧٨٧٧٥٧٤

Tokoboko_5@yahoo.com



إلى روح والدتي..

عرفانًا بفضلها .. واعتزازًا بدورها

فلولاها – بعد الخالق – ما كان هذا الكتاب وما كان صاحبه..

تغمدها الله بواسع رحمته وعظيم غفرانه

نجاح العشري

مقدمة لابد منها

⌑ ⌑ ⌑ ⌑

ظهرت ايديولوجيا التكفير بصورة واسعة النطاق في مرحلة الخوارج ، فهم أول من «كفّر» وأظهر «الحاكمية لله» بفهمهم ورؤيتهم المغلقة بعد قولهم : «لا حكم إلّا لله»، وإن كانت كلمة حق يراد بها باطل، كما كان رد الإمام عليّ على قولتهم... فقد ارتبط «التكفير» في أذهانهم في مخالفيهم في الرأي نظرًا لتعصبهم المقيت ونظرتهم الضيقة لنص القرآن الكريم والأحاديث النبوية، بل مارسوا الإرهاب والقتل وإهدار الدم لمخالفيهم من أهل الشريعة ، حتى أن الإمام عليّ لم يسلم من تكفيرهم رغم ما به من تُقى وورع وجهاد كبير في سبيل دعوة الإسلام ونصرته.

ولا أظن أن هناك فرقة من فرق الإسلام والمسلمين قد سلمت من إطلاق «التكفير» أو لم يصبها أذى التكفير.. فالمعتزلة والشيعة والمذهب الظاهري «وهو الأقرب لمذهب أهل السنة» والأشاعرة «جمهور المسلمين» كلهم مارسوا التكفير ضد مخالفيهم في الرأي حتى لو كان يومًا ما معهم وفي ذمرتهم ، كما فعل الأشاعرة مع المعتزلة، وكما حدث داخل مدرسة المعتزلة بين التلميذ وأستاذه.

ومنذ ظهور التكفير على يد الخوارج بتشددهم في التفسير وتعصبهم في الرأي والذي تحول الرأي عندهم إلى دين، فقد استمر هذا النهج حتى مراحلنا الحديثة والمعاصرة، وحتى من أظهر من هذه الجماعات والفرق– في وقتنا الراهن – أكذوبة «الاعتدال» و«الوسطية» وحرمانية التكفير ونبذ العنف ، فقد أظهرت الأحداث أن فكرة «الاعتدال» والتي أظهرها الإخوان خلال تاريخهم السياسي ما هي إلّا «مداراة» و«تقية» - إذا صح اللفظ هنا – ومراعاة الظروف السياسية ومواءمتها لهم أو ضدهم سرعان ما أثبتت الوقائع العكس بعد انزياحهم عن سُدة الحكم ودست السلطة، فأظهروا الوجه الحقيقي، وكشفوا عن حقيقتهم التكفيرية والعدوانية ضد الوطن ومؤسسات الدولة.. كما عاد من راجع تفكيره من «التنظيمات الجهادية» سيرته الأولى بعد ما ادّعوه من سقوط مشروعهم الإسلامي «المأمول» بعد ٣٠ يونيو ٢٠١٣ ، ولا يدري أحد من الباحثين أو المهتمين بالشأن السياسي العام كيف ارتبط مفهوم

«المشروع الإسلامي» بمشروع النهضة الإخواني إلّا إذا كان المقصود عودة «الخلافة الإسلامية» على أيديهم بعد وصولهم إلى مشارف الحكم في ظل لحظة تاريخية «مترهلة» و«هزيلة» و«استثنائية» في تاريخ مصر، أظن أنها لن تتكرر مرة أخرى – على الأقل – في المنظور المتوسط، ولا أغالي إن قلت في المدى البعيد، وأعتقد أنّ مفهوم «الفرق الناجية» والذي استقى من الأحاديث النبوية بتقسيم الأمة إلى اثنتي أو ثلاث وسبعين فرقة.. لا ينجو من ابتلاء ربك إلّا فرقة واحدة وهي «الناجية» ، فقد ساهم – هذا الحديث بتعدد رواياته – من خلال المنظور المتشدد في تكفير الآخرين لاستخدامهم النص على أهوائهم ورؤيتهم الضيقة، فكل فرقة انبثقت من معالم الفكر الإسلامي ظنت أنها الفرقة الناجية، والتي تنجو من عذاب ربها، بينما الفرق الأخرى في النار والعذاب المقيم..!!!

ولا شك عندي أن الفكر «الخوارجي» في التكفير ظل في العصور الأولى حتى المرحلة الحديثة والمعاصرة في خوارج جدد يقومون بالتكفير والعنف «المقدس» ما دامت «ذهنية التكفير» واحدة تبنى على التشدد والتعصب والتفسير الضيق للنصوص والتناقض في الحكم.. وما دام أيضًا «معين» الفهم واحدا من خلال ما يفهمه من «النص القرآني» ويتم تفسيره لصالح العقلية التكفيرية وما يفسره من أحاديث متعلقة بـ«الجهاد» أو«الفرقة الناجية» .. غير أنه ينضاف إلى التكفير الديني في الفترة المعاصرة تكفيرًا آخر يتبناه بعض الإسلاميين المنشغلين بالعمل السياسي العام يعتمد على اتهام غيرهم بـ «العمالة» و«الخيانة» رغم أن مفهومهم للوطن يتسع بقدر اتساع وصول العقيدة الإسلامية على أرض المعمورة أي أنه ليس بأرض ومؤسسات دولة وشعب وتخوم جغرافية، بل هو مرتبط بوصول العقيدة إلى بقاع الأرض من مشرقها إلى مغربها، وهذا هو «التكفير السياسي» بعينه وهو سحب الضمير الوطني، وسحب الإخلاص لكيان الوطن من خلال الاتهام بالعمالة والخيانة والحصول على أموال للإضرار بالدولة وكيان مؤسساتها.. فظاهرة التكفير وإطلاقها على الخصوم لم تترك فترة تاريخية إلّا وكانت فيها تعبث بأفرادها وتصفهم بالكفر والمروق من الملة والخروج من ربقة الدين والعقيدة.

بيد أنّ ظاهرة «التكفير» لها أسبابها الموضوعية وأسبابها الشخصية والذاتية ، والتي يتسم بها الفرد من خصائص وصفات علاوة على ظروف موضوعية وبيئية والتي

تدفع دفعًا إلى التكفير، وظهور «المكفراتية» و«التكفيريين» .. كما أن هناك من السمات الخاصة بالمكفّر في مرحلتنا الحديثة وبين السمات الخاصة بالتكفيريين الخوارج في الإسلام الأول .. أي أنه هناك قواسم مشتركة وناظم بينهم على ابتعاد الزمن وطول التاريخ تتمثل في التناقض البيّن والتعصب المقيت والتوقف عند النصوص وجمود الفكر وإلغاء العقل وعدم القدرة على الاستنباط، ومن الملاحظ أن انتشار التكفير وتزايد الاتهام بالخروج من الملة يتبع ذلك فتوى إهدار الدم وإزهاق الروح تنطعًا وافتئاتا على ثوابت الدين والتي تحول دون ذلك، بل تشاع الفوضى وتحدث الخلخلة للمجتمعات والأوطان من جراء إهدار الدم والنفوس وقطع ما بين المهدور دمه وبين المسلمين من صلة وعلائق فلا يرث ولا يورث ويفسخ عقد زواجه ولا يدفن في مقابر المسلمين ولا يصلى عليه ولا يترحم بشأنه بسبب فتاوى ضالة مضلة..!!

بيد أنه مما يلفت النظر أن ذهنية التكفير وعقلية التكفّيريين تتسم بسمات تتواجد على مرّ التاريخ، فنجد أن العقل الأصولي «التكفيري» ماضوي ممعن في النكوص إلى الماضي، والتحرق شوقًا إلى السلف الصالح وأحلام «الخلافة الإسلامية» في مهدها الأول، وحلم إنشاء الدولة الإسلامية من شرق العالم إلى غربه وكذا امتلاك هذه الشخصية للحقيقة المطلقة كما يتسم بالعقلية «الدوجمائية» بما تتسم به من ثبوت عقلي حاد ومنطق أحادي وانغلاق في الرؤية والتفكير والذي لا يقبل التراجع عن أفكاره أو معتقداته ، كما تتسم هذه الشخصية بالوقوف عند النصوص لا يبرحها ولا يقبل التراجع عن أنها مقدسة والاقتراب منها أو التقليل من شأنها أو تقديم تأويل لها مما يعد هذا التأويل – في نظره - كفر صريح ومروق عن الدين وهرطقة وشرك بالله وكل الفسوق وكل العصيان.

كما أن شخصية المتطرف تميل إلى التناقض في السلوك والانفصام و«الشيزوفرانيا» في المواقف، ففي الوقت الذي يقتل فيه عبد الله بن خباب– إبان الخوارج – يترك النصراني ولا يمس ؛ لأنه من أهل الذمة ولا يقبل منه جنا ثمرة نخل إلا بثمن تناقض واضح وسلوك متباين بين رجل مسلم يعلق القرآن في رقبته ويُقتل بأيديهم وبين نصراني لا يقبلون الخوارج منه ثمرة نخلة إلا بثمن..!!

كما أن السلوك المتطرف «المكفرّ» وإطلاقه لفظة «التكفير» لكل المخالفين في الرأي له من الآثار الخطيرة على المجتمع والوطن والأفراد، فإهدار الدم وزعزعة الاستقرار

وتكفير الحكام والمجتمعات يجعل «الفُرقة» هي الأساس والصراع هو «الأصل» وإصدار الفتاوى بدون علم أو فقه يسبب تصدع المجتمعات ويهدر الدماء بدون سند شرعيّ!!

بيد أنّ قيادتهم وأمراؤهم يستشعرون أنهم يقومون بتزمتهم وتعصبهم وتمسكهم بالفروع دون الأصول – بمهمة رسولية ورسالة نبوية – لنشر الدعوة الإسلاميّة وفرض الإيمان على الكفر والإلحاد في ربوع العالمين ، ويقومون – أيضًا – بالجهاد المقدس والفريضة الغائبة ويستخدمون «العنف المقدس» من ذبح وحرق وتدمير وتفجير من أجل فرض الإسلام على الدنيا كلها.!!

-ولعل مما ساعد هؤلاء المكفرّين في الانتشار ما نجحوا فيه مؤخرا من قيام «تنظيم داعش» من إعلان دولة الخلافة في العراق والشام واحتلاله لأجزاء من الدولتين، مما ساعد في دغدغة مشاعر الشباب المتأسلم في الغرب والدول العربية والإسلاميّة وانضمامهم لدولة الخلافة وإظهار الطاعة العمياء لأمير المؤمنين «البغدادي» !! في ظل ضعف المؤسسات الدينية في العالم الإسلامي – وعلى رأسها الأزهر – وافتقاد خطابها الديني إلى المواجهة لهذا الفكر التكفيري ومفاهيمه المغلوطة في مصطلحاته الخاصة بـ«الجهاد» والقتال في سبيل الله والولاء والبراء والموقف من الأقليات.. كما أن هناك كثير من السلفيين والذين يصفون أنفسهم بالمعتدلين والوسطيين ونبذهم للعنف لم يستطيعوا النظر إلى «تنظيم داعش» وغيره من التنظيمات التكفيرية بمنظار التطرف ، وتجاوز الحد والتشدد في الإسلام إلى درجة تكفير المسلمين، بل هم في نظرهم لا يستحقون التكفير فهم بُغاة متأولون ولديهم شبهة في التأويل والتفسير، ومن ثم لا يصح أن يحاربهم «التحالف الدولي الغربي» لأنهم مسلمون!!.

ولعل من الأهمية بمكان أن نستعرض الكتاب «التكفيريون من الخوارج إلى داعش» من خلال مباحثه الثلاثة.. ففي المبحث الأول : ناقشنا الفرق والجماعات والتنظيمات في عصر الإسلام الأول وقضية تكفير المسلمين.. ففي المطلب الأول : تكلمنا عن الخوارج وأصلهم وعقيدتهم وظروف نشأتهم وفرقهم وصراعهم مع الإمام عليّ وقضية إكفارهم للمسلمين والمخالفين في الرأي وأظهرنا تناقضاتهم وتشددهم المقيت ، وطرحنا في المطلب الثاني : قضية الشيعة وأصلهم في اللغة

والاصطلاح وفرقتهم ونشأتهم، وناقشنا الجدل حول دور عبد الله بن سبأ وتكفيرهم للفرق الأخرى وتكفير الفرق الأخرى لهم، وتكلمنا في المطلب الثالث عن المعتزلة، وأصول النشأة والتكوين وأصولهم الخمسة في العقيدة وتكفيرهم للفرق الأخرى وما أصابهم من تكفير رغم تفردهم بالجانب العقلي في التاريخ الإسلامي، وناقشنا في المطلب الرابع الأشاعرة أصل النشأة وعقائدهم وتكفيرهم لغيرهم وتكفير ابن حزم الظاهري لهم رغم أنهم يمثلون جمهرة المسلمين.. وعرّجنا في المبحث الثاني : والذي تحدثنا فيه عن الفرق والجماعات والتنظيمات في العصر الحديث والمعاصر وقضية العنف التكفيري .. فناقشنا في المطلب الأول منه : السلفية الوهابية وأصل نشأتهم وتعاضد الوهابيين مع آل سعود في إنشاء المملكة وقضية تكفيرهم واتساع رقعة التكفير لديهم وتشدد ابن عبد الوهاب في العقيدة.. وانتقلنا في المطلب الثاني لمناقشة مفهوم السلفية وتعددها وحقيقتها وتصلبها وتأثرها بفتاوى ابن تيمية وابن حنبل وتكفيرها للفرق الأخرى الإسلاميّة، وتكلمنا في المطلب الثالث عن الإخوان المسلمين ومراحل تطورهم، ودورهم في التاريخ السياسي في مصر منذ نشأتهم على يد حسن البنا وحتى الآن ودور سيد قطب «التكفيري» في تاريخ الإخوان، وظهور العنف التكفيري من خلال الجهاز الخاص منذ نشأتهم وصراعهم مع الأنظمة السياسية قبل ثورة يوليو عام١٩٥٢ وبعدها في عهد عبد الناصر والسادات ومبارك وحقيقة دورهم في ٢٥ يناير ٢٠١١ ووصولهم إلى سُدة الحكم في يونيو ٢٠١٢ والثورة عليهم بعد خروج الملايين من المصريين في ٣٠ يونيو ٢٠١٣، وما حدث في مصر في عهد الإخوان من تغييرات اقتصادية واجتماعية.. وما حدث من الإخوان بعد انزياحهم من السلطة واقترابهم من الجماعات التكفيرية في سيناء، وتكلمنا في المطلب الرابع: عن جماعة الفنية العسكرية ومؤسسها وعقيدتها في التكفير والانقلابات العسكرية لتغيير نظم الحكم وما قامت به الجماعة من محاولة الانقلاب الفاشلة على نظام السَّادات عام ١٩٧٤ .. وتكلمنا في المطلب الخامس عن التكفير والهجرة و«الشكريون» وأصل النشأة والمؤسس ومنهجه التكفيري ومحاكمتهم بعد قيامهم بقتل الشيخ الذهبي ،وتكلمنا في المطلب السادس عن جماعة «الجهاد» وأصلها ومؤسسها ومنهجها التكفيري ودورها والجماعة الإسلامية في اغتيال السَّادات في ٦ أكتوبر عام ١٩٨١ وأصولها التكفيرية وعقيدتها.. كما تكلمنا في المطلب السابع عن

الجماعة الإسلامية وأصولها ومراجعات التكفير وما حدث لهذه المراجعات إبان حكم الإخوان وبعد زوال حكمهم.. وعرجنا في المطلب الثامن على تنظيم القاعدة ومؤسسه ، ودور أمريكا في تنظيمه ومواقفه التكفيرية وتحوله إلى شبكة فاقت موضوع التنظيم.. وناقشنا في المطلب التاسع موضوع تنظيم داعش وأصل تكوينه وأميره «البغدادي» ، ومنهجه في التكفير الشامل مع قطع الرؤوس وحرق المسلمين (الكفار)، وسبي النساء، والاتجار في حريم خليفة المسلمين، والإرهاب ، والعنف التوحشي لداعش، والتحالف الغربي لحربه، والمنهج العسكري والاستراتيجي لداعش.. وانتقلنا إلى المبحث الثالث وناقشنا في مطالبه الأربعة ظاهرة التكفير وأصل التكفير في اللغة والشرع والاصطلاح وأنواعه ودرجاته، وذهنية المكفّرين وسماتهم، وموقف الإسلام من التكفير ، والتحذير من الوقوع في هاوية التكفير، وآثاره الخطيرة على الأفراد والمجتمعات والأوطان... فما كان يعنينا من البحث والاستقصاء سوى تتبع الفرق والجماعات والأحزاب والتنظيمات الإسلامية منذ ظهور الخوارج وحتى داعش، والبحث عن أصولها وعقائدها ، وذهنية التكفير والمكفرين، ومنهج هذه الفرق في الإقصاء لمعرفة ظروف النشأة ووجود ناظم مشترك منذ العصور الأولى في الإسلام وحتى عصرنا الحديث والمعاصر أيضا.. فقد كانت هذه «الفرق» و«الجماعات» كالبثور المتقيحة على الوجه الإسلامي المضيء، فأوحشته وأظهرته بشكله القبيح، وأعطت للغرب والناقمين على الإسلام فرصة بإظهاره بصورة متوحشة إرهابية، وأنه دين تكفيري، ودين إرهابي متوحش، فأضرته ضررًا بليغًا، وهي تعتقد بتطرفها الفجّ، وتشددها المقيت، وتفسيراتها النصوصية الضيقة والمنغلقة أنها تحسن إلى الإسلام، وتظهره بشكله الصحيح!! وهذا لعمري «هراء ممجوج»، و«تزييف للإسلام وتاريخه» بشكل ينم عن جهل وضيق في الأفق وتعصب مزري.

ولعل القارئ يتصور أن الكتابة عن الفرق والجماعات والأحزاب والتنظيمات الإسلاميّة للبحث في ذهنيتها التكفيرية وظروف نشأتها منذ الخوارج القدامى، وحتى الخوارج الجدد «داعش وشقيقاتها» يكون من قبيل الترف الثقافي أو السهولة بمكان، وإنما نؤكد على صعوبة الأمر لدراسة الفروق بين هذه الفرق والتشابهات بينها ، والقواسم المشتركة بينها أمر فيه صعوبة لكثرة الآراء وتعددها بين منافح عنها وناقم عليها.

والحقيقة التي لا مراء فيها أنه رغم الصعوبة والعسر كانت لدينا رغبة لكشف ما غمض منها وتوضيح ما أبهم وتجلية ما التبس على الناس من هذه الفرق، حيث اعتمدنا على المنهج التحليلي والتاريخي والاستقصائي وعقد المقارنات، واعتماد الأسلوب الجدلي في فهم جذور النشأة وبواكير التكفير في هذه الفرق...

فقد كان هدفنا أن نجلي الحقيقة ما استطعنا إلى ذلك سبيلا رغم الجهد الجهيد والبحث المضني، والاستقصاء المرهق والذي جعلنا ندرس ونقرأ ونطلع لمدة تجاوزت العام دون كلل أو ملل رغم ما مررنا به من أزمات لم تكن في الحسبان.. وحسبي أني اجتهدت قدر الطاقة والوسع، وحسبي – أيضًا –أنني توجهت بوجهي شطر رب العالمين مقصدي وغاية أملي فيما أكتب أو أجتهد.. فهو دائما نعم المولى ونعم النصير..

نجاح العشري

المنصورة

الجمعة

٥ اغسطس ٢٠١٦م

غرة ذي القعدة ١٤٣٧ هـ

المبحث الأول

الفرق والجماعات والتنظيمات الإسلاميّة في الإسلام الأول.. وقضية إكفار المسلمين

المطلب الأول : الخوارج.. وبواكير تكفير المسلمين والمخالفين في الرأي.

المطلب الثاني: الشيعة .. وقضية التكفير «المعكوس»

المطلب الثالث: المعتزلة.. وإشكالية التكفير

المطلب الرابع : الأشاعرة.. وإشكالية الإقصاء والتكفير

المطلب الأول

الخوارج.. وبواكير تكفير المسلمين والمخالفين في الرأي

⌑ ⌑ ⌑ ⌑

الخوارج لغة: خَرَجَ خُروجًا ومَخْرجًا، والمخرج أيضًا موضعُهُ وبالضمِّ: مصدرُ أخرجهُ واسم المفعول واسم المكان الخَرْجُ: الإتاوة كالخراج.. والخارجي: من يَسُودُ بنفْسِهِ من غير أن يكون لهُ قديم.[1]

قال كثير:

أبا مَرْوان لسْتَ بخارجيّ

وليس قديمُ مجدك بانتحال

وفي لسان العرب: الخروج: نقيض الدخول .:خرج يخرج خُروجًا ومخْرجًا، فهو خارج وخروج وخرَّاج، والخروج: خروج الأديب والسائق ونحوهما وخَرجت خوارجُ فلان إذا ظهرت نجابتهُ وتوجه لإبرام الأمور وإحكامها.

والخوارج: الحَرُوريَّة والخَارجيَّة: طائفة منهم لزمهم هذا الاسمُ لخروجهم عن الناس.. التهذيب: والخَوارجُ: قوم من أهل الأهواء لهم مقالةٌ على حِدة..[2]

والخوارج جمع تكسير مفرده «الخارج» والخارج اسم فاعل أي الذي أحدث الخروج إلاّ إذا كان مسبوقًا بالدخول تقول: خرج فلان من المنزل، أي أنه كان حالًا في المنزل ثم خرج منه، وخرج فلان من معتقد الشرك إلى معتقد الإيمان، أي أنه كان يتحرك داخل دائرة الاعتقاد بتعدد الآلهة، ومن ثمّ خرج منها إلى التصديق القلبي «الجازم» الذي لا يعتوره أي شك أو ريبة بوحدانية الله في «الذات» و«الصفات» و«الأفعال» والربوبيّة والإلوهية. والخروج -كما سلف- نقيض الدخول لا يجتمعان معا ولا يرتفعان معًا -كما يقول المناطقة- فإما أن يكون «المرء» داخل حجرة الدراسة

(١) مجد الدين محمد بن يعقوب الفيروزآبادي: القاموس المحيط – دار الحديث ص ٤٥١.

(٢) لسان العرب لابن منظور – المجلد الثالث – دار الحديث ص ٥٤.

أو خارجها، ولا يمكن أن يكون داخلها وخارجها في آن واحد يقول الله تعالى : ﴿اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ ۖ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ النُّورِ﴾ (البقرة : ٢٥٧) ، أي أنه تعالى ناصرهم ومؤيدهم ومخرجهم من ظلمات الجهالة والشرك إلى نور العلم والتوحيد.(١)

ومن الملاحظ إن مشتقات الفعل خرج – كما يذكر محمد الأنور عيسى – تتعدد ويعطي كل مشتق معاني كثيرة، ومن المشتقات لفظة «الخروج» ، وهذه اللفظة يتسع مفهومها ليشمل الزمان والمكان والمعتقد والمنهج والقيم.. إلخ، ويضيق المفهوم قليلا لتكون ما صدقاته كل من خرج على إمام أو قائد أجمعت الأمة على إمامته أو قيادته بمعنى أن الأمة اختارت إماما أو قائدًا عن طريق الحِل والعقد وبايعه الجميع أو جاء الإمام أو القائد عن طريق الشُورى أو الاختيار الحر الصحيح من الأفراد والأحزاب «الجادة» كما هو معمول به في الأنظمة الديمقراطيّة (الحديثة) ثم رأت جماعة بعد انعقاد الإجماع الذي شملهم منذ البدء أن تخرج على هذا الإجماع وترفض الانصياع لأوامر الإمام أو القائد (أو الحاكم أو الرئيس أو الخليفة أو السلطان أو الملك .. إلخ) ، فهذه الجماعة تسمى بالخوارج.(٢)

الخوارج اصطلاحًا : من المصطلحات والتي أثارت جدلا حول تحريرها أو تقييدها بفترة تاريخية – خلال العصر الأول الإسلامي – كان اصطلاح «الخوارج» ، حيث ثار الخلاف بين المؤرخين القدامى وأصحاب المقالات ومؤرخي الفرق الإسلامية، وأيضًا بين المؤرخين المحدثين ، كما أن الأمر حدث في تعدد إطلاق أسماء ومصطلحات جديدة على «الخوارج».. فمن الخارجي الذي اشتق من خروجه للجهاد في سبيل الله من قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ مُهَاجِرًا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكْهُ الْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ﴾(النساء: ١٠٠) .(٣)

---

(١) محمد الأنور حامد عيسى : الخوارج بين الأمس واليوم.. مكتبة الإيمان للطباعة والنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، ١٤٣٢هـ/ ٢٠١١م ص١٦.

(٢) محمد الأنور حامد عيسى : مرجع سابق ذكره ص ١٧.

(٣) سهير لطفي (تحرير) : المتشددون المحدثون ، دراسة لحركات إسلامية معاصرة، دراسة بعنوان: الخوارج نشأتهم ، نشاطهم ، عقائدهم، مجال انتشارهم، خصائصهم، جولتهم بمصر، لإبراهيم الفحام ، الهيئة المصرية العامة للكتاب، الجزء الأول، ٢٠١٣، ص٢٢٢.

إلى مفهوم الخوارج في التاريخ وهم الذين خرجوا على أمير المؤمنين علي بن أبي طالب (٢٣ق.هـ - ٤٠ هـ-٦٠٠-٦٦١م) في واقعة صفين (٣٧هـ/ ٦٥٧م) بعد قبول التحكيم، وفيهم يقول رسول الله ﷺ: «إنّ بَعْدي من أمتي قوم يقرءون القرآن لا يجاوز حلاقيهم يخرجون من الدين كما يخرج السهم من الرمْيّة ثم لا يعودون فيه هم شر الخلق والخليقة». [1]

ومن ثمّ.. ساد مصطلح «الخوارج» لكل من خرج على الإمام الحق الذي اتفقت عليه الجماعة يسمى «خارجيا» سواء كان هذا الخروج في أيام الصحابة على «الأئمة الراشدين» أو كان خروجهم على التابعين بعد الصحابة والأئمة في كل زمان.

غير أننا نستطيع أن نقول في هذا الصدد أنه يعود الفضل في تسيد هذا المصطلح وإضفاء الطابع المطلق عليه لمحمد بن الكريم الشهرستاني (٤٧٩-٥٤٨هـ/ ١٠٨٦-١١٥٣م) حيث ذكر في تعريفه لمصطلح الخوارج بأنهم: «كل من خرج على الإمام الحق الذي اتفقت الجماعة عليه يسمى خارجيا سواء كان الخروج في أيام الصحابة على الأئمة الراشدين أو كان بعدهم على التابعين بإحسان في كل زمان». [2]

وقد سايره المؤرخين والمفكرين والباحثين الإسلاميين في كل العصور والأزمان التالية.

وكما حدث تعدد الرؤى في اصطلاح الخوارج والنظر إليه من خلال الموقف التاريخي وحدث التحكيم أو النظر إليه في موقفه العام لمن يخرج على كل حاكم في أي عصر أو في أي مكان، فإنه أيضًا تعددت المسميات الخاصة بالخوارج فأطلق عليهم:

١-المحكّمة: نسبة إلى قولهم : «لا حكم إلا لله»، فالمحكمة الأولى من الخوارج وهم الذين خرجوا على أمير المؤمنين علي بن أبي طالب في صفين، والذين قالوا له لما حكم الحكمين: «إن كنت تعلم أنك الإمام حقًا فلم رضيت بحكميهما وإن كنت تعلم أنك الإمام حقًا فلم أمرتنا بالمحاربة» ، ثم انفصلوا عن علي لهذا السبب، وكفروا عليا ومعاوية. [3]

---

(١) د. عبد المنعم الحفني: موسوعة الفرق والجماعات والمذاهب والأحزاب والحركات الإسلاميّة مكتبة مدبولي، الطبعة الثالثة ، ٢٠٠٥، ص٣٤٨.

(٢) أبو الفتح محمد بن عبد الكريم الشهرستاني : الملل والنِّحل، تقديم وتحقيق: الدكتور أحمد حجازي السقا، محمد رضوان مهنا، مكتبة جزيرة الورد، الطبعة الأولى ١٤٢٧هـ ، ٢٠٠٦م، ص٩٨.

(٣) عامر النجار: في مذاهب الإسلاميين (الخوارج – الإباضية – الشيعة) ، الهيئة المصرية العامة للكتاب عام ٢٠٠٥، ص٦٧.

٢- **الشراة**: جمع شار ، وهم كما يقولون عن أنفسهم الذين قصدهم الله تعالى بقوله : ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَىٰ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ ۚ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ﴾(التوبة : ١١١)، أما غيرهم فيفسرون الأمر بأن الشاري اسم فاعَل من شَرَى الشّر إذا استطار وزاد وتفاقم، ويقال أيضًا: شرى الرجل إذا غضب ولَج في الخصومة وغيرها. [(١)]

٣-**الحرورية**: فإنهم جماعة من المحاربة ينتمون إلى بني تميم بوجه خاص، حيث اعترضوا بشدة على قضية التحكيم (تحكيم الرجال) بدلا من تحكيم كتاب الله، وإذ رفعوا أصواتهم محتجين بأن «لا حكم إلا لله»، وتركوا الجيش وانسحبوا إلى قرية «حَرَوْرَاء» التي لا تبعد عن الكوفة[(٢)] ، وانتخبوا لزعامتهم جنديا مغمورًا هو عبد الله ابن وهب الراسبي. [(٣)]

٤-**النواصب**: جمع ناصبي وهو الغالي في بغض الرجل الرباني علي بن أبي طالب وكراهيته وإكفاره.

٥-**المستعرضة**: نسبة لاعتراضهم المخالفين لهم في الرأي ، وقتلهم إياهم غيلة، كما كان يعرف بالاستعراض[(٤)] ، وهو ما حدث مع عبد الله بن خباب بن الأرت.

---

(١) عبد المنعم الحفني: مرجع سابق ذكره، ص٦٧.

(٢) الموسوعة الإسلامية الميسرة : تحرير هـ. ا. ر. جب و ج. هـ كالمزر ترجمة د. راشد البراوي، الجزء الأول ، الهيئة المصرية العامة للكتاب، عام ٢٠١٣ ص ٣٥٥.

(٣) عبد الله بن وهب الراسبي هو أول من أمره الخوارج عليهم أول ما اعتزلوا بايعوه زعيمًا عليهم لعشرة بقين من شوال سنة ٣٧ هـ ، وجعلوا أمير قتالهم شبث بن ربْعى التميمي (الذي له دور في تجميع الخوارج وتوحيد كلمتهم)، وقد كان ابن وهب قد امتنع عليهم وأومأ إلى غيره، فلم يقنعوا إلا به، فكان إمام القوم، وكان يوصف بالرأي ، وقُتل مع أصحابه لسبع من صفر سنة ٣٨هجرية، انظر: الفرق بين الفرق لأبي منصور عبد القاهر بن طاهر بن محمد البغدادي، دار الطلائع ٢٠٠٩، ص٦٣، تحقيق: محمد محيى الدين عبد الحميد..

(٤) المتشددون المحدثون: مرجع سابق ذكره ، ص ٢٢٢.

١-جذور الخوارج وتأصيل النشأة

⌑ ⌑ ⌑ ⌑

اختلف المؤرخون والمستشرقون في أصل الخوارج ومعرفة أرومتهم، فذهب برونو Brunnow إلى أنهم من البدو أو العرب البدو الذين سكنوا الكوفة والبصرة بعد الفتوحات الأولى. وقال فيلهوزن: «إنهم أهل الردة وهم العرب البدو الذين ثاروا بعد رسول الله ﷺ على الحكومات الإسلامية الأولى (أي ثورة القبائل أو المرتدين في رأي آخر)»، ثم يقول: «ولا شيء يدل على أن قدماء الخوارج الذين يسكنون الكوفة والبصرة كانوا يختلفون من هذه الناحية عن سائر أهل الكوفة والبصرة».. وإنما يكون «برونو» على صواب لو أنه أراد أن يقول: إن الخوارج لم يكونوا من قريش ولا ثقيف ولا الأنصار بل من قبائل أقل أهمية من حيث المكانة السياسية اندمجت في الإسلام وخصوصًا بعد حرب الردة، وأقامت في الكوفة والبصرة. (١)

ويرى عمر أبو النصر أنه : «ليس هناك من اختلاف بين ما ذهب إليه (برونو) و(فيلهوزن) لأن الواقع أن سكان البصرة والكوفة كانوا بأكثريتهم من العرب البدو الذين اشتركوا في الحروب الفارسية، ونقلوا معهم إلى المدينتين العربيتين الجديدتين جميع الفضائل والمساوئ التي ينعم بها البدو خصوصًا ما يتعلق بالتعصب للقبيلة والحياة الاجتماعية الخاصة ، والنظر إلى الحكومية الجديدة نظرة فيها كثير من الجفاء وعدم التأييد والمبالاة ، مفضلين عليها أنظمتهم العربية الشديدة من زعماء شيوخهم.»(٢)

ولم يشأ المؤرخون والباحثون العرب في التاريخ الإسلامي أن يتوقفوا عند النشأة التاريخية للخوارج بعد واقعة صفين (*) وما أثارته من جدل حول التحكيم، فأصروا

(١) د. محمد إبراهيم الفيومي: الفرق الإسلامية وحق الأمة السياسي، دار الشروق ، ١٤١٩هـ، ١٩٩٨، الطبعة الأولى، ص ٧٦ ، ٧٧.

(٢) عمر أبو النصر : الخوارج في الإسلام، مكتبة المعارف ، بيروت ، عام ١٩٤٩، ص ١٤ ، ١٥.

(*) صفين : بوزن سكين ، موضع بقرب الرقة في شمالي سورية على شاطئ الفرات، كانت بها الحرب التي =

على تأصيل ظاهرة «الخوارج» إلى أبعد من ذلك أيام الرسول الكريم، وقد اعتمدوا على عدة روايات كلها تنويعات على موضوع تأصيلي واحد وهي:

الرواية الأولى : عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: «بينما نحن عند رسول الله ﷺ وهو يقسم قسمًا أتاه ذو الخويصرة وهو رجل من بني تميم، فقال: يا رسول الله اعدل، قال رسول الله ﷺ: «ويلك! ومن يعدل إن لم أعدل؟! فقد خِبتُ وخَسِرْتُ إن لم أعدل»، فقال عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه: يا رسول الله ائذن لي فيه أضرب عنقه ، قال رسول الله ﷺ: «دعه فإن له أصحابًا يحقر أحدكم صلاته مع صلاتهم وصيامه مع صيامهم ، يقرؤون القرآن لا يجاوز تراقيهم، يمرقون من الإسلام كما يمرق السهم من الرمية».[1]

الرواية الثانية: وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: بعث علي رضي الله عنه وهو باليمن بذُهبية[2] في تربتها إلى رسول الله ﷺ، فقسمها رسول الله ﷺ بين أربعة نفر: الأقرع بن حابس الحنظلي وعيينة بن بدر الفذاري وعلقمة بن علاثة العامري، ثم أحد بني كلاب وزيد الخير الطائي، ثم أحد بني نبهان. قال: فغضبت قريش والأنصار، فقالوا: أيعطي صناديد نجد ويدعنا؟ فقال رسول الله ﷺ: «إني إنما فعلت ذلك لأتألَّفهم».[3] فأقبل رجل كث اللحية مشرف الوجنتين غائر العينين ناتئ الجبين محلوق الرأس فقال: اتق الله يا محمد قال: فقال رسول الله ﷺ: «فمن يطع الله إن عصيته؟! أيأمنني على أهل الأرض ولا تأمنوني؟!» قال: ثم دبر الرجل فاستأذن رجل من القوم في قتله – يرون أنه خالد بن الوليد – فقال رسول الله ﷺ: «إن من

=

ثارت عجاجتها بين علي بن أبي طالب ومعاوية بن أبي سفيان (٢٠ ق هـ - ٦٠ هـ = ٦٠٣-٦٨٠م)، وقد ألفت في هذه الحرب مؤلفات خاصة منها «وقعة صفين» لنصر بن مزاحم المنقري المتوفي في ٢١٢، انظر الفرق بين الفرق للبغدادي، ص٢٢.

(١) جزء من حديث أخرجه البخاري (٣١٦٣) ومسلم (١٠٦٤)، وأحمد في المسند (٣ : ٥٦) والنسائي في خصائص عليّ (١٧٥)، وانظر : المتطرفون: تأليف د. عمر عبد الله كامل، مكتبة التراث، الطبعة الأولى، ١٤١٩هـ، ١٩٩٨م، ص٣٢.

(٢) الذُهبية: تصغير الذهب أو القطعة من الذهب.

(٣) التألف: أستميلهم إلى الإسلام بما يحبونه من المال حتى يتم تفهمهم له.

ضِئْضِئ[1] هذا قومًا يقرؤون القرآن لا يجاوز حناجرهم يقتلون أهل الإسلام ويدعون أهل الأوثان يمرقون من الإسلام كما يمرق السهم من الرمية لئن أدركتهم لأقتلنهم قتل عاد» .[2]

الرواية الثالثة : وعن أبي برزة الأسلمي رضي الله تعالى عنه أنه قيل له: هل سمعت رسول الله ﷺ يذكر الخوارج؟ فقال: نعم سمعت رسول الله ﷺ بأذني ورأيته بعيني أُتي رسول الله بمال فقسمه فأعطى من على يمينه ومن على شماله، ولم يعط من وراءه شيئًا، فقام رجل من ورائه فقال: يا محمد ما عدلت في القسمة – رجل أسود مطمور الشعر (كثيره والطمرُّ الشيء الكثير) عليه ثوبان أبيضان – فغضب رسول الله ﷺ غضبًا شديدًا، وقال: «والله لا تجدون بعدي رجلًا هو أعدل مني» ، ثم قال: «يخرج في آخر الزمان قوم كأن هذا منهم يقرؤون القرآن لا يجاوز تراقيهم يمرقون من الإسلام كما يمرق السهم من الرمية، سيماهم التحليق، لا يزالون يخرجون حتى يخرج آخرهم مع المسيح الدجال، فإذا لقيتموهم فاقتلوهم هم شر الخلق والخليقة» .[3]

الرواية الرابعة: وعن أبي بكرة رضي الله عنه: أن النبي ﷺ مرَّ برجل ساجد وهو ينطلق إلى الصلاة، فقضى الصلاة ورجع عليه وهو ساجد، فقام النبي ﷺ فقال: «من يقتل هذا؟ فقام رجل فحسر عن يديه فاخترط سيفه وهزه وقال: يا نبي الله بأبي أنت وأمي كيف أقتل رجلًا ساجدًا يشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدًا عبده ورسوله؟! ثم قال: من يقتل هذا؟ فقام رجل فقال: أنا، فحسر عن ذراعيه واخترط سيفه فهزه حتى أرعدت يداه فقال: يا نبي الله كيف أقتل رجلًا ساجدًا يشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدًا عبده ورسوله؟! فقال النبي ﷺ: «والذي نفس محمد بيده لو قتلتموه لكان أول فتنة وآخرها».[4]

---

(١) الضئضئ : بالهمز الأصل والمراد: يخرج من صلبه ونسله.

(٢) أخرجه البخاري : (٣٣٤٤) ومسلم (١٠٦٤-١٤٣) ، واللفظ له وأبو داود (٤٧٦٤) والنسائي في المجتبى (٥/ ٨٧)، وأحمد في المسند (٣/ ٦٨، ٧٣، ١٦٦، ٢٧٥)، وانظر: عامر النجار: في مذاهب الإسلاميين، الهيئة المصرية العام للكتاب، ص٥٢ ، ٥٣، وأيضًا : المتطرفون، ص٣٤.

(٣) ضعيف، رواه النسائي في المجتبى (٤١٠٣) ، وقال: شريك ابن شهاب ليس بذلك المشهور، انظر: المتطرفون ، ص٣٥.

(٤) أخرجه أحمد في المسند (٥/ ٤٢/ ٤٣)، وابن أبي عاصم في السنة رقم (٩٣٨) ، والطبراني، وقال الهيثمي: في =

هذا غيض من فيض من المرويات في هذا الصدد والمتراوحة بين الصحيح من الأحاديث وبين الضعيف منها ، غير أن الأمر به عدة دلالات نطرحها في التالي:

الدلالة الأولى: أن هناك ثمة اتفاق بين العديد من المؤرخين والباحثين أن أصل الخوارج ينتمي إلى شخصية «ذو الخويصرة» والذي ينتمي إلى قبيلة تميم وهو أعرابي جهول يخرج من ضئضئه قوم على شاكلته وهو بما يوحى سمته بأنه «كث اللحية غائر العينين ناتئ الجبين» بشكله الفظ وغلظة صفاته كما هو ظاهر من نصوص الأحاديث المروية في هذا المضمار.

الدلالة الثانية: أن ما ذكره الرسول بهذه الأحاديث يعتبره العديد من الباحثين أنها من قبيل «النبوة» لما سيجري على أيدي المسلمين من فرقة الخوارج في مستقبلهم وأنه في نظر الآخرين من قبيل «الإعجاز النبوي» وإعجاز السنة في إخبار النبي ﷺ عن الخوارج والإشارة والتلميح إليهم وعلاماتهم.[1] بينما نرى الأمر يمكن وضعه في إطار «التوقع النبوي» أو «الاحتمال الوارد» من النبي لوقوع الحوادث على غرار ما وحتى لا يصطدم «التنبؤ» مع القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿وَعِندَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ﴾.

الدلالة الثالثة: أن الإمام عليّ بن أبي طالب قاتل الخوارج وأمامه الحجة والدليل على أنهم المقصودون بالأحاديث النبوية وأن السنة (الصحيحة) قد تحدثت عن الخوارج وصفاتهم وسمات شخصياتهم، وأن مناقشة علي معهم وحواره وابتعاث ابن عباس وغيره لمناقشتهم وحواره لعودتهم بينت صدق الأحاديث عنهم بشكل واضح وجليّ.

=

مجمع الزوائد (٦/ ٢٢٨) رجال أحمد ، رجال الصحيح، وانظر أيضا: المتطرفون ص٣٦.

(١) عامر النجار: في مذاهب الإسلاميين ، ص٥١.

(٢) الظروف الموضوعية لانبثاق الخوارج وعقلهم التكفيري

⌑ ⌑ ⌑ ⌑

ليس ثمة شك أنّ الناس قد اختلفوا بعد النبي ﷺ في أشياء كثيرة «ضلل بعضهم بعضا، وبريء بعضهم من بعض»، فصاروا فرقًا متباينين وأحزابا مشتتين إلّا أن الإسلام يجمعهم كما يذكر أبو الحسن الأشعري (٢٦٠-٣٢٤هـ = ٨٧٤-٩٣٦م)، ويشتمل عليهم.

وغني عن البيان أن أول اختلاف حدث بين المسلمين – بعد نبيهم –اختلافهم في الإمامة، فالفرق والحركات وكثير من المذاهب – كما يقول محمد سعيد العشماوي (١٩٣٢-٢٠١٣) نشأت في الإسلام نتيجة للسياسة وأثرًا للتحزب ، وكان المحرك لها جميعًا منصب الخليفة أو مركز الخلافة – فالمؤيدون لفريق في جانب والمعارضون لفريق في جانب آخر وبين الاثنين جماعة ثالثة، وهكذا توالي التاريخ والحركة الأساسية له تكمن في الخلافة الإسلامية.(١)

ولا يظنن أحد أن الخلاف بين الأحزاب والفرق حول مسألة «الخلافة أو الإمامة» كان خلافًا دينيًا بحتًا، ولكنه خلافا سياسيًا أيضًا، فقد ابتدأت الأحزاب بداية سياسية تنزع منزعًا سياسيًا، ولكن طبيعة السياسة الإسلامية ذات صلة بالدين وهو قوامها ولبها، كما يذكر محمد أبو زهرة (١٨٩٨ – ١٩٧٤)، ولذلك كانت المذاهب السياسية التي نشأت تحوم مبادئها حول الدين فتقترب منه أحيانًا، وتبتعد عنه أحيانًا بتخريجات فيها انحرافات عن مبادئه، وأن المذاهب السياسية ذاتها في اتجاهاتها تعرضت لبحوث أخرى تتعلق بأصول الدين حول الإيمان والاعتقاد ، فكان لها رأي قائم بذاته في الاعتقاد والإيمان، ولم تقف عند حد الاعتقاد، بل تجاوزته إلى آراء في الفروع، فكان للمذاهب السياسية «الإسلامية» بحوث كاملة في الفروع إذ تجد أن المذهب السياسي معه آراء في الاعتقاد ومذهب منتهي في الفروع لعله أبقى أثرا في التاريخ من «المذهب السياسي»، فالخوارج لهم بجوار آرائهم السياسية آراء في الاعتقاد والإيمان، ولعل

---

(١) محمد سعيد العشماوي: الخلافة الإسلامية، مكتبة مدبولي الصغير، الطبعة الثالثة ، ١٤١٦هـ، ١٩٩٦م، ص١٩٩.

تفاعل هذين النوعين من الآراء هو الذي أوجد الفرقة في شدتها وعنفها.[1]

ومن ثمّ، يرتبط ظهور الخوارج – كحزب سياسي – بقضية الإمامة أو الخلافة وهي قضية أثارت من الجدل والخلاف بين القدماء والمحدثين وأثارت كثيرًا من الصراع الدموي بين المسلمين أحدث صدعًا وفتقًا في كيان الأمة الإسلامية – كما يذكر محمود إسماعيل – ذلك الصدع الذي عرف في أدبيات الفكر الإسلامي بـ«الفتنة الكبرى»، وما أسفر عنها من مصرع الخليفة الثالث عثمان بن عفان (٤٧ ق. هـ – ٣٥هـ = ٥٧٧ – ٦٥٦م) وافتراق الجماعة الإسلامية – بعد ذلك – إلى شيع وأحزاب وفرق متناحرة.[2]

ونستطيع أن نقول: إن «ظاهرة الخوارج» والتي انبثقت من الصراعات على مسألة الخلافة وما ظهر منها من فكر «تثويري» ، وخروج على الإمام، والثورة عليه، وما ظهر من فكرهم «التكفيري» للمسلمين والمخالفين لهم في الرأي ، وما بدا من أيديولوجيتهم السياسيّة والدينية، والتي سوف نشرحها باستفاضة في أوراقنا التالية نؤكد أولًا: أن هذه «الظاهرة» لا تنشأ اعتباطًا أو تبدو معلقة في «فراغ»، وإنما الفكر له جدلية في واقعه، وأن هناك ثمة ظروف موضوعية مهدت لهذه الظاهرة بجانبها «الثوري» و«التكفيري»، والذي يحوي تناقضا كتناقض المفرز للظاهرة!!

ففي حقيقة الأمر أنّ السنوات الأخيرة في حياة عثمان أحدثت تغييرات كثيرة في عمق الوضع الاجتماعي والاقتصادي والسياسي وإثارة النعرات القديمة، وظهورها على سطح الأحداث، كما أن إدارته للبلاد وسياسته الاقتصادية والمالية أحدثت انقلابًا كبيرًا في الوضع الإسلامي حيث ورث الإمام علي هذه التناقضات الاقتصادية والاجتماعية، والتي اكتست طابعًا دينيًا، والتي أدت هذه التناقضات إلى ظهور الخوارج كتعبير وتجسيد لها من خلال مشكلة الإمامة.[3]

---

(١) محمد أبو زهرة: تاريخ المذاهب الإسلامية في السياسة والعقائد وتاريخ المذاهب الفقهية، دار الفكر العربي، عام ١٩٩٦، ص٣١.

(٢) محمود إسماعيل: الحركات السريّة في الإسلام، رؤية للنشر والتوزيع، الطبعة السادسة، ٢٠٠٦، ص٢٤.

(٣) محمود إسماعيل: مرجع سابق ذكره، ص٢٨.

وقد مثلت أول هذه الأمور والتي شكلت «الظروف الموضوعية» لانبثاق الخوارج أثر العصبية القبلية في الصراع على السلطة بين علي ومعاوية ، فقد كان التنافس بين الهاشميين والأمويين بعيد الأثر في فهم الأخيرين لمعنى النبوة، ثم تطلعهم بعد ذلك لوراثتها فقد فهموا النبوة على صيغة هاشمية للملك...

وفي هذا يقول عمرو بن هشام بن المغيرة: تنازعنا نحن وبنو عبد مناف الشرف أطعموا فأطعمنا ، وحملوا فحملنا، وأعطوا فأعطينا، حتى إذا تحاذينا على الركب ، وكنا كفرسي رهان قالوا : منا نبي يأتيه الوحي من السماء، فمتى ندرك مثل هذه!

وبعد فتح مكة (سنة ٨هـ)، وقف النبي ﷺ يستعرض جيوش المسلمين بألويتهم لواء إثر لواء، وإلى جانبه وقف أبو سفيان بن حرب شيخ الأمويين مع العباس بن عبد المطلب عم النبي، فقال أبو سفيان للعباس: «لقد أصبح ملك ابن أخيك الغداة عظيما»، فأجاب العباس قائلًا: «إنها النبوة وليس الملك يا أبا سفيان»، فرد أبو سفيان بقوله: «أما هذه (أي النبوة) فما زال في نفسي منها شيء».(١)

وهذا هو رأي أبو سفيان «شيخ الأمويين» بعد أن أعلن إسلامه – كما يذكر العشماوي – وهو رأي ظاهر قاطع بأن النبي في تقديره – ملك أنشأ ملكا وليس نبيا أرسى دعائم الدين ورسخ قواعد الشريعة.(٢)

وحقيقة الأمر: إن بني هاشم وبني أمية يجتمعان في عبد مناف ، ولكن عليا يرد على معاوية بن أبي سفيان (٢٠ق هـ - ٦٠ هـ = ٦٠٣-٦٨٠م) وتذكيره إياه بهذه الحقيقة فيعترف بها ، ولكنه يذكر الفروق فيقول: «وأما قولك أنا بنو عبد مناف! فكذلك نحن، ولكن ليس أمية كهاشم ، ولا حرب كعبد المطلب، ولا أبو سفيان كأبي طالب، فأنا صنائع ربنا ، والناس بعد ذلك صنائع لنا، لم يمنعنا قديم عزتنا ولا عادى طولنا مع قومك أن خلطناكم بأنفسنا فنكحنا وأنكحنا فعل الأكفاء، ولست هناك وأنى يكون ذلك ومنا النبي ومنكم المكذب (المراد أبو سفيان)، ومنا أسد الله (أي حمزة ابن عبد المطلب) ، ومنكم أسد الأحلاف (عتبة بن أبي ربيعة)، ومنا سيدا شباب أهل

---

(١) محمَّد سعيد العشماوي: الخلافة الإسلامية، ص١٦٧.

(٢) محمَّد سعيد العشماوي: مرجع سابق ذكره، ص١٦٨.

الجنة (الحسن والحسين)، ومنكم صبية النار (المراد أولاد مروان بن الحكم) ومنا خير نساء العالمين (فاطمة بنت الرسول)، ومنكم حمالة الحطب (أم جميل بنت حرب) في كثير مما لنا وعليكم، فإن إسلامنا قد سمع وجاهليتنا لا تدفع».[1]

فالرجل الرباني أمير المؤمنين علي بن أبي طالب - كما يقول محمَّد عمارة - يفاخر ببني هاشم لا في الإسلام وبالإسلام وحده بل وبهم في الجاهلية أيضًا، فما بالنا بغيره من غير الربانيين؟![2]

والجدير بالبيان أنه في عهد عثمان بن عفان الأموي (٤٧ق. هـ -٣٥هـ = ٥٧٧ - ٥٦٥م) رجحت كفة الأمويين (وحفت كفة الهاشميين)، وتصرف الأمويين كما أنهم ملكوا رقاب العباد وأموال البلاد وذلك أن عثمان أعاد إلى المدينة عمه الحكم بن أبي العاص [*] الذي كان يسمى طريد النبي لأن النبي قد نفاه من المدينة، ورفض أبو بكر الصديق الخليفة الأول وعمر أمير المؤمنين - خلال خلافتيهما -أن يقبلا شفاعة عثمان فيه، والسماح له بالعودة إلى المدينة، وعين عثمان أقرباء الوليد بن عقبة بن أم معيط[*] واليا على الكوفة وعبد الله بن عامر (ابن خاله) واليا على البصرة، وعبد الله بن

---

(١) محمد عمارة الإسلام وفلسفة الحكم- دار الشروق - الطبعة الثالثة، ٢٠٠٩، ص١٠٤.

(٢) محمد عمارة: مرجع سابق ذكره، ص١٠٥.

(*) بخصوص رد عثمان الحكم بن أبي العاص إلى المدينة بعد أن نفاه الرسول ﷺ، فقد طعن ابن تيمية (٦٦١ - ٧٢٨هـ = ١٢٦٣-١٣٢٨م) في مصادر الخبر لأنه ليس من الصحاح ولا يعرف له إسناد، ويقول: «إذا كان النبي ﷺ قد عزر رجلا بالنفي لم يلزم أن يبقى منفيًا طول الزمان فإن هذا لا يعرف في شيء من الذنوب، ولم تأت الشريعة بذنب يبقى صاحبه منفيًا دائمًا، بل غاية النفي المقدر سنة، وهو نفي الزاني والمخنث حتى يتوب، ومع ما عرف من فضائل عثمان التي تقطع بأنه من أولياء الله المتقين، فإنه كان مجتهدًا في رد من نفاه النبي ﷺ لما تبين له توبته بينما لم يتبين لأبي بكر وعمر توبته، وأنه أقصى ما يمكن أن يتحمل مسؤوليته عثمان هو الخطأ في الاجتهاد، ومع هذا فإن نقل الخبر لا يعرف له إسناد ولا كيف وقع، بل هي تهمة تلقى على عاتق عثمان بواسطة الشيعة ابتغاء الفتنة. انظر للمزيد: منهاج السنة لابن تيمية جـ٣، ص١٩٦، ١٩٧. وانظر أيضًا: مصطفى حلمي في كتابه نظام الخلافة بين أهل السنة والشيعة، دار الدعوة الطبعة الأولى ١٤٠٨هـ - ١٩٨٨م، ص ٨٥.

(*) إن من الانتقادات التي وجهت إلى عثمان توليته للوليد بن عقبة بن أبي معيط رغم ما روى بعض المفسرين أن الله سماه فاسقًا: ﴿ إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا أَنْ تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ ﴾ (الحجرات: ٦) عندما أرسله النبي ﷺ إلى بني المصطلق فأخبر عنهم ارتدادهم، ولكن خالد بن الوليد قد تثبت من الأمر =

أبي السرح (أخيه من الرضاعة) أمر مصر، وزوج مروان بن الحكم (ابن عمه) ابنته، وسلمه خمس غنائم أفريقيا، وأصبح مروان هذا الحاكم الآمر المتصرف في شؤون الدولة[1].

كما أن عثمان أعطى الحكم عمه وأعطى ابنه الحارث ثلثمائة ألف وأعطى عبد الله ابن خالد بن أسيد الأموي ثلثمائة ألف ، وأعطى كل واحد من الذين وفدوا مع عبد الله بن خالد مائة ألف مائة ألف حتى أبى عبد الله بن الأرقم (صاحب بيت المال) أن ينفذ الأمر واستقال من عمله، وأعطى عبد الله بن الأرقم هذا بعد استقالته ثلثمائة ألف فلم يقبلها تورعا وزهدا، وأعطى الزبير بن العوام (٢٨ق.هـ = ٥٩٦-٦٥٦م) ستمائة ألف، وأعطى طلحة بن عبيد الله (٢٨ق.هـ - ٣٦هـ ق = ٥٩٦-٦٥٦م) مائة ألف، وأعطى سعيد بن العاص مائة ألف، وزوج ثلاثًا أو أربعًا من بناته لنفر من قريش، فأعطى كل واحد منهم مائة ألف دينار.[2]

ولم تتوقف الظروف الموضوعية على العصبية القبلية والتي ساهمت في انبثاق الخوارج والصراع على السلطة في عهد الإمام علي وخلافته ، فقد كانت هناك -أيضًا- مصالح اقتصادية ومطامح اجتماعية لعبت دورها كأحد الأسباب في الصراع، والذي دار على السلطة وشؤون الحكم وبخاصة في عهد علي بن أبي طالب ذلك أن عهد عثمان ابن عفان كان قد شهد تغييرًا اجتماعيًا في نظرة الناس إلى الثروة والمال وسعيهم

=

فتبين له بطلان قول الوليد، واختلفت الرواية من ناحية أخرى إذ أنَّ الوليد كان صبيًا يوم الفتح، وعلى هذا فإن من يكون في هذه السن لا يوفد في مهمة كهذه، ولكن انبرى ابن تيمية – كعادته – إلى الدفاع عن عثمان في توليته للوليد بن عقبة، فيرى أنه إذا كان أمره قد خفي عن رسول الله ﷺ فكيف لا يخفى على عثمان، وقد ولاه عثمان بعد أن تاب (من الفسق) لأن باب التوبة مفتوح وإن أقصى ما يقال عن عثمان أنه ولاه مع وجود الأفضل منه ، ولكن عذر عثمان في هذا أنه حين ولاه لم يظهر عليه ما يدل على الفسق – كشرب الخمر – وإن ظهر بعد ولايته وقد أقام عليه الحد في شرب الخمر وتوليته – كما يقول ابن تيمية – كان اجتهادًا من عثمان وميلا لأقاربه مما لا يقدح فيه لأنه ظن أنهم أحق من غيرهم !! انظر: منهاج السنة ، جـ٣، ص١٩٧. وانظر: مصطفى حلمي: نظام الخلافة بين أهل السنة والشيعة، ص٨٩.

(١) الخلافة الإسلامية ، ص١٦٩، وانظر أيضا: د. أحمد إدريس: الفكر السياسي في الإسلام، وجهة نظر أخرى، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ٢٠١١، ص٥٣.

(٢) طه حسين: الفتنة الكبرى ، عثمان ، دار المعارف، ص١٩٣.

الحثيث لتحصيلها من كل سبيل، وقد شهد هذا العهد – أيضًا –تغييرًا في الفكر الذي يحكم موقف السلطة من مال الدولة العام ، فبعد أن كان التحرج الشديد هو الذي سيطر على موقف أبي بكر الصديق (٥١ق.هـ - ١٣ هـ =٥٧٣- ٦٣٤م) وعمر بن الخطاب من هذا المال بدأ يتردد في أرجاء الدولة ودوائر الحكم أن «السواد بستان قريش وأميّة.[١] ويتردد أيضًا مناقشات أبي ذر الغفاري مع معاوية بن أبي سفيان، والذي كان يرى أنّ المال مال الله وأنه وكيله فعطاؤه بأمره ومنعه بأمره! وقوله لأهل الشام: «..إني أزعم أن جميع ما تحت يدي لي، فما أعطيت فقربة إلى الله وما أمسكت فلا جناح عليَّ فيه..».[٢]

وينضاف إلى ذلك الجدل الذي دار بين عثمان وخازن بيت المال وهل خازن بيت المال هو خازن الأمة؟ بمعنى هل المال مال الأمة أم مال الخليفة؟

هذا الجدل الذي انتهى باستقالة خازن بيت المال، وهذه القصة قد بدأت بأن عثمان قد أعطى رجلا من بني قرابته وهو عبد الله بن خالد بن أسيد بن أبي العيص بن أميّة مبلغًا ضخمًا وقدره ثلثمائة ألف وكذلك أعطى لمن معه من القوم مائة ألف مع صك بذلك على عبد الله بن الأرقم خازن بيت المال، فاستكثر عامله على بيت المال هذا المقدار فلم يخرجه ورد الصك، فألح عثمان فأبي الخازن، فلامه عثمان وقال له: «ما أنت! إنما أنت خازن لنا» ، قال صاحب بيت المال: «ما كنت أرى أني خازن لك، وإنما خازنك أحد مواليك لقد كنت أراني خازنًا للمسلمين» ، ثم أقبل بمفاتيح بيت المال فعلقها على منبر النبي وجلس في داره.[٣]

كما أن عثمان أدى بقراراته إلى «انقلاب اقتصادي» من خلال ما أحدثه من إعطاء من أراد من أهل بلاد العرب أن يبيعوا فيهم في الأمصار ويشتروا مكانه أرضًا في جزيرة العرب، وقد أدى هذا «الانقلاب» إلى إنشاء الملكية العقارية الضخمة في الإسلام، كما ينضاف إلى ذلك سخاء الإمام وعماله بالأموال العامة لبني أميّة وقريش كلها، وأن هذا السخاء قد أتاح لكثير من القريشيين أن يشتروا الأرض في الأمصار.

---

(١) محمّد عمارة: الإسلام وفلسفة الحكم ، دار الشروق، ص١٠٧.

(٢) ابن قتيبة : الإمامة والسياسة ، المكتبة التوفيقية، الجزء الأول، ص٩٦.

(٣) طه حسين: الفتنة الكبرى، عثمان ، ص٩٤.

ويرى طه حسين (١٨٨٩-١٩٧٣) أن السياسة المالية لعثمان كانت تنتهي إلى نتيجتين كلتاهما شر: الأول: إنفاق الأموال العامة في غير حقها، وما يترتب على ذلك من الاضطراب المالي ومن ظلم الرعية، والأخرى : إنشاء هذه الطبقة الغنية المسرفة في الغنى التي تستجيب لطمع لا حد له فتتوسع في ملك الأراضي واستغلال الطبقة العاملة.(١)

فقد أدت سياسة عثمان – كما يذكر أحمد إدريس – التي ارتكزت على محاباة بني أميّة وسوء توزيع الثروة في الدولة ورفع أسوأ الناس على رقاب الصلحاء من عامة القوم وخاصتهم وارتكاب المخالفات الشرعية ، وتركيز السلطة في يد عائلته دون اعتبار للأهلية – كما هو مفصل في تاريخنا – إلى غضب الشعب وتذمر كبار الصحابة حتى انتهى الأمر بقتله وسقوط الدولة الناشئة في دوامة صراع سياسي خطير، وأخذت الأخطاء التي بدأت قبل سنوات بدرجة واحدة تتسع على مر الأيام، ويزداد انفراجها إلى أن وصلت الأمور إلى تحول معاكس للخط التي تأسست عليه الدولة.(٢)

وكل هذه الظروف كانت الإرهاصة الأولى لظهور الخوارج وانبثاقها من تناقضات داخلها وخارجها، غير أن هناك «قاصمة» في إظهار أفكارهم وتفجر تناقضاتهم وهي واقعة «صفين» وما تمخض عنها من «خدعة» التحكيم.

(٣) صفين وخدعة التحكيم:

التحكيم – مُفَاعَلة –من الحُكم والمُحَكَّم هو الشيخ المجرب المنسوب إلى الحِكْمة التي هي العدل، فالتحكيم – إذن – إحدى وسائل الفصل في المنازعات والتقاضي في الصراعات وهو يرتكز على رضاء طرفي النزاع وقبولهم بـ «الحكم» و«التحكيم» والالتزام بما يصدر في موضوع «التحكيم» من حكم.(٣)

وحينما يذكر مصطلح «التحكيم» في الفكر السياسي الإسلامي يتبادر إلى الذهن الأحداث التي ابتدأت بوقائع معركة صفين (٥ شوال / ٢٧ مارس عام ٣٦هـ =

---

(١) طه حسين : عثمان، ص١٩٥.

(٢) د. أحمد إدريس : الفكر السياسي في الإسلام ، وجهة نظر أخرى، ص ٥٢.

(٣) محمد محمد ربيع / إسماعيل صبري مقلد (محرران): موسوعة العلوم السياسية، إصدار جامعة الكويت، نسخة مصرية صادرة بها ، الجزء الأول، ص١٢٥.

٦٥٧م) (*)، والتي أعقبت ذلك التحكيم الذي كان بين أهل العراق بقيادة أمير المؤمنين علي بن أبي طالب (٢٣ق.هـ - ٤٠هـ = ٦٠٠-٦٦١م) وأهل الشام بقيادة الوالي المتمرد على الخليفة معاوية بين أبي سفيان (٢٠ق. هـ -٦٠هـ = ٦٠٣-٦٨٠م)، فبعد قضية مقتل عثمان بن عفان وجدها معاوية فرصة سانحة اهتبلها لفتح باب أمارة المؤمنين بزعم أن بيعة علي لم تنعقد لافتراق الصحابة (أهل الحل والعقد) بالآفاق وأنه ولي الدم الشرعي المطالب بدم عثمان ثم يجتمعون - بعد ذلك - علي إمام بينما كانت حجة الإمام علي والتي استند عليها أن البيعة التي تمت له قد عقدها نفس القوم المبايعين أبا بكر الصديق وعمر وعثمان قبله وأنها تمت عن شورى المهاجرين والأنصار فلا معنى لخروج أحد على هذه البيعة التي اجتمع عليها هؤلاء وأولئك (أهل الحِل والعقد) وإلا حق على الخارج عن جماعة المسلمين أن يقاتل.[1]

ومن ثَمَّ استشهد الإمام علي بالعرف الدستوري المستقر منذ انتخاب الصديق أبا بكر وهو حق أهل المدينة باختيار الإمام ولزوم بيعته لسائر الأقطار وهذا المبدأ فرضته الظروف ووسائل المواصلات وتقول به شروط سلامة الدولة الحديثة.[2]

وقد حدث جدل فكري وحجاج نظري حتى وصل الأمر في النهاية إلى واقعة «صفين»، التي كانت قاصمة في عدد القتلى التي وصلت في بعض الروايات إلى سبعين ألفا من الجانبين.

بيد أننا نرى أن بطل واقعة صفين والذي أحدث ارتباكا في الجانب العراقي بعد استدعائه من منطقة اعتكافه في فلسطين من قبل معاوية هو عمرو بن العاص (٥٠ق.هـ - ٤٣هـ = ٥٧٤-٦٦٤م)، والمعروف بدهائه ومناوراته ، والذي لم يكن

(*) يذكر المؤرخون أنه قد دام القتال في معركة صفين على امتداد مائة يوم وعشرة أيام؟! التحم الجيشان أثناءها في تسعين موقعة؟! قتل خلالها من أهل الشام خمسة وأربعين ألفا، ومن أهل العراق خمسة وعشرون ألفا؟! أي أن الأمر قد وصل إلى سبعين ألف من الصحابة والتابعين؟؟!.. انظر : موسوعة العلوم السياسية، ص١٢٥، ١٢٦.

(١) مصطفى حلمي : قواعد المنهج السلفي في الفكر الإسلامي، دار ابن الجوزي، القاهرة، الطبعة الثالثة، عام ٢٠٠٥، ص١٠٣.

(٢) محمَّد الدمرداش العقالي: الإسلام السياسي من عام الجماعة إلى حكم الجماعة ، سما للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، ٢٠١٤، ص٣٨.

على وفاق بعد خلافه مع عثمان وإبعاده عن الولاية ، كما أنه لم يكن في المقابل على وفاق ومودة مع عليّ، فبعد أنّ كان يحرض على عثمان بعد خروجه من الحجاز بقوله: «كنت لألقى الراعي فأحرضه على عثمان» إلى مطالب بدمه ومدافع عن قضيته تحت اللواء الأموي بالشام بزعامة معاوية بن أبي سفيان.[1]

كما أن عمرو قد استطاع أن يخرج معاوية من هزيمة مؤكدة ، وبعد أن سدت أمامه المسالك وظهرت نذر الهزيمة النكراء والكارثة المحققة فلم يتورع أنّ يخرجه بخدعة السياسي الداهية، والذي أقام سياسته على خداع، فذكر لمعاوية هذه الخدعة بقوله: «إن رجالك لا يقومون لرجاله ولست مثله، هو يقاتلك على أمر وأنت تقاتله على غيره، أنت تريد البقاء، وهو يريد الفناء، وأهل العراق يخافون منك، إن ظفرت بهم، وأهل الشام لا يخافون عليًا إن ظفر بهم، ولكن ألْق إلى القوم أمرًا: إن قبلوه اختلفوا، وإن ردوه اختلفوا ادْعُهم إلى كتاب الله حَكَمًا فيما بينك وبينهم فإنك بالغٌ به حاجتك في القوم».

وما كاد الصباح فإذا بالناس يرون المصاحف قد رُبطت في أطراف الرماح ، وقد استقبلوا عليًا بمائة مصحف وميمنة جيشه بمائتي مصحف ، وميسرته بمائتين، فكان عدد المصاحف المرفوعة على أسنّة الرماح خمسمائة، فحدث ما توقعه عمرو، وهو أنّ دب الخلاف بين جماعة عليّ ، وحدث خليط شديد من الحركة والضجيج، فطائفة من أصحاب عليّ قالت: القتال، وكان على رأسها الأشتر النخعي، والذي كان أبرز القادة المتحمسين لعلي في «صفين»، وطائفة أخرى قالت: المحاكمة إلى الكتاب، ولا يحل لنا الحرب، وقد دُعينا إلى حكم الكتاب، وعند ذلك بطلت الحرب ، ووضعت أوزارها.[2]

وكتب الفريقان بذلك كتابات وفق معاهدة ضمت الشروط المبدئية للمفاوضات[*] في يوم الأربعاء ١٧ صفر سنة ٣٧هـ في أغسطس سنة ٦٥٧م ، واتفقوا

(١) إبراهيم بيضون: تكون الاتجاهات السياسية في الإسلام الأول من دولة عمر إلى دولة عبد الملك. دار اقرأ، بيروت، الطبعة الثانية، ١٤٦٠هـ - ١٩٨٦م.

(٢) زكي نجيب محمود: المعقول واللامعقول في تراثنا الفكري، دار الشروق، الطبعة الثانية ١٣٩٨هـ - ١٩٧٨م ص ٤١.

(*) نصت المعاهدة على «أن يحيى الحكمان ما أحيا القرآن ولا يتبعان الهوى ولا يداهنان في شيء فإن فعلا فلا حكم لهما» الطبري ج٢، ص٣٠، ومروج الذهب للمسعودي ج٢، ص٩٢، وانظر أيضًا: إبراهيم =

في هذا الكتاب على أن يكون الممثل «التفاوضي» لأهل العراق هو أبو موسى الأشعري (٢١ق.هـ - ٤٤هـ ٦٠٢ - ٦٦٥م)، والذي لم يكن الإمام علي راضيا عن اختياره لنقص في دهائه، فقد كان يميل إلى اختيار أحد خلصائه لهذه المهمة لا سيما عبد الله بن عباس (٣ق.هـ -٦٨هـ - ٦١٩-٦٨٧م) إلا أنه اضطر للتراجع مرة أخرى تحت ضغط الأشعث بن قيس الذي رفض هذا الأخير لأسباب قبلية كون الأشعري ابن قيس اليمني الأصل شأن الأشعث، أما مندوب أهل الشام، فكان عمرو بن العاص وهو أحد المشهورين بالدهاء والسياسة والقدرة على المناورة، واجتمع الحكمان في «دومة الجندل» حصن بين دمشق والمدينة حيث انتهيا إلى اتفاقهما على أن يخلع كل منهما صاحبه ليعود أمر الخلافة شورى بين المسلمين، وهكذا ظهر أحد الحكمين (الأشعري) مخدوعا من الآخر (عمرو بن العاص) وبانت خدعة التحكيم والتي أدت إلى خروج الخوارج ودعوتهم بأنه لا حكم إلا الله، وبانت عقم المفاوضات وفشل الحلول الوسطية وانتهى الأمر إلى الانقسام المعروف والذي أدى الصدام مع الخوارج وهزيمتهم حتى اغتال الإمام علي أحدهم وهو عبد الرحمن بن ملجم في ١٥ رمضان سنة ٤٠هـ = ٢٢ يناير ٦٦١م.

- وما يعنينا في هذا الأمر الآن أن نطرح على أنفسنا سؤالا أثار جدل بين المفكرين والباحثين في الشأن والدراسات الإسلامية وهو : كيف دفع الخوارج عليا إلى التحكيم ثم طالبوه بعد عبث المحكمين بالتوبة والندم والاستغفار عن قبول التحكيم؟!

وحقيقة الأمر أن العديد من المؤرخين القدامى والمحدثين اتفقوا على أن «الخوارج» وخاصة «القراء» منهم هم الذين دفعوا عليا لذلك ثم تبرؤوا منه بعد قبوله التحكيم وإصراره أنه لم يخطئ في التحكيم لأن الله أمر بالتحكيم في قتل صيد إذ قال تعالى: ﴿يَحْكُمُ بِهِ ذَوَا عَدْلٍ مِنكُمْ﴾ (المائدة: ٩٥). فكيف في إمامة قد أشكلت على المسلمين بيد أنه قد انفرد محمود إسماعيل برأي آخر وهو رأي جدير بالطرح والمناقشة لتفرده حيث ينفي الرواية المتواترة التي تحمل الخوارج مسؤولية إرغام علي بن أبي طالب على قبول التحكيم ثم محاولة الضغط عليه لرفضه والتنصل من العهود التي

=

بيضون: مرجع سابق ذكره، ص١٣٠.

قطعها على نفسه بوقف القتال ويحكم الحكمين... ويرى إسماعيل أن أولئك الذين عرفوا بالخوارج كانوا من أنصار عليّ ومن خيرة جنده وأكثرهم إيمانا بعدالة قضيته وأنهم رفضوا مبدأ التحكيم من أساسه لأنه يعني التشكيك في شرعية إمامته ومن ثمّ خرجوا عليه لرفضه استمرار القتال في «صفين» واستجابته لضغوط الأكثرية من جنده الذين رغبوا في وقف القتال لما رفع جيش الشام المصاحف على أسنّة الرماح فالخوارج – كما يذكر إسماعيل – يمثلون من الناحية الدينية «الفئة القليلة المؤمنة» التي لا تقبل في الحق مساومة وإدهانًا فزعماؤهم من جماعة القراء والفقهاء الحريصين على الالتزام بالكتاب والسّنة دون مواربة أو تأويل «جباههم قرحة لطول السجود وأيديهم كثفنات الأبل من طول العبادة»، ومن الناحية الاجتماعية انتمى معظمهم إلى عرب الشمال وخاصة قبيلة «تميم» التي هجرت البادية واستقرت في مصري الكوفة والبصرة وأسهمت في دور بارز في الثورة على عثمان بن عفان حين خالف سياسة أبي بكر وعمر الحريصة على تطبيق عدالة الإسلام، وأطلق العنان لبني جلدته للاستبداد بالمسلمين في الأمصار.[1]

بيد أنه ورغم ما يتميز به رأي محمود إسماعيل من وجاهة في موضوع الخوارج – والمشار إليه سابقًا – إلا أننا يمكن الرد على ذلك بحقيقتين:

الأولى: أن هناك ثمة اتفاق بين المؤرخين القدامى من خلال ما سطروه في أمهات الكتب التاريخية كما في «تاريخ الأمم والملوك» للطبري و«الكامل في التاريخ» لابن الأثير و«البداية والنهاية» لابن كثير، وكذا كتاب «الإمامة والسياسة» لابن قتيبة، «ومروج الذهب ومعادن الجوهر» للمسعودي، مما يؤكد على أن القراء هم الذين دفعوا عليّا إلى التحكيم وهم الذين طالبوه – بعد عبث التحكيم – بالتوبة بعد خطئه في قبول التحكيم، وقد سار على نهج المؤرخين القدامى كل الباحثين والمفكرين المحدثين اعتمادًا على توثيق «الثقات» من المؤرخين القدامى والذين لم يشذ منهم أحدا – حسب علمنا – في هذا المضمار.

الثانية : أن الشخصية المتطرفة في أفكارها والمتشددة في منهجها كالخوارج والتي

(١) محمود إسماعيل: الحركات السريّة في الإسلام، رؤية للنشر والتوزيع، الطبعة السادسة، ٢٠٠٦، ص٢٥، ٢٦.

تنفرد بالعقل التكفيري هي في حقيقتها شخصية بها ازدواجية في الفكر وانفصام في السلوك و«شيزوفرانيا» ارتبطت بالخوارج خلال تاريخهم وصراعاتهم ، ويبدو أنها مرتبطة بالشخصيات «المتطرفة» في السلوك والفكر على مدى التاريخ العربي الإسلامي وحوادثه المهمة، وأن ما يزعمه البعض من اتساق مواقفهم نتيجة اتساق في فكرهم أمر يناقض الواقع وحوادث التاريخ ومجريات الأحداث والروايات المتواترة عن سلوكهم وأفكارهم.

(٤) الأيديولوجيا السياسية والدينية للخوارج و«إشكالية إكفار المسلمين»

⌑ ⌑ ⌑ ⌑

من المسائل التي احتلت مكانًا بارزًا في تاريخنا العربي الإسلامي ودارت حولها الآراء والنظريات وتكونت بموجبها فرق ومذاهب وجماعات ودول وأنظمة وسلطان هي مسألة الإمامة (الخلافة) أي الرئاسة العامة للمسلمين، وكانت لنظرية الخلافة اتجاهات ثلاثة على النحو التالي:

الاتجاه الأول: اتجاه يرى أن تكون الخلافة عربية – وفي القلب منها قريش – وبالإجماع أو الأكثرية وبطريقة الانتخاب الحر المباشر أي أنّ الانتماء القومي المرشح للخلافة – كما يذكر ثامر السامرائي – يجب أن يكون عربيًا ومن صلب العرب حسبًا ونسبًا والمصدر لشرعية سلطة (الخليفة أو أمير المؤمنين) هو الإجماع أو الأغلبية والطريقة التي يجب أن يتم بموجبها قيامه بشؤون السلطة وإدارة الحكم هو البيعة.[١]

الاتجاه الثاني: يرى هذا الاتجاه أن الخلافة حق موروث لأبناء بيت محمّد وهي وراثية في أبناء هذه السلالة (الطاهرة) وهي مطلقة مقدسة – كما يذكر السامرائي – لأن مصدرها الله وليس أي سلطة أخرى، وذلك هي مفروضة «وجوبًا» بتفويض إلهي وليس لأحد من الناس خيار في رفضها أو قبولها – أيضًا – فهي بالنص والتعيين وليس بالاختيار، وهذا اتجاه الشيعة.

الاتجاه الثالث: يرى هذا الاتجاه أن الخلافة والإمامة حق مشاع لكل مسلم بصرف النظر عن انتمائه العائلي أو القبلي أو القومي ومصدر شرعيتها هو الإجماع أو الأغلبية، وطريق إسنادها القوة أو الاختيار، وهذا الاتجاه الثالث يحوي الأيديولوجية السياسية

---

(١) ثامر السامرائي: نحو تفسير قومي للتاريخ الإسلامي، منشورات دار النضال للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، الطبعة الأولى عام ١٩٨٨، ص٢٧٧.

للخوارج والتي تنصب في الآتي:

١) أن تكون تولية الخلافة باختيار حر من المسلمين وأن الخليفة لا يكون إلا بانتخاب حر صحيح يقوم به عامة المسلمين لا فريق منهم، ويستمر خليفة ما دام قائمًا بالعدل مقيما للشرع مبتعدًا عن الخطأ والزيغ فإن عاد وجب عزله أو قتله.[1]

٢) ليس للخليفة أن يتنازل عن خلافته أو يلجأ للتحكيم فقد كان قبول علي بن أبي طالب التحكيم في موقعة صفين من أبرز عوامل ظهور حزب الخوارج، فقد رأت جماعة من جند عليّ أن قبول علي التحكيم يعتبر منه «كفرًا» و«ضلالًا»؛ لأن التحكيم يتضمن شك في الفريقين المتحاربين في أيهما المحق، ولا محل لهذا الشك، فقد حاربوا وهم مقتنعون –بأن الحق في جانبهم، وكذا رأوا من الواجب متابعة القتال حتى ينزل الله حكم النصر لأحد الفريقين على الآخر.[2]

٣) ليس من الضروري أن يكون عربيًا قرشيًا ، بل يصح أن يكون من غير العرب.[3]

فقد رأى الخوارج أن تعقد الخلافة لأفضل أبناء الأمة الإسلاميّة عن طريق الاختيار الحر المطلق من كل قيد بل ذهبوا في الأمر إلى مداه حتى أن «عبدًا حبشيًا» لا يقل أهلية للخلافة واستعدادًا عن سليل أعظم القبائل العربية حسبًا ونسبًا ، فهم لم يعودوا ينظرون إلى «قريش» نظرة التقديس والإجلال والتبجيل، فرغبوا في رئيس من دمائهم حتى يستطيعوا طاعته، واعتبروا حديث الرسول: «الإمامة في قريش» حديثًا موضوعًا لا يعتد به – ولو كان قد ظهر آنذاك – لكان قد حسم الخلاف من أصله وقطع الجدل وأنهاه من قبل أن يبدأ ويستفحل ، ولم يجعل من خلافة أبي بكر الصديق فلتة (أي أمرًا حدث دون روية وإحكام وليس من الميسور أن يتكرر مرة أخرى) كما أنه لو ظهر – هذا الحديث –من المهاجرين لم يكن في استطاعة سعد بن عبادة أن يعارضه بعد وفاة الرسول ثم سكتت المعارضة طوال عهود أبي بكر وعمر وعثمان حتى عادت بفضل «الخوارج» وجعلوا – هذه النظريّة – موضع التنفيذ فاختاروا من

(١) محمّد أبو زهرة : تاريخ المذاهب الإسلاميّة، ص٦٣.

(٢) إبراهيم الفحام: الخوارج نشأتهم – نشاطهم – عقائدهم في كتاب «المتشددون المحدثون»، دراسة لحركات إسلامية معاصرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ٢٠١٣، ص٢٢٣.

(٣) علي حسني الخربوطلي: الإسْلام والخلافة، بيروت، ١٩٦١، ص٦٦.

بينهم عبد الله بن وهب الراسبي أميرًا للمؤمنين ولم يكن قريشيًا.(١)

٤) يجب أن يخضع خضوعا تاما لما أمر به وأن يلتزم بالعدل وإلا وجب عزله إذا امتنع، فكل من ينصبونه برأيهم وعاشر الناس على ما مثلوا له من العدل واجتناب الحيف والجور كان إمامًا ومن خرج عليه نصب القتال معه وإنه إن غير السيرة وعدل عن الحق وجار عليه وجب عزله أو قتله.(٢)

وهذا المظهر السياسي والأيديولوجيا السياسية للخوارج قد جذبت انتباه عديد من المفكرين والباحثين فقد رأى زكي نجيب محمود (١٩٠٥-١٩٩٣) أن موقف الخوارج في أساسه هو نفسه موقف جون لوك (١٦٣٢-١٧٠٤) في القول بحق الشعب في «عزل الحاكم» إذا ضل سواء السبيل (بالعكس من رأي توماس هوبز)، وفي أن يختار من شاء من أبناء الأمة ممن يرونه جديرًا بالثقة والاعتبار لولا أن الخوارج قد أساءوا إلى هذا المبدأ، والذي حدث لمثيله في أوروبا أن يقيم ثورتين كبيرتين ما نزال نعيش في ظلالهما إلى حد كبير وهما الثورة الأمريكية (١٧٧٦م) والثورة الفرنسية (١٧٨٩م) وكلتاهما في القرن الثامن عشر، غير أن الخوارج أساءوا إلى هذا المبدأ العظيم بما أحاطوه من تزمت وضيق أفق يجاوزان حدود العقل.(٣)

على أن خلاصة موقفهم وهي التي تهمنا – كما يقول محمود – من حيث هي فكرة سياسية كان ينبغي أن يكون لها أعمق الأثر في حياة الأجيال العربية من بعدهم، لكنها ذهبت أدراج التاريخ بغير أثر في الحياة العملية هي مبدأهم القائل بوجوب «الخروج على الإمام أو الحاكم أو الزعيم» أو ما شاعت له الأيام بعد ذلك من أسماء إذا أخطأ أو خان أمانة الإمامة أو الزعامة أو الحكم.(٤)

ويرى محمود إسماعيل أنّ الخوارج قد شكلوا أحد أحزاب المعارضة في الإسلام كان فكرهم السياسي معبرًا عن قطاع عريض من الجماهير الساخطة على الخلافة بما يجعلهم بحق «جمهوريو الإسلام» فبينما قصر أهل السنة حق الإمامة على قريش

(١) الإسلام والخلافة، ص٦٧.

(٢) الإسلام والخلافة، ص٦٦.

(٣) زكي نجيب محمود: المعقول واللا معقول في تراثنا الفكري، دار الشروق، ص٧٢.

(٤) زكي نجيب محمود: مرجع سابق ذكره، ص٧١.

وجعلها الشيعة حكرًا على أهل البيت وحدهم، نادى الخوارج بأنها حق متاح لكل مسلم دون النظر إلى أصله أو عصبيته لذلك فقد عبر الخوارج من الناحية السياسية عن اتجاه الجناح الديمقراطي بين الأحزاب الإسلامية الأخرى، ونظرًا لتمسكهم الشديد بأهداب الدين والتزامهم بالقرآن والسنة دون تأويل أو تحريف ودعوتهم الصارمة لاتباع نهج السلف الصالح ممثلًا في سياسة الرسول والشيخين (أبو بكر وعمر) كانوا « كلافنة الإسْلام» أو «بيوريتان الإسْلام» على حد تعبير دوزي وفي قولهم: «بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر» وحضهم على «الثورة على أئمة الجور» ما يجعلهم جديرين بلقب «ثوريو الإسلام» كما يمثلون في نظر بعض الدارسين «بولشفيك الإسلام» لتطرفهم الشديد في استحلال دماء مخالفيهم في المذهب وقولهم بـ «الاستعراض» وحكمهم على مرتكب الكبيرة بالكفر، وآراؤهم في العدالة والمساواة تنم عن اتجاه اشتراكي إسلامي أصيل لذلك نعت ميور مذهب الخوارج بأنه «مذهب ثوري ديمقراطي اشتراكي» .[1]

هذا المنظور السياسي للخوارج يدفعنا لعرض الجانب العقيدي لهم، فالخوارج قد أجمعت على إكفار علي بن أبي طالب أن حكم وهم مختلفون: هل كفره شِرْك أم لا!

وأجمعوا – كما يقول أبو الحسن الأشعري (٢٠٦-٣٢٤هـ = ٨٧٤-٩٣٦م) على أن كل كبيرة كُفر إلّا أن «النجدات» فإنها لا تقول ذلك ، وأجمعوا على أن الله تعالى يعذب أصحاب الكبائر عذابًا دائمًا إلا «النجدات» أصحاب «نَجْدة بن عامر» .

ويرى عبد القاهر البغدادي (ت٤٢٩هـ = ١٠٣٧م) أن الخوارج على افتراق مذاهبها تجمع على إكفار علي وعثمان والحكمين (أبو موسى الأشعري وعمرو بن العاص) وأصحاب الجمل (عائشة وطلحة بن عبيد الله والزبير بن العوام) ، وكل من رضي بتحكيم الحكمين والإكفار بارتكاب الذنوب ووجوب الخروج على الإمام الجائر.

وقال بعض الخوارج: إن التكفير إنما يكون بالذنوب التي ليس فيها وعيد مخصوص، فأما الذي فيه حدّ أو وعيد في القرآن فلا يزداد صاحبه على الاسم الذي ورد فيه مثل تسميته زانيا وسارقًا ونحو ذلك.[2]

---

(١) أبو الحسن الأشعري: مقالات الإسلاميين واختلاف المصلين ، ص١٦٧، ١٦٨ .

(٢) عبد القاهر بن طاهر بن محمد البغدادي: الفرق بين الفرق، دار الطلائع للنشر والتوزيع. ٢٠٠٩، تحقيق =

ويؤكد الشهرستاني (٤٧٩-٥٤٨هـ=١٠٨٦-١١٥٣م) على أن الخوارج تجمع القول بالتبري من عثمان وعلي رضي الله عنه ويقدمون ذلك على كل طاعة ولا يصرحون المناكحات إلا على ذلك، ويكفرون أصحاب الكبائر، ويرون الخروج على الإمام إذا خالف السنة حقًا واجبًا.(١)

وفيما يبدو – كما يقول زكي نجيب محمود – أن كل المؤرخين مجمعون على أن أحزاب الخوارج كلها تتفق على إكفار علي بن أبي طالب وعثمان بن عفان من الخلفاء الراشدين، وإكفار الحكمين أبي موسى الأشعري وعمرو بن العاص ، وإكفار أصحاب الجمل جميعًا، وإكفار كل من يرضى بحكم الحكمين، وبوجوب الخروج على السلطان الجائر، وأما الذي اختلف فيه المؤرخون عند روايتهم عن الخوارج فهو موقفهم إزاء مرتكبي هذه الذنوب الكبيرة هم في رأي الخوارج من الكفار، ومنهم من يقول: بل إن الخوارج تفرّق بين ذنب كبير ورد له اسم معين في القرآن كالسرقة مثلا أو الزنا، وفي هذه الحالة لا يقال عن المخطئ إنه كافر بل يقال عنه اسمه الذي ورد ذكره، كأن يقال: إنه سارق أو إنه زانٍ على أن من الخوارج فرقة تقول عن صاحب الكبيرة: إنه كافر نعمة وليس هو بكافر دين.(٢)

ويمكن لنا أن نجمع رأي الخوارج وعقيدتهم في نقاط:

١) أجمع الخوارج على «إكفار» علي بن أبي طالب وعثمان والحكمين ، وأصحاب الجمل.
٢) وأجمعوا على الخروج على السلطان «الجائر» أي الثورة عليه.
٣) وأجمعوا على تكفير مرتكبي الذنوب وخلودهم في النار ، وخالف في ذلك قلة «النجدات» و«الإباضية».
٤) أما موقفهم من مرتكبي الذنوب فإنهم يحكمون بخلودهم في النار لارتكابهم الكبائر دون الصغائر إذا لم يتوبوا.
٥) أما النجدات فإنهم لا يحكمون على مرتكبي الذنوب بالخلود في النار إذا كانوا من

=

محمد محيى الدين عبد الحميد، ص٦٢.

(١) الشهرستاني: الملل والنحل، جزيرة الورد، ص٩٩.

(٢) زكي نجيب محمود : المعقول واللا معقول في تراثنا الفكري، ص٧٣.

موافقيهم دون غيرهم.[1]

ومن الملفت أنه على الرغم من إصرار الخوارج على تكفير علي بن أبي طالب وحرصوا على إرسال أحدهم لقتله، وإنهم أخذوا عليه قبول التحكيم، وأنه محا اسمه من «الخلافة» إلا أن الإمام علي فرق بينهم وبين معاوية بن سفيان فلم يكفرهم ، وأوصى في أواخر أيامه بهم قائلًا: «لا تقاتلوا الخوارج بعدي، فليس من طلب الحق فأخطأه كمن طلب الباطل فأدركه» ، يريد أن الخوارج – كما يقول أحمد أمين – طلبوا الحق وحاموا عن عقيدة اعتقدوها ، وإن أخطؤوا فيها، وأما معاوية فكان لا يطلب حقًا، وإنما يطلب باطلًا، ويحامي عنه وقد أدركه.[2]

ويمكن لنا – بعد ذلك – أن نتساءل عن الخوارج والذين كفروا المسلمين وخرجوا لمذهبهم وقاتلوا المسلمين والإمام علي ومن بعده، الدولة الأموية قرابة خمسين عامًا، وكانت حروبها ومعاركها من أسباب انهيار هذه الإمبراطورية الأموية وتمزيق شأنها وسلطانها، ومن ثمَّ نتساءل هنا بالفعل عن صفات الخوارج والتي جعلت منهم قوة مناوئة خلال التاريخ الإسلامي الأول وما هي ملامح شخصياتهم والتي جعلت منهم أخطر ثورة في تاريخ العرب والمسلمين؟

وللإجابة عن هذا التساؤل في الأوراق التالية...

---

(١) عمر عبد الله كامل: المتطرفون، مكتبة التراث، ص٣٩.

(٢) أحمد أمين : فجر الإسلام، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، مكتبة الأسرة عام ١٩٩٦، ص ٤١٧.

٥-صفات الخوارج وسماتهم الشخصية

⌑ ⌑ ⌑ ⌑

يتعين أن نفهم الصفات والتي اتسمت بها فرقتهم لنفهم ذواتهم وكيف قدموا رؤيتهم السياسية والدينية، وهذه الصفات تتمثل في الآتي:

١) اتصف الخوارج بالفصاحة وطلاقة اللسان والعلم بطرق «التأثير البياني»، وكانوا ثابتي الجنان، لا يتحيرون أمام خصومهم، ولا تأخذهم حبسة فكريّة، وكان الخوارج مع «فصاحتهم» يطلبون علم الكتاب والسنة وفقه الحديث وآثار العرب في ذكاء شديد وبديهية حاضرة ونفس متدينة.(١)

٢) كانوا يحبون الجدل والمناقشة والحجاج الفكري وإطلاق الشعر وكلام العرب، وكان يذاكرون «مخالفيهم» حتى في أزمان القتال ومراحل الصراع وأوقات المعارك، فقد نقل ابن أبي الحديد (٥٨٦-٦٥٥هـ = ١١٩٠-١٢٥٧م) عن الأغاني لأبي فرج الأصفهاني (٢٨٤-٣٥٦هـ/ ٨٧٩-٩٦٧م): « كان (الشراة) أي الخوارج في حرب المهلب بن أبي صفرة وقطري بن الفجاءة يتواقفون ويتساءلون بينهم عن أمر الدين وغير ذلك على أمان وسكون فتواقف يومًا عبيدة بن هلال اليشكري من الخوارج مع أبي حرابة التميمي من جيش الجماعة، فقال عبيدة: يا أبا حرابة إني سائلك عن أشياء أفتصدقني في الجواب عنها؟ قال: نعم، إن ضمنت لي مثل ذلك، قال: قد فعلت. قال: فسل ما بدا لك. قال: فما تقولون في أئمتكم؟ قال: يبيحون الدم الحرام. قال: ويحك فكيف فعلهم في المال؟ قال: يجبونه من غير حله وينفقونه في غير وجهه. قال: فكيف فعلهم في اليتيم؟ قال: يظلمونه في ماله ويمنعونه حقه. قال: ويحك يا أبا حرابة أمثل هؤلاء تتبع؟

ويرى محمد أبو زهرة (١٣١٦-١٣٩٤=١٨٩٨-١٩٧٤م) أن حب المناقشة والمناظرة قد استولى عليهم حتى كانوا يقفون القتال مع مقاتليهم ليساجلوهم الآراء والأفكار.(٢)

---

(١) محمد أبو زهرة: تاريخ المذاهب الإسلاميّة، ص٦٨.

(٢) محمد أبو زهرة: مرجع سابق ذكره، ص٦٨، ٦٩.

٣) التشدد في العبادة والانهماك فيها -كما يقول أحمد أمين (١٨٧٨-١٩٥٤م): يصفهم الشهرستاني بأنهم أهل صوم وصلاة ويصفهم المُبَرِّد (٢١٠-٢٨٦هـ=٨٢٦-٨٩٩م) بأنهم في جميع أصنافهم يبرؤون من الكاذب ومن ذي المعصية الظاهرة).

ولما أرسل عليّ عبد الله بن عباس لأهل النهروّان من الخوارج رأى منهم جباهًا قرحة لطول السجود وأيديا كثفنّات الإبل عليهم قُمصٌ مرحضة وهم مشمرون ولعل خير ما قيل فيهم – كما يذكر أمين – ما قاله أبو حمزة الخارجي في وصف أصحابه: شباب والله مكتهلون في شبابهم غضضةٌ عن الشر أعينهم ثقيلة ،عن الباطل أرجلهم ، أنضاء عبادة وأطلاح سَهر فنظر الله إليهم في جوف الليل منحنيةٌ أصلابهم على أجزاء القرآن ، كلما مرّ أحدهم بآية من ذكر الجنة بكى شوقًا إليها، وإذا مرّ بآية من ذكر النار شهق شهقة كأن زفير جهنم بين أذنيه، موصول كلالهم بكلالهم كلال الليل بكلال النهار، قد أكلت الأرض ركبهم وأيديهم وأنوفهم وجباههم، واستقلوا ذلك في جنب الله حتى إذا رأوا السهام قد فوِّقت ، والرماح قد أشرعت، والسيوف قد انتضيت ورعدت الكتيبة بصواعق الموت وبرقت ، استخفوا بوعيد الكتيبة لوعيد الله، ومضى الشاب منهد قدُما حتى اختلفت رجلاه على عنق فرسه، وتخضبت بالدماء محاسن وجهه، فأسرعت إليه سباغ الأرض ، وانحطت إليه طير السماء، فكم من عين في منقار طير طالما بكى صاحبها في جوف الليل من خوف الله! وكم من كف زالت عن معصمها طالما اعتمد عليها صاحبها في جوف الليل بالسجود لله!». [١]

٤) ميلهم لاستخدام القوة والعنف ضد مخالفيهم في الرأي فبدلا من اللجوء للعقل لإقناع الخصم وفتح باب النقاش للتعرف على الرأي والوقوف على الصحيح من الفكر – كما يقول محمد الأنور عيسى – نراهم يتعصبون لما يعتقدون من فكر ويصمون آذانهم ويغلقون عقولهم عما لا يتمشى مع ما يريدون، ثم هم في عصبية جاهلية، يحملون السلاح ويقاتلون المسلمين، ويسبونهم مع أن الرسول يقول: «سباب المسلم فسوق وقتاله كفر». [٢]

---

(١) أحمد أمين: فجر الإسلام، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ص٤١٦.

(٢) محمد الأنور حامد عيسى: الخوارج بين الأمس واليوم، ص٢٦.

٥) القصور في الفهم وعدم التعمق والتخلي عن إتعاب الذهن والأخذ بظواهر النصوص دون البحث في معانيها الدقيقة والاكتفاء بالفهم السطحي لها ، فهم يتمسكون بظواهر القرآن ولا يتجاوزون هذا «الظاهر» إلى مرامي القرآن ومقاصده وموضوعاته، وما يبدو بادئ الرأي يقفون عنده ولا يبرحون ولا يحيدون عنه قيد أنملة، فهذا التيار «نصوصي» يعتمد كل الاعتماد على «النصوص» والمأثوريات المروية كمرجع الدين الوحيد، رافضين إدخال «الرأي» و«العقل» و«القياس» و«التأويل» وغيرها من أدوات النظر العقلي في إطار مرجعية الدين.(١)

ولقد دفعتهم شدة رغبتهم في نصر مذهبهم وإعلاء أمره إلى أن يكذبوا أحيانًا على رسول الله ﷺ حتى أنه يروى عن أحد الخوارج التائبين أن دعا العلماء لأن ينظروا في أحاديث الرسول فإن الخوارج كانوا إذا لم يجدوا دليلًا نسبوا للرسول كلاما.(٢)

٦) ومن سماتهم الواضحة: التناقض الحاد في فهم الإسلام وفي سلوكهم وأسلوب معيشتهم تناقض شديد يصل إلى درجة «الفصام المرضي» ففي الوقت الذي يكفرون فيه مخالفيهم من المسلمين ويستحلون دماءهم وأموالهم يتعاملون مع النصراني من قبيل «احفظوا ذمة نبيكم» .(٣)

ومن الملفت أن تجد هذه السمة وتلك الصفة والتي لازمت الخوارج في حياتهم وفي أسلوب معيشتهم وسلوكهم خلال تاريخهم وصراعاتهم قد لازمت الشخصية «الإسلاموية» المتشددة وارتبطت ارتباطًا وثيقًا بسلوك التطرف الديني خلال الحقب التاريخية التي تتالت بعد ذلك، ولعل الأوراق التالية سوف توضح ذلك...

---

(١) موسوعة العلوم السياسية (محرران: محمد محمود ربيع/ إسماعيل صبري مقلد) ص٢٢٤.

(٢) محمد أبو زهرة : تاريخ المذاهب الإسلامية ص٦٩.

(٣) الخوارج بين الأمس واليوم، ص٣٠.

(٦) الفصام الفكري والتناقضات العقلية التكفيرية للخوارج

«رؤية واقعية للأحداث»

⌑ ⌑ ⌑ ⌑

ظهر فصامهم الفكري وتناقضهم فكأن جلودهم يسكنها روحان متفارقان وشخصان متباينان تظهر إحدهما على سطح الأحداث ثم تختفي الشخصية الأخرى ثم تظهر في مرة تليها فهم أهل تعصب مقيت ورؤية أحادية وتناقض بين ، أوقفهم كل ذلك في دائرة التكفير والعنف والقتل وسفك الدماء، ويظهر ذلك في عدة مواقف:

الموقف الأول : سمع عبد الله بن خبّاب وهو من أصحاب رسول الله ﷺ بقدوم الخوارج إلى حيث يقيم يتوعدون ويهددون من يخالفهم في «الرأي» فخرج الرجل ومعه امرأته – وكانت حبلى – خرج مذعورًا يعلق مصحفًا حول عنقه فبادروه بالقول:

الخوارج : إن الذي في عنقك ليأمرنا بقتلك.

ابن خباب: ما أحياه القرآن فأحيوه وما أماته فأميتوه!

الخوارج:.......... ما تقول في عليّ بعد التحكيم والحكومة؟

ابن خباب: إن عليًّا أعلم بالله وأشد توقيًا على دينه وأنفذ بصيرة.

الخوارج: إنك لست تتبع الهدى إنما تتبع الرجال على أسمائهم.

ثم قربوه إلى شاطئ النهر فأضجعوه فذبحوه ثم دعوا بامرأته «الحبلى» فبقروا عما في بطنها![1]

الموقف الثاني: هؤلاء الخوارج – بعد أن قتلوا عبد الله بن خباب – وامرأته الحبلى

(١) زكي نجيب محمود: المعقول واللامعقول في تراثنا الفكري ، ص٥٠.

رأوا نصرانيا يملك نخلة أرادوا شراء ثمرها.

فقال النصرانيّ: هي لكم، فأجابوه في شموخ وأنفة ما كنا لنأخذها إلا بثمن!

فقال النصرانيّ: واعجباه أتقتلون مثل عبد الله بن خبّاب ولا تقبلون جنا نخلة إلا بثمن! [(١)]

وتجدر الإشارة هنا أن ما حدث من الخوارج للمسلم وقتلهم وامرأته لأنه عندهم كافر وخلّوا سبيل النصرانيّ لأنه من أهل الذمة وهو لا يقتل حفاظًا على سنة الرسول، أي تناقض وفصام وشيزوفرانيا يعيشون بها الخوارج بين جلودهم.

الموقف الثالث: فقد روي عن واصل بن عطاء (٨٠-١٣١هـ = ٧٠٠-٧٤٨م) رأس المعتزلة كان مع جماعة من رفاقه فأحسوا بالخوارج فقال واصل لرفقائه: دعوني وإياهم!

الخوارج: ما أنت وأصحابك؟

واصل: قوم مشركون مستجيرون بكم ليسمعوا كلام الله ويفهموا حدوده.

الخوارج: قد أجرناكم.

واصل: بل تبلغوننا مأمننا لأن الله تعالى يقول: ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ﴾ .

الخوارج: ذاك لكم . فساروا معهم حتى أبلغوهم المأمن. [(٢)]

فقد ظهر من خلال المحادثة أن واصل قد ادعى أنه مشركا لأنه يعلم الخوارج وأنهم يكفرون المسلمين بل ويذبحونهم تعصبًا لرأيهم وتشبثًا لمعتقدهم.

---

(١) زكي نجيب محمود: مرجع سابق ذكره ، ص٥١.

(٢) زكي نجيب محمود: مرجع سابق ذكره، ص٥٢.

(٧) فرق الخوارج... ودرجات الكفر!

⌑ ⌑ ⌑

تعددت فرق الخوارج إلى عشرين فرقة وهذه أسماؤها: المحكمة الأولى، والأزارقة، والنَّجدات، والصُّفرية، ثم العجاردة المفترقة فرقا منها - كما يذكر البغدادي (ت ٤٢٩هـ - ١٠٣٧م) - الخازمية والشعيبية والمعلومية والمجهولية وأصحاب طاعة لا يُراد الله تعالى بها والصَّلْتية والأخْنَسية والشبيبية والشيبانية والمَعْبَدية والرشيدية والمكرمية والخمرية والشمراخية والإبراهيمية والواقفة والإباضية.

والإباضية منهم افترقت فرقًا معظمها فريقان: حَفْصِيّة وحارثية، فاليزيدية من الإباضية والميمونية من العجاردة فرقتان من غلاة الكفرة الخارجين عن الأمة.(١)

وقد يندهش القارئ - كما اندهش كثير من المفكرين والباحثين الإسلاميين - في أمر فرقة الخوارج والتي انقسمت إلى عشرين فرقة كل منها تختلف عن سائرها في أشياء وإن اتفقت جميعها على أساس واحد وأن اختلاف فرقها يكون في جانب ربما يكون دقيقًا ويحتاج إلى دقة في التحليل ليبين الفوارق بينها.

وما يعنينا الآن نظرًا لضيق المساحة أنّ نبين أن الفروقات والاختلافات لم تكن بالكبيرة فإننا سوف نستعرض أهم هذه الفرق وعقيدتها الدينية ورؤيتها في النظر إلى مخالفتها في الرأي.

الفرقة الأولى: المحكمة الأولى:

هم الذين خرجوا على أمير المؤمنين علي بن أبي طالب حين جرى أمر التحكيم واجتمعوا بقرية «حَرَوْراء» (*) من ناحية الكوفة ورأسهم عبد الله بن الكواء وعَتاب ابن الأعور وعبد الله بن وهب الراسبي وعُروة بن جرير ويزيد بن عاصم المحاربي وحرقوص بن زهير البجلي المعروف بذي الثدَّيَّة.. (٢)

---

(١) البغدادي: الفرق بين الفرق، ص٦١.

(*) حَرَوْراء قرية في العراق غير بعيدة عن الكوفة، نزل بها الخوارج الأولون عندما أعلنوا وجهروا بالخروج على الإمام علي، فقاتلهم وأبادهم في واقعة النهروان (٣٨هـ) «المنجد الأعلام» ص١٥٦.

(٢) الملل والنحل ص٩١.

وقد قاتلهم الإمام علي قتالًا شديدًا في واقعة النهروان (٣٨هـ) وكانوا يومئذ في اثني عشر ألف رجل وهزمهم شر هزيمة، وهرب بعضهم إلى عُمان وكرمان وسجستان والجزيرة واليمن وبعضهم مازال باقيا حتى الآن ومنهم الإباضية في «عُمان».

ومن أهم مبادئهم:

١) جواز الإمامة في غير قريش ما دام الإمام يحكم، ولا مانع من أن يكون عبدًا أو أعجميا وهو مخالف لما هو متفق عليه من بعض الفرق الأخرى في قولهم: «الإمامة في قريش» ، ومن خرج على الإمام الذي عدل واجتنب الجور والحيف يجب نصب القتال معه وإن غيّر السيرة وعدل عن الحق وجب عزله أو قتله... كما جوزوا أن لا يكون في العالم إماما أصلا.

٢) وهم أشد الناس قولا بالقياس.

٣) يخطئون عليّا لقبوله التحكيم لأنه حكم الرجال وهم مخطؤون في هذا لأنهم هم الذين دفعوه إلى قبول التحكيم، ولأن الحكم لا يكون إلّا بالرجال ، ولهذا قال علي: « كلمة حق يراد بها باطل»[(١)].

٤) يقولون بكفرعلي ويطلقون عليه ألفاظًا سيئة ولعنوه وطعنوا في عثمان بن عفان للأحداث التي عدوها عليه وطعنوا في أصحاب الجمل وأصحاب صفين.

الفرقة الثانية : الأزارقة:

هم أتباع نافع بن الأزرق بن قيس الحنفي المكنى بأبي راشد وهو من بني حنيفة، وكان قائدًا شجاعًا قويًا قاتل عبد الله بن الزبير (١-٧٣هـ = ٦٢٢-٦٩٣م) وعماله وقواد الأمويين تسع عشرة سنة.. ولما قتل نافع بن الأزرق أمرّت الخوارج عليهم عبيد الله بن ماحوز التميمي واشتد قتالهم ، ولما قتل عبيد الله بن ماحوز أمرّ الأزارقة عليهم قطري بن الفجاءة الذي حاربه المهلب بن أبي صفرة حربًا ضروسًا حتى قتله.[(٢)]

ومن أهم أمورهم الاعتقادية:

١) تكفير عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه، وقال الأزارقة: إن الله أنزل في شأنه:

---

(١) موسوعة العلوم السياسية – جامعة الكويت – طبعة صادرة في مصر، الجزء الثاني، ص٢٢٨.

(٢) عامر النجار: في مذاهب الإسلاميين ، ص٨٩.

﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيُشْهِدُ اللَّهَ عَلَى مَا فِي قَلْبِهِ وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ﴾(البقرة :٢٠٤).

٢) تكفير القاعدين عن قتال غيرهم معهم وهو أول من أظهر البراءة من القَعَدَة عن القتال وإن كان موافقا على دينه وأكفر من لم يهاجر إليه.

٣) إباحة قتل أطفال المخالفين ونسائهم[١].

٤) إسقاط الرجم عن الزاني المحصن وإسقاط حد القذف عمن قذف المحصنين من الرجال لعدم وروده في القرآن الكريم.

٥) القول بأن أطفال المشركين مع آبائهم في النار.

٦) التقية أو المداراة غير جائزة في قول أو عمل.

٧) تجويزهم الكفر على الأنبياء قبل البعثة أو بعدها.

٨) القول بأن مرتكب الكبيرة «كافر» وكفره كُفر مِلة خرج به عن الإسلام جملة، ويكون مخلدًا في النار مع سائر الكفار، واستدلوا بكفر إبليس وقالوا: ما ارتكب إلا كبيرة حيث أمر بالسجود لآدم – عليه السلام – فامتنع ، وإلا فهو عارف بوحدانية الله تعالى.[٢]

الفرقة الثالثة : *النجدات*:

هم أتباع نجدة بن عامر الحنفي (٣٦هـ -٧٢هـ/ ٦٥٦-٦٩١م) وكان السبب في زعامته – كما يذكر عامر النجار – أن نافعًا بن الأزرق لما أظهر «البراءة» من القاعدين عن القتال وإن كانوا على رأيه وساهم المشركين واستحل قتل الأطفال والنساء من المخالفين فارقه جماعة منهم نجدة بن عامر، والذي خرج على نافع بن الأزرق، وتوجه إلى اليمامة، وكتب إليه يقول بعد أن ذكر منزلته في التقوى من قبل: «تجرد لك الشيطان ولم يكن أحد أثقل عليه وطأة منك ومن أصحابك فاستمالك واستهواك واستغواك وأغواك فغويت» .[٣]

(١) موسوعة العلوم السياسية ، ص٢٢٩.

(٢) عامر النجار : مرجع سابق ذكره، ص٩٥.

(٣) موسوعة العلوم السياسية، ص٢١٣.

ولم يكن نجدة بن عامر ممن يكفر مرتكب الكبيرة «كفر شرك» كما هو رأي نافع بن الأزرق (٦٥هـ-٦٨٥م) وإنما كان يراه «كفر نعمة» أي أن ارتكاب الكبيرة هو نوع من «الكفر» و«الجحود» بأنعم الله وليس شركا في التوحيد.

وفي المقابل أيضًا لم يكن الصحابة يكفرون الخوارج – كما ذكرنا من قبل – بل روى التاريخ أن نفرًا من صحابة رسول الله ﷺ فيهم الصحابي عبد الله بن عمر بن الخطاب كانوا يصلون خلف نجدة بن عامر زعيم فرقة النجدات. والدين عند النجدات أمران:

الأمر الأول : معرفة الله ورسوله وتحريم دماء موافقيهم من المسلمين والإقرار بما جاء من عند الله جملة وهو واجب على الجميع ولا عذر لأحد في الجهل به.

الأمر الثاني: ما عدا ذلك من أحكام الدين فالناس معذورون فيه إلى أن تقوم عليهم الحجة في الحلال والحرام ويرون أن من جوّز العذاب على «المجتهد المخطئ» قبل ثبوت الحجة عليه فهو كافر.. وهم (النجدات) يستحلون دماء أهل العهد والذمة وأموالهم في حالة التقية كما أن الإصرار على «الصغائر» عندهم يعتبر شركًا، وقد غدرت فرقة النجدات بالجهل في أحكام »الفروع» و«التقية» عندهم جائزة والناس لا يحتاجون إلى إمام.[1]

ولعل ما يميز «النَّجدات» في الفكر السياسي هو القول بأن «الخلافة – الإمامة – السلطة -الدولة» هي واجبة عن طريق «العقل» لا عن طريق «الشرع» وقد استندوا في رأيهم على أسباب منها:

السبب الأول: أنه ليس هناك ثمة نص على وجوب الإمامة لا من الكتاب ولا من السنة أي ليس هناك نص متواتر يعلو مقامه مقام أحاديث الآحاد التي هي ظنية الثبوت، ومن ثمَّ لا تكون مصدراً للعقائد.

السبب الثاني: وإنه ليس هناك إجماع على وجوب الإمامة شرعًا، فالإجماع لابد أن يستند إلى نص شرعي وهذا النص غير موجود حتى يتأسس عليه الإجماع.[2]

---

(١) موسوعة العلوم السياسية، ص٢٢٩.

(٢) موسوعة العلوم السياسية، الجزء الثاني، ص٢١٣.

الفرقة الرابعة: العجاردة:

العجاردة كلها أتباع عبد الكريم بن عجرد، وكان عبد الكريم من أتباع عطية بن الأسود الحنفي ، والعجاردة افترقت إلى عشر فرق يجمعها القول بأن الطفل يُدْعَى إذا بلغ وتجب البراءة منه قبل ذلك حتى يدعى إلى الإسلام أو يصفه هو ، واختلفوا مع الأزارقة (أتباع نافع بن الأزرق) في شيء آخر وهو أن الأزارقة استحلت أموال مخالفيهم بكل حال، والعجاردة لا يرون أموال مخالفيهم فيئا إلا بعد قتل صاحبه.[1]

ويرى أبو الحسن الأشعري (٢٦٠ – ٣٢٤هـ/ ٨٧٤-٩٣٦م) أن العجاردة انقسمت إلى خمس عشرة فرقة، الفرقة الأولى منهم والذين يزعمون بالبراءة من الأطفال مثل بلوغه وفرقة الميمونية والخلفية والحمزية (أصحاب رجل يُدعى حمزة) ، والفرقة الخامسة الشعيبية (أصحاب شعيب) ، والفرقة السادسة الخازمية، والسابعة المعلومية والثامنة المجهولية، والفرقة التاسعة الصَّلتية (أصحاب عثمان بن أبي الصلت) والفرقة العاشرة الثعالبة (والتي تفردت بأنه ليس لأطفال الكافرين ولا لأطفال المؤمنين ولاية ولا عداوة ولا براءة حتى يبلغوا فيُدْعوا إلى الإسلام فيقرون به أو ينكروه) والفرقة الحادية عشرة يُدعون الأخنسية (أصحاب الأخنس) ، والفرقة الثانية عشرة المعبدية، والفرقة الثالثة عشرة من العجاردة الشيبانية ، والفرقة الرابعة عشرة الرُّشيدية، والفرقة الخامسة عشر هي المكرمية (أصحاب أبي مكرم) وما تفردوا به أنهم زعموا أن تارك الصلاة «كافر» ، وزعموا أيضًا أن من أتى كبيرة فقد جهل الله سبحانه، وبتلك الجهالة كَفَرَ.[2]

الفرقة الخامسة : الصُّفرية

هم أتباع «زياد بن الأصفر»، ويقال : إن الصُّفرية نسبوا إلى رجل يقال له«عبيدة» وكان ممن يخالف نجدة بن عامر ورجع من اليمامة.

والصُّفرية قولهم في الجملة كقول الأزارقة في أن أصحاب الذنوب مشركون، غير أن الصفرية لا يرون قتل أطفال مخالفيهم ونسائهم، والأزارقة يرون ذلك، وقد

---

(١) الفرق الإسلامية وحق الأمة السياسي، ص١٦٣، وانظر أيضًا: الفرق بين الفرق للبغدادي، ص٧٦.

(٢) أبو الحسن الأشعري: مقالات الإسلاميين ، ص١٧٧ وما بعدها.

زعمت فرقة من الصُّفرية – كما يذكر البغدادي – أن ما كان من الأعمال عليه حد واقع لا يُسمَّى صاحبه إلا بالاسم الموضوع له كزان وسارق وقاذف وقاتل عمد وليس صاحبه كافرًا ولا مشركًا وكل ذنب ليس له فيه حد كترك الصلاة والصوم فهو كفر وصاحبه كافر وفرقة ثالثة من الصفرية بقول البيهسية: إن صاحب الذنب لا يحكم عليه بالكفر حتى يرفع إلى الوالي فيحدْ فصارت الصُّفرية على هذا التقدير ثلاث فرق:

الفرقة الأولى : تزعم أن صاحب كل ذنب مشرك كما قالت الأزارقة.

الفرقة الثانية: تزعم أن اسم الكفر واقع على صاحب ذنب ليس فيه حد والمحدود في ذنبه خارج عن الإيمان وغير داخل في الكفر.

الفرقة الثالثة: تزعم أن اسم «الكفر» يقع على صاحب الذنب إذا حدّه الوالي على ذنبه .[١]

ويرى محمود إسماعيل عبد الرازق: إن عقائد الصُّفرية تمثل تطورًا عمليًا ملحوظًا في فكر الخوارج وعقائدهم إذ تجنح إلى التخفيف من غلواء التطرف الذي أفضى بحركتهم إلى الفشل من قبل فهم لم يسقطوا الرجم، ولم يحكموا بقتل أطفال المشركين وتكفيرهم كالأزارقة ، كما نادوا بجواز «التقية» في القول دون العمل، وأجاز بعض زعمائهم تزويج المسلمات من كفار قومهم في دار التقية دون دار العلانية.[٢]

وقد كفل لهم ذلك معايشة الجماعة الإسلامية بدلًا من إشهار عدائهم لها، الأمر الذي أتاح لهم القدرة على الدعوة السريِّة المنظمة، لكنهم في حقيقة الأمر كانوا أكثر تطرفا من الإباضية في موقفهم من مرتكبي الكبائر، ومن ثمَّ مسألة «الكُفر والإيمان» ، فبينما رأى الإباضية أنهم موحدون قال الصُّفرية بتكفيرهم.[٣]

الفرقة السادسة : الإباضية:

تنسب الإباضية إلى عبد الله بن إباض وهي إحدى الفرق الإسلامية التي ظهرت حوالي النصف الثاني من القرن الأول الهجري.

---

(١) الفرق بين الفرق للبغدادي، ص٧٤.

(٢) محمود إسماعيل عبد الرازق : «الخوارج في بلاد المغرب حتى منتصف القرن الرابع الهجري، الدار البيضاء، ص٤٥.

(٣) عامر النجار: في مذاهب الإسلاميين، ص١٠٢.

ويمكن لنا أن نقول مع عدد من الباحثين أن عقائد الإباضية تتفق مع أهل السنة بشكل عام في كثير من المبادئ مع وجود اختلافات في قضايا الفقه (سواء فيما يتعلق بالميراث أو الحضانة) غير أن مبادئ الإباضية في الإمامة عدم اشتراط «القرشية» في الإمام، فشرط الإمامة عندهم -كشرط الخوارج في هذا الشأن -أن يكون الإمام ورعا فاضلا ملتزمًا بأوامر الكتاب والسنة، ويرون أنه إذا خرج عن تعاليمها فإنه يجوز خلعه.[1]

ويرى الإباضية أن مخالفيهم من أهل القبلة كفار غير مشركين ومناحكتهم جائزة وموارثتهم حلال، وغنائم أموالهم عند الحرب من سلاح وكراع حلال ، وما سواه حرام، ويحرم قتلهم وسبهم وسبيهم في السر غدرًا إلا بعد نصب القتال وإقامة الحجة.

ويرون أيضًا أن دار مخالفيهم «دار توحيد» إلاّ معسكر السلطان، ويجيزون شهادة مخالفيهم، ومرتكب الكبيرة موحد غير مؤمن ، وأفعال العباد مخلوقة لله تعالى، ومرتكب الكبيرة كفره «كفر نعمة» لا كفر ملة (يخرج من دائرة الإيمان)، وهم يتوقفون في أطفال المشركين.[2]

ويلاحظ زكي نجيب محمود ملاحظة هامة على سير فرق الخوارج برمتها، فوجدها تزداد ميلًا نحو التسامح كلما تقدم معها الزمن فأدلهم ظهورًا هو أشدهم تزمتا وآخرهم أكثرهم تساهلًا في معاملة مخالفيهم، فبينما «الأزارقة» تضيف في الحكم بقتل المخالف نساءه وأطفاله، ترى «الصُّفرية» من بعدهم لا يقرون أخذ النساء والأطفال بجريدة الرجل المخالف كما ترى قصر الذنوب الكبيرة التي تستدعى الحكم بالكفر أو بالشرك على تلك التي لم يرد بشأنها حد في الكتاب، وتأخذ فرقة «النجدات» بتسامح «الصُّفرية» وتضيف إليها تسامحًا آخر ، وهو ألا يتهم المذنب بالكفر أو بالشرك إلا في حالة تجمع عليها الأمة، أما إذا ما اختلف الرأي فعندئذ يترك أمر المذنب لاجتهاد الفقهاء، وأخيرًا تجيء «الإباضية» بتسامح جديد حين قالت عن صاحب الذنب الكبير -مع إيمانه بالله وبكتابه - إنه كافر نعمة وليس هو بكافر دين.[3]

(١) في مذاهب الإسلاميين، ص١٧٢.

(٢) موسوعة العلوم السياسية، ص٢٢٩.

(٣) المعقول واللامعقول في تراثنا الفكري، ص٧٥،٧٦.

فذلكة أخيرة:

رغم أن الخوارج أضافوا «منهجًا جديدًا» في تولية الحكم وإدارة شؤون البلاد حتى تم وصفهم بـ«الجمهوريين» لاعتمادهم على البيعة لأي حاكم دون الاعتماد على حديث «الأئمة في قريش» واشترطوا العدل والصلاح حتى لو كان عبدًا حبشيًا أو أعجميا ، كما أن عقيدتهم «الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر» و«الخروج على الحاكم الظالم» والثورة عليه والانقضاض على سلطانه بعد أن أجار على المسلمين وظلمهم إلاّ إنهم وضعوا «أيديولوجية التكفير الأولى» بإكفارهم المسلمين، ومخالفيهم في الرأي، وتشددوا في التنفيذ حتى إنهم قتلوا مسلما وصحابيًا من أصحاب رسول الله، وبقروا بطن امرأته وهي حبلى دون وازع من ضمير أو رادع من قواعد الدين وأخلاق الإسلام وتعاليمه، بينما تركوا نصرانيا على اعتبار أنه من أهل الذمة لا يجب التعرض لهم كوصية نبيهم، بل رفضوا أن يحصلوا على جنا نخلة إلا بثمن، حتى كان هذا «الفعل المتناقض» مثار دهشة ذلك النصرانيّ ومناط استغرابه!!

- ويظهر من خلال تاريخ الخوارج وصراعهم مع الإمام علي والدولة الأمويّة من بعدهم أنهم وضعوا «مداميك التكفير الأولى» وإكفار المسلمين ، وكانت بواكيره مع بداية وجودهم ونشأتهم وظهورهم على المشهد السياسي، فهم الذين أدلجوا «التكفير»، وأعدوا له القواعد والتي من خلالها وصموا مخالفيهم من المسلمين بالتكفير والمروق من الملة.

وتجدر الإشارة هنا أن نوضح أن انبثاق الخوارج وظهورهم ارتبط بظروفٍ موضوعية بجوانبها السيّاسيّة والاقتصادية والاجتماعية، كما أنّ للخارجي فهمه الذاتي للنصوص ورؤيته لفهم قواعد الدين وتفسيره النصي البعيد عن الرأي والعقل والتأويل غير أننا نرى مرحلة الخوارج بتناقضاتها وفصامها الفكري يمكن أن تتكرر في أي لحظة تاريخية أخرى إذا ما توافرت الظروف الموضوعيّة والعقلية المتشددة والمتزمتة والنصوصية.

هناك ثمة رأي يذهب إلى أن التشدد في الفكر والسلوك يكون لفرق الخوارج الأولى، بينما ظهر التساهل والتسامح في المراحل المتأخرة لفرقهم رغم أن مبدأهم الأصلي واحد، واختلافهم في بعض «الفروع» بيد أن هذا الرأي تغافل عن التساهل والتسامح في فرع يجعله متشددًا في فرع آخر دون المساس بأصل المبدأ، ومن ثمّ يصعب

إخراج فرقة من الخوارج واعتبارها «معتدلة» أو «متسامحة» حيث أن منبعهم الفكري واحد يعتمد على الفهم النصوصي وحرفيته دون أن يبرحه، فلم يكن هناك ثمة مبرر لقبول فرق باعتبارها معتدلة من غيرها حيث أن الفهم النصوصي دون تأويل يؤدي إلى التشدد والتطرف والتكفير، ومن ثمَّ يؤدي إلى ارتباط التكفير بالإرهاب والعنف والإقصاء.

المطلب الثاني

الشيعة.. وقضية التكفير «المعكوس»

⌑ ⌑ ⌑ ⌑

الشيعة لغة: ذكر مجد الدين الفيروزآبادي (٧٢٩هـ-٨١٧هـ) في القاموس المحيط في أصل الكلمة: شاع يَشيع شيعًا وشيوعًا ومتشاعًا وشَيْعوعة كديمومةٍ وشيعانًا محرَّكة ذاع وفَشا ومهم شائع وشاعٌ ومشاعٌ غير مَقْسوم والشيع المقدارُ وولدُ الأسَدِ وشِيْعة الرجل بالكسر: أتباعُهُ وأنصارُهُ والفرقة على حدةٍ ويقع على الواحد والاثنين والجمْع والمذكر والمؤنث وقد غَلَب هذا الاسمُ على كُلِّ من يتولى عليًا وأهل بيته حتى صار أسْماهم خاصًا ج: أشياعٌ وشِيعٌ.[1]

ويقول ابن منظور (٣٦٠-٧١١هـ / ١٢٣٢-١٣١١م) صاحب لِسان العَرب: الشَّيْعُ: مقدارٌ من العدد كقولهم: أقمت عنده شهرًا أو شَيْع شهْرٍ، وفي حديث عائشة (رضي الله عنها): بَعْدَ بدرٍ بشهرٍ أو شَيعه أي أو نحو من شهر أو قريبا منه، والشِّيعة: القوم الذين يجتمعون على الأمر وكلُّ قوم اجتمعوا على أمر فهم شيعةٌ، وكل قوم أمرهم واحد يتْبع بعضهُم رأى بعض فهم شيعٌ جمع الجمع ويقال: شايَعَه كما يقال والاهُ من الوّليْ.

وأصل الشيعة الفِرقة من الناس، ويقع على الواحد والاثنين والجمع والمذكر والمؤنث بلفظ واحد، ومعنى واحد، وقد غلب هذا الاسم على من يتوالى عليّا وأهل بيته رضي الله عنه حتى صار لهم اسما خاصًا، فإذا قيل: فلان من الشِّيعة عرف أنه منهم، وفي مذهب الشيعة كذا أي عندهم، وأصل ذلك من المشايعة، وهي المتابعة والمُطاوعَة.

قال الأزهري: والشيعة قوم يهوون هوى عترة النبي ﷺ ويوالونهم، والأشياع

---

(١) مجد الدين محمَّد بن يعقوب الفيروزآبادي: القاموس المحيط، دار الحديث طباعة عام ١٤٢٩هـ ٢٠٠٨، ص٩٠٦.

أيضًا: الأمثال، وفي التنزيل: ﴿كَمَا فُعِلَ بِأَشْيَاعِهِمْ مِنْ قَبْلُ﴾ أي بأمثالهم من الأمم الماضية، والشيعة: الفرقة وبه فسرا الزجاج قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي شِيَعِ الْأَوَّلِينَ﴾، والشِّيعة: قوم يرون رأى غيرهم، وتشايع القوم: صاروا شيعًا، وشيع الرجل إذا ادَّعى دعوى الشيعة.[1]

الشيعة في القرآن الكريم:

ذكر الفعل «شيع» في القرآن سبع مواضع[2] تقوم على أصلها اللغوي:

الموضع الأول: تشيع: في قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَنْ تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ آمَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا﴾ (البقرة: ١٩).

ومشايع: أي انتشر وقوى. يقال: شاع الخبر وشاع القوم.

الثاني: الشِّيعة: الفرقة من الناس تبايع بعضها بعضًا، وشيعة الرجل: أولياؤه وأنصاره، ومن كان، والجمع: شيع وأشياع. يقول الله تعالى: ﴿ثُمَّ لَنَنْزِعَنَّ مِنْ كُلِّ شِيعَةٍ أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى الرَّحْمَنِ عِتِيًّا﴾ (مريم: ٦٩).

الثالث: شيعته: ﴿فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَذَا مِنْ شِيعَتِهِ وَهَذَا مِنْ عَدُوِّهِ﴾ (القصص: ١٥). من شيعته: أي من أوليائه وأنصاره.

الرابع: **شيع**: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي شِيَعِ الْأَوَّلِينَ﴾ (الحجر: ١٠) فرق لأولين.

الخامس: ﴿أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا﴾ (الأنعام: ٦٥) أي فرقًا.

السادس: **أشياعكم**: ﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا أَشْيَاعَكُمْ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ﴾ (القمر: ٥٠) أي: أوليائكم وأنصاركم أو من كان على منهجكم ورأيكم.

السابع: **بأشياعهم**: ﴿وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ كَمَا فُعِلَ بِأَشْيَاعِهِمْ مِنْ قَبْلُ﴾ (سبأ: ٥٣) أي من كان على منهجهم ورأيهم.

---

(١) ابن منظور: لسان العرب، دار الحديث، القاهرة، ١٤٢٢هـ، ٢٠٠٣م، المجلد الخامس، ص٢٤٩، وما بعدها.

(٢) في مذاهب الإسلاميين، ص٣٨٣، وما بعدها، ومعجم ألفاظ القرآن الكريم، نشر مجمع اللغة العربية، بالقاهرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٧٣، ص٦٦.

وهنا يبدو من خلال التفسير لهذه الآيات أنها فسرت اعتمادًا على أصلها اللغوي، وليس باعتبارها مصطلح، والذي تم إطلاقه على مفهوم الشيعة...

الشيعة اصطلاحًا: يعرف الشهرستاني الشيعة فيقول: هم الذي شايعوا عليا رضي الله عنه على الخصوص، وقالوا بإمامته وخلافته ووصيته إما جليًا وإما خفيًا، واعتقدوا أن الإمامة لا تخرج من أولاده وإن خرجت فبظلم يكون من غيره أو بتقية(*) من عنده.

وقالوا: ليست الإمامة بقضية مصلحة تناط باختيار العامة وينتصب الإمام بنصبهم، بل هي قضية أصولية، وهي ركن الدين لا يجوز للرسل عليهم السلام إغفاله أو إهماله ولا تفويضه إلى العامة وإرساله.

وتجْمَعُهُمْ -كما يذكر الشهرستاني: القول بوجوب التعيين والتنصيص وثبوت عصمة الأنبياء والأئمة وجوبا عن الكبائر والصغائر والقول بالتولي والتبري قولًا وفعلًا وعقدًا إلا في حالة التقية[1].

ونفس المعنى الذي طرحه الشهرستاني ذكره الجرجاني عن الشيعة فيقول: «هم الذين شايعوا عليا رضي الله عنه وقالوا: إنه الإمام بعد رسول الله ﷺ، واعتقدوا أن الإمامة لا تخرج عنه وعن أولاده»[2]

(*) يراد بالتقية المداراة – كما يذكر أحمد أمين – كأن يحافظ الشخص على نفسه أو عرضه أو ماله بالتظاهر بعقيدة أو عمل لا يعتقد بصحته، فمن كان على دين أو مذهب، ثم لم يستطع أن يظهر دينه أو مذهبه، فيتظاهر بغيره فذلك تقية! وعد قوم منها مداراة الكفار والظلمة والتبسم في وجوههم ونحو ذلك، وقد اختلف فيها الشيعة والخوارج وأهل السنة، فأكثر الشيعة يقول بها، بل منهم من قال: يجب إظهار الكفر لأدنى مخالفة أو طمع، وحملوا بيعة علي بن أبي طالب لأبي بكر الصديق (٥١ق.هـ - ١٣هـ = ٥٧٣- ٦٣٤) وعمر ابن الخطاب (٤٠ق.هـ - ٢٣ هـ = ٤٨٥-٦٤٤م) وعثمان بن عفان (٤٧ه. ق-٣٥=٥٧٧-٦٥٦م) على التقية (أي المداراة)، وكان كثير من الشيعة يكتمون تشيعهم «تقية» ويعملون سرًا، وأما أكثر الخوارج، فقالوا: إن التقية لا تجوز، ولا قيمة للنفس والعرض والمال بجانب الدين، بل منهم من كان يرى أنه لا يصلح قطع الصلاة إذا جاء سارق ليسرق متاعه وهو يصلي، أما أهل السنة فيتوسطوا، وقالوا: إن من خاف على نفسه أو ماله أو عقيدته وجب أن يهاجر من بلده، فإن لم يستطع أظهر التقية بقدر «الضرورة»، ووجب عليه أن يسعى في الخروج بدينه.. إلخ. انظر: فجر الإسلام لأحمد أمين، ص٤٣٤.

(١) الشهرستاني: الملل والنحل، ص١٢.

(٢) علي بن محمد الجرجاني: كتاب التعريفات، دار إحياء التراث العربي، بيروت، الطبعة الأولى ١٤٢٤هـ - ٢٠٠٣م، ص١٠٧.

وقدساير العديد من الباحثين والمفكرين الإسلاميين منهج الشهرستاني في التعريف، وحذو حذوه حتى ما ذكره من أصحاب المقالات والموسوعات السياسية والمهتمين بالجماعات الإسلامية، ولم يخرج العديد منهم عن هذا التعريف، ولم يتجاوز هذا الاصطلاح غير أن الاختلاف أثار عدة إشكاليات مرتبطة به ومتشابكة معه هي:

أولها: متى بدأ صك المصطلح وإطلاقه وبدايات التعريف بالشيعة في الصدر الأول للإسلام؟ حيث تعددت الآراء بين الشيعة وغيرها من المذاهب الأخرى.

ثانيها: هناك ثمة ثوابت للتشيع مهما تغيرت الفرق واختلفت الأزمنة يمكن أن نطلقها على من تمسك بها دون الاعتداد بالاختلاف في التفصيلات الأخرى والتي تعد من الفروع.

ثالثها: هل يمكن اعتبار أن التشيع صبغته الحقيقية والأصيلة إسلامية بحتة دون الاعتداد بقيام بعض الباحثين من إدخال عناصر فارسية أو رؤى يهودية وأن امتداد هذا النطاق يخرج الشيعة من إطارها الإسلامي؟!!

رابعها: ينبثق إشكالية هامة وهي: هل التشيع فكرة سياسية «بحتة» تتمحور حول الحكم ورئاسة الدولة؟ أم هي عقيدة دينية تعتمد على المرويات الإسلامية والدينية والتي تؤكد على ذلك؟

ولعل الأوراق التالية توضح بجلاء هذه الإشكاليات وتحاول حلحلة لها وكشف الضبابية التي اكتنفتها خلال التراكم التاريخي والحقب الزمانية....

(١) أصل المذهب الشيعي وإشكالية حول النشأة والتكوين

⌑ ⌑ ⌑ ⌑

حدث اختلاف بين الباحثين والمفكرين القدامى والمحدثين حول نشأة الشيعة وزمان ظهورهم وسبب نشأتهم، وهذا الاختلاف تمحور حول الميل العاطفي لعلي دون غيره تارة وبين الشيعة بمفهومها الاصطلاحي الفني والذي ينبني على أن مفهوم الشيعة تدور حول عقيدة «النص والوصية».

فقد رأى محمد أبو زهرة أن بدايات ظهور الشيعة كظاهرة وكمذهبية كانت في آخر عصر عثمان، ونما وترعرع هذا المنصب في عهد علي بن أبي طالب إذ كلما اختلط الناس به ازدادوا إعجابا بمواهبه وقوة دينه وعلمه، فاستغل الدعاة ذلك الإعجاب وأخذوا ينشرون آراءهم فيه ما بين رأي فيه مغالاة ورأي فيه اعتدال.[١]

ويرى أحمد أمين (١٨٨٦-١٩٥٤) أنه كانت البذرة الأولى للشيعة الجماعة الذين رأوا بعد وفاة النبي ﷺ أن أهل بيته أولى الناس أن يخلفوه وأولي أهل البيت العباس عم النبي وعليّ ابن عمه وعلي أولى من العباس بن عبد المطلب، والعباس لم ينازع عليًا في أولويته للخلافة – كما يذكر أمين – وإن نازعه في أولويته في الميراث في «فدك».

وقد ظهرت فكرة الدعوة لعليّ بسيطة كما يدل عليها التاريخ ، وتتلخص في أن لا نص على الخليفة، فترك الأمر لإعمال الرأي ، فالأنصار أدّاهم رأيهم إلى أنهم أولى بها والمهاجرون كذلك ، وأصحاب علي ، إلى أن الخلافة ميراث أدبي ولو كان النبي يورث في ماله لكان أولى به قرابته.[٢]

ويرى علي سامي النشار – أن الشيعة تكونت حقًا بعد مقتل الحسين عليه السلام (٤-٦١هـ = ٦٢٥-٦٨٠م) باعتبارها فرقة دينية، وظهرت كلمة الشيعة الحسينية على يد المختار بن أبي عبيد الثقفي وهي الشيعة التي تنتسب إلى محمد بن علي بن أبي طالب

---

(١) تاريخ المذاهب الإسلامية، ص٣٩.

(٢) فجر الإسلام ، ص٤٢١.

المشهور بابن الحنفية، وقد اجتمعت عليه الشيعة في الكوفة وقتل قتلة الحسين بن علي جميعًا، حتى قتل، وفي الكوفة بعد مقتل المختار بن أبي عبيد أخذت الشيعة تتكون كفرقة دينية كلامية تضع أصول التشيع، ولكن لم تصل الشيعة إلى وضع مذهبها النهائي إلا في عهد إمامة جعفر الصادق (٨٠-١٤٩=٦٩٩-٧٦٥م) أي أن الشيعة كمصطلح لم يظهر إلا بعد استشهاد الحسين بن علي.[١]

وقد ساير رأي النشار عامر النجار حيث قال: وفي رأينا أن الشيعة كمصطلح لم يظهر إلا بعد استشهاد الحسين بن علي رضي الله عنهما.

ويرى محمد عمارة في تفسيره لبدايات الشيعة وانبلاج إرهاصاتها الأولى أنه إذا كان المقصود بالتشيع والشيعة معنى الميل إلى إمارة علي بن أبي طالب والطموح إلى تقديمه وتفضيله على غيره من الصحابة فإننا نجد جماعة غير منظمة تجمعها هذه الآراء والأماني منذ أن طرحت قضية الإمارة عقب وفاة الرسول عليه الصلاة والسلام، ولقد استمرت هذه الجماعة غير المنظمة – كما يقول عمارة – واستمر هواها مع علي وبني هاشم دون أن يتعدى ذلك نطاق الهوى والأمنيات.

غير أن الذي يميز الشيعة من غيرهم – كما يذكر عمارة – هو عقيدة «النص والوصية»، فالتأريخ لنشأة الشيعة مقترن بالفترة الزمنية التي نشأت فيها عقيدة النص ودعوى الوصية من الرسول إلى علي بن أبي طالب، ومن ثم استصوب عمارة – ما ذهب إليه المعتزلة عندما قالوا: إن فترة إمامة جعفر الصادق وهي التي نهض فيها هشام بن الحكم بدور واضع قواعد التشيع ومهندس بنائه الفكري هي الفترة التي يؤرخ بها هذه النشأة.[٢]

بيد أن الشيعة ومن لف لفهم وسار على منهجهم لهم رأي آخر في بداية الشيعة وأصلها وأصولها وهذا الرأي مغاير ما رآه أهل السنة في البواكير الأولى للتشيع وعلى رأس هؤلاء محمّد الحسين آل كاشف الغطاء (١٢٦٤-١٣٧٣هـ=١٨٧٧-١٩٥٤م) حيث ذكر : إن أول من وضع بذرة التشيع في حقل الإسلام هو نفس صاحب الشريعة الإسلاميّة يعني أنّ بذرة التشيع وضعت مع بذرة الإسلام جنبا إلى جنب،

---

(١) علي سامي النشار: نشأة الفكر الفلسفي في الإسلام، دار المعارف، الطبعة الثانية، الجزء الثاني، ص٣٥.

(٢) محمد عمارة: الإسلام وفلسفة الحكم ، دار الشروق، ص١٣٥.

وسواء بسواء، ولم يزل غارسها يتعاهدها بالسقي والعناية حتى نمت وازدهرت في حياته ثم أثمرت بعد وفاته[1].

واعتبر كاشف الغطاء في شهادته على الأحاديث الشريفة المروية عن علماء السنة وأعلامهم ومن طرقهم الوثيقة تمثل ذلك ما رواه السيوطي في كتابه (الدر المنثور في تفسير كتاب الله بالمأثور) في تفسير قوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ﴾. قال: أخرج ابن عساكر عن جابر بن عبد الله قال: كنا عند النبي ﷺ فأقبل عليّ عليه السّلام فقال النبي: «**والذي نفسي بيده أن هذا وشيعته لهم الفائزون يوم القيامة**».

ونزلت: ﴿**إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ**﴾، وأخرج ابن عدي عن ابن عباس قال: لما نزلت: ﴿**إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ**﴾ قال رسول الله ﷺ لعلي عليه السلام: «هو أنت وشيعتك يوم القيامة راضين مرضيين»، وروى بعض هذه الأحاديث ابن حجر في (صواعقه) عن الدارقطني، وحدّث أيضًا عن أم سلمة أن النبي ﷺ قال: «يا علي أنت وأصحابك في الجنة».

وهناك كثير من الأحاديث المروية عند أئمة الحديث من علماء السنة وأكثرها يروى في الصحيحين مثل قوله ﷺ: «**عليّ مني بمنزلة هارون من موسى**»[2]

ومثل: «لا يحبك إلا مؤمن ولا يبغضك إلا منافق».

وفي حديث الطائر: «اللهم ائتني بأحب خلقك إليك»[3].

ومثل: «لأعطين الراية غدًا رجلًا يُحب الله ورسولهُ ويحبه الله ورسوله»[4].

ومثل: «إني تارك فيكم الثقلين: كتاب الله وعترتي أهل بيتي»[5].

---

(١) محمد الحسين آل كاشف الغطاء: أصل الشيعة وأصولها – دار البيان – بدون تاريخ للنشر، تحقيق علاء آل جعفر، ص١٨٤.

(٢) انظر: صحيح البخاري ٥: ٢٤، سنن ابن ماجه ٤٢٠١/ ١١٥، صحيح مسلم ٤: ٢٤٠٤، سنن الترمذي ٥: ٣٦٨/ ٣٧٢٤و ٦٤٠/ ٣٧٣١.

(٣) سنن الترمذي ٥: ٦٣٦/ ٣٧٢١، أسد الغابة ٤: ٣٠، مستدرك الحاكم ٣: ١٣٠.

(٤) صحيح البخاري: ٤٧: ٦٥ و ٧٣، سنن الترمذي ٥: ٦٣٨/ ٣٧٢٤.

(٥) سنن الترمذي ٥: ٦٦٢/ ٣٧٨٦ و٦٦٣/ ٣٧٨٨، مسند أحمد ٣: ١٧ و ٥: ١٨١.

و«علي مع الحق والحقُّ مع علي» . [1]

ورغم أن – كاشف الغطاء – الشيعي «العقيدة والمذهب» كان حريصًا على تأصيل الشيعة، وانتساب بذرتها إلى الرسول ﷺ، فإن عبد المنعم الحفني في «موسوعته عن الفرق والجماعات الإسلامية» ، وهو من أهل التسنن قد قارب الشيخ الشيعي في رؤيته، فذكر: يبدو أن التشيع لعليّ وآله ظهر في حياة النبي ﷺ وأظهرته الأحاديث التي وضعها الشيعة، ونسبوها إليه، ومنها: «من كنت مولاه فهذا علي مولاه، اللهّم والِ مَن والاه وعاد مَن عاداه، وانصُر من نصره، واخذل من خذله، وأدر الحق معه كيفما دار»، و الحديث المزعوم : «هذا أخي ووصيّ وخليفتي من بعدي» قوله المُدّعى: «أنت مني بمنزلة هارون من موسى إلا أنه لا نبي بعدي»، وقوله: «أنا مدينة العلم وعلي بابها»، وكانت لعليّ جماعته حتى في زمن النبيّ ﷺ ، وهي أول جماعة من الشيعة يُطلق عليها اسم «الشيعة العلوية» ، منها: المقداد بن الأسود، وسلمان الفارسي، وأبو ذر الغفاري، وعمّار بن ياسر، وأبيّ بن كعب، وحُذيْفة وبُريْدة، وأبو أيوب الأنصاري، وهؤلاء كانوا منقطعين إليه، ويقولون بإمامته، وينسبون إلى سلمان قوله: «بايعنا رسول الله ﷺ على النصح للمسلمين والائتمام بعليّ! ».

ويفرق المؤرخون –كما يذكر الحفني – بين هذا التشيّع الذي ظهر مبكرًا، واشتد أثناء فتنة عثمان، وبين التشيع العسكري بخروج عليّ لقتال طلحة والزبير وعائشة، والخوارج ومعاوية ، وأدّى إلى مقتل عليّ، واستفحل بعد مقتل الحسين بن عليّ، والتشيع الاصطلاحي الذي تطوّر ، وصار مذهبا له أصوله وقواعده على يد الباقر والصادق، ثم على أيدي فقهائهم: الشيخ المفيد (المتوفى سنة ٤١٣)، والكليني (المتوفى سنة ٣٢٨هـ) ، والقُمّي (ت٣٨١هـ)، والطوسي (ت ٤٦٠هـ)، وسمي مذهبهم الفقه الجعفري، وتضمنته مؤلّفات: «الأصول الأربعمائة» و«الكافي» ، و«من لا يحضره الفقيه» ، و«الاستبصار فيما اختلف من الأخبار» . [2]

---

(١) انظر : تاريخ بغداد ١٤ : ٣٢١ ، مستدرك الحاكم ٣ : ١٢٤ .

(٢) عبد المنعم الحفني: موسوعة الفرق والجماعات والمذاهب والأحزاب والحركات الإسلامية، مكتبة مدبولي، الطبعة الثالثة، ٢٠٠٥، ص٤٣١، ٤٣٢.

ويمكن للباحث أن يورد عدة ملاحظات -على ما ذكره كاشف الغطاء والحفني بخصوص الشيعة وأصولها تتمثل في التالي:

الأولى: أن الباحثين (كاشف الغطاء والحفني) قد ذكرا أن أصول التشيع ظهر في عهد الرسول ﷺ، وإن كان الأول قد ذكر أن الرسول هو من تعهد بالسقيا والعناية لبذرة التشيع، بينما أكد الثاني أن الأحاديث التي نسبت للرسول كانت منتحلة من وضع الشيعة ومن تفسيراتهم المأولة.

الثانية: تبين من خلال ما ورد بخصوص الأحاديث «المزعومة» والخاصة بالإمام علي أنها موجودة فعلا في صحيح البخاري والترمذي وابن ماجه وكذلك مسند أحمد ابن حنبل، وليست منتحلة أو من عنديات الشيعة -كما يذكر الحفني -ولكن يبدو أن الخلاف بين الباحثين في تفسيرهما لهذه الأحاديث واتجاهها، فاعتبرها الثاني منتحلة ومن وضعية الشيعة نظرًا لاعتمادهم عليها، بينما أكد الأول على وجودها في الصحاح، وهذا صحيح فعلًا.

الثالثة: أنه على الرغم من اعتراف الباحث بوجود جذور للتشيع في عهد الرسول ﷺ، ولكن الحفني أكد على أن التشيع بمعناه الاصطلاحي لم يحدث إلا في عهد الباقر وجعفر الصادق حيث صار مذهبا وله أصوله وقواعده كما كان للفقهاء الشيعة من بعدهما دور في هذا التأسيس وهو الشيخ المفيد والكلّيني والقُميّ والطوسي ، والذين أسسوا للفقه الجعفري ، بينما يرى الأول أن الجذور الأولى للتشيع فكريا كانت في العهد النبوي، وما حدث بعد ذلك يعتبره البعض شروحات للمذهب.

ومن الملفت في شأن الإمام عليّ وشخصيته أن تجدها مملوءة بالمناقب والمزايا، والتي كانت محل اهتمام بالغ لمن اقترب منه أو اختصمه، فنجد أحمد بن حنبل (١٦٤-٢٤١هـ= ٧٨٠-٨٥٥م) يقول: ما ورد لأحد من أصحاب رسول الله ﷺ من الفضائل ما ورد لعليّ رضي الله عنه، وأخرج ابن عساكر عن ابن عباس قال: نزلت في عليّ ثمانمائة آية. [1]

---

(١) جلال الدين عبد الرحمن السيوطي: تاريخ الخُلفاء، مكتبة مصر، الطبعة الأولى، ١٤٢٢هـ ٢٠٠١م، ص١٧٦.

بعد مقتل عليّ على يد الشقي عبد الرحمن بن ملجم استدعى معاوية بن أبي سفيان ضرار الصدائي ليصف له عليّا وهو من أنصاره، فقال: أما إذا أذنت فلابد من صفته، كان والله بعيد المدى (بعيد النظر) ، شديد القوى، يقول فصلا (حقًا)، ويحكُمُ عدلًا يتفجرُ العلم من جوانبه، وتنطق الحكمةُ من نواحيه، يستوحش من الدنيا وزهرتها، ويستأنس بالليل وظلمته، كان والله غزير الدمعة، طويل الفكرة، يقلب كفه، ويخاطب نفسه، يُعجبه من اللباس ما قصر، ومن الطعام ما خشُن، وكان فينا كأحدنا يجيبنا إذا سألناه، وينبئنا إذا استنبئناه، ونحن مع تقريبه إيانا وقربه منا لا نكاد نكلمه لهيبته ، ولا نبتدئه لعظمته.[١]

وحينما انتهى ضرار من وصفه بكى معاوية (خصمه) [*]حتى أخضلت دموعه لحيته، وقال: رحم الله أبا الحسن، فلقد كان كذلك، فكيف حزنت عليه يا ضرار؟ قال: حُزْن من ذُبح واحُدها في حجرها؟

ومن المستغرب في حياة علي وسيرته أن الرجل الرباني قد تعرض من قبل لهذا الحب الفياض والكراهية المقيتة من معاصريه (وبعد ذلك بأعصر ممتدة)، ولم يكن هناك تصويرا صادقا غير ما قاله الشعبي عن حوار بين أحد معاصريه وصديقا له، أتدري ما مثل علي في هذه الأمة؟ إن مثله كمثل عيسى ابن مريم أحبه قوم فهلكوا في حبه، وأبغضه قوم حتى هلكوا في بغضه. [٢]

---

(١) محمد عطية الإبراشي: الشخصية المكتبة الثقافية، العدد ٩ ، ص٧٣.

(*) ولا أدري على أي شيء بكى معاوية رغم أنه استن سنة سيئة بلعن الإمام علي من فوق منابر المساجد، واستمرت حتى لغاها عمر بن عبد العزيز.

(٢) محمد خالد: أعلام الصحابة ، المكتبة الثقافية ، ص٥٧.

(٢) عبد الله بن سبأ واليهودية وعقائد الشيعة
حقيقة التأثير والتأثر

⌑ ⌑ ⌑

لا يمكن بحال من الأحوال أن نناقش قضايا الشيعة ومفهوم التشيع ، ولا نتطرق لمناقشة دور عبد الله بن سبأ والسبئية ، ومدى ارتباطه بالتشيع والغلو في عليّ، كما أنه لا نستطيع أن نتغافل عن تفسيرات أهل السنة والتسنن في تضخيم دور ابن سبأ وإبراز نظرية البروفسور «سمل» الباحث الاجتماعي في بحثه عن «الغريب» والذي يتمحور حول عزو أية انتفاضات اجتماعية إلى تأثير الأجنبي[(١)]

أي أن الأمر به مخطط سري وتآمر حقيقي ضد الدولة، وهذا التخطيط السري يجمع أعداء الإسلام منذ ظهور ابن سبأ والذي أفسد أمور المسلمين كثيرًا، فقد دأب العديد من المؤرخين والباحثين الإسلاميين وسايرهم عديد من المستشرقين أنّ عبد الله ابن سبأ ، والذين زعموا بأن أصله يهوديا من صنعاء اليمن حبشي الأم أظهر الإسلام في عصر عثمان ، واندس بين المسلمين ، وأخذ يجوب ويتنقل بين حواضرهم وعواصم بلادهم: الشام والكوفة والبصرة ومصر ، مبشرًا بأن للنبي محمّد رجعة كما أنّ لعيسى ابن مريم رجعة، وأن عليّا هو وصيّ محمّد، فلكل نبي وصي، وأنّ عليّا خاتم الأوصياء، كما كان محمد ﷺ خاتم الأنبياء، وان عثمان غاصب لهذا الحق وظالم فيه فيجب مناهضته لإرجاع الحق إلى أهله.[(٢)]

ولم يشأ هذا المخطط أن يتوقف فقد أخذ ابن سبأ على نفسه أن يتنقل في الأمصار يكيد للخليفة ويغري به، ويحرض عليه الناس أيما تحريض، ويذيع فيهم آراء محدثة أفسدت عليهم رأيهم في الدين والسياسة جميعًا قالوا: إنه ذهب إلى البصرة ، فلم يكد يستقر فيها حتى رفع أمره إلى عبد الله بن عامر فأخرجه عنها، فذهب إلى الشام، وهناك

(١) علي الوردي: وعاظ السلاطين، دار العراق للنشر ، ٢٠٠٩، ص١٣٣.

(٢) مرتضى العسكري : عبد الله بن سبأ وأساطير أخرى، مجلدان في كتاب واحد، المجمع العلمي الإسلامي، طهران ، الطبعة الأولى، ١٤١٧هـ ق/ ١٩٩٧م، ص٣٣.

لقى أبا ذر الغفاريّ فلام عنده معاوية في قوله عن مال المسلمين: إنه مال الله، وتأثر أبو ذر بحديث «ابن السوداء». فكلم معاوية ، ثم لقى عبادة بن الصامت، وأراد أن يتحدث إليه بمثل ما تحدث به إلى أبي ذر، فتعلق عبادة وقاده إلى معاوية ، وخوفه شره على الشام، فأخرجه معاوية من الشام، فذهب إلى مصر، وفي مصر وجد أرضا خصبة لكيده ومكره وبدعه.(١)

ويذكر بعض المؤرخين إن ابن سبأ قام بأعمال عديدة ، علاوة على تحريضه أبا ذر ، فهو في رأيهم كان المحرّض الرئيسي الذي حرّك الثورة على عثمان بن عفان بعد أن نظم في الأمصار جماعات خفية تستر بالكيد وتتداعى فيما بينها إلى الفتنة، حتى إذا ما تهيأت لها الأمور وثبت على الخليفة، وهو الذي منع من وقوع الصلح بين علي وعائشة في واقعة الجمل المشهورة. (٢)

ولا غرو أن المؤرخين والباحثين قد انقسموا بشأن ابن سبأ إلى فريقين أحدهما يعتبره خرافة أو أسطورة أو وهم من الأوهام ، وأن ما نسب إليه من أحداث ليست من صنعه، وإنما لفقت من قبل آخرين ونسبت إليه دون فعل يستحقه أو عمل يستوجبه، ومن هذا الفريق ما ذكره مرتضى العسكري، والذي أصدر كتابًا عن عبد الله بن سبأ والسبئية كما توفيناها ، واختلقها سيف بن عمر، وقد بين منهجه الفكري الرصين على إنكار وجود ابن سبأ ، منطلقًا من الطعن في رواية سيف بن عمر التميمي، والذي اعتمد عليه إمام المؤرخين القدامى أو جعفر محمد بن جرير بن يزيد الطبري (٢٢٤-٣١٠هـ = ٨٣٩-٩٢٣م) في كتابه «تاريخ الأمم والملوك»، والذي نقله عنه ابن الأثير في كتابه «الكامل في التاريخ» وابن كثير (٧٠١-٧٧٤هـ = ١٣٠٢-١٣٧٣م) ، في كتابه «البداية والنهاية» وإسماعيل بن علي بن عماد الدين (المتوفي ٧٣٢هـ) في كتابه (المختصر في أخبار البشر) ، وقدساير عديد من الباحثين الإسلاميين المتأخرين الطبري في هذا الأمر لاعتماده على رواية سيف بن عمر مثل محمد رشيد رضا (١٢٨٢-١٣٥٤هـ= ١٨٥٦-١٩٣٥م) في كتابه السنة والشيعة، ومحمد فريد وجدي ، وكذا أحمد أمين (١٨٧٨-١٩٥٤) في فجر الإسلام.

---

(١) طه حسين: الفتنة الكبرى، عثمان ، دار المعارف، ص١٣١.

(٢) وعاظ السلاطين ، ص١٢٩.

ورغم اعتماد هؤلاء على رواية سيف بن عمر التميمي إلا أن وصف يحيى بن معين (ت٢٣٣هـ) قد وصف الأحاديث التي يرويها بأنها ضعيفة ووصفه أبو داود (ت٢٧٥هـ) بأنه ليس بشيء وأنه كذاب وكذلك وصف أحمد بن شُعيب بن علي النسائي (٢١٥-٣٠٣هـ=٨٣٠-٩١٥م) صاحب الصحيح بأن سيف ضعيف متروك الحديث ليس بثقة ولا مأمون.

ومن هذا الفريق والذي رفض هذه الشخصية الباحث عبد العزيز صالح الهلابي من خلال كتابه «عبد الله بن سبأ دراسة للروايات التاريخية عن دور الفتنة» ، ويرى – أيضًا – علي آل محسن في كتابه «عبد الله بن سبأ دراسة وتحليل» أن شخصية عبد الله بن سبأ ما هي إلا أوهام وخيالات لا واقع لها ولم يقم عليها دليلًا ولا برهان، كما يرى سيد هادي خسرو شاهي في كتابه «عبد الله بن سبأ بين الواقع والخيال» بأنه «لا وجود لشخصية باسم عبد الله بن سبأ» مدعمًا رأيه بما توصل إليه مرتضى العسكري مع مناقشة بعض نتائجه.[1]

أما الفريق الآخر والذي أقر بوجود عبد الله بن سبأ ما ذكره سعدي الهاشمي في كتابيه عن ابن سبأ: الأول بعنوان «عبد الله بن سبأ حقيقة لا خيال» والكتاب الثاني وهو معنون بـ «الرواة الذين تأثروا بابن سبأ».

ويسير على هذا المنهج سليمان بن حمد العودة في كتابه الموسوم «عبد الله بن سبأ وأثره في أحداث الفتنة في صدر الإسلام»، ومحمد علي المعلم في كتابه «عبد الله بن سبأ الحقيقة المجهولة» وعلي عبد الرحمن السلمان في كتابه «عبد الله بن سبأ وإمامة علي بن أبي طالب» ، وأبو الحسن علي الرازجي في كتابه «توضيح النبأ عن مؤسس الشيعة عبد الله بن سبأ» وعبد الله سالم مليطان في كتابه «الحقيقة السبئية وعمق صلتها بالفكر الشيعي» ، والذي أشار إلى جملة من الحقائق العامة كما يراها وهي:

أولًا: إنه من أهل صنعاء كان يهوديا.

ثانيًا: إنه رجع إلى الكفر وأظهر الغلو.

---

(١) عبد الله سالم مليطان: الحقيقة السبئية وعمق صلتها بالفكر الشيعي، مكتبة مدبولي، الطبعة الأولى، ٢٠١١م، ص٣٩،٤٠.

ثالثًا: إنه ضمن الغُلاة من المتظاهرين بالإسلام.

رابعًا: كان يقول بأن عليًا كرم الله وجهه لم يمت وأنه لا يموت حتى يسوق العرب بعصاه.

خامسًا: إنه كان يدّعي النبوة ويزعم أن أمير المؤمنين كرم الله وجهه هو الله.

سادسًا: إنه غال ملعون يزعم ألوهية علي ونبوته.

سابعًا: إنه أول من أظهر الطعن على أبي بكر وعمر وعثمان رضي الله عنهم والصحابة.

ثامنا: إن له طائفة وفرقة يصدقونه ويتبعونه.

تاسعًا: إنه وفرقته نسبوا عليًا كرم الله وجهه والأئمة من ذريته إلى الإلوهية.

عاشرًا: إن عليًا حكم فيهم – هو وأصحابه – بالقتل والتحريق بالنار. (1)

ويرى مليطان أن المغالاة في إنكاره (ابن سبأ) من قبل بعض علماء الشيعة المتأخرين وبهذه الحدة هو بلا شك مدعاة إلى تأكيد التهمة بأن ابن سبأ كان من المروجين لعليّ والمغالين فيه ، وإلى اتصال الأفكار الشيعية لما طرحه من أفكاره مع تأكيده أنه ليس من المنطقي أن يكون عبد الله بن سبأ مؤسسًا للتشيع، ولكن هذا المنطق – كما يذكر مليطان –لا يمنع من القول بأن بعض الأفكار التي يتبناها الشيعة كانت من دسائس ابن سبأ في الفكر الإسلامي فعلا إذ أننا لو أجرينا مقارنة ببعض الأفكار التي يطرحها الشيعة مع الفكر الديني اليهودي لوجدنا تناصًا واضحًا بين بعض الأفكار الشيعية ونصوص العهد القديم. (2)

ويمكن لنا أن نقول من خلال ما تم طرحه ومناقشته سالفًا بأنه سواء اقتنعنا برأي طه حسين في وهمية الشخصية استنادًا على أنه لم يجد لابن سبأ ذكرًا في المصادر التاريخية المهمة والمتصلة بأحداث عثمان حيث لم يذكره ابن سعد ، ولم يذكره أيضا البلاذري في أنساب الأشراف أو اقتنعنا – أيضًا برأي علي الوردي بأن الأعمال

---

(1) الحقيقة السبئية وعمق صلتها بالفكر الشيعي، ص٤٩.

(2) الحقيقة السبئية وعمق صلتها بالفكر الشيعي، ص٤٨، ٤٩.

العظيمة التي تنسب إلى عبد الله بن سبأ لا يمكن أن يقوم بها إلاّ عبقري أو ساحر أو منوّم مغناطيسي من طراز فذّ، كما أن - الوردي -لم يجد في التاريخ حكاية وهمية تروح وتبقى على توالي الدهور مثل حكاية ابن سبأ السخيفة والذي أدهشه أنّ يجد المذاهب الإسلامية على اختلاف أنواعها تؤمن بحكاية ابن سبأ وتبني عليها كثيرًا من آرائها ، ولعل هذه الحكاية قد لاءمت أغراض جميع المذاهب فتمسكوا بها وأخذوا يستندون عليها في كل وجه.

بيد أننا لو اقتنعنا بوجود هذه الشخصية «الهلامية» و«أساطيرها» إلّا أننا لن نقبل مطلقا بكل ما أثير حولها ونسج من ترهاتها أن هناك ثمة مخطط سري وخلية تدميرية للإسلام، وتقويض صرحه وكان وراء هذا «المخطط المزعوم» منظمة ما لنقل اليهودية كانت توظف العملاء، وتستقطب العنصريين الحاقدين، وتمارس أبشع أنواع التخفي والتستر والتقية والتدليس تحت غطاء ممارسة الشعائر الإسلاميّة من أجل التخريب والتدمير الثقافي بشكل عام.(١)

هذا المفهوم يصل في النهاية إلى تدشين «نظرية المؤامرة» والتي يراها – البعض – تحكم حركة التاريخ وصيرورته ، وهذا ليس من دأبنا الفكري أن نجعل تاريخنا العربي الإسلامي في كل مناحيه وشتى جوانبه يخضع لمفهوم «المؤامرة» ويرتهن بالتآمر عليه من مجموعة من المتآمرين أمثال عبد الله بن سبأ وكعب الأحبار وغيرهما من اليهود «الأصلاء» والذين دخلوا الإسلام لتدمير أركانه وتفجيره من الداخل، حيث سيكون ذلك مشجبا نعلق عليه مبررات كل الأحداث التاريخية لإبعادها عن أسبابها الحقيقية وعللها القريبة..!!

علاوة على أننا لو قبلنا بهذه الشخصية (ابن سبأ) بصورتها المنقولة فلن نقبل بأي حال من الأحوال إضفاء أدوار مهمة يقوم بها جيش عرمرم وعبقرية في الأداء تصل إلى مصاف العظماء الذين يفجرون الثورات والتآمرات ويحرضون على الحكام لإثارة الفتن والصراعات من خلال أدوارهم التاريخية!!

---

(١) الحقيقة السبئية وعمق صلتها بالفكر الشيعي، ص ٣١.

(٣) نظرية الإمامة الشيعية .. وإشكالية التأليه والتكفير

⌑ ⌑ ⌑ ⌑

لم نشأ أن نناقش مبدئيا نظرية الإمامة لدى الشيعة الإمامية – وفي القلب منها الإثنى عشرية – لأنها تمتلك جمهرة بإيران والعراق وملايين من مسلمي الهند ومئات الألوف في سوريا والأفغان(*) وفقط وإنما ينضاف إلى ذلك ما تثيره الشيعة من إشكاليات خاصة بتأليه الإمامة والأئمة وتكفير المخالفين لها بالرأي والمناقضة في وصفية الإمامة بأنها أصل من أصول الدين والاعتقاد والجدير بالبيان في هذا الأمر أن الشيعة وفقهاءها ومدارسها الإخبارية الأصولية تعتقد بأن الأئمة الذين هم الإمامة «الحقة» هم المرجعية في الأحكام الشرعية المنصوص عليهم بالإمامة اثنا عشر إماما نص عليهم النبي صلى الله عليه وآل وسلم جميعًا بأسمائهم ثم نص المتقدم عنهم على من بعده على النحو الآتي:

١) أبو الحسن علي بن أبي طالب «المرتضى« (٢٣ ق.هـ – ٤٠هـ).

٢) أبو محمد الحسن بن عليّ «الزكي» (٢هـ – ٥٠هـ).

٣) أبو عبد الله الحسين بن علي (سيد الشهداء) (٣هـ – ٦١هـ).

٤) أبو محمد علي بن الحسين «زين العابدين» (٣٨هـ–٩٥هـ).

٥) أبو جعفر محمّد بن عليّ «الباقر» (٥٧هـ–١١٤هـ).

(*) تقدر الشيعة ونسبتها حسب بعض الإحصائيات التقريبية على النحو التالي:
١٥ – ٢٠ إمامي في أفغانستان وأذربيجان ٧٥–٨٠٪ إمامي ، وفي البحرين ٦٠–٦٥٪ إمامي، وفي الهند ٣–٥٪ إمامي وإسماعيلي ، وفي إيران ٨٠–٨٩٪ إمامي وفي العراق ٥٠–٦٥٪ إمامي، وفي الكويت ٣٠٪ إمامي، وفي لبنان ٣٠–٣٣٪ إمامي – درزي ، وفي عمان ٢٪ إمامي، وفي باكستان ١٨٪ إمامي، وفي قطر ١٠٪ إمامي، وفي السعودية ٥٪ إمامي وإسماعيلي، وفي سوريا ١٥٪ نصيري/ إمامي/ درزي، وفي تركيا ١٢٪ نصيري، وفي الإمارات ١٦٪ إمامي، وفي كينيا ٣٪ إسماعيلي ، وفي الصين ١٪ إسماعيلي..
لزيادة التفاصيل: انظر: الشيعة في الشرق الإسلامي للدكتور عاطف معتمد عبد الحميد، مكتبة نهضة مصر ، ٢٠٠٨، ص٢٧، وما بعدها.

٦) أبو عبد الله جعفر بن محمد «الصادق» (٨٣هـ - ١٤٨هـ).

٧) أبو إبراهيم موسى بن جعفر «الكاظم» (٨٣هـ-١٤٨هـ).

٨) أبو الحسن علي بن موسى «الرضا» (١٤٨هـ - ٢٠٣هـ).

٩) أبو جعفر محمد بن عليّ «الجواد» (١٩٥هـ-٢٢٠هـ).

١٠) أبو الحسن علي بن محمّد «العسكري» (٢٣٢هـ-٢٦٠هـ).

١١) أبو محمد الحسن عليّ «العسكري» (٢٣٢هـ-٢٦٠هـ).

١٢) أبو القاسم محمد بن الحسن «المهدي» (٢٥٦هـ -.........)

ونستطيع أن نقول - بعد ذلك - أن هناك اتفاق بين فقهاء الشيعة ومدارسها الإخبارية والأصولية على اعتقادين أصوليين:

الأول: أن الإمامة أصل من أصول الدين لا يتم الإيمان إلاّ بالاعتقاد بها ولا يجوز فيها تقليد الآباء والأهل والمربّين مهما عظموا وكبروا، بل يجب النظر فيها كما يجب في التوحيد والنبوة.

فالإمامة - في اعتقاد الشيعة الثاني - كالنبوة لطف من الله تعالى (ولكنه لطف عام ممتد) فلا بد أن يكون في كل عصر إمام هاد يخلف النبي في وظائفه من هداية البشر وإرشادهم إلى ما فيه الصلاح والسعادة في النشأتين، وللإمام ما للنبي من الولاية العامة على الناس لتدبير شؤونهم ومصالحهم وإقامة العدل بينهم ورفع الظلم والعدوان من بينهم.(١)

والإمامة لا تكون إلا بنص من الله تعالى على لسان النبي أو لسان الإمام الذي قبله، وليست هي بالاختيار أو الانتخاب من الناس فليس لهم إذا شاءوا - كما يذكر محمد رضا المظفر - أن نصّبوه أحدًا وإذا شاءوا أن يعيّنوا لهم إمامًا عيّنوه.(٢)

ويستند الشيعة على أدلة عقلية وأخرى نقلية - كما يذكر أحمد محمود صبحي - على أن الإمامة منصب إلهي يتم بالنص لا بالاختيار.

---

(١) محمد رضا المظفر: عقائد الإمامية، المجمع العالمي لأهل البيت، تاريخ النشر ٢٠١٢، ص٥١.

(٢) محمد رضا المظفر : مرجع سابق ذكره، ص٥٢.

الأدلة العقلية:

(١) لا يجوز إسناد أمر الإمامة إلى المكلفين لأنها من أحوال الدين ، وإذا كان الله يريد من عبادة الطاعة فإنها لا تتم إلاّ بإمام منصوص عليه من جهته

(٢) إذا كان الله قد أوجب على الأنبياء أن يعينوا قبل مماتهم خلفاء لهم وكان من سنة رسول الله ﷺ إذا خرج في «غزوة» أن يعين من يقوم مقامه الشريف في «المدينة» ولم يترك ذلك إلى اختيار الرعية فإذا لم يترك ذلك لهم في حياته فكيف تركه لهم لبعد مماته) (انظر الحسين المظفري : الشيعة والإمامة ص١٦٧).

(٣) وكيف يكون الإمام خليفة الله أو خليفة رسول الله وهما لم يستخلفاه، إنه ينبغي القول إنه خليفة الأمة ما دامت هي التي اختارته ونصبته، ولكن أحد من القائمين بالاختيار لم يسمه بذلك.[١]

ويقدم الشيعة «أدلة نقلية» في الآيات التالية:

١) في قوله تعالى: ﴿**وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ**﴾ (القصص: ٦٨) فليس للناس الخيرة في أمر أي مرجع حكمه إلى الله كالنبوة والإمامة.

٢) وقوله أيضا : ﴿**وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ**﴾(الأحزاب: ٣). فليس للناس الخيرة في أمرهم.

٣) وقد قرن الله سبحانه وتعالى بين طاعة أولي الأمر وطاعة الله ورسوله في قوله: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ**﴾(سورة النساء: الآية ٥٩) ووحدة السياق في الآية تقتضي تساوي المنعطفات في الحكم وذلك يقتضي أن يكون «أولو الأمر» كالأنبياء في اصطفاء الله لهم واختيارهم إياه.

٤) قوله الله تعالى لنبيه إبراهيم: ﴿**إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ**﴾(: ١٢٤) فالإمامة من عهود الله التي لا يتطرق إليها اختيار الناس، أما أنها من عهوده فلقوله تعالى: ﴿**لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ**﴾ ، وأما أنها من اختياره تعالى فلقوله : ﴿**إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا**﴾.. وقد اختار الله إبراهيم للإمامة

(١) أحمد محمود صبحي: النظريات السياسية لدى الفرق الإسلامية، عالم الفكر، المجلد الثاني والعشرين، نوفمبر/ ديسمبر ١٩٩٣، ص١٥٠.

كما اختاره للنبوة. [1]

الاعتقاد الثاني عند الشيعة : أن الإمام كالنبي يجب أن يكون معصومًا من جميع الرذائل والفواحش ما ظهر منها وما بطن من سن الطفولة إلى الممات، عملًا أو سهوًا كما يجب أن يكون معصومًا من السهو والخطأ والنسيان، لأن الأئمة حفظة الشرع والقوّامون عليه. [2]

والعصمة – كما يذكر جعفر السُبحاني –قوة تمنع صاحبها من الوقوع في المعصية والخطأ، حيث لا يترك واجبًا ولا يفعل محرمًا مع قدرته على الترك والفعل وإلاّ لم يستحق مدحًا ولا ثوابا وإن شئت قلت: إن المعصوم قد بلغ من التقوى حدًا لا تتغلب عليه الشهوات والأهواء ، وبلغ من العلم في الشريعة وأحكامها مرتبة لا يخطئ معها أبدًا. [3]

واستدل الشيعة على لزوم العصمة للإمام بعدة وجوه:

الأول: إن الإمامة – كما يذكر جعفر السبحاني –إذا كانت استمرارًا لوظيفة النبوة والرسالة وكان الإمام يملأ جميع الفراغات الحاصلة جرّاء رحيل النبي الأكرم ﷺ (١١هـ/ ٦٣٢م) فلا مناص من لزوم عصمته وذلك لأن تجويز المعصية يتنافى مع «الغاية» التي لأجلها نصبه الله سبحانه وتعالى إمامًا للأمة[4].

الثاني: قوله سبحانه وتعالى: ﴿**أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنكُمْ**﴾(النساء: ٥٩).

والاستدلال – كما يرون – مبني على دعامتين:

(١) إن الله سبحانه أمر بطاعة أُولي الأمر على وجه الإطلاق أي في جميع الأزمنة والأمكنة وفي جميع الحالات والخصوصيات، ولم يقيّد وجوب امتثال أوامرهم ونواهيهم بشيء كما هو مقتضى الآية.

---

(١) أحمد محمود صبحي: مرجع سابق ذكره، ص١٥١.

(٢) عقائد الإمامية، ص٥٣.

(٣) جعفر السُبحاني: مع الشيعة الإمامية في عقائدهم، مؤسسة الثقلين الثقافية، بيروت، الطبعة الثانية ١٤١٨هـ ١٩٧٧م، ص ٥٧/ ٨٥

(٤) جعفر السُبحاني: مرجع سابق ذكره، ص٦٠.

(٢) إن من الأمر البديهي كونه سبحانه لا يرضى لعباده الكفر والعصيان: ﴿وَلَا يَرْضَى لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ﴾(الزمر:٧) من غير فرق بين أن يقوم به العباد ابتداءً من دون تدخل أمر آمر أو نهي ناهٍ أو يقومون به بعد صدور أمر ونهي من أولي الأمر، فبمقتضى الجمع بين هذين الأمرين (وجوب إطاعة أولي الأمر على وجه الإطلاق وحرمه طاعتهم إذا أمروا بالعصيا) أن يتصف أولو الأمر الذين وجب إطاعتهم على وجه الإطلاق بخصوص ذاتية وعناية إلهية ربّانية تصدهم عن الأمر بالمعصية والنهي عن الطاعة وليس هذا إلا عبارة أخرى عن كونهم معصومين.

الثالث: قوله سبحانه وتعالى : ﴿وَإِذِ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾(البقرة:١٢٤).

فالإمامة التي أنعم بها سبحانه على الخليل وبعض ذّريته هي الملك العظيم الوارد في هذه الآية، ويتوجب الفحص عن المراد بالملك العظيم إذ عند ذلك يتّضح أنّ مقام الإمامة يلي النبوة والرسالة وإنّما هو قيادة حكيمة وحكومة إلهية ، ويمكن أن يتضح حقيقة الملك في الآيات التالية:

(١) يقول سبحانه –حاكيا قول يوسف عليه السلام –﴿ رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ﴾ (يوسف: ١٠١).

ومن المعلوم أن الملك الذي منّ به سبحانه على عبده يوسف ليس النبوة بل الحاكمية، حيث صار أمينًا مكينًا في الأرض.

٢) يقول سبحانه وتعالى في داود عليه السلام : ﴿وَآتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُ مِمَّا يَشَاءُ﴾(البقرة : ٢٥١)، ويقول سبحانه : ﴿وَشَدَدْنَا مُلْكَهُ وَآتَيْنَاهُ الْحِكْمَةَ وَفَصْلَ الْخِطَابِ﴾ (ص: ٢٠).

٣) ويحكى الله تعالى عن سليمان عليه السلام أنه قال: ﴿وَهَبْ لِي مُلْكًا لَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِنْ بَعْدِي إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ﴾(ص: ٣٥)، والتأمل في هذه الآيات الكريمات يفسر – كما يذكر السُبحاني – حقيقة الإمامة باعتبار الملاحظات التالية:

(أ) إنه سبحانه أعطى آل إبراهيم الكتاب والحكمة والملك العظيم، فمن ضمن

هذه الأمور بعضها إلى بعض يخرج بهذه النتيجة: أنّ ملاك الإمامة في ذرّية إبراهيم هو قيادتهم وحكمهم في المجتمع، وهذه هي حقيقة الإمامة.[1]

والجدير بالبيان في هذا الصدد أن محمّد بن يعقوب الكليني (٣٢٩هـ/ ٩٤١م) في كتابه (الكافي في أصول الدين)، وغيره من فقهاء الشيعة وعلمائها والتي تبلورت على أيديهم الفقه الشيعي قد أظهروا الإمامة بعديد من الصفات التي أخذها أهل السنة على أنها «تأليه الإمامة والأئمة» وأنها تخرج صاحبها من الملة.

ففي «كتاب الحجة» من أصول الكافي تقرأ عناوين هذه الأبواب[2]:

«باب أن الحُجة لا تقوم لله على خلقه إلا بإمام».

«باب أن الأرض لا تخلو من حُجة».

«باب أنه لو لم يبق في الأرض إلا رجلان لكان أحدهما الحجة».

«باب أن الأئمة شهداء الله على خلقه»

«باب أن الأئمة هم الهُداة».

«باب أن الأئمة هم ولاة أمر الله وخزنه علمه».

«باب أن الأئمة خلفاء الله في أرضه وأبوابه التي فيها يؤتى».

«باب أن الأئمة نور الله».

«باب أن الأئمة هم أركان الأرض».

«باب أن الأئمة هم العلامات التي ذكرها الله في كتابه».

«باب أن الآيات التي ذكرها الله في كتابه هم الأئمة».

«باب عرض الأعمال على النبي والأئمة».

«باب أن الأئمة معدن العلم وشجرة النبوة ومختلف الملائكة».

«باب أن الأئمة ورثوا علم النبي وجميع الأنبياء والأوصياء».

---

(١) جعفر السُبحاني: مرجع سابق ذكره، ص٦٤، ٦٥.

(٢) محمّد عمارة: حقائق وشبهات حول السنة والشيعة، دار السلام للطباعة والنشر، الطبعة الأولى ١٤٣١هـ، ٢٠١٠م، ص١١٢، ١١٣.

«باب أن الأئمة عندهم جميع الكتب التي نزلت من عند الله، وأنهم يعرفونها على اختلاف ألسنتها».

«باب أنه لم يجمع القرآن كله إلا الأئمة وأنهم يعلمون علمه كله».

«باب أن مثل سلاح رسول الله «عند الأئمة» مثل التابوت في بني إسرائيل.

«باب أن الأئمة يعلمون جميع العلوم التي خرجت إلى الملائكة والأنبياء والرسل».

«باب أن الأئمة إذا شاؤوا أن يعلموا علموا».

«باب أن الأئمة متى يموتون وأنهم لا يموتون إلا باختيارهم».

«باب أن الأئمة يعلمون علم ما كان وما يكون وأنه لا يخفى عليهم شيء».

«باب أن الله لم يعلم نبيه علمًا إلا أمره أن يعلمه أمير المؤمنين «عليّ» وأنه كان شريكه في العلم».

«باب أن الأئمة لو ستر عليهم لأخبروا كل امرئ بما له وما عليه».

«باب أن الأئمة تدخل الملائكة بيوتهم وتطأ بُسُطهم وتأتيهم بالأخبار».

«باب أن الجن يأتون الأئمة فيسألونهم عن معالم دينهم ويتوجهون في أمرهم».

«باب أن الأرض كلها للإمام».

ويظهر جليا الغلو الشيعي الإمامي هذا الحد الغريب والعجيب – كما يذكر محمّد عمارة – في «إلهية الإمامة وتأليه الأئمة» ، ولو كان الأمر متعلق بالكُليني رغم أهمية هذا الرجل بكتابه «الكافي» لاعتبر الأمر شذوذا في الفكر الشيعي، ولكن معه الشيخ المفيد محمد بن محمد بن نعمان والرضى والشريف المرتضى (٣٥٥-٤٣٦هـ) ومحمد بن الحسن الطوسي (م٣٦٠هـ) والحسن بن يوسف الحلي (م٧٢٦هـ)، وهم جميعا يمثلون العلماء الأوائل والذي تبلور على أيديهم الفقه الشيعي، كما يعتبر كتاب «الكافي» بمثابة صحيح البخاري في أهل السنة بالإضافة إلى كتاب (من لا يحضره الفقيه) لمحمد بن باويه القُميّ المشهور باسم الصدوق (المتوفى سنة ٣٨١هـ) ، وتهذيب الأحكام والاستبصار لمحمد بن الحسن الطوسي ، فضلا عما كتبه الشيخ المفيد تمثل هذه المصنفات – في الكتب الأربعة – بمثابة الصحاح لدى الشيعة.[1]

---

(١) عبد الغني عماد: حاكمية الله وسُلطان الفقيه، قراءة في خطاب الحركات الإسلامية المعاصرة، دار =

كما أنّ الطوسي في تلخيص الشافي سار على نهج الكليني في تكفير من يدفع الإمامة بقوله: «إن دفع الإمامة كفر، كما أن دفع النبوة كفر، لأن الجهل بهما على حد واحد، لأن منطق الإمامة هو منطق النبوة، والهدف الذي لأجله وجبت النبوة هو نفس الهدف الذي من أجله تجب الإمامة، وكما أن النبوة لطف من الله كذلك الإمامة».(١)

والملفت للنظر والانتباه أن ما أثير في كتب الشيعة سواء لدى الإخباريين أو المدرسة الأصولية الاجتهادية في الشيعة اعتمدت على نسب أقوال إلى أئمة آل البيت مثل ما نسب إلى جعفر الصادق: «إن الدنيا كلها للإمام على جهة الملك وأنه أولى بها من الذين هم في أيديهم»، وينسبون إليه أيضا: «إن الإمام إذا أراد أن يعلم الشيء أعلمه الله ذلك»، بل نسبوا إلى الإمام عليّ أنه قال: «لقد أقرت لي جميع الملائكة والروح والرسل بمثل ما أقروا به لمحمد، وقد حملت مثل حمولته، وهي حمولة الرب»، وينسب للإمام علي كلاما رووه عن الإمام زين العابدين يقول فيه : «إن الأرض كلها لنا فمن أحيا أرضًا من المسلمين فليعمرها وليؤد خراجها إلى الإمام من أهل بيتي وله ما أكل منها ، حتى يظهر القائم من أهل بيتي بالسيف فيحويها ويمنعها ويخرجهم منها، إلّا ما كان في أيدي شيعتنا فإنه يقاطعهم على ما في أيديهم ويترك الأرض في أيديهم» .(٢)

ومن ثمّ يتبين من خلال ما تم عرضه من أطروحات الآتي:

أولا: أن كتب الصحاح الشيعية وفقهاءهم قد نسبوا إلى آل البيت وأئمة البيت النبوي ما لم يقله هؤلاء الأئمة والرموز، بل يتناقض مع سيرتهم العطرة وتربيتهم النبوية الشريفة.

ثانيًا: أن أبناء البيت النبوي وقيادات الدوحة النبوية قد تعرضوا للتشويه والمفتريات والادعاءات والمزاعم من قبل شيعتهم وفقهائهم فأضفوا صفات إلهية وتنزيهية وتقديسية لهؤلاء الأئمة وكفّروا من خالفهم في هذه الرؤية، كما تعرض

=

الطليعة، بيروت، الطبعة الأولى ، يونيو ، ١٩٩٧، ص١٠١.

(١) حقائق وشبهات حول السنة والشيعة، ص١٠٠.

(٢) حقائق وشبهات حول السنة والشيعة، ص١٠٨.

«الأئمة» للتشويه من قبل خصومهم في وجود الدولة الأموية والدولة العباسية على السواء، كما تعرض العديد من هؤلاء الرموز الطاهرة للقتل والسفك والاستشهاد تحت أسنة الرماح، كما فعلوا مع الإمام الحسين بن علي (٤-٦١هـ = ٦٢٥-٦٨٠م) في كربلاء، والإمام زيد بن علي زين العابدين بن الحسين (٧٩-١٢٢هـ = ٦٩٨-٧٤٠م) ومحمد النفس الزكية (٩٣-١٤٥هـ = ٧١٢-٧٦٢م) ، فالغلو في التأليه والتنزيه والتقديس من فقهاء الشيعة وعلماء التشيع قابله غلو في تشويه أبناء الرسول وابتداع المفتريات والأكاذيب والمزاعم!! أي أنّ التشويه مزدوج من الأتباع والخصوم!!!

(٤) عقائد الإمامية (الاثنا عشرية)... وإشكالية «التكفير المعكوس»

¤ ¤ ¤ ¤

يعتقد الشيعة في عديد من المعتقدات والتي تختلف مع أهل السنة والتي أثارت العديد من ردود الأفعال والاتهامات ضد الشيعة والتشيع ، فقد وصفت عقائدهم بالبطلان والفساد والانحراف ، وقد رصد أحد كتاب الشيعة الخلاف بين الشيعة والسنة في ست قضايا خلافية في كتابه (السنة والشيعة: وحدة الدين – خلاف السياسة والتاريخ). [1]

القضية الأولى : الخلاف في الإمامة:

عندما جعلها أهل السنة من السياسات والفقهيات والفروع تختارها الأمة – التي هي مصدر السلطات السياسيّة – بالشورى والاختيار والبيعة، بينما رأتها «الشيعة» – كما ذكرنا من قبل – أنها «إمامة إلهية وشأنا سماويا» يعين الله سبحانه وتعالى فيها الأئمة بالنص والوصية، ومن ثمَّ فإن معايير الخلاف حولها هي «الكفر» و«الإيمان» وليس «الخطأ» و«الصواب» ، وهذا بون شاسع في الخلاف في هذه القضية.

القضية الثانية: الخلاف حول القرآن الكريم:

وهذا الخلاف ابتدعه علماء الشيعة الإخباريين ، والذين قاموا – بتأويل بعض الآيات لصالح نظرياتهم في «الإمامة» ، وأعلنوا بتحريف «التنزيل» القرآني تحريفا أسقط – في رأي بعضهم – ثلثي القرآن الكريم، لكن المدرسة الأصولية – عند الاثنى عشرية – قد جاءت في القرن التاسع عشر الميلادي فنفت حدوث تحريف التنزيل، وكرست جهودها الفقهية على تأييد نظرية «الإمامة الإلهية» عند التأويل. [2]

---

(١) محمد عمارة: حقائق وشبهات حول السنة والشيعة ص ٧٥ وكتاب السنة والشيعة: وحدة الدين، خلاف السياسة والتاريخ للدكتور أحمد الكاتب، مكتبة النافذة ، سنة ٢٠٠٦.

(٢) محمد عمارة : مرجع سابق ذكره، ص٧٦.

القضية الثالثة: الخلاف حول الحديث النبوي:

فقد أخذ أهل السنة والجماعة عن رسول الله ﷺ عبر الرواة، بينما أخذه الشيعة عن أئمتهم أو ما نسب إليهم لأنهم - في رأي علماء الشيعة وفقهائها - هم وحدهم أصحاب العصمة والثقة و«المؤتمنون» على الشريعة.

القضية الرابعة: الخلاف حول التقية:

وهي تتمثل في المداراة وإظهار الإنسان غير ما يطبن، ولقد جعلها الشيعة دنيا يتدينون بها ورووا عن جعفر الصادق (٨٠-١٤٨هـ= ٦٩٩-٧٩٥م) أنه قال: «تسعة أعشار الدين في التقية ولا دين لمن لا تقية له».(١)

وقد استشهدوا على ذلك بآيات قرآنية وأحاديث نبوية، بينما قال «أهل السنة» أن «التقية» لا تجوز إلّا عند ضرورة حفظ النفس في الصراع مع الكافرين، وليس في العلاقات بين المؤمنين ويشهد لذلك - أيضًا - تطبيقاتها في حال عمار بن ياسر (٥٧ق.هـ - ٣٧هـ -٥٦٧-٦٥٧م) عندما نطق بكلمة الكفر إنقاذا لنفسه من الهلاك أثناء تعذيب المشركين له في مكة.(٢)

القضية الخامسة: الخلاف في الفقه:

ولأن الفقه - كما يذكر محمد عمارة - عند الشيعة والسنة - هو علم الفروع كان هذا الميدان من ميادين الخلاف هينًا لأن باب الاجتهاد فيه مفتوح لمناقشة القضايا الخلافية مثل «نكاح المتعة» ، وزيادة الشيعة في الأذان «حي على خير العمل» و«أشهد أن عليًا ولي الله»، والجمع الدائم لصلاة العصر مع الظهر، ولصلاة العشاء مع المغرب، والحديث عن أن «العتبات المقدسة» - الشيعية - هي «الأشرف» - بأفضل تفضيل - على أن الحرمين - المكي والمدني - كل منهما «شريف فقط» لا غير! أو تسمية المساجد «حسينيات» بدلًا من اسمها القرآني «المساجد».. ووضع أعدادًا من الأدعية والقنوت في الصلوات لتغاير صلوات أهل السنة والجماعة واستخدام عبارة مثل: «باسمه تعالى» بدلًا من «صدق الله العظيم».. إلى آخره، هذه الاختلافات الفقهية التي هي في

---

(١) عبد الله بن سعيد الجنيد: حوار هادئ بين السنة والشيعة، دار المنارة ، دون تاريخ للنشر، ص٩١.

(٢) محمد عمارة: مرجع سابق ذكره، ص٧٨.

معظمهما ثانوية وهينة[1] وإن كانت أدت هذه الخلافات دورًا سلبيًا في إظهار أن هناك ثمة «إسلام موازي» وهو الإسلام الشيعي في موازاة مع إسلام أهل السنة والجماعة.

القضية السادسة: الخلاف حول الصحابة وما صاحب ذلك من طعن واتهام بالردة والنفاق والمروق من الملة، واتهام بالتكفير للصحابة، ولأهمية هذا الموضوع سوف يتم مناقشته في موضوع مستقل لإثارته الجدل وأنه مناط خلاف كبير بين الشيعة والسنة يجعل البون بينهما شاسعًا يحتاج إلى تجسير الهوة بينهما،

(1) محمد عمارة: مرجع سابق ذكره، ص٧٩.

الشيعة .. وتكفير الصحابة

⌑ ⌑ ⌑ ⌑

من المآخذ الكبيرة والتي أخذت على الشيعة من قبل أهل السنة هي «تكفير الصحابة» والطعن فيهم، ووصف معظمهم بالنفاق والإشراك، ولم يكن هذا الطعن مرتبط بمعاصري فقهائهم، ولكن بدأه فقهاؤهم الكبار وعُمدهم في الفقه الشيعي، فكان التكفير عقيدة «شيعية» لا يمكن الفكاك منها إلا من رحم ربي.. ومن الغريب أن أهل السنة اعتمدوا على رواية «النوبختي» في إثبات أن أول من سب الصحابة هو عبد الله بن سبأ اليهودي المعروف بابن السوداء.

يقول النوبختي: «عبد الله بن سبأ كان ممن أظهر الطعن على أبي بكر وعمر وعثمان والصحابة وتبرأ منهم قائلًا: إن عليا أمره بذلك فأخذه عليّ فسأله عن قول هذا فأقر به، فأمر بقتله، فصاح الناس إليه: يا أمير المؤمنين أتقتل رجلًا يدعم إلى حبكم». وأضاف النوبختي: «وكان ابن سبأ يقول عندما كان يهوديًا بوصاية يوشع بن نون بعد موسى، فلما أسلم قال بوصاية علي بعد النبي ﷺ.[1]

وقد اعتمد أهل السنة على هذه الرواية لسببين: الأول: لأنهم يؤمنون بدور عبد الله بن سبأ في إشعال الفتن والدور السري اليهودي في مقتل عثمان، والصراع بين علي وأصحاب الجمل، والسبب الثاني: أن صاحب الرواية شيعي وبالتالي يمكن تصديقها وترويجها في مواجهة أهل التشيع في حالة إنكارهم للتكفير وأيضا لرواية عبد الله بن سبأ.

على أية حال قد ناقشنا – من قبل – موضوع ابن سبأ ودوره وما يهمنا الآن تتبع حالات تكفير الصحابة من قبل الشيعة وثقات محدثيهم وعلمائهم.

ففي كتاب «الكافي» يعرض الكُليني رواية أن الصحابة قد ارتدوا على أعقابهم بعد موت الرسول إلّا ثلاثة: أبو ذر الغفاري وسلمان الفارسي والمقداد بن الأسود، وأن من شك في كفرهم فهو كافر.[2]

---

(١) محمود المراكبي: تسرب الفكر الباطني إلى الشرائع السماوية، ص١٥٣، ١٥٤، وفرق الشيعة للنوبختي ص٤٤، ٤٥.

(٢) محمود يوسف النجرامي: الشيعة في الميزان، دون تاريخ للنشر، ص١٣٠.

كما جاء في كتاب «الكافي» أن أبا بكر وعمر فارقا الدنيا ولم يتوبا ولم يتذكرا ما فعلاه بعليّ فعليهما لعنة الله والملائكة والناس أجمعين.

وقد فسر «الكليني» كبير محدثيهم وإمامهم ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ ازْدَادُوا كُفْرًا لَمْ يَكُنِ اللهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ سَبِيلًا﴾ (النساء:١٣٧) قال: «نزلت في فلان وفلان آمنوا بالنبي في أول الأمر وكفروا حيث عرضت عليهم الولاية حين قال النبي ﷺ وآله: من كنت مولاه فعليّ مولاه ثم آمنوا بالبيعة لأمير المؤمنين عليه السلام ثم كفروا حيث مضى رسول الله وآله، فلم يقروا بالبيعة ثم ازدادوا كفرا بأخذهم من بايعه بالبيعة لهم، فهؤلاء لم يبق فيهم من الإيمان شيء».

ويقول شارح الكافي بأن المراد من فلان وفلان: أبو بكر وعمر وعثمان.

ويذكر موسى جار الله (١٢٩٢-١٣٦٩هـ = ١٨٧٥-١٩٤٩م) أن كتب الشيعة تكفر عامة الصحابة كافة لم ينج من «التكفير» سوى قليل منهم لا تزيد عدتهم على سبعة، وفي كتب الشيعة عن الباقر والصادق: «ثلاثة لا يكلمهم الله يوم القيامة ولا يزكيهم ولهم عذاب أليمٌ: (١) من ادّعى إمامة ليست له. (٢) من جحد إماما من عند الله. (٣) من زعم أن أبا بكر وعمر لهما نصيب من الإسلام».

وفي المجلد الثاني من الكافي ص ٤٤ وبعدها كلمات لا يقبلها الأدب – كما يذكر جار الله-: الأول والثاني أبو بكر وعمر في كتب الشيعة رجسان ملعونان هما الجِبْتُ (الصنم والكاهن والساحر) والطاغوت وهما فرعون هذه الأمة وهامانها هم أشد أهل النفاق نفاقًا وضررًا للإسلام [1]

ويذكر إحسان إلهي ظهير (١٣٦٠-١٤٠٧هـ-١٩٤١-١٩٨٧م) أنّ عقيدة القوم – يقصد الشيعة – من أولهم لآخرهم كما رسمها اليهود لهم حتى صار دينهم الذين يدينون به الشتائم والسباب، ولكنهم لم يكتفوا بالسباب والشتائم لعدد من أصحاب رسول الله، بل هَوَتْ بهم هاوية حتى كفروا جميع أصحاب رسول الله إلّا النادر منهم». [2]

(١) موسى جار الله: الوشيعة في نقد عقائد الشيعة، مطبعة الأزهر، ١٤٣٦هـ، ص١٣٧.

(٢) إحسان إلهي ظهير: الشيعة والسنة ، دار ابن حزم، القاهرة، دون تاريخ، ص٥٧.

وذكر إلهي ظهير بأن الشيعة قد طعنوا في وزراء الرسول ورحمائه، بل تطرق الملاعنة إلى أعراض آل النبي ورفقته الكبار، فسبوا عم النبي، وقد تحدث الملا باقر عن الكليني عن محمد الباقر (٥٧-١١٤هـ= ٦٧٦-٧٣٢م) أنه قال: «قال علي رضي الله عنه: ومن كان بقى من بني هاشم ضعيفان ذليلان حديثا عهد بالإسلام عباس وعقيل» .. وقد طعنوا في سيف الله الخالد خالد بن الوليد رضي الله عنه فارس الإسلام وقائد جيوشه الظافرة المباركة – كما يذكر إلهي – فقد طعنوا، فيذكر القُمِّي وغيره «أن خالدًا ما هجم على مالك بن نويرة إلّا للتزوج من زوجة مالك».

كما طعنوا في عبد الله بن عمر ومحمّد بن مسلمة وطلحة بن عبيد الله (٢٨ق.هـ-٣٦هـ= ٥٩٦-٦٥٦م) والزبير بن العوام (٢٨ق.هـ -٣٦هـ -٥٩٦-٦٥٦م).

وقد روى القُميّ «أن أبا جعفر (الباقر) قال: نزلت هذه في طلحة والزبير والجمل جملهم: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ وَلَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ﴾ وكذلك تم الطعن في أنس بن مالك والبراء بن عازب وأن علي قد دعا عليهما لكتمانهما الشهادة قائلا: اللهم إن كان كتمهما معاندة فابتلهما ، فعمي البراء وبرص قدما أنس.[1]

ويعزو إلهي ظهير – إلى اليهودية – أنها من وراء هذا الطعن في الصحابة وإكفارهم من قبل الشيعة مع أن عليًا لم يكفر حتى من حاربه من أهل الشام وغيرهم، فقد قال في كتابه إلى أهل الأمصار لتوضيح موقفه كما جاء في نهج البلاغة : « وكان بدء أمرنا أنا التقينا القوم من أهل الشام، والظاهر أن ربنا واحد ودعوتنا في الإسلام واحدة ولا نستذيدهم دهم في الإيمان بالله والتصديق برسوله ولا يستذيدوننا الأمر واحد إلا ما اختلفنا في دم عثمان ونحن منه براء».

وأنكر علي بن أبي طالب من يسب معاوية وعساكره فقال: «إني أكره لكم أن تكونوا سبابين ولكنكم لو وصفتم أعمالهم وذكرتم حالهم كان أصوب في القول وأبلغ في العذر وقلتم مكان سبكم إياهم اللهم احقن دماءنا ودماءهم وأصلح ذات بيننا وبينهم».

(١) الشيعة والسنة ، ص٥٥.

فأين عليّ من ربيبة اليهود الشاتمين أعاظم أصحاب رسول الله ﷺ اللعانين المكّفرين الخبثاء قاتلهم الله أنى يؤفكون.[1]

ولم تفلت عائشة بنت أبي بكر أم المؤمنين (٩ق.هـ - ٥٨ هـ -٦١٣-٦٧٨م) من عقابيل بعض الشيعة وطعنهم ، فروى الفضل بن الحسن الطبرسي (٤٧١-٥٤٨هـ) في كتابه الاحتجاج عن محمد الباقر أنه قال: «لما كان يوم الجمل وقد رشق هودج عائشة بالنبل قال أمير المؤمنين عليّ عليه السلام: والله ما أراني إلّا مطلقها فأنشد الله رجلًا سمع من رسول الله يقول: يا علي أمر نسائي بيدك من بعدي، ولما قام فشهد فقام ثلاثة عشر رَجُلًا فيهم بَدْرِيَّان فشهدوا أنهم سمعوا من رسول الله ﷺ وآله يقول لعليّ ابن أبي طالب : «**يا علي أمر نسائي بيدك من بعدي**» قال: فبكت عائشة عند ذلك حتى سمعوا بكاءها».[2]

وأمر ثان معروف في التاريخ بحادث الإفك فقد نزل القرآن بتبرئة عائشة أم المؤمنين، فعزّ على الصدوق محمد بن بابويه القُميّ (٣٠٦-٣٨١هـ) أن يبرئ الله تعالى صاحبة الجمل وابنة أبي بكر الصديق أول من اغتصب الخلافة في رأيه ورأي أهل الشيعة، ولهذا قام القُميٌ بإفك جديد فجعل من الإفك اتهامًا لعائشة بنت أبي بكر لا تبرئة لها!! فعند قوله تعالى : ﴿**إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِنْكُمْ**﴾(النور : ١١) قال: فإن العامة رووا أنها نزلت في عائشة، وما رميت به في غزوة «بني المصطلق» من خزاعة ، وأما الخاصة فإنهم رووا أنها نزلت في مارية القبطية وما رمتها به بعض النساء «المنافقات» ، ثم ذكر القُميّ رواية عن الإمام أبي جعفر أنه قال: «لما مات إبراهيم بن رسول الله ﷺ حزن عليه حزنًا شديدًا فقالت منافقة (وقد ذكرت بعض الروايات الشيعية أنها عائشة): ما الذي يحزنك عليه، فما هو إلّا ابن جريج! فبعث رسول الله ﷺ عليًا وأمره بقتله..».[3]

ومن الملفت في الأمر أن الاتهام الخاص بأن الشيعة قد كفروا الصحابة وأنهم

---

(١) إحسان إلهي ظهير: مرجع سابق ذكره، ص٥٨.

(٢) الشيعة والسُّنة ص٥٧ والاحتجاج للطبرسي ، ص٨٢ط ، إيران ١٣٠٢هـ.

(٣) إيهاب كمال محمّد: الشيعة شعب الله المختار، الحرية للنشر والتوزيع، عام ٢٠٠٦م، ص١٨٢.

وصفوهم بالزنادقة والفساق إلّا ثلاثة أو سبعة أو عشرة من الصحابة في عدة روايات قد دفع بعض الباحثين الشيعة للتصدي لهذا الاتهام أو مراجعته، فقد كان أحدهما وهو جعفر السُّبحاني» في كتابه «مع الشيعة الإمامية في عقائدهم» والآخر «محمّد التيجاني السماوي» في كتابه «ثم اهتديت» ولكن بأقل درجة من الأول.

فيرفض السُّبحاني أن يُرمى الشيعة بهذا التقول المجوج بأنه لم يهتد ولم يثبت على الإسلام بعد مرور (٢٣) عاما من الدعوة إلّا ثلاثة أو سبعة أو عشرة أي أن هذا اتهام للرسول بعدم النجاح في هداية قومه وإرشاد أمته، وأنه لم يؤمن به إلّا شرذمة قليلة لا يتجاوزون عدد الأصابع وأن ما سواهم كانوا بين منافق ستر كفره بالتظاهر بالإيمان أو مرتد على عقبيه القهقري بعد رحلة النبي الأكرم ﷺ وأن من استشهد في عهد النبي بالمئات والذين آمنوا به كذلك فكيف يفسر هذا الجهد النبوي بأنه لم يبق على دينه سوى القليل...

وحقيقة الأمر أن موضوع الخلاف ومناط النقاش والجدل بين الشّيعة والسُّنة هو أن أهل السنة يقولون بأن كل من رأى النبي وعاشره ولو يومًا أو يومين فهو محكوم بـ «العدالة» منذ اللقاء معه إلى أن أدرج في كفنه ولو صدر منه قتل أو نهب أو زنا أو غير ذلك محتجين بما نُسب إلى الرسول من قوله: «أصحابي كالنجوم بأيهم اقتديتم اهتديتم» وهذا مغاير لما حدث بعد ذلك في التاريخ وأن القرآن قد صنف الصحابة إلى أصناف مختلفة فهو يتكلم عن السابقين الأولين والمبايعين تحت الشجرة والمهاجرين المهجّرين عن ديارهم وأموالهم وأصحاب الفتح إلى غير ذلك كما ذكر القرآن أصناف أخرى من الصحابة:

(١) المنافقون المعروفون (سورة المنافقون : ١) (٢) المنافقون المستترون الذين لا يعرفهم النبي (سورة التوبة : الآية : ١٠١) (٣) ضعفاء الإيمان ومرضى القلوب (الأحزاب: الآية ١١) (٤) السماعون لأهل الفتنة (التوبة : الآية ٤٥-٤٧) (٥) المسلمون الذين خلطوا عملا صالحًا وآخر سيئا (التوبة: الآية ١٠٢) (٦) المشرفون على الارتداد عندما دارت بهم الدوائر (سورة آل عمران : الآية ١٥٤) (٧) الفاسق أو الفسّاق الذين لا يصدق قولهم ولا فعلهم (سورة الحجرات : ٦ والسجدة : الآية ١٨) (٨) المسلمون الذين لم يدخل الإيمان في قلوبهم (الحجرات : الآية ١٤) (٩) المؤلفة قلوبهم الذين يظهرون الإسلام ويتآلفون بدفع سهم من الصدقة إليهم لضعف يقينهم

(سورة التوبة : الآية ٦٠) (١٠) المولّون أمام الكفار (سورة الأنفال: الآيات ١٥-١٦) هذه الأصناف - كما يرى السُّبحاني - إذا انضمت إلى الأصناف المتقدمة فإنها تعرب عن أن صحابة النبي الأكرم لم يكونوا على نمط واحد بل كانوا مختلفين من حيث قوة الإيمان وضعفه والقيام بالوظائف والتخلّي عنها فيجب إخضاعهم لميزان العدالة الذي توزن به أفعال جميع الناس.[١]

وقد قارب التيجاني في رأيه رأي السُبحاني وعدد الصحابة وأنهم لم يكونوا على وتيرة واحدة، فهناك الصحابة الأخيار والصحابة الذين اعتنقوا الإسلام والصحابة والذين منهم المنافقين والذين صحبوا الرسول للكيد له وأنه يوجد الخلاف القائم بين الشيعة والسنة في قسم من الصحابة إذ أن الشّيعة ينتقدون أقوالهم وأفعالهم ويشكوّن في عدالتهم بينما يحترمهم أهل السُّنة والجماعة رغم ما ثبت عنهم من مخالفات.[٢]

غير أنه قد هالني ما قرأته في كتابين الأول لأبي الحسن الندوي (١٣٣٣-١٤٢٠=١٩١٤-١٩٩٩) معنون بـ«صورتان متضادتان عند السنة والشيعة الإمامية» والذي ذكر فيه أنه توجد صورة عن الصحابة والرسول عند أهل السنة متضادة مع الرؤية الشيعية وغير ذلك من القضايا المتضادة بين الطرفين والتي ليست في مضمار حديثنا الآن...

والكتاب الثاني أكثر خطورة - في نظري - من الأول فقد كتبه محب الدين الخطيب (١٣٠٣=١٣٨٩هـ= ١٨٨٦-١٩٦٩م) وهو بعنوان «الخطوط العريضة لدى الشيعة» والذي يؤكد على أن هناك اختلاف بين دين الشيعة وبين دين السُّنة في الأصول وليس الفروع أي جعل للشيعة دين مختلف عن دين السُّنة.

وقد أصابني الأمر باستغراب شديد واندهاش مفعم بالأسى لظني أن أهل السنة هم الذين يضعون العراقيل أمام أي تقارب بين السنة والشيعة وأن تخوفاتهم فتحت فتقًا في الجدار الإسلامي وصنعت هوة كبيرة تحتاج إلى تجسير غير أنني وجدت أن هناك على الجانب الآخر غُلاة من الشيعة كما وجد غلاة من السنة.. فقد وجدت أن الذي بدأ توسيع شقة الخلاف وتزايد هُوة الصراع والملاحاة هم غلاة الشيعة والمثال على ذلك ما كتبه شيخ الطائفة نعمة الله الجزائري (١٠٥٠-١١١٢هـ = ١٦٤٠-١٧٠١م) حيث أعلن في كتابه

(١) جعفر السُّبحاني : مرجع سابق ذكره، ص١٧٤، ١٧٥.

(٢) محمد التيجاني السماوي: ثمّ اهتديت، دون تاريخ نشر، ص١٦٣.

«الأنوار النعمانية» مفارقة الشيعة لأهل السنة والجماعة حتى في الإلوهية والنبوة فيقول: «إننا لم نجتمع معهم (أي مع أهل السنة) على إله ولا نبي ولا علي إمام وذلك أنهم يقولون: «إن ربهم هو الذي كان محمّد نبيه وخليفته أبو بكر» .. ونحن لا نقول بهذا الرب ولا بذلك النبي بل نقول: «إن الرب الذي خليفته أبو بكر ليس ربنا ولا ذلك النبي نبينا». (١)

ومن ثمّ يتضح من خلال ما عرضناه أن هناك ثمة ملاحظات نبرزها في التالي:

الملاحظة الأولى: على الرغم من تبرؤ الشيعة وكثير من علمائها ومدارسها الفقهية والأصولية الاجتهادية والإخبارية من غلاتهم ونفيهم أية تقارب معهم كالسبئية (أتباع عبد الله بن سبأ) والخطابية* والغرابية** والعلياوية*** والمخمسة**** والبزيعية وأشباههم***** من الفرق الهالكة والمنقرضة والتي يعتبر – كاشف الغطاء – أنّ نسبتها

(١) محب الدين الخطيب : الخطوط العريضة لدين الشيعة ، الأزهر، دراسة وتقديم د. محمد عمارة ص٢، والأنوار النعمانية لنعمة الله الجزائري جـ٢، ص٢٧٩، بيروت.

* الخطابية: هم أصحاب أبي الخطاب محمد بن أبي زينب الأسدي الأجدع مولى بني أسد، وهو الذي ادّعى بأن الإمام الصادق جعله قيمه ووصيه من بعده، وقد تبرأ منه بعد غلوه ولعنه، وقد زعم أبو الخطاب: أن الأئمة أنبياء ثم آلهة، وقال بإلهية جعفر بن محمد وإلهية آبائه وهم أبناء الله وأحباؤه وللإلهية نور في النبوة ، والنبوة نور هي الإمامة ، ولا يخلو العالم من هذه الآثار والأنوار. انظر : الملل والنحل، ص١٤٤، وانظر موسوعة عبد المنعم الحفني ، ص٣٤٢.

** الغرابية: يذهب أصحاب هذه الفقرة «الضالة» إلى أن الله تبارك وتعالى قد أرسل جبرائيل لعلي عليه السلام إلّا أنه توهم في ذلك وقصد محمدًا ﷺ بالرسالة لأنه يشبهه كما يشبه الغراب الغراب!! ومنهم من يدعى بأن الله تعالى قد فوض أمر تدبير الخلق لرسول الله ﷺ بالرسالة وأنه فوض ذلك الأمر لعليّ عليه السلام، وتنسب هذه الفرقة الكثير من الضلالات المخرجة لها من الملة.. انظر أصل الشيعة وأصولها لمحمد الحسين آل كاشف الغطاء ص١٧٢، وأيضا موسوعة الفرق والجماعات والمذاهب لعبد المنعم الحفني، ص٥٠٢.

*** العلياوية أو العلباوية: ويبدو أن الأصح هي العلباوية وهم أصحاب العلباء بن ذراع الدوسي وكان يفضل عليًا على النبي، وزعم أنه هو الذي بعث محمدًا يعني عليًا، وسماه إلها، وكان يقوم بذم محمَّد وزعم أنه بعث ليدعو إلى عليّ فدعا إلى نفسه. لزيادة التفاصيل انظر : الملل والنحل، ص١٤٢ وأهل الشيعة وأصولها، ص١٧٣ وموسوعة الفرق والجماعات والمذاهب والأحزاب الإسلامية، ص٤٩١.

**** المخمسّة : يذهب أصحاب هذه الفرقة المنحرفة أنّ سلمان الفارسي وأبا ذر الغفاري والمقداد بن الأسود وعمّار بن ياسر وعمرو بن أمية الضمري هم النبيين الموكلين بمصالح العالم من قبل الرّب وأن الرب في قولهم عليّ عليه السلام. انظر : أصل الشيعة وأصولها ، ص١٧٣.

***** والبزيعية أو البزيغية: وهم أتباع رجل اسمه بُزَيْغ أو بُزيع يدّعى النبوة ، وأرسله الإمام جعفر الصادق وأقر جماعته بنبوته.. لزيادة التفاصيل: انظر: عبد المنعم الحفني في موسوعته، ص١٥٩.

إلى الشيعة من الظلم الفاحش وما هي إِلّا من الملاحدة كالقرامطة بيد أنهم قد طعنوا في الصحابة وكفروهم وأخرجوهم من الملة، وجعلوهم زنادقة وفسّاق وكفار.

الملاحظة الثانية : اعتمد كثير من أئمتهم وكبار محدثيهم وفقهائهم في الطعن على الصحابة والزراية بهم وتفسيقهم على رواة معظمهم وضاعين وكذابين مثل أحمد بن هلال (وهو مهمل كما ذكر المجلسي) وعلي بن أبي حمزة البطائني (أسس مذهب الواقفية وأكل أموال موسى الكاظم) وعثمان بن عيسى (شريكه في الاختلاس والخيانة) وعلي بن حكم (ضعيف) وعبد الرحمن بن كثير (ضعيف فاسد العقيدة) وزرعة بن محمد الواقفي (عده علماء الشيعة من الطلاب المحظورة)، وكذلك محمد بن سنان (هو من الكذابين المشهورين ومن الغُلاة) ، وسهل بن حسان (المغالي الباطني الكذاب) هؤلاء وغيرهم قد اعتمد عليه كبيرهم الكُليني في كتابه «الكافي في أصول الدين» وهؤلاء قد نسبوا إلى أئمة أهل البيت وأبناء الدوحة النبوية ما لم يتكلموا به.

الملاحظة الثالثة: أن الإمام علي بن أبي طالب لم يكن في خلافه مع الصحابة سواء أصحاب الجمل (عائشة وطلحة والزبير) وبين ما حدث بينه وبين الخوارج وما بينه من صراعات وبين أصحاب صفين (معاوية وعمرو بن العاص) فلم يتفوه بسباب أو شتائم أو يكفر أحد منهم أو يخرج أحدهم من الملة بخلاف ما يقوم به فقهاء الشيعة وعلماؤهم من «تكفير خصومهم ومخالفيهم» ، وهذا لعمري تزمت مقيت وضيق في الأفق وتضييق في الدين ما له من مبرر أو قبول شرعيّ.

(٥) فرق الشيعة

يرى الشهرستاني أن الشيعة خمس فرق كيسانية وزيدية وإمامية وغلاة وإسماعيلية...

ونحن نحاول اختصارًا مناقشة كل فرقة وظروف نشأتها وما تدعو إليه بما يسمح لنا المقام ومحاولة تتبع الجانب التاريخي والعقل التكفيري في الفرق الشيعية وذهنية أصحابها ، أما البحث باستفاضة عن مدارس الشيعة وتفريعاتها المتعددة فقد عرضنا لجزء منه، ومن يريد المزيد فله متابعة كتاب المقالات والملل والنحل والفرق الإسلامية في هذا الصدد...

(أ) الكيسانية:

توجد ثمة اختلافات حول صاحب هذا المذهب، فقيل: إنه كيسان مولى عليّ بن أبي طالب لما كان على مشارف الحكم وسُدة الخلافة ، وقيل: إنه كان تلميذًا لمحمد بن الحنفية (٢١-٨١هـ/ ٦٤٢-٧٠٠م) ، وقيل: إنه صاحب شرطة المختار بن عبيد الله الثقفي (١-٦٧هـ=٦٢٢-٦٨٧م) ، وكان يكنى أبا عمرة.[1]

ويرى علي سامي النشار – أن قول البغدادي : «وكان المختار يقال له كيسان، وقيل: إنه أخذ مقالته عن مولى لعلي رضي الله عنه كان اسمه كيسان».. فالنشار يرى أنه أمام شخصين مختلفين رغم أن البغدادي يحاول أن ينسبه في النص السالف لكيسان مولى عليّ ، وهذا خطأ – من وجهة نظر النشار – فإن كيسان مولى علي كان قد مات قبل حركة المختار الثقفي ، ومن ثمّ نكون أمام كيسان آخر متأخر عن عصر الإمام عليّ أو بمعنى أدق أمام شخصية تسمت باسم كيسان مولى علي بن أبي طالب وأن كتاب «المقالات والفرق» لأبي خلف القمي قد أظهر حقيقة «كيسان» فهو أبو عمرة السائب ابن مالك الأسعدي المتوفى سنة ٦٧هـ ، وكان يجاور المختار بن أبي عبيد في مسكنه،

(١) موسوعة الفرق والجماعات والمذاهب والأحزاب والحركات الإسلامية، ص٥٤٩.

وكان صاحب سره ومؤامراته ، فلما قام المختار بحركته جعله صاحب شرطته ، ويبدو أنه هو الذي عاون المختار على الطلب بثأر الحسين وقتل أعدائه.(١)

وكان كيسان هذا يقول : إن محمّد بن الحنفية وصيّ عليّ وإنه الإمام وأن المختار قيمه وعامله، وكان يكفر من تقدم عليّا، ويكفر أهل صفين والجمل، ويزعم أن جبريل يأتي المختار بالوحي من عند الله فيخبره ولا يراه، غير أن المختار لم يكفر من تقدم عليّا ، ولكنه كان يكفر أهل صفين والجمل.

ويجمع الكيسانية شيئان: أحدهما: قولهم بالبداء على الله أي أنه تعالى قد تبدو له البداوات، فيريد أن يفعل الشيء ثم لا يحدثه، وذكر عديد من المؤرخين أن سبب قولهم بالبداء أن المختار لما وعد أصحابه بالنصر وانهزموا بعد وعده عتبوا عليه أنه مناهم بالنصر من الله فقال لهم: كان الله وعدني ذلك لكنه بدا له واستدل بقوله تعالى: ﴿يَمْحُوا اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ﴾(الرعد: ٣٩) ، فهذا كان سبب قول الكيسانية بالبداء.

وقد أثير لغط كثير وجدل أكثر ضراوة حول «البداء» فيراها الشيعة أن «البداء» من العقائد الثابتة عند الشيعة الإمامية، ومن الكلمات الدارجة بين علمائهم أن النسخ والبداء صنوان ، غير أن الأول في التشريع والثاني في التكوين.(٢)

وقد رأى محمود إسماعيل أن هناك ارتباط بمقولة «علم الباطن» ومقولة «البداء»، وتعني أن الله سبحانه يغير ويبدل إرادته نتيجة تجدد علمه، والمقولة في حد ذاتها – في رأي إسماعيل– فتح جديد في ميدان الفلسفة وقرينة على براعة «الشيعة» عمومًا في هذا المجال، انطلاقًا من سعة وعمق معارفهم الموروثة عن عليّ بن أبي طالب.(٣)

في حين يرى موسى جار الله أن «البداء» محال في جانب الله ممتنع لله وفي علم الله وهذه بينة ضرورية لأن علم الله مطلق في الأزمنة أزلًا وأبدًا، وقد اتفق على هذه البينة الضرورية، والله جل جلاله قدوس محيط بكل شيء في كل آن لا يعتريه شيء مما يعتري الإنسان.

---

(١) علي سامي النشار: نشأة الفكر الفلسفي في الإسلام، دار المعارف، الجزء الثاني، ص٥١.

(٢) مع الشيعة الإمامية في عقائدهم، ص١٠١.

(٣) محمود إسماعيل: فرق الشيعة بين التفكير السياسي والنفي الديني، ص١٩.

والبداء وكل ما يعتري البشر من جهل وعذر وحسد وكذب وندم وغضب في معبودات الأساطير اليونانية أمر عادي طبيعي لا نستبعد في الأساطير إما إسناد البداء لله جل جلاله في كتب العهد القديم والعهد الجديد، فنحن إذ نراها نتبين الفضل العظيم للقرآن الكريم في بيانه المعجز بين الكتب السماوية.(١)

والثاني في إجماع الكيسانية: قولهم بإمامة محمد ابن الحنفية وكان المختار يدعو له، وينسب إلى الكيسانية: أنهم أصل الغلو في الإمامة والقول بأن الدين هو الطاعة لرجل واحد هو الإمام، وحملهم ذلك إلى القول بالتناسخ والحلول والرجعة بعد الموت وادّعوا أن الإمام لا يموت ولا يجوز أن يموت قبل أن يرجع، وتأولوا الأركان الشرعيّة فكانوا – أي الكيسانية –هم أصل فكرة أن الصلاة والصوم والزكاة والحج أسماء لرجال ، ومن يواليهم فقد أطاع الله فكأنه صام أو حجّ أو صلَّى أو زكّىَ ، وقالوا: إنه لا تكاليف بعد الوصول إلى طاعة الإمام.(٢)

وقد أخرجهم العديد من الباحثين في الشأن الإسلامي من الملة نتيجة هذا التطرف في العقائد الكيسانية.

وقدم – إسماعيل – مبررًا لهذا التطرف المتجاوز للدين في عقائد الكيسانية بأنه ما جرى من محن ألمت بأتباعها بعد فشل الثورة وبالتالي يمكن تبرير وتفسير شيوع الآراء المتطرفة كالعصمة وادعاء النبوة كذا الأفكار «الطوباوية» كالاحتفاء بجبل رضوى حيث العسل والماء (يقصد محمد ابن الحنفية والزعم باختفائه) ثم الرجعة لإقامة إمامة العدل بعد أن يهدم دمشق حجرًا حجرًا». (٣)

(ب) الزيدية:

يعتبر العديد من الباحثين أن فرقة «الزيدية» من أهم فرق الشيعة التي تتميز بخصوصية في الفكر والمنهج، وكذا خصوصية في كيفية تطبيق ذاك الفكر وذاك المنهج، كما أنها أقرب فرق الشيعة لعالم السنة – كما يذكر محمد فياض –كما أن إمامها

---

(١) الوشيعة في نقد عقائد الشيعة، ص٢٣٢، ٢٣٣.

(٢) عبد المنعم الحفني: موسوعة الفرق والجماعات والمذاهب والأحزاب والحركات الإسلامية، ص٥٥٠، ٥٥١.

(٣) محمود إسماعيل: فرق الشيعة، ص٢٠.

«زيد بن علي زين العابدين بن الحسين» له فكره الخاص وأيديولوجيته التي ضربت بالمبادئ الأساسية للتشيع عُرض الحائط رغم كونها أحد أهم الفرق الشيعية.[1]

في حين يرى علي سامي النشار أن النتيجة القاطعة في حقيقة زيد بن علي (٧٩-١٢٢هـ/ ٦٩٨-٧٤٠م) أنه لم يكن شيعيا على الإطلاق، ولم تكن حركته للشيعة، وإنما هي حركة إسلامية استهدفت الخروج على الإمام الظالم من عالم من علماء المسلمين يمتاز عن غيره من العلماء أنه من دوحة النبوة ومن أبناء علي عليه السلام، ويدعم – رأي النشار – دعوة زيد بن علي إلى أصحابه وهو يعلن الجهاد قائلا: «إني أدعو إلى كتاب الله وسنة نبيه وإحياء السنن وإماتة البدع فإن تسمعوا كان خيرًا لكم ولي وإن تأبوا فلست عليكم بوكيل». فلم يكن إذن في بيعته وجهاده يذكر نصًا أو وصية أو حقًا إلهيا.[2]

ويذهب بعض الباحثين في القول إلى أنه: إن لم يكن زيد بن علي من المعتزلة، ولكنه تأثر بأفكارهم في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وقضية التوحيد وقضية الإمامة من حيث اشتراط أن يكون الإمام عادلًا، وخاصة أنه ارتبط فكريا وتذاكر مع رأس المعتزلة واصل بن عطاء.

على أية حال الفرقة الزيدية تنتسب إلى الإمام زيد بن علي زين العابدين بن الحسين بن علي بن أبي طالب والذي ولد بالمدينة حيث نشأ بها وترعرع، وعندما أعلن الثورة على الخليفة هشام بن عبد الملك (٧١ -١٢٥هـ = ٦٩٠-٧٤٣م) ظهر زيد في الوقت الذي اعتزل فيه آل البيت السياسة بالقول والعمل حتى أنهم كانوا ينادون الحكام «يا أمير المؤمنين» اتقاءً للأذى الأموي، غير أن كل أئمة الزيدية ودعاتهم يتفقون على أنّ خروجهم لم يكن مقصوده إثارة الفتن وخلق الزعزعة وتفجير الاضطرابات وإنما الخروج لأن الحاكم طغى وتكبر يحل الحرام ويحرم الحلال ويؤمن الفاسقين، ويتخذ لنفسه بطانة من المرائين والمنافقين، بينما يخيف المؤمنين ويقض مضجعهم!! ثم هم متفقون وبخاصة أعلامهم من أمثال الإمام زيد بن علي وابنه يحيى

(١) محمد فياض: فرق الشيعة بين النشأة والتطور والعمل السياسي، الهيئة المصرية العامة لقصور الثقافة، ٢٠١٣، ص١٢٥.

(٢) علي سامي النشار: نشأة الفكر الفلسفي في الإسلام، الجزء الثاني، ص١٢٧.

ومحمد بن عبد الله المعروف بالنفس الزكية ثم من تمكن منهم من إقامة دول زيدية من أمثال إدريس بن الحسين (ت ٢٩٨هـ) في اليمن والناصر الأطروشي (ت ٣٠٤هـ) في الديلم وطبرستان يتفقون – جميعًا – على أهداف الخروج وتتمثل في الآتي:

(١) الحكم بكتاب الله وسنه نبيه.

(٢) الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وإحياء السنة وإماتة البدعة.

(٣) أنه يطلب الطاعة ما أطاع الله فيهم فإن خالف أو مال أو عدل عن كتاب الله فلا حجة له عليهم.

(٤) أن يؤثر أتباعه على نفسه في العطاء والغنائم ولا يتميز عليهم وأن يتقدمهم عند لقاء عدوهم ثم هم يتبعون في الحرب سيرة الإمام على حروبه فلا يتبعون هاربًا ولا يُجهزون على جريح.[1]

والجدير بالبيان أنه قد انطلقت «الثورة الزيدية» من الكوفة عام ١٢٤هـ بزعامة زيد بن عليّ وبرغم كثرة أتباعها وأنصارها من العرب والموالي وبرغم تأييد الفقهاء آل مصيرها إلى الغش بعد خذلان أهل العراق لزيد كما خذلوا الحسين بن علي من قبل، وحاول محمود إسماعيل أن يقدم أسباب لفشل «الثورة الزيدية» تمثلت في اعترافه بإمامة «المفضول» وهو ما كان يعني ضمنيا الاعتراف بخلافتي أبي بكر وعمر وهو أمر فعل فعلته في بث الفرقة بين العلويين وشيعتهم ، ومن ناحية أخرى أنه بالرغم من تعاطف العباسيين مع «الزيدية» نكاية في الأمويين فإنهم خشوا نجاحهم في الثورة وسبقهم إلى الانتصار والاستئثار بالسلطة وبالتالي حرمان العباسيين من «الخلافة» وذلك لم يدخروا وسعًا في وضع العراقيل أمام ثوار «الزيدية» إذا أخذوا يثبطون أهل الكوفة من أتباع زيد ، ونجحوا في الحيلولة دون اشتراكهم في الثورة الأمر الذي أفضى في النهاية إلى فشلها.[2]

وعلى الرغم من فشل ثورة زيد بن عليّ ضد هشام بن عبد الملك إلّا أنها نجحت

(١) د. أحمد محمود صبحي: النظريات السياسية لدى الفرق الإسلامية ، عالم الفكر، الكويت، المجلد الثاني والعشرين، عدد ١٩٩٣، ص١٥٩.

(٢) محمود إسماعيل: فرق الشيعة، ص٣٦ ، ٣٧.

ثورته التصحيحية الفكرية في تغيير مفاهيم حول الإمامة بالنص لا بالاختيار وغيرها من مفاهيم «الوصية» واغتصاب الخلافة، فكانت المفاهيم الفكرية على النحو التالي:

(١) جواز إمامة المفضول مع وجود الأفضل:

حملت الأجندة الزيدية – في أول صفحاتها – فكرًا خاصا وأيديولوجيا مختلفة حول مسألة الخلافة والإمامة فألف باب تشيع – كما يذكر محمد فياض –أن تفضل عليّا على جميع الصحابة وتؤمن أنه صاحب الحق الأوحد في الإمامة بعد الرسول ﷺ وأنه اغتصب منه حقه ومن لم يسر علي ذلك الفكر فليس شيعيًا ، ورأى الإمام زيد نفسه أن عليًّا كان أفضل الصحابة إلا أن رؤيته كانت متوازية، فلم يغمط الشيخان حقهما، ولم يطعن فيهما بل نادى الإمام زيد منذ أول وهلة بمبدأه الأشهر بجواز إمامة «المفضول» مع وجود «الأفضل»، وقد تحمل الكثير من المعاناة مع الشيعة لأجل ذلك الرأي.[١]

(٢) الخروج أو الثورة على الحاكم الظالم في الفكر الزيدي:

من المبادئ الحصرية لدى الإمام زيد هو الخروج، فالشرط الأهم للإمامة عنده هو الخروج على الحاكم الجائر والظالم (الثورة عليه) وهو بذلك ينسف أهم المبادئ الشيعية والتي استقرت في عقائدهم وهو مبدأ «التقية» ، ويرى زيد بن علي أن من يلتزم التقية لا يصح أن يكون إمامًا وإن الإمام الحق هو من يشهر سيفه في وجه الظالم، وبذا كانت الزيدية الفرقة الوحيدة التي لم تقبل مبدأ «التقية» و«المداراة» في التعامل مع الحاكم الجائر.[٢]

(٣) رؤية زيد لشروط الإمامة:

هناك عدة شروط لذلك وهي:

أ) **أن يكون الإمام فاطمي**: أي أن يكون من نسل فاطمة الزهراء ، عالم ، شجاع، سخي، شاهرًا سيفه، سواء كان من أولاد الحسن بن علي (٣-٥٠= ٦٢٤-٦٧٠م) أو الحسين بن علي ، وهذا بخلاف ما تتطلبه فرقتي «الكيسانية» و«الإمامية»، فالأولى تؤمن بإمامة علوي ليس بفاطمي ، والإمامية تؤمن بإمامة الفاطميين الحسينيين فقط.

---

(١) محمد فياض: فرق الشيعة بين النشأة والتطور والعمل السياسي، ص١٤٤.

(٢) محمد فياض: مرجع سابق ذكره، ص١٤٥.

ب) نفي الإمام زيد عن «الإمام» مسألة العصمة: الإمام عند زيد ليس معصومًا، فلم يعتقد بالعلم اللدني لذا سافر زيد وتنقل لطلب العلم عن مختلف الشيوخ، ورفض فكرة العصمة (وهي المنعة من ارتكاب المعاصي الكبائر منها أو الصغائر). وذلك عكس ما آمنت به باقي فرق الشيعة، والتي اعتقدت بأن تلك العصمة أتت نتيجة وراثة الأئمة علم النبي الكريم.[1]

جـ) نفي المهدوية: كان لكل فرق الشيعة المهدي الخاص بها ، وهو المهدي المنتظر، والذي يرجع ليملأ الأرض عدلًا كما ملئت جورًا وأنه إمام مستور إلا أن الإمام زيد رفض ذلك، فالمهدي لديه هو الخارج على الظلم والجور ، المجدد الفقهي، الذي يخرج مجاهدًا ليملأ الأرض عدلًا.

د) جواز قيام إمامين في قطرين متباعدين:

ذكرت بعض الآراء أن الإمام زيد بن علي (٧٩-١٢٢هـ/ ٦٩٨-٧٤٠) قد أباح إمكانية قيام إمامين في قطرين متباعدين يستجمعان خصال الإمامية وشروطها، ويكون كل واحد منهما واجب الطاعة، فتعدد الثورات في البلدان يكون معجزًا للسلطات الجائرة من مواجهتها معًا ، وذلك أدعى لانتصارها على الظلم والحيف.

(جـ) الإمامية (الاثنى عشرية):

الشيعة الإماميّة هي فرقة من المسلمين الذين تمسكوا بحق علي بن أبي طالب في وراثة الخلافة بعد النبي الكريم (١١هـ/ ٦٣٢م) دون أبي بكر الصديق وعمر بن الخطاب وعثمان بن عفان وإن هذه الفرقة قد سموا بالإمامية لأنهم جعلوا الإمامة وصفات وواجبات وحقوق الإمام محور عقيدتهم وأصل من أصول الدين كما سموا – أيضًا – بالاثنى عشرية لأنهم حصروا الإمامة في اثنى عشر إماما يسمون بالأوصياء حيث يوصى كل واحد منهم على من يليه وهؤلاء جميعًا منصوص عليهم من قبل النبي ﷺ ، وقد ذكرناهم بالترتيب فيما سبق من الأوراق.

وتخلع الشيعة الإمامية علي «الإمام» العديد من الصفات التي تجعل الإمامة كالنبوة حيث يختار الله للإمامة من يشاء ويأمر نبيه بالنص عليه، ويقولون بعصمة الإمام عن الكبائر والصغائر.

(١) محمد فياض: مرجع سابق ذكره، ص١٤٧.

والإمام -في نظرهم - قد يكون ظاهرًا وقد يكون مستورًا إذا لم تكن له شوكة تدافع عنه، كما أنهم يؤمنون بالرجعة، وهذا من معتقداتهم الأساسية ومفاده أن الأئمة (الاثنى عشر) سيعودون إلى الأرض (الدنيا) في آخر الزمان تباعًا لكي يحكموها تعويضًا لهم عن حرمانهم من حقهم في الحكم إبان حياتهم[(١)]

ويشترطون -أي الإمامية -للأحاديث أن يكون مصدرها آل البيت ويستشهدون بقول الإمام جعفر الصادق: «لا تصدقوا الأحاديث المروية عنا إذا لم تطابق القرآن والسنة»، وقوله: «عنا» يعني آل البيت ، ويقصد بهم فاطمة وعلي والحسن والحسين وسائر الأولاد والأحفاد، وهؤلاء بلغ ما روى عنهم من الأحاديث مقدار أربعة كتب دُونت عن الإمامين محمد الباقر وجعفر الصادق غالبًا، وحررت عن مجالسهما أربعمائة رسالة سُميت الأصول الأربعمائة توفر عليها الكُليني (ت٣٢٩هـ) فصيغها في خمسة أجزاء سماها الكافي ورصد بها ١٦١٩٩ حديثًا في اثنين وثلاثين كتابًا ، وتوالى عليها الفقهاء إبراهيم أبو جعفر محمد بن عليّ بن بابويه المعروف بالشيخ الصدوق (ت٣٨١) ، ومحمد بن الحسن الطوسي (٤٦٠هـ) ، وكما ذكرنا من قبل أن هؤلاء الفقهاء وغيرهم لهم إضافات عديدة على الفقه الجعفري ، ونسبوا إلى أئمة أهل البيت أخذت عليهم لأنها أضافت تقديس وتنزيه وتأليه لهؤلاء الأئمة، وقد عرضنا لعديد من الأمور عن الشيعة الإمامية - من قبل - ولم يحتاج الأمر إلى مزيد، ولكن من احتاج إلى تنويه سطّرناه في هذه الصفحات القليلة.

(٥) الغالية:

وهم الذين غالوا في حق أئمتهم - كما يذكر الشهرستاني - حتى أخرجوهم من حدود الخليقية ، وحكموا فيهم بأحكام الإلهية، فربما شبهوا واحدًا من الأئمة بالإله، وربما شبهوا الإله بالخلق وهم على طرفي الغلو والتقصير ، وإنما نشأت شبهاتهم من مذاهب الحلولية ومذاهب التناسخية ومذاهب اليهود والنصارى - كما يذكر الشهرستاني - إذ اليهود شبهت الخالق بالخلق، والنصارى شبهت الخلق بالخالق ، فسرت هذه الشبهات في أذهان الشيعة الغُلاة حتى حكمت بأحكام الإلهية في حق بعض الأئمة وبدع الغُلاة محصورة في أربع: التشبيه، والبراء ، والرجعة، والتناسخ[(٢)]

---

(١) موسوعة العلوم السياسية ، الجزء الثاني، ص٢٣١.

(٢) الملل والنحل، ص١٤١.

والغُلاة أحد عشر صنفًا:

(أ) **السبائية**: أصحاب عبد الله بن سبأ ، الذي قال لعلي كرم الله وجهه: «أنت أنت»، يعني : أنت الإله، فنفاه إلى المدائن(*).

(ب) **الكاملية**: أصحاب أبي كامل أكفر جميع الصحابة بتركها بيعة علي رضي الله عنه، وطعن في عليّ – أيضًا – بتركه طلب حقه، ولم يعذره في القعود.

(جـ) **العلبائية**: أصحاب العلباء بن ذراع الدوسي، وقال قوم: هو الأسدي، وكان يفضل عليًا على النبي ﷺ، وزعم أنه الذي بعث محمّدًا يعني عليًّا وسماه إلها(**).

(د) **المغيرية**: أصحاب المغيرة بن سعيد البجلي: ادّعى أن الإمامة بعد محمد بن علي ابن الحسين في محمد النفس الزكية بن عبد الله بن الحسن بن الحسن الخارج بالمدينة، وزعم أنه حي لم يمت.

(هـ) **المنصُوريّة**: أصحاب أبي منصور العجلي: وهو الذي عزا بنفسه إلى أبي عبد الله جعفر محمد بن علي الباقر في الأول ، فلما تبرأ منه الباقر وطرده، زعم أنه الإمام ودعا الناس إلى نفسه!!

(و) **الخطابية**: أصحاب أبي الخطاب محمد بن أبي زينب الأسدي الأجدع مولى بني أسد، وهو الذي عزا بنفسه إلى أبي عبد الله جعفر بن محمد (الصادق) رضي الله عنه، فلما وقف الصادق على غلوه في حقه، تبرأ منه، ولعنه، وأمر أصحابه بالبراءة منه، فلما اعتزل عنه ادّعى الإمامة لنفسه!!

(ز) **الكياليّة** : أتباع أحمد بن الكيّال ، وكان من دعاة واحد من أهل البيت بعد جعفر الصادق، وكان من الأئمة المستورين، ثم قال: إن الباري تعالى إنما خلق الإنسان على شكل اسم: أحمد ، فالقامة: مثل الألف ، واليدان : مثل الحاء، والبطن: مثل الميم، والرجلان: مثل الدال إلى غير ذلك من الخزعبلات!!

(جـ) **الهشامِيَّة**: أصحاب الهشامين: هشام بن الحكم صاحب المقالة في التشبيه،

(*) تكلمنا باستفاضة كبيرة عن عبد الله بن سبأ ودوره في العصر الإسلامي الأول ، وحقيقة هذا الدور وذلك في الأوراق السالفة.

(**) تكلمنا من قبل عن العلبائية في الأوراق السابقة.

وهشام بن سالم الجواليقي، الذي نسج على منوال «الأول» في التشبيه، فقد حكى ابن الراوندي عن هشام بن الحكم أنه قال: إن بين معبوده وبين الأجسام تشابهًا ما بوجه من الوجوه ولولا ذلك لما دلت عليه[1].

(ط) **النعمانية**: أصحاب محمد بن النعمان أبي جعفر الأحول، والملقب بشيطان الطاق، وهم الشيطانية، وهو تلميذ الباقر: محمد بن علي بن الحسين (٥٧-١١٤هـ/ ٦٧٦-٧٣٢م) رضي الله عنه، وأفضى إليه أسرارًا من أحواله وعلومه، وما يحكى في التشبيه فهو صحيح، وقيل: وافق هشام بن الحكم في أن الإله تعالى لا يعلم شيئا حتى يكون..!!

(د) **اليونسيّة**: أصحاب يونس بن عبد الرحمن العمي مولى آل يقطين، زعم أن الملائكة تحمل العرش، والعرش يحمل الرب إذ قد ورد في الخبر: أن الملائكة تئط أحيانًا من وطأة عظمة الله تعالى على العرش مع أن الآية: ﴿**وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَانِيَةٌ**﴾(الحاقة: ١٧) دالة على أن العرش هو المحمول دون الرب!![2]

(ك) **النصيرية والإسحاقية**: من حملة غلاة الشيعة ولهم جماعة ينصرون مذهبهم، ويذبون عن أصحاب مقالاتهم، وبينهم خلاف في كيفية إطلاق اسم الإمامية على الأئمة من أهل البيت، قالوا: ظهور الروحاني بالجسد الجسماني أمر لا ينكره عاقل.[3]

والنصيريَّة أقدم فرق الغُلاة حيث ينسبون أنفسهم إلى نُصير - غلام علي بن أبي طالب - أو أن نسبتهم وهو الأغلب إلى المؤسس محمّد بن نُصير النُّميري البصري المتوفى حوالي سنة ٢٧٠هـ، ويقولون بتأليه عليّ، ففي كتابهم «المجموع» يصفون عليًّا بأنه: أحد، صمد، لم يلد، ولم يولد وأنه قديم لم يزل وجوهر نوره، ومن نوره تسطع الكواكب وهو نور الأنوار، تجرد عن الصفات، والشهادة عندهم: أشهد أن لا إله إلّا عليّ بن أبي طالب»!![4]

---

(١) الملل والنحل، ص١٤٨.

(٢) عبد المنعم الحفني: مرجع سابق ذكره، ص٧٠٦.

(٣) الملل والنحل، ص١٤٩.

(٤) عبد المنعم الحفني: مرجع سابق ذكره، ص٦٥٢.

أما الإسحاقية الغُلاة: هذه هي الفرقة من جملة غلاة الشيعة ، أحدثهم إسحاق بن زيد بن الحارث ، وكان من أصحاب عبد الله بن معاوية بن عبد الله بن جعفر بن أبي طالب (٦٢٢-٧٠٠م) ، وكان يقول بالإباحة وإسقاط التكاليف ويُثبت لعليّ شركة مع الرسول ﷺ في النبوة، ويستدل على ذلك بقول عليّ: «أنا من أحمد كالضوء من الضوء» ، أي أنه لا فرق بين النورين إلّا أن أحدهما سابق ، والثاني لاحق به تال عليه، وهذا يدل على نوع من الشركة.[١]

(هـ) الإسماعيلية:

تعرضت فرقة الإسماعيلية لعديد من المفتريات والادعاءات حتى طال الأمر تعدد الأقوال في الإسماعيلية حول أصلها وحقيقة منشئها وأئمتها وحججها ودعاتها حتى وصل الأمر إلى السؤال الإشكالية وهو: هل هي دعوة إسلاميّة تدخل في نحل المسلمين وفرقهم؟ أم هي ملة جديدة انفصلت عن الإسلام نهائيًا وكونت دينًا جديدًا؟

تجدر الإشارة أنه كما يعلن المذهب الإمامي أنه ينبثق من جعفر الصادق وينتسب إليه والمذهب الاثنى عشري يعلن – إن حقا أو باطلا – أنه صدر من الإمامة والأئمة من قبله، والأئمة من بعده عن لسانهم وبشروا به في آثارهم ، وما تركوه من أعمال وأقوال فإن الإسماعيلية – ناقضة لكل هذا – كما يذكر على سامي النشار – تستند أيضا على هذا الإمام جعفر الصادق معلنة أنه هو الذي أنشأ الدعوة الإسماعيلية ونظمها ووضع أصولها ـ وأن سياسته البعيدة المرمى هي التي مكنت لها النجاح الكامل في اليمن وفي المغرب ثم في مصر (دولة الفواطم).[٢]

فقد زعموا أن الإمام بعد جعفر الصادق هو ابنه إسماعيل، وكان أبوه شديد المحبة له والبّر به ، وكان قوم من الشيعة يظنون في حياة أبيه أنه القائم بعده والخليفة له إذا كان «إسماعيل» أكبر إخوته سنًا ولميل أبيه إليه وإكرامه له، ولكنه مات في حياة أبيه بالعريض سنة ٧٦٠ ميلادية، وحُمل على رقاب الرجال إلى المدينة، ودفن بالبقيع سنة ١٤٠هـ.[٣]

(١) عبد المنعم الحفني: مرجع سابق ذكره، ص٦٨، ٦٩.

(٢) علي سامي النشار: مرجع سابق ذكره، ص٢٧٣.

(٣) عبد المنعم الحفني: مرجع سابق ذكره، ص٧٤.

وقيل : إن أخاه – وكان طفلًا صغيرًا – كشف الملاءة عن وجهه وهو ميت، فأبصره مفتوح العينين، فجرى يقول لأبيه: عاش أخي، عاش أخيّ، فقال والده: إن أولاد الرسول كذا يكون حالهم في الآخرة، من أجل ذلك أنكرت «طائفة من الشيعة» موت إسماعيل، وقالوا : إن الأمر التبس على أبيه وظنه مات، ومن ثمَّ زعم الإسماعيلية لكل ما سبق : إن إسماعيل لم يمت ولا يموت حتى يملك الأرض ويقوم بأمر الناس وأنه القائم لأن أباه أشار إليه بالإمامة.

وهذه الفرقة والتي لقبت بالإسماعيلية «الخالصة» لأنهم أصرّوا على أن «إسماعيل» هو الإمام وأنه لم يمت وأخلصوا لدعواهم وثبتوا عليها.

وقيل في رواية: أنه بعد وفاته – أي إسماعيل – قام ابنه محمد المعروف بالمكتوم، لأنهم كتموا اسمه تقيّة ، وهو السابع من الأئمة الظاهرين ـ وأول الأئمة المستورين الذين يستترون ويظهرون «الدعاة» والأئمة يدور عددهم على سبعة والنقباء على اثنى عشر أولهم محمد «المكتوم» ثم ابنه جعفر المصدّق، ثم ابنه محمد الحبيب، ثم ابنه عبد الله المهدي مؤسس الدولة المهدية بالمغرب، وقيل: إن محمدًا وأولاده تفرّقوا في المعمورة يبعثون «الدعاة» إلى العالم من مخابئهم وأشهر دعاتهم: ميمون القدّاح الذي سار ولده عبد الله رأس فرقة «القرامطة» .

ومن الإسماعيلية: النزارية في الهند وزعيمها آغاخان والسليمانية والداودّية في اليمن، وعدن، ويسمون أيضًا البُهرة.(١)

على أية حال، هناك العديد من الباحثين وعلى رأسهم محمود إسماعيل من يرفض الفريّة المتواترة في المصادر السنية عن «تقديس الإسماعيلية» لأئمتهم إلى حد جعلهم في منزلة أعلى من منزلة النبوة وأنهم – أيضًا – يؤولون القرآن الكريم تأويلًا باطنيًا إلى حد عدم الاعتراف بالسنة النبوية، فيراها –إسماعيل – في جملتها اتهامات لا محل لتصديقها فتبجيل آل البيت ورد في أحاديث أقر محدثوا السنة بصحتها ، وفي القرآن الكريم – أيضًا – من الآيات البينات ما يشير إلى فضائلهم ومناقبهم وحب آل البيت أمر مألوف عند سائر المسلمين، أما تأويل القرآن – كما يذكر إسماعيل – فقد أجازه

(١) عبد المنعم الحفني: مرجع سابق ذكره، ص٧٥.

عُمر بن الخطاب عندما أوصى ولاته «بتجريده»، أما الأحاديث النبوية ودرجة مصداقيتها فأمر مختلف عليه عند «الستة الصحاح» من محدثي أهل السنة والشيعة يتحفظون لذلك فلا يأخذون بالأحاديث المروية عن أئمتهم[1].

فذلكة أخيرة:

يمكن لنا أن نستقرئ الأحداث التي مرت على أهل البيت وأئمتهم، ونستنبط منها عديد من الملاحظات من خلال التاريخ الشيعي للأئمة وأفكار الشيعة وحقيقة ما ارتبط بهذه «الفرق» من ميثولوجيا وأساطير أضيفت لحياتهم، ونوجز هذه الملاحظات في الآتي:

الملاحظة الأولى: أن أئمة أهل البيت وأبناء الدوحة النبوية وأحفاد الرسول قد تعرضوا لعديد من التشويهات الدعائية والفكريّة والسياسيّة، ينضاف إلى ذلك ما تعرضوا له من خصومهم خلال التاريخ الأموي والعباسي من اضطهاد وتقتيل وذبح وسجن لآل البيت وأئمتهم والتي بدأت مأساتهم «الدموية» و«الكارثية» بمأساة كربلاء واستشهاد الحسين بن علي وأبنائه في ٦١هـ/ ٦٨٠م والتي أنبأت عن دموية قاتلي الحسين ووحشيتهم، ثم تتالت على الذرية الصالحة النكبات بعد ذلك كما حدث لزيد بن علي بن الحسين (٧٩-١٢٢هـ/ ٦٩٨-٧٤٠م)، والذي خرج في عهد هشام ابن عبد الملك «الأموي»، وكذا محمّد بن عبد الله بن الحسن بن الحسين (النفس الزكية)، والذي خرج على أبي جعفر المنصور، وظهر في أيام المستعين يحيى بن عمر بن يحيى بن الحسين، فسير إليه الخليفة من قتله، ثم ظهر بالري ذات العهد أحمد بن عيسى ابن علي بن الحسين بن علي، ودعا إلى الرضا من آل محمد، غير أنه انهزم، ولم تكد تسكت الفتنة حتى ظهر بقزوين الحسن بن إسماعيل بن أحمد بن عبد الله بن علي بن الحسين، فسير إليه الخليفة جيشا فهزمه وقتله، أي أن ما تعرضوا له من أهوالٍ يشيب لها نواصي الوالدان من خصومهم الأمويين والعباسيين!! كما تعرض أبناء الدوحة النبوية من أتباعهم - أيضًا - وشيعتهم وتنظيرات فقهائهم ورواتهم ومحدثيهم إلى حالة من التشويه وانتساب الروايات والأقوال والتي لا تتناسب مع هذه «الدوحة» وتربيتها ومعالم أخلاقها، فكان معظم الرواة «كذابين» و«وضاعين» فشوهوا التضحيات وزيفوا الحقائق وأضافوا «ميثولوجيا» و«أساطير» من عندياتهم استقرت في الوجدان الشعبي ما أنزل الله بها من سلطان!!!

---

(١) محمود إسماعيل: فرق الشيعة، ص٤٨، ٤٩.

الثانية: تعرض آل البيت وأئمتهم وأحفاد الرسول والشيعة بشكل عام إلى حملات تشويهية من أهل السنة والذين كانوا يؤرخون للتاريخ ويسطّرون الأثر والسيرة والتاريخ في عهد الدولة الأمويّة والعباسية فكانت الشيعة «رافضة» و«غُلاة» وأن أفكارهم هي في حقيقة الأمر «فارسية» و«مجوسية» و«يهودية» مما أثر على سمعة أهل البيت والشيعة واتهامهم بأفكار أمم أخرى!!

الثالثة: إلصاق التهم بأئمة أهل البيت «خاصة» وبالشيعة والتشيع «عامة» بارتباط التشيع وانتسابه إلى «شخصية يهودية» أثارت جدلًا تاريخيًا، وأيضا وفي عصرنا الحديث والمعاصر وهي شخصية «عبد الله بن سبأ» بترهاته عن الإمام عليّ كما أصاب الشيعة من المفتريات والتهم ما نسب إليهم من «فرق غالية» مثل: الخطّابية والغرابية والعليائية أو العلبائية والمخمسة والبزيعية وأشباههم من الفرق الهالكة والمنقرضة تاريخيًا رغم ما اتسمت به من «خزعبلات» و«زندقة» و«إدعاء الإلوهية» لآل البيت وعلى رأسهم الإمام عليّ، فإنه وبرغم من نجاح بعض الشيعة وأئمتهم من إبعاد هذه الزندقة والهرطقة عن طريق الشيعة ومضمون عقائدها إلّا أن منظريهم ومدارسهم الاجتهادية ومحدثيهم قد وقعوا في فخ «التكفير» حيث طال التكفير الصحابة ومخالفيهم في الرأي والعقيدة، وأنّ محاولاتهم أن يجدوا صيغة تخرجهم من فكاك «المغالاة» وشرك «الغلو والتطرف المهلك»، واستبعاد الفرق الغالية عن تشويه الشيعة وتاريخ أئمتهم إلّا أنهم لم يستطيعوا الفكاك من «فخ إكفار الصحابة أو بعضهم» ولم ينجوا من فخ «التكفير» وشرك «إكفارهم أيضًا» نتيجة زعم بعضهم بعصمة الأولياء والأئمة وعلمهم ومكانتهم وإصرارهم على تكفير من لا يؤمن بأفكارهم وعقائدهم!!

الرابعة: نتيجة الفشل في فك الارتباط بين منظري المذهب الشيعي وفقهاء المدارس الشيعية القدامى والمحدثين وبين أقوال أئمة آل البيت وأبناء الرسول وأحفاد النبوة وسلوكهم وتربيتهم وأخلاق النبوة الموروثة فقد أدى ذلك الفشل إلى تشويه وتزييف الرؤى عن المذهب بشكل عام حتى اتهمت فرق الشيعة بالزندقة والمروق عن الإسلام حتى خط أهل السنة عنهم بأنهم وعقيدتهم «دين شيعة» وأنه - أي هذا الدين- صورة مضادة لدين السنة وأهل الجماعة..!!

الخامسة: نجح الغُلاة من الطرفين أهل السنة وأهل الشيعة في تحفير هوة الخلاف دون تجسيرها وتوسيع الفجوة دون ردمها وتزويد الفتق دون رتقه ، وتوسيع الصدع دون رأبه فكال كل منهما الاتهام للآخر بالزندقة والكفر والمروق عن ملة الإسلام والإشراك بالله والفسق والهرطقة فاتسع الفتق على الراتق ، فبدلًا من تجلية التشوهات وإزالة العقبات والتقارب بين أهل السنة وأهل الشيعة والتقريب بين قواسمهما المشتركة وثوابت الدين زاد الطين بله بالفرقة والاتهامات والادعاءات المزيفة وإظهار كل طرف بأنه «دين مستقل» وأنه مختلف عن الآخر في أصول الدين وليس في فروعه والسياسات والفقهيات المسموح بها لاختلاف المفاهيم والرؤى والاستيعاب وإدراك الأمور.

السادسة: إن إظهار عصمة الأئمة من أهل البيت من الصغائر والكبائر والوصية وإكفار الصحابة (أو معظمهم أو بعضهم) وتحريف القرآن من قبل بعض الصحابة – حسب الزعم الشيعي من بعض مفكريهم وفقهائهم القدامى والمحدثين – وإظهار الأئمة في كتبهم في مستوى يقربهم من مستوى رب العباد نتيجة إسناد روايات من بعض الوضاعين والكذابين وفي أشهر كتبهم المعتبرة مثل أصول الكافي وكتب الطبرسي والطوسي والشيخ المفيد وما أطلق عليهم «كتب صحاح الشيعة» على غرار «صحاح السنة» كالبخاري ومسلم والترمذي وابن ماجه، وأن هذه الروايات المكذوبة كان يستوجب الفصل بينها وبين أقوال الأئمة من أهل البيت كالباقر والصادق فإن انتساب هذه الروايات لهؤلاء الأئمة أظهرتهم في صورة مثلى وفوق النبوة، والأمر بخلاف تربيتهم النبوية وأخلاقهم الرسولية الموروثة عن النبي الكريم.

السابعة: أن ذهنية التكفير الشيعية قد تكونت عبر كر السنوات ومرّ الدهور، وقد ساهم في تعميقها في الوجدان الشعبي والسواد الأعظم من الناس ما أصاب آل البيت من محن وآلام وتقتيل ومذابح ووحشية وسجن ومحاصرة على يد حكام الجور وسلاطين الظلم والحيف، والذين لم يراعوا لهم ذمة، ولم يحفظوا للأئمة من آل البيت من حرمة تعود إلى صاحب الرسالة ونبي الرحمة، كما أن ما أصابهم من محن قد أضفت عليها الأيام أساطير مرتبطة بالأحداث وفظاعتها بل أضفت قدسية كبيرة ألهبت مشاعر الناس ودفعتهم إلى اتهام مخالفيهم بالكفر والمروق عن الملة نتيجة مذابحهم وتقتيلهم لآل البيت وأحفاد الرسول والذي أخرج الناس من الظلمات إلى النور وأرسله الله رحمة للعالمين.

المطلب الثالث

المعتزلة .. وإشكالية التكفير

⌑ ⌑ ⌑

المؤسس وأصول الفرقة والاعتزال:

تعددت المناقشات والمجادلات بين الباحثين والمفكرين في القديم والحديث حول أصل المعتزلة وتكوينها التاريخي، فالرواية المشهورة تنسب نشوء المعتزلة إلى واصل بن عطاء الغزال (٨٠-١٣١هـ= ٦٩٩-٧٤٨م) غير أنّ البعض لم يقتنع أن تنشأ فرقة معروفة بأنهم فرسان العقل ورواد المدرسة الفكريّة في الإسلام وبأنهم يمتلكون من الجرأة على اقتحام موضوعات لم يكن غيرهم يستطيع الدخول فيها والجدل حولها كما أنها الفرقة التي ظهر على أكتافها علم الكلام بأن يكون نشأتهم بحركة مسرحية في مجلس الفقيه التابعي الحسن البصري – على حد قول علي سامي النشار – فإنه لا يمكن لمدرسة فكريّة على هذا المستوى من الفعل والدراية والمنطق والفلسفة أن تنشأ لمجرد الخلاف الذي حدث في مسجد البصرة بشان مرتكب الكبيرة بين الحسن البصري (٢١-١٠١هـ = ٦٤٢-٧٢٨م) وتلميذه واصل بن عطاء الغزال ، فالحركات الفكرية الكبرى – كما يذكر جمال بدوي (١٩٣٤-٢٠٠٧م) – لا تظهر بسبب حادث بعينه كبر أو صغر ، ولكنها ثمرة ظروف معقدة ونتائج وتفاعل كيميائي بين أحداث سياسيّة وتطورات اجتماعية ومشاكل اقتصاديّة واجتهادات فقهية، كل هذه العناصر المتشابكة كانت تتخمر في رحم المجتمع الإسلامي، وتدفع بالعقل إلى البحث في أغوار النصوص الدينية لاستنباط أحكام تحقق حلم الإنسان في العدالة الاجتماعية والحرية الإنسانية، وترفع عنه أغلال الجبر والقهر والاستعباد.[١]

ولو عدنا للروايات في هذا الشأن نجد أنه في مجلس الحسن البصري وضع الشهرستاني القصة الشائعة الآتية: أن رجلا دخل على الحسن البصري فقال: يا إمام الدين لقد ظهرت في زماننا جماعة يكفرون أصحاب الكبائر والكبيرة عندهم كفر

---

(١) جمال بدوي: في محراب الفكر ، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ص١٣٦، ١٣٧.

يخرج به من الملة وهم وعيدية الخوارج أو جماعة يرجئون أصحاب الكبائر، والكبيرة لا تضر مع الإيمان، بل العمل في مذهبهم ليس ركنا من الإيمان فلا يضر مع الإيمان معصية، كما لا ينفع مع الكفر طاعة وهم مرجئة الأمة فكيف تحكم لنا في ذلك اعتقادًا، فتفكر الحسن في ذلك وقبل أن يجيب قال واصل بن عطاء: أنا لا أقول أن صاحب الكبيرة مؤمن مطلق ولا كافر مطلق، بل هو في منزلة بين المنزلتين لا مؤمن ولا كافر، ثم قام واعتزل إلى اسطوانة من اسطوانات المسجد يقرر ما أجاب به على جماعة من أصحاب الحسن، فقال الحسن: اعتزل عنا واصل، فسمي هو وأصحابه معتزلة».[1]

أما عبد القاهر البغدادي (ت٤٢٩ – ١٠٣٧م) يبين الموضوع على النحو التالي:

كان واصل بن عطاء من منتابي مجلس الحسن البصري في زمان فتنة الأزارقة، وكان الناس يومئذ في أصحاب الذنوب من أمة الإسلام على فرق: فرقة تقرر أن كل مرتكب لذنب صغيرًا أو كبيرًا مشرك بالله وهو قول الأزارقة، وفرقة تذهب إلى أن صاحب الذنب المجمع على تحريمه كافر مشرك، وفرقة تقول: إنه منافق، وكان علماء التابعين في ذلك العصر مع أكثر الأئمة يقولون: إن صاحب الكبيرة من أمة الإسلام مؤمن لما فيه من معرفة بالرسل والكتب المنزلة من الله تعالى ولمعرفته بأن كل ما جاء من عند الله حق، ولكنه فاسق بكبيرته وفسقه لا ينفي عنه اسم الإيمان والإسلام.

فلما ظهرت فتنة الأزارقة (فرقة من الخوارج) بالبصرة والأهواز، واختلف الناس في أصحاب الذنوب على ما ذكرنا، خرج واصل ابن عطاء عن قول جميع الفرق المتقدمة، وزعم أن الفاسق من هذه الأمة لا مؤمن ولا كافر، وجعل الفسق منزلة بين منزلتي الكفر والإيمان، فلما سمع الحسن البصري من واصل بدعته هذه طرده من مجلسه، فاعتزل عند سارية من سواري مسجد البصرة، وانضم إليه صديقه عمرو بن عبيد، فقال الناس يومئذ فيهما: إنهما قد اعتزلا قول الأمة وسمي أتباعهما من يومئذ «معتزلة».[2]

---

(١) الشهرستاني: الملل والنحل، ص٤٥، ٤٦، وأيضا: انظر نشأة الفكر الفلسفي في الإسلام لعلي سامي النشار، الجزء الثاني، ص٣٧٤.

(٢) أبو منصور عبد القاهر بن طاهر بن محمد البغدادي: الفرق بين الفرق، ص٩٣.

أما الإسفراييني فيرى أنهم سموا معتزلة لاعتزالهم مجلس (الحسن البصري) واعتزالهم قول المسلمين. ولكن هناك رواية أخرى تنسب كلمة الاعتزال إلى عمرو بن عبيد (٨٠-١٤٤هـ = ٦٩٩-٧٦١م)، فالمقريزي (٧٦٦-٨٤٤هـ= ١٣٦٥-١٤٤١م) والسُمعاني يردان الأمر على هذا النحو: «المعتزلي – هذه النسبة إلى الاعتزال – هو الاجتناب والجماعة المعروفة بهذه العقيدة إنما سموا بهذا لأن أبا عثمان عمرو بن عبيد البصري أحدث ما أحدث من البدع واعتزل مجلس الحسن البصري وجماعة معه فسموا المعتزلة..[1]

وهناك ثمة رواية ثالثة تقرر أن الذين سماهم – معتزلة – قتادة بن دعامة السدوسي (ت١١٧هـ -١١٨هـ) (وهو أكمه (ولد أعمى) ، وكان تابعيًا وعالمًا كبيرًا، وكان يدور البصرة أعلاها وسافلها بغير قائد فإذا بعمرو بن عبيد ونفر معه فأمهم وهو يظن أنها حلقة الحسن البصري ، فلما عرف أنها ليست له قال: إنما هؤلاء المعتزلة ثم قام عنهم، فمنذ يومئذ سموا المعتزلة.[2]

ويحاول بعض الباحثين المتخصصين في الفكر الاعتزالي أن يجذر للجانب السياسي في فكرهم كما يحاول أن يؤصل لمفهوم المعتزلة حتى قبل ظهور واصل بن عطاء وحديثهم في مسجد البصرة اعتمادًا على رواية الحسن بن موسى النوبختي ، والذي قال: «من الفرق التي افترقت بعد ولاية علي فرقة اعتزلت مع سعد بن مالك وسعد ابن أبي وقاص وعبد الله بن عمر بن الخطاب ومحمَد بن مسلمة الأنصاري وأسامة بن زيد بن حارثة الكلبي مولى رسول الله ﷺ، فإن هؤلاء اعتزلوا عن عليّ وامتنعوا عن محاربته بعد دخولهم في بيعته، وصاروا أسلاف المعتزلة إلى آخر الأبد، وقالوا: لا يحل قتال علي ولا القتال معه، والأحنف بن قيس قالها لقومه: «اعتزلوا الفتنة أصلح لكم».[3]

---

(١) علي سامي النشار: نشأة الفكر الفلسفي في الإسلام، الجزء الأول، الطبعة التاسعة، دار المعارف، ص٣٧٥، والسُمعاني: الأنساب، ص٢٦ .

(٢) النشار: مرجع سابق ذكره، نفس الصفحة ، وطاش كبرى زاده: مفتاح السعادة، جـ٢، ص٣٢.

(٣) النوبختي: فرق الشيعة، تحقيق : هـ. ريتر عام ١٩٣١ ، ص٥.

وتذكر نجاح محسن نصًا آخر يدعم الفكرة القائلة بأن المعتزلة قد نشأت أول ما نشأت من اتخاذها موقف الاعتزال عن الفرق السياسيّة المتنازعة حول الإمامة، فقد أطلق اسم «المعتزلة» بعد ذلك على فئة أخرى من جماعة الحسن بن عليّ ، وذلك عندما بايع الحسن بن عليّ عليه السلام معاوية، وسلم إليه الأمر ، واعتزلوا ومعاوية جميع الناس ، وذلك أنهم كانوا من أصحاب علي ، ولزموا منازلهم ومساجدهم، وقالوا: نشتغل بالعلم والعبادة فسموا بذلك معتزلة.[١]

وتؤكد محسن علي أن واصل بن عطاء كان له رأي خاص بشأن الفرق المتنازعة حينما قرر أن الفريقين من أصحاب الجمل وأصحاب صفين: أن أحدهما مخطئ لا بعينه ، وكذلك قوله في عثمان وقاتليه وخاذليه قال: إن أحد الفريقين فاسق لا محالة، لكن لا بعنيه، كما قرر أنه لا يجوز قبول شهادة علي وطلحة والزبير، وجوز واصل أن يكون عثمان وعليّ على الخطأ ، هذا قوله وهو رئيس الاعتزال.[٢]

على أنه حدث اختلاف بين الباحثين حول ربط المعتزلة القدامى في عصر عليّ ومعاوية وبين المعتزلة الجدد والذين اعتزلوا حلقة الحسن البصري ومن هؤلاء : أحمد أمين (فجر الإسلام) ، وكارلوا ألفونسوا نلينو (بحوث في المعتزلة) حسين مروة: النزعات المادية في الفلسفة العربيّة وحنا فاخوري والدكتور خليل الجر: تاريخ الفلسفة العربية، ومن الباحثين من يرفض وجود صلة بين المعتزلتين ومنهم: علي سامي النشار (نشأة الفكر الفلسفي في الإسلام) والدكتور ضياء الدين الريس: النظريات السياسية الإسلاميّة ومحمد عمارة: الإسلام وفلسفة الحكم وعبد الرحمن سالم (التاريخ السياسي للمعتزلة).

ونستطيع من خلال فهمنا لقضية المعتزلة وأصلها التاريخي أن الأمر يحتاج إلى تبيان عدة أمور نراها في التالي:

(١) أن النشاة الحقيقية للمعتزلة – حتى في مبادئها الخمسة – هي سياسيّة بالدرجة الأولى وإن بدت لبعض الباحثين – مثل مصطفى الشكعة – أنها – أي المعتزلة – كانت

---

(١) نجاح محسن: الفكر السياسي عند المعتزلة، دار المعارف ، مجلد ، ص٩.

(٢) نجاح محسن: مرجع سابق ذكره، ص١١.

نشأتها في أول أمرها بعيدة عن دعاوى السياسة نائية عن خضمها فإنها لم تلبث أن خاضت لجتها في شطط وقوة حتى الأذقان.

(٢) أن هناك ثمة ارتباط سياسي بين المعتزلة في عصر الإمام عليّ وبين المعتزلة في وجود الحسن البصري، وهذا الارتباط هو جانبه السياسي في المقام الأول، غير أنه عند المعتزلة الأولى سلبيًا، وفي الفترة الثانية إيجابيًا واضحًا لأنه متعلق بالإمامة والصراع حولها والاقتتال بشأنها حتى سالت الدماء فأثيرت قضية مرتكب الكبيرة من الفئتين المتنازعتين.

(٣) أن وجود حركة المعتزلة لم يتوقف فقط على ذاتية أصحاب الفكرة بل هناك ثمة ظروف موضوعية وتاريخية قذفتها على سطح المياه الثقافية والجدلية، فقد كانت «البصرة» في مطلع القرن الثاني الهجري بؤرة الإشعاع الفكري ومركز الاستنارة العقلية وملتقى التيارات الدينية والمذاهب الفلسفية ومقصد العلماء من شتى الملل والنحل وساعدها موقعها – كما يذكر جمال بدوي – عند ملتقى الطرق في جنوب العراق وقربها من الحجاز – مهد الإسلام – وجوارها لفارس أرض الحضارة القديمة على أن تستوعب هذا الصراع الفكري الحاد وأن تكون ساحة للجدل والحوار وبوتقة تتعامل فيها جميع الثقافات العربية والأجنبية، فكانت «البصرة» أشبه بالإسكندرية في العصر الروماني أو أثينا في العصر الإغريقي أو القسطنطينية في العصر البيزنطي تضج بالأفكار والمذاهب والعقائد من كل جنس ولون ، فتميزت بذلك على بقية الحواضر الإسلامية.[١]

كما أن واصل بن عطاء – شيخ المعتزلة الأول – وصفه المسعودي بأنه من أعظم الشخصيات الإسلاميّة وأعجبها، كما أنه تربى في مدرسة تعود جذورها إلى البيت النبوي ، ففي المكتب الذي أنشأه الإمام محمّد بن الحنفية ليكون أول مدرسة علمية عرفها تاريخ الإسلام، فبعد فشل حركة المختار الثقفي والذي رفع شعار الثأر للحسين، غير أنّ الحركة ما لبثت أن انحرفت عن مسارها وخطها الصحيح ودب فيها الفساد العقائدي، فما كان أن تبرأ منها ابن الحنفية، وعاد إلى «المدينة المنورة» وأنشأ (المكتب) ليكون أول مدرسة علمية جرت في حجراتها المباحث الفكريّة الأولى،

(١) جمال بدوي: في محراب الفكر ، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٨، ص١٢٧.

وتصدت لكل الأفكار الضالة التي انتشرت في صفوف المسلمين، ومنها فكرة الجبر التي أشاعها الأمويون لتبرير استبدادهم بالحكم، وكانت هذه المباحث المبكرة هي الغرسة الأولى التي مهدت الطريق للمعتزلة لاستنباط نظريتهم عن القدر، وتأكيد مسؤولية الإنسان عن أفعاله وعدم نسبتها إلى الخالق جل وعلا.[١]

(١) جمال بدوي: مرجع سابق ذكره، ص١٣٩.

(١) المعتزلة ... ومبادئ الاعتزال

⌑ ⌑ ⌑ ⌑

يؤكد أحد أقطاب المعتزلة على ما يستحق أن يطلق عليه لفظ «الاعتزال» ، فذكر أبو الحسين الخياط في كتابه «الانتصار»: «وليس لأحد يستحق اسم الاعتزال، حتى يجمع القول بالأصول الخمسة وهي: التوحيد والعدل والوعد والوعيد والمنزلة بين المنزلتين ، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر». ولذلك هناك ثمة اندهاش من العديد من الباحثين من اتفاقهم على الأصول الخمسة- والتي سوف نتناولها بكثير من التفاصيل فيما بعد –واختلافهم في الفروع والمسائل إلى عشرين فرقة وهي: الواصلية (أتباع واصل بن عطاء) ، العمروية (أتباع عمرو بن عبيد بن باب) ، الهذيلية (أتباع أبي الهزيل محمد بن الهزيل العلاف) ، والنظاميّة (أتباع إبراهيم بن سيار النظام) ، الأسوارية (أتباع علي الأسواري، المعمرية (أتباع معمر بن عباد السلمي) ، البشرية (أتباع بشر بن المعتمر) ، الهشامية (أتباع هشام بن عمرو الفوطي) ، والمرداريّة (أتباع عيسى بن صبيح الملقب بالردار)، الجعفرية (أتباع جعفر بن حرب وجعفر بن مبشر) ، والإسكافية (أتباع محمد بن عبد الله الإسكافي) ، والثمامية (أتباع ثمامة بن أشرس) ، الجاحظية (أتباع عمرو بن بحر الجاحظ) ، المنصورية (أتباع أبي منصور العجلي)، الجناحية (أتباع عبد الله بن معاوية بن جعفر الطيار) والغرابية والمفوضية والزمية.

وهكذا تكون الجماعات الإسلامية تتفق في الأصول، وتختلف في الفروع إلى عشرين فرقة كالمعتزلة تنتسب كل فرقة إلى صاحبها وكأن آفة هذه الجماعات هي التشظي والانقسام والتشرذم إلى فرق صغيرة تنتسب لزعيم الفرقة وكأنها عقدة التشرذم وعقدة الزعامة، والتي طالت الجماعات من القديم وحتى يومنا هذا.

على كل حال سوف نناقش الأصول على النحو التالي:

الأصل الأول : التوحيد

يتفق كل المسلمين جميعًا على توحيد الله تعالى، ولكن المعتزلة تعني بالتوحيد التنزيه المطلق لله عن صفات المخلوقين ، وقد جاء قولهم في «التوحيد» معارضًا للتصور اليهودي لله من جهة – كما يقول أحمد محمود صبحي – وأيضا لآراء المجسمة

والمشبهة والحشوية من جهة أخرى.[1]

فالتوحيد هو لب مذهبهم وأساس نحلتهم وهو عندهم تنزيه الذات العلية عن المثل والشبيه والشكل واللون والرائحة والحلول والسكون ولا بذي حرارة ولا برودة ولا رطوبة ولا يبوسة (إنكار على الحشوية والمشبهة اعتقادهم أن النبي ليلة المعراج قد صافحه وأحسَّ برد أنامله على كتفه) ، ولا طول ولا عرض ولا عمق (إنكار على المجسمة أيضًا تصورهم الإله سبعة أشبار بشبر نفسه) ، ولا يتحرك ولا يسكن (تأويل لكل آية يفيد ظاهرها معنى نزول الله أو عروجه)... كما نفوا أن يكون لله تعالى صفات أزلية (قديمة) من علم وحياة وقدرة وسمع وبصر غير ذاته ، بل الله قادر وعالم وحي وسميع وبصير بذاته وليست هناك صفات «زائدة» على «ذاته» ودفعهم إلى «المغالاة» في نفي الصفات عن الله الخوف من تعدد القدماء، فيكون ذلك مدخلًا إلى تعدد الآلهة، أما الآيات التي تنسب إلى الله صفات كصفات البشر مثل قوله تعالى: ﴿يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ﴾(الفتح : ١٠). وقوله تعالى : ﴿وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ﴾(الرحمن: ٢٧)، فإن المعتزلة ببراعتهم لجؤوا إلى تأويل هذه الآيات، وقد بنوا على ذلك استحالة «الرؤية السعيدة» أي رؤية الله تعالى يوم القيامة؛ لاقتضاء ذلك الجسمية والجهة في حق الذات الإلهية.[2]

الأصل الثاني: *العدل*:

الأصل الثاني من أصول المعتزلة «العدل» وهناك صلة بين التوحيد والعدل لقد نزه «المعتزلة» الله في أصل التوحيد عن صفات المخلوقين، كذلك نزهوه – في أصل العدل – عن الظلم – فالله في أصل التوحيد منفرد بذاتيته التي لا يشبهها أحد وهو في أصل العدل منفرد بخيريته، فلا يصدر عنه الشر.[3]

وقد وصل المعتزلة ببحثهم في أصل العدل إلى مسائل كثيرة منها:

(١) أن الله يسير بالخلق إلى غاية وأن الله يريد خير ما يكون لخلقه.

---

(١) أحمد محمود صبحي: في علم الكلام، المعتزلة، ص١٢١.

(٢) جمال بدوي: مرجع سابق ذكره، ص١٤٠.

(٣) أحمد محمود صبحي: مرجع سابق ذكره، ص١٤١.

(٢) وأن الله لا يريد الشر ولا يأمر به.

(٣) وأن الله لم يخلق أفعال العباد لا خيرًا ولا شرًا وأن إرادة الإنسان حرة، والإنسان خالق أفعاله، ومن أجل هذا كان مثابًا على الخير، معاقبًا على الشر.[(١)]

وأن تعريف المعتزلة لمفهوم العدل بأنه ما يقتضيه العقل من الحكمة أو صدور الفعل على وجه الصواب والمصلحة، وهذا يعني أن تكون جميع الأفعال الصادرة عن الله والمتعلقة بالإنسان المكلف بمقتضى الحكمة على وجه المصلحة، وقد تضمن هذا المفهوم الاعتزالي عن العدل عدة نظريات:

(أ) **نفي صدور القبح عن الله:** فإنهم – أي المعتزلة – لما قرروا أنّ الله عادل حكيم، وأنّ أعماله لغاية، وأنه يتبع «العدل» في أعماله للوصول إلى الغاية – فكان من الطبيعي أن يثير المعتزلة – مسألة «الحسن» و«القبح» في الأعمال، فرأوا أن الحسن والقبح في الأعمال ذاتيان، فالكذب فيه قبح ذاتي، والصدق فيه حسن ذاتي، ومن أجل هذا لا نجوّز على الله الكذب لما في الكذب من قُبح.[(٢)]

(ب) **اللطف الإلهي:** المقصود باللطف كل ما يوصل الإنسان إلى الطاعة ويبعده عن المعصية، ولما كان الله عادلًا في حكمه رؤوفًا بخلقه ناظرًا لعباده، لا يرضى لعباده الكفر، ولا يريد ظلمًا للعالمين، فهو لم يدخر عنهم شيئًا مما يعلم أنه إذا فعله بهم أتوا «الطاعة» و«الصلاح».[(٣)]

(جـ) **أفعال الله تهدف إلى غاية محمودة:** كل ما في الكون يدل على إحكام التدبير والنظام موصولًا إلى «الغايات المحمودة» والمطالب النافعة: ﴿**إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ**﴾(القمر: ٤٩) ، وقوله تعالى: ﴿**أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا**﴾(المؤمنون : الآية ١١٥) فإنه كان لابد ان يوجد ذلك الكائن العاقل الذي يدرك الوجود ويستنبط تلك الغايات ومن أجل ذلك خلق الإنسان من أجل أن يناديه الله أن ينظر في ملكوت السموات والأرض وأن يفكر ويتدبر ويعتبر من نظام الكون وسيرورة حركته.[(٤)]

---

(١) أحمد أمين: ضحى الإسلام، الجزء الثالث، المكتبة العصرية، بيروت، ٢٠٠٦، ١٤٢٧هـ، ص٣٦.

(٢) أحمد أمين : مرجع سابق ذكره، ص٣٨.

(٣) أحمد محمود صبحي: مرجع سابق ذكره، ص١٤٥.

(٤) أحمد محمود صبحي: مرجع سابق ذكره، ص١٤٨.

(د) **حريّة إرادة الإنسان**: يعد تقدير حريّة إرادة الإنسان من أهم ما عرف عن المعتزلة، ولن تجد بين فرق المسلمين قاطبة من أقر هذه «الحرية» على نحو من الصراحة والوضوح ، كما فعل المعتزلة، بل إن الفرق التي شاركتهم في هذا القول – كالزيدية (أتباع زيد بن علي) – إنما تأثرت بهم ، بينما أثار قولهم في حريّة الإنسان وإرادته وأن الإنسان ليس مجبرًا تزايد الحملة الشديدة الوطأة من جانب خصومهم بدعوى أن رؤيتهم في مفهوم الحرية هو في الحقيقة انتقاصًا لمشيئة الله المطلقة.[1]

الأصل الثالث: الوعد والوعيد:

تعني المعتزلة بالوعد أن من أطاع الله دخل الجنة وأن وعد الله بذلك صدق يكون من المستحيل تخلفه عن الوقوع والحدوث لأن حقيقة الوعد هو كل خبر يتضمن وصول نفع إلى الموعود سواء كان عن طريق الاستحقاق أو عن طريق التفضيل، فالله وعد المطيع بالثواب الذي يستحقه، أما الوعيد فهو كل خبر يتضمن إيصال ضرر إلى الغير أو تفويت نفع عنه في المستقبل، ويعني في الشرع إخبار الله للعاصين بأن لهم العذاب الشديد، فالله تعالى قد وعد المطيعين بالثواب وتوعد العصاة بالعقاب ، وأنه يفعل ما وعد به وتوعد عليه لا محالة ولا يجوز عليه الخلف والكذب، وحول هذا الأصل «الوعد والوعيد» كان خلاف فرقة المعتزلة مع المرجئة الذين فصلوا بين «الإيمان» و«العمل» واعتقدوا أن الله يدخل الذين ارتكبوا الموبقات والخطايا الجنة ويشملهم برحمته وأنه قد يعاقب بدون فعل، وهذا في نظر المعتزلة أنه غير صادق الوعد والوعيد وإغراءً على فعل القبيح والمنكرات، وتشجيعًا للمخطئين على الاستمرار في اقتراف المعاصي.[2] فالاستحقاق الصحيح والذي يستحقه الإنسان على طاعته أن يحصل على الثواب وعلى معصيته العقاب، ولا يجوز العفو عن المعاصي – إلّا الصغائر – إن لم تقترن بالتوبة الصالحة.[3]

---

(١) أحمد محمود صبحي: مرجع سابق ذكره، ص١٤٩.

(٢) نجاح محسن: الفكر السياسي عند المعتزلة، دار المعارف، ص٦١.

(٣) أحمد محمود صبحي: مرجع سابق ذكره، ص١٥٧.

الأصل الرابع: المنزلة بين المنزلتين:

يعتبر هذا الأصل – من وجهة نظر الباحثين – نقطة البدء التاريخية في نشأة الاعتزال والمعتزلة فمرتكب الكبيرة ليس مؤمنًا ولا كافرًا ولكنه في منزلة بين منزلتين، ويوضح واصل بن عطاء رأيه هذا في قوله: إن الإيمان خصال خير إذا اجتمعت سمي المرء مؤمنًا وهو اسم مدح والفاسق لم يستجمع خصال الخير ولا استحق اسم المدح فلا يسمى مؤمنًا وليس هو بكافر أيضًا لأن الشهادة وسائر أعمال الخير موجودة فيه لا وجه لإنكارها لكنه إذا خرج من الدنيا على كبيرة من غير توبة فهو في أهل النار خالد فيها، إذ ليس في الآخرة إلّا فريقان: فريق في الجنة وفريق في السعير، لكنه يخفف عنه العذاب، وتكون دركته فوق دركة الكفار.(١)

ويعتبر رأي واصل في مرتكب الكبيرة موقفًا وسطًا بين الآراء التي قيلت في الحكم على مرتكب الكبيرة وفاعلها في عصر كان به الخوارج والمرجئة لهما بآراء مختلفة، فقد كان رأي الخوارج بتكفير فاعل الكبيرة حتى غالوا في ذلك، فاستحلوا قتل مخالفيهم من أصحاب الفرق الأخرى بينما ظهر رد فعل متطرف من «المرجئة» إذ قالوا بإرجاء الحكم على فاعل الكبيرة إلى الله يوم القيامة، وإنه مؤمن لا يضر مع الإيمان معصية ولا ينفع مع الكفر طاعة، ومع هذه الوسطية في الحكم والذي طرحها واصل لم تشفع له عند أهل السنة من الأشاعرة والذي صوروا حكمه بأنه انشقاقًا وخروجًا على رأي الجماعة.(٢)

الأصل الخامس: الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر:

اتفق العلماء المسلمون على وجوبية الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بلا خوف من أحد تطبيقًا لقوله تعالى: ﴿**وَلْتَكُنْ مِنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ**﴾(آل عمران : ١٠٤) إلّا أنهم اختلفوا في كيفيته.

أما المعتزلة فقد اعتبرت الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وهو خامس «أصولها»، والتي أسست عليها مذهبها وهو عندها وثيق الصلة بالسياسة، بل هناك من ذهب من الباحثين إلى أنه ليس من أصول المعتزلة الخمسة ما يمكن أنّ يعتبر مبدأ سياسيًا إلّا

(١) الشهرستاني: الملل والنحل، مكتبة جزيرة الورد، الطبعة الأولى ٢٠٠٦م- ١٤٢٧هـ، ص٤٦.

(٢) أحمد محمود صبحي: مرجع سابق ذكره، ص١٦٢.

الأخير فهو يعد – كما تذكر نجاح محسن – قمة العمل السياسي الذي يوجب الثورة على أي انحراف في المجتمع عن أصول العدل والتوحيد سواء كان هذا الانحراف من الإمام أو من الرعية.[1]

ويختلف الأمر بالمعروف عن النهي عن المنكر من حيث أنّ المطلوب في الأمر بالمعروف هو الأمر به وليس حمل الغير على الامتثال به.. أما المنكر فإن الواجب هو النهي عنه وحمل فاعله على الانتهاء منه بواحدة من الوسائل الثلاثة التي حددها حديث الرسول ﷺ: « **من رأى منكم منكرًا فليغيره بيده فإن لم يستطع فبلسانه فإن لم يستطع فبقلبه وذلك أضعف الإيمان**».[2] وقد وضع المعتزلة لهذا الأصل شروط لتحقيق غايته حددها القاضي عبد الجبار بن أحمد الهمذاني (٤١٥هـ/ ١٠٢٤م) فيما يلي:

أولًا: أن نعلم أن ما نأمر به هو «المعروف» ومما ننهي عنه هو «المنكر» ، ولا يكفي في ذلك غلبة الظن.

ثانيًا: أن يكون «المنكر» الذي يجب النهي عنه «قائما مشاهدًا» كأن نرى الخمر وأدواتها مثلا، وحكموا أن غلبة الظن هنا تقوم مقام العلم بقيام المنكر فيجب النهي بها.

ثالثًا: أن نعلم أن نهينا عن «المنكر» لن يؤدي إلى حدوث «منكر» أشد من المنهي عنه فلا يصح أن ننهي عن شرب الخمر إذا علمنا أو غلب على ظننا أن هذا «النهي» سيؤدي إلى قتل أو فساد أشد من شرب الخمر.

رابعًا: أن نعلم أن نهينا سيحدث أثرًا إيجابيًا وأنه لن يذهب عبثا وإلّا لم يجب النهي.

خامسًا: أن نعلم أو يغلب على ظننا أن النهي عن المنكر لن يؤدي إلى وقوع ضرر في المال أو النفس للناهين عنه.

تلك هذه الأصول الخمسة التي تشكل الركائز النظرية لفكر المعتزلة، وقد

---

(١) نجاح محسن: مرجع سابق ذكره ، ص٦٤.

(٢) جمال بدوي: مرجع سابق ذكره، ص١٤٥.

استقرت هذه الأصول – كما يذكر جمال بدوي – بعد مباحث طويلة استغرقت عدة قرون وشاركت فيها أجيال وطبقات من مفكري المعتزلة، ولكي يضع المعتزلة أفكارهم موضع التطبيق فإنهم لجؤوا إلى ما لجأت إليه معظم الفرق الإسلامية التي كانت تناوئ السلطة وهو «التنظيم السري» خاصة بعد المحنة التي تعرضوا لها في عصر الخليفة المتوكل (٢٣٢هـ-٢٤٧هـ) الذي نكل بهم انتقامًا منهم لما جنته أيديهم من عدوان على علماء الحديث والفقه خلال عصر المأمون والمعتصم والواثق.[١]

(١) جمال بدوي: مرجع سابق ذكره، ص١٤٥.

(٢) المعتزلة ... وقضية التكفير

⌑ ⌑ ⌑ ⌑

شأن المعتزلة في قضية التكفير والإقصاء، شأن الفرق والمذاهب والجماعات الأخرى، فهي «الفرقة الناجية»، والتي ناقشت الحرية الإنسانية وإرادة البشر والعدل والتوحيد بشكل فلسفي عقلي، ومن ثمَّ كفرت غيرها من الفرق، ونالت قسطًا كبيرًا من «التكفير المعكوس» أيضًا، غير أنها انفردت بأنها كفرت ذاتها من الداخل، وهذا الأمر قد انفردت به فرقة المعتزلة بشكل كبير!!

فمن المعروف أن المعتزلة قد انقسمت إلى مدرستين: المعتزلة البغداديّة والمعتزلة البصرية، وأشهر المعتزلة البصرية: واصل بن عطاء وعمرو بن عبيد وأبو الهذيل محمد ابن الهذيل وأبو إسحاق إبراهيم بن سيّار النظام وأبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ (١٦٣-٢٥٥هـ/ ٧٨٠ - ٨٦٩م)، ومحمد بن عبد الوهاب الجبائي، وهشام الفُوطي، وعباد بن سليمان وأبو يعقوب يوسف بن عبد الله الشحّام.

وأشهر المعتزلة البغدادية: جعفر بن مبشّر وأبو موسى المردار وأبو الحسين الخياط وأبو الحسين أحمد بن الراوندي ومحمد بن عبد الله الإسكافي وبشر بن المعتمر وجعفر بن حرب.

ومن أمثلة التكفير «الداخلي» أو «البيني» بين البصريين والبغداديين أن جعفر بن حرب (ت٢٣٦هـ/ ٨٥٠م)، وهو بغدادي الاعتزال قال: إن الله عزّ وجلّ لا يقدر أن يفعل بعباده خلاف ما فيه صلاحهم، ولا يقدر أن يُعمي بصيرًا أو يفقر غنيًا إذا علم أن البصر والغنى أصلح لهما.

وقد أكفرته البصرية في هذا القول وقالوا: إن القادر على العدل يجب أن يكون قادرًا على الظلم، والقادر على الصدق يجب أن يكون قادرًا على الكذب وإن لم يفعل الظلم والكذب لقُبحهما ولغناه عنهما؛ لأن القدرة على الشيء يجب أن يكون لديه القدرة على ضده.[1]

---

(١) عبد المنعم الحفني: مرجع سابق ذكره، ص ٦٠٧.

وكان الجبائي – البصري – (ت ٣٢١هـ) يقول : إن العقل إن دلّ على أن الباري عالم فواجب أن نسميه عالمًا ، وإن لم يسم نفسه بذلك إذ دلّ العقل على المعنى، وكذلك سائر الأسماء.

وقد خالفه البغداديون فقالوا: لا يجوز أن نسمي الله عزّ وجلّ باسم قد دلّ العقل على صحة معناه إلّا أن يُسميٍّ نفسه بذلك وقالوا: إن معنى «عالم» هو «عارف» ، ولكنا نسميه عالما لأنه سمي نفسه به ولكننا لا نسميه عارفًا.

وقال البغداديون أيضًا: لا يوصف الله بالقدرة على فعل عباده، ولا على شيء من جنس ما أقدرهم عليه ولا يوصف بالقدرة على أن يخالف إيمانًا لعباده يكونون به مؤمنين وكُفرًا لهم يكونون به كافرين وعصيانًا لهم يكونون به عاصين وكسْبًا يكونون به مكتسبين.

وقال الجبائي وكثير من مدرسة الاعتزال «البصري»: إن الباري سبحانه قادر على ما هو من جنس ما أقدر عليه عباده من الحركات والسكون وسائر ما أقدر عليه العباد وأنه قادر على أن يضرّهم إلى ما هو من جنس ما أقدرهم عليه وإلى المعرفة به سبحانه، وكان لا يصف ربّه بالقدرة على أن يخلق إيمانًا يكونون به مؤمنين وكُفرًا يكونون به كافرين وكلامًا يكونون به متكلمين لأن معنى متكلّم أنه فَعَل الكلام عنده، وكذلك القول في ما ذكرناه من العدل والجوْر عنده.

وتجدر الإشارة أن جميع كلام المعتزلة البغداديين في النبوّة والإمامة يخالف كلام المدرسة البصريّة وبعض شيوخهم يميل إلى الروافض وبعضهم يميل إلى الخوارج.[1]

والأمر لا يتوقف على الخلاف بين المدرستين البغدادية والبصريّة بل يحدث الخلاف داخل المدرسة الواحدة!! فالبغداديون اختلفوا مع بعضهم في القول: إن الله كريم هل هو من صفات الذات أو من صفات الفعل.

وأكفر أبو موسى المردار (ت ٢٢٦هـ) أستاذه بشر بن المعتمر (ت ٢١هـ/ ٨٢٥م) في القول بتوليد الإدراكات وكفرّت المعتزلة البصرية بشْرًا في أمور ..وكفّر الجبائي إبراهيم بن سيّار النظّام (٢٣١هـ) وكفر كثيرون النظّام ومنهم الإسواري وابن خابط

(١) عبد المنعم الحفني: مرجع سابق ذكره، ص٦٠٨.

وفضل الحَدَثي والجاحظ إلخ.. وقد اختلفوا في الخواطر والإرادة والإنسان والمقتول والميت والمتولّد والأضداد والمبتدأ والمعاد والبقاء والفناء وحركة الأجسام والجواهر والعجز والممنوع وأصل الشرّ ولعن الكفار والصلاح والأجل والاستطاعة والهدْى والولاية والعداوة وعلة الخلق ودلالة الأعراض وأفعال العباد واللفظ بالقرآن وقراءته ومحكم القرآن ومتشابهه وأن الله بمكان أو لا في مكان، وأن الله ليس بذي علم مُحدث ، ومعنى أنه خالق وأنه مريد.. إلخ.[1]

وتعتقد المعتزلة – كما ذكر أحد أقطابهم القاضي عبد الجبار – أن من خالفهم في التوحيد فهم «الملاحدة» و«المعطلة» و«المشبهة» ومن خالفهم في العدل فهم المجبرة ومن خالفهم في الوعد والوعيد فهم المرجئة ومن خالفهم في أصل المنزلة بين المنزلتين فهم الخوارج ومن خالفهم في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فهم الإمامية.[2]

كما أن المعتزلة قد أخطؤوا خطأ تاريخيًا وغلطة العمر حينما استطاعت أن تصل إلى المأمون (١٧٠-٢١٨هـ / ٧٨٦-٨٣٣م) وتجعله يعتنق فكرة «خلق القرآن» وهي فكرة فلسفية معقدة ليس لها أصل في الدين ولا تتعلق بصلب العقيدة – كما يقول جمال بدوي (١٩٣٤-٢٠٠٧م) – وإنما تسربت إليهم من أصحاب الديانات الأخرى، وكان الناس لا يفهمونها، ومع ذلك أصر المعتزلة على إيمان الناس بها، وجعلوا منها أداة اختبار – عقيدة المسلمين فمن قال بها حظي بشرف الإيمان، ومن أنكرها حكموا عليه بالكفر والإلحاد.[3]

وبقيت هذه الفكرة في مواجهة الفقهاء والمحدثين وعلى رأسهم أحمد بن حنبل (١٦٤-٢٤١هـ / ٧٨٠-٨٥٥م) واستوعبت عهد المأمون والمعتصم والواثق، وانتهت في عهد المتوكل والذي انقلب على المعتزلة شر انقلاب فذاقوا من كأس التنكيل بعد أنّ أذاقوه الفقهاء السنة من قبل ، وعلى الرغم من تشكيك علي بن أحمد بن سعيد بن حزم الظاهري (٣٨٤-٤٥٦هـ / ٩٩٤-١٠٦٤م) في حديث «القدرية مجوس هذه الأمة» إلّا أنه يكفّر معظم أقطاب وشيوخ المعتزلة ويقلل من شأنهم ويحقر من آرائهم ويحط

(١) عبد المنعم الحفني: مرجع سابق ذكره، ٦٠٩.

(٢) محمد عمارة : تيارات الفكر الإسلامي – دار الشروق – طبعة ثانية عام ١٤١٨هـ – ١٩٩٧ ص٤٧.

(٣) جمال بدوي : مرجع سابق ذكره، ص١٥٥.

من قدرهم ويظهر شنائعهم فيكفّر العلاف وإبراهيم بن يسار النظام بقوله: «إن الله تعالى لا يقدر على ظلم أحد أصلا ولا على شيء من الشر وأن الناس يقدرون على كل ذلك وأنه تعالى لو كان قادرًا على ذلك لكنا لا نأمن أن يفعله أو أنه قد فعله» وقد صرح النظام أيضا بأن الله تعالى لا يقدر على إخراج أحد من جهنم، ولا إخراج أحد من أهل الجنة عنها ولا على طرح طفل في جهنم وأن الناس وكل واحد من الجن والملائكة يقدرون على ذلك، ويقول ابن حزم تعليقًا على ذلك: إن الناس – عند النظام – أتم قدرة من الله تعالى فكان الله عز وجل عنده أعجز من كل ضعيف من خلقه وكان كل أحد من الخلق أتم قدرة من الله تعالى وهذا الكفر المجرد الذي نعوذ بالله منه.(١)

ويكفر ابن حزم – أيضًا – ثمامة بن الأشرس النميري ؛ لأنه يقول بفكرة الطبع حتى في الفعل الإلهي فيقول: «وأما أبو معن ثمامة بن الأشرس النميري أحد شيوخ المعتزلة فذكر عنه أنه يقول: إن العالم فعل الله عز وجل بطباعه. تعالى الله عن هذا الكفر الشنيع علوًا كبيرًا» . وكذلك يكفر أعلام المعتزلة «جعفر القصبي بائع القصب والأشج وهما من رؤسائهم ، فكانا يقولان: إن القرآن ليس هو الذي في المصاحف، إنما في المصاحف شيء آخر وهو حكاية القرآن. قال أبو محمد بن حزم : «وهذا كفر مجرد وخلاف جميع أهل الإسلام قديمًا وحديثًا.(٢)

وكفّر ابن حزم «أحمد بن خابط والفضل الحَدّثي» البصريان، وكانا تلميذين لإبراهيم النظّام، فكانا يزعمان أن للعالم خالقين أحدهما قديم وهو الله تعالى، والأخر محدث وهو كلمة الله عز وجل «المسيح» عيسى ابن مريم التي بها خلق العالم، وكان لعنهما الله يطعنان على رسول الله ﷺ بالتزويج ، وأن أبا ذر كان أزهد منه ، وكان أحمد بن خابط يزعم أن الذي يجيء يوم القيامة مع الملائكة صفًا صفًا في ظلل من الغمام إنما هو المسيح ابن مريم عليه السلام، وأن الذي خلق آدم على صورته إنما هو المسيح عيسى ابن مريم ، وأنّ المسيح هو الذي يحاسب يوم القيامة.(٣)

(١) ابن حزم : الفِصل في الملل والأهواء والنحل ، المكتبة التوفيقية ، الجزء الثالث ، ص١٣٣، ١٣٤.

(٢) ابن حزم : مرجع سابق ذكره ، ص١٣٨ وأيضًا إقصاء الآخر، ص٤٥.

(٣) ابن حزم : مرجع سابق ذكره، ص١٣٨.

أما أبو معن ثمامة بن الأشرس النميري فكان يزعم أنَّ المقلدين من اليهود والنَّصارى والمجوس وعبّاد الأوثان لا يدخلون النار يوم القيامة، لكن يصيرون ترابًا وأنَّ كلَّ من مات من أهل الإسلام والإيمان المحض والاجتهاد في العبادة مصرًا على كبيرة من الكبائر كشرب الخمر ونحوها وإن كان لم يواقع ذلك إلَّا مرة في الدَّهر فإنه مخلَّد بين أطباق النيران أبدًا مع فرعون وأبي لهب وأبي جهل. قال أبو محمد – ابن حزم – فأيَّ كفر أعجب من قول من يقول: إنّ كثيرًا من الكفار لا يدخلون النار ، وأن كثيرًا من المسلمين لا يدخلون الجنة.[1]

فذلكة أخيرة:

لا شك أنّ فرقة المعتزلة كانت من أقدم وأبرز الفرق الإسلامية، والتي ظهرت في القرن الأول الهجري، وأهمها قاطبة حيث كانت المدرسة العقلية والتي أضفت العقل وبنطاق واسع إلى جانب النقل بعد تأويله، وكانوا فرسان العقل وأساطين الفكر ، والذي استخدموه في خدمة العقيدة في ظل مناخ سادت قيم وأفكار حضارات وعقائد أخرى فارسية ويونانية ويهودية ومسيحية تحاول أن تزاحم العقيدة الإسلامية وتناطحها بأفكارها وعقائدها، ومن ثمَّ كان يستوجب على العقل الإسلامي والفكر العقيدي أن يدافع عن نفسه في مواجهة هذه العقائد، وبعد أن توقفت المدرسة النصوصية الحرفية عند ظواهر اللفظ فلم تستطع أن تبرح مكانها، فقامت مدرسة الاعتزال بهذا الدور مع فروسيتهم في الدفاع عن حرية الإنسان ومسؤوليته واختياره ومن ثمّ أنشيء على يد زعمائها الفلسفة الإسلامية أو ما يطلق عليه تحديدًا «علم الكلام» الإسلامي لتثبيت العقيدة بأدلة عقلية في مواجهة تحدياتها من الأفكار الأخرى، غير أن سيرة مدرسة الاعتزال الفكرية وسيرورتها شابها عديد من التحفظات والملاحظات والتي يمكن أن نطرحها في التالي:

الملاحظة الأولى: رغم أن المبادئ الخمسة لمدرسة الاعتزال وهي : (التوحيد والعدل والوعد والوعيد والمنزلة بين المنزلتين والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر) اتسمت بطابع سياسي يظهر من خلال الدعوة إلى حريّة الإنسان وإرادته وخلقه لأفعاله ومسؤليته عن اختياراته والدور الإيجابي للشخصية المسلمة في مواجهة الظلم والجور

(١) ابن حزم : مرجع سابق ذكره، ص١٣٦.

من جانب الحكام وسلاطين القوة والسطوة والظلم، وقيامهم بثورات في مواجهتهم إلّا أنّ هذه المدرسة قد أصابها عفن التسلط وقمع الحريات وفرض رؤيتهم على غيرهم باعتبارها معيار الحكم على الإيمان أو الكفر، وذلك بعد أن تمكنوا من فكر السلطة في عهد المأمون «العباسي» والذي تسلط على الفقهاء والمحدثين، وعلى رأسهم أحمد بن حنبل بقصد فرض قضية فلسفية ما كان لهم فرضها على العامة والدهماء من الأمة فارتكبوا خطأ تاريخيًا لا يغتفر بقى في سجلهم الفكري والسياسي حتى وقتنا الراهن!!!

الملاحظة الثانية : اتسمت فرقة المعتزلة بتعدد مدارسها الفكرية وتنوع تياراتها العقلية بين مدرستين (البصرة وبغداد) ، غير أن ما يعد ميزة وتفرد انقلب إلى سبة قادحة وما يعتبر موقف إيجابي اعتبر – في واقع الأمر – موقفًا سلبيًا واضحًا بعد أن حدث تكفير بين الطرفين ما بين المدرسة البصرية وبين المدرسة الاعتزالية البغدادية، وتحول التنوع إلى اختلاف، وتحول الاختلاف إلى تنازع وتكفير وإلصاق تهم المروق عن الملة لخلاف في الرأي بين أبناء بيت واحد وفرقة واحدة معروفة بالعقل والتنوير والفكر وحرية الإنسان ومسؤوليته واختياراته..!!!

الملاحظة الثالثة: أنه لم يحدث من خلال قراءتنا لتاريخ الفرق والجماعات والمذاهب الإسلامية أن يظهر «التكفير» و«المكفرين» في المدرسة الواحدة، وهو ما أطلقنا عليه «التكفير الداخلي» أو «التكفير البيني» ، فليس الأمر متوقف – فقط – على تكفير مدرسة من مدارس الاعتزال البصرية للبغدادية – كما أوضحنا من قبل – ولكن تخطي الأمر إلى تكفير التلميذ لأستاذه، وتكفير الأستاذ لتلميذه في المدرسة الواحدة، فكما كفر أبو موسى المردار أستاذه بشر بن المعتمر، يكفر الجبائي النظّام وهو في مقام تلميذه وهي سمة لطخت التاريخ الفكري والعقلي لمدرسة الاعتزال، فالمدرسة التي تحرص على العقل ومناقشة الأفكار بالمنطق والجدل المنتج وتحرص على حرية الإنسان وإرادته ومسؤوليته وخلقه لأفعاله تصبح مدرسة للتكفير دون وازع وإلى إخراج بعض من فرقتهم واتهامهم بالمروق عن الملة والإسلام..!!

الملاحظة الرابعة: من المآخذ التي أخذت على فرقة المعتزلة بجانب ما أسلفناه هو إسرافهم في غلبة وتحكيم العقل حتى في الإلهيات وحرصهم على تعليل كل فعل إلهي كأنهم أوحى إليهم أو اطلعوا على أسرار الذات الإلهية وحكمتها في كل شيء في الوجود ، وأنّ هذا الإسراف الشديد في استخدام العقل قادهم إلى مزالق فكريّة ، ودفعهم القصور العقلي

وعدم إحاطتهم بالكون وسيرورة الحياة وحركة الكائنات ودفعهم إلى ترّهات عقلية وجدلية عقيمة أثرت على مدرستهم الفكرية بشكل عام..!!

المطلب الرابع

الأشاعرة... وإشكالية الإقصاء والتكفير

⌑⌑⌑⌑

استهلال لابد منه:

اعتمد عديد من الباحثين على حديث «الفرقة الناجية» في إثبات أن أهل السنة قد اعتمدت على «التوظيف الأيديولوجي» للنص النبوي في إقصاء الفرق والجماعات والمذاهب الإسلاميّة الأخرى ولا سيما أنّ هذا التوظيف قد اعتمد على مدونات أصحاب المقالات في الملل والنحل، وقد ورد هذا الحديث «الفرقة الناجية» في أربع روايات بصيغ مختلفة[1]:

(١) عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: **«افترقت اليهود على إحدى وسبعين فرقة وافترقت النصارى على اثنتين وسبعين فرقة وتفترق أمتي على ثلاث وسبعين فرقة»**.

(٢) عن عبد الله بن عمرو قال: قال رسول الله ﷺ: **«ليأتينَّ على أمتي ما أتى على بني إسرائيل تفرَّق بنو إسرائيل على اثنتين وسبعين مِلَّة وستفترق أمتي على ثلاث وسبعين فرقة كلهم في النار إلّا ملة واحدة» قالوا: يا رسول الله وما الملة التي تتغلّب؟ قال: «ما أنا عليه وأصحابي»**.

(٣) عن أنس بن مالك عن النبي قال[2]: **«إن بني إسرائيل افترقت على إحدى وسبعين فرقة وإن أمتي ستفترق على اثنتين وسبعين فرقة كلها في النار إلّا واحدة وهي الجماعة»**.

(٤) وأخبر النبي عليه السلام: **«ستفترق أمتي على ثلاث وسبعين فرقة الناجية منها واحدة والباقون هلكى»** قيل: وَمَنْ الناجية؟ قال: **«أهل السنة والجماعة»** قيل: وما السنة والجماعة؟ قال: **«ما أنا عليه اليوم وأصحابي»** (صحيح: رواه أحمد وأبو داود..).

---

(١) أحمد سالم: إقصاء الآخر، صناعة التكفير في علم العقائد، الهيئة المصرية العامة لقصور الثقافة، الطبعة الأولى، عام ٢٠١٣، ص١٥.

(٢) البغدادي: الفرق بين الفرق، دار الطلائع، ، طبعة ٢٠٠٩، ص١٤.

وقد لعب هذا الحديث دورًا بارزًا – كما يذكر أحمد سالم – في مدونات الفرق والملل والنحل لأهل السنة فكان لهذا الحديث دوره البارز في ترسيخ الإقصاء للآخر لدى أهل السنة في مواجهتهم للفرق الأخرى المخالفة لهم. صحيح أن الأشعري في كتابه «مقالات الإسلاميين» لم يكفر أصحاب الفرق الأخرى، ولكن أبا الحسين الملطي (ت ٣٧٧هـ) أكد على أن هذا الحديث وعلى اختلاف أمة الرسول على ثلاث وسبعين فرقة و«الناجية» من هذه الفرق واحدة منها ، وبرر هذا الإقصاء لصالح «أهل السنة والجماعة» بقوله: «ليس على وجه الأرض شخص عدل عن أهل السنة والجماعة والألفة إلّا كان متبعا لهواه ناقصًا لعقله خارجًا من العلم والتعارف».

وقد وظف عبد القاهر البغدادي (ت ٤٢٩هـ - ١٠٣٧م) حديث الفرقة الناجية في كتابيه «الملل والنحل- والفرق بين الفرق) ليدلل – بوضوح – على أن الحق في جانب أهل السنة[1].

واستند أبو المظفر الاسفراييني (ت ٤٧١هـ) إلى حديث الفرقة الناجية في كتابه (التبصير في الدين وبيان الفرقة الناجية عن فرق الهالكين) ويقول: «إن الله حقق في افتراق هذه الأمة عندما أخبر الرسول ﷺ من افتراق هذه الأمة إلى ثلاث وسبعين فرقة ، واحدة منها ناجية والباقون في النار، ويقر بأن الفرقة الناجية هي أهل السنة والجماعة».

ويقر الشهرستاني في كتابه «الملل والنحل» بافتراق الأمة إلى ثلاث وسبعين فرقة عند المسلمين وأنّ الناجية «فرقة واحدة» وبأن الحق لابد أن يكون مع فرقة واحدة بعينها. وقدم أبو حامد الغزالي (٤٥٠-٥٠٥هـ / ١٠٥٨-١١١١م) – وهو من الأشاعرة – رؤية تسامحية للفرقة الناجية، فهو اعتبر أن الأمة ستفترق إلى ثلاث وسبعين فرقة، كلهم في الجنة إلّا الزنادقة من أمته. كذلك شك ابن حزم الظاهري (٣٨٤-٤٥٦هـ/ ٩٩٤-١٠٦٤م) في حديث افتراق الأمة، وحديث القدرية والمرجئة مجوس هذه الأمة، حيث ذكر ابن حزم : «هذان حديثان لا يصحان أصلًا عن طريق الإسناد – إلا أنه لم ينج – أي ابن حزم – من فكاك الوقوع في أن الحق مع أهل السنة،

(١) أحمد سالم : مرجع سابق ذكره ، ص١٦.

وعاد إلى الإقصاء مرة أخرى.[1]

ويمكن لنا من خلال ما تم طرحه من قضايا أن ندون الملاحظات التالية:

الملاحظة الأولى: اعتمد أهل السنة على هذا الحديث بصيغته المتعددة في إقصاء مخالفيهم من أصحاب الفرق الأخرى، ونجح أهل السنة في توظيف «النص النبوي» في إقصاء المخالفين معهم في فروع الفقه والعقائد ، فأفرد ذلك في وجود الخلافات، ومن ثَمَّ اشتداد الصراع بين أصحاب الديانة الواحدة.

الثانية: أن توظيف أهل السنة لحديث «الفرقة الناجية» باعتباره نصًا نبويًا له «قداسة» واقتصارها على أهل السنة بأنهم يسيرون على نهج النبي وأصحابه لم يمنع أصحاب الفرق الأخرى من توظيف «النص» أيضًا لصالحهم باعتبارهم «الفرقة الناجية» فاعتمدت الشيعة والخوارج والمرجئة والمعتزلة وغيرها من الفرق على أنهم «الفرقة الناجية» وأنها صاحبة الحق المطلق وتمتلك الحقيقة المطلقة والأحادية، وأنها التي تسير على نهج الرسول وأصحابه والسلف الصالح..!!

الثالثة: إن الإقصاء والإبعاد هو المقدمة الفعلية لنفي الآخر ، وبالتالي تكفيره وإخراجه من الملة باعتباره مارقًا عن نهج النبوة وخارجًا عن منهج الصحابة المعروفين بالعدل والتابعين بإحسان، وقد أدى هذا الإقصاء والإبعاد والتكفير إلى العنف والإرهاب والصراع الدموي خلال التاريخ الإسلامي.

وفي الأوراق التالية سيتم مناقشة فرقة الأشاعرة وإشكالية الإقصاء والتكفير...

---

(١) أحمد سالم: مرجع سابق ذكره، ص١٨.

(١) الأشاعرة وإشكالية الإقصاء والتكفير

¤ ¤ ¤ ¤

المؤسس وظروف انبثاق الفكر الأشعري:

تنسب الأشاعرة إلى مؤسسها الأول «أبو الحسن علي بن إسماعيل بن إسحاق ابن سالم بن إسماعيل بن عبد الله بن موسى بن بلال بن موسى بن الأشعري (٢٦٠-٣٢٤هـ/ ٨٧٤-٩٣٦م)، أي أنه ينتهي نسبه إلى الصحابي أبو موسى الأشعري (٢١ق.هـ - ٤٤هـ / ٦٠٢-٦٦٥م)، والذي كان له دور معروف «يوم التحكيم» بين عليّ ومعاوية، والتي وصلت إلى خدعة التحكيم، وزادت من الصراع بين معاوية وبين عليّ بن أبي طالب بعد أن صنعها بدهاء عمرو بن العاص (٥٠ق.هـ - ٤٣ هـ / ٥٧٤٠٦٤٤م)، وجعل منها خدعة كبيرة ضربت الدولة الإسلامية كلها!!!

وقد درس أبو الحسن الفقه على أئمة الفقه الشافعي ببغداد وهو أبو إسحاق المزروي (ت٣٤٠هـ)، كما تعلم علم الكلام والفلسفة الإسلامية على مذهب أهل الاعتزال على يدي أبي علي الجبائي (ت٧٠٣) إلى أن بلغ الأشعري سن الأربعين.[1]

ثم حدث له تحول مفاجئ في خطبة منبريّة إذ غاب عن الناس خمسة عشر يومًا في بيته، ثم خرج إلى الجامع بالبصرة - الذي ولد بها - وصعد المنبر بعد صلاة الجمعة عام (٢٩٥هـ - ٦٠٨م) ونادى بأعلى صوته: «من عرفني فقد عرفني، ومن لم يعرفني فأنا أعرفه بنفسي.. أنا أبو الحسن علي بن إسماعيل الأشعري.. كنت أقول بخلق القرآن، وأن الله تعالى لا يُرى بالأبصار، وأن أفعال الشر أنا أفعلها، وأنا تائب مقلع متصد للرد على المعتزلة، مخرج لفضائحهم.. معاشر الناس إنما تغيبت عنكم هذه المدة لأني نظرت فتكافأت عندي الأدلة، ولم يترجح عندي شيء، فاستهديت الله - تعالى - فهداني إلى اعتقاد ما أودعته كتبي هذه، وانخلعت من جميع ما كنت أعتقد، كما انخلعت من ثوبي هذا». وانخلع من ثوب كان عليه، ودفع للناس ما كتب على طريقة

---

(١) أحمد محمود صبحي: في علم الكلام، الجزء الثاني: الأشاعرة، دار النهضة العربية، بيروت، الطبعة الخامسة ١٤٠٥هـ - ١٩٨٥م ص٤٥.

الجماعة من الفقهاء والمحدثين[1].

وقد أثير جدل حول التحول الذي حدث للأشعري، وتعددت الآراء في هذا الشأن، فذكر أحد الآراء والتقولات أن الأشعري قد خضع لإغراء المال من جانب خصوم المعتزلة كي ينقلب عليهم كل هذا الانقلاب، وينسب آخرون إليه تهمة الانتهازية واستجداء البطولة والشهرة عن طريق الطعن في جماعته والمدرسة الفكريّة التي تربى فيها، ولا سيما بعد أنّ رأى اتجاهات الريح معاكسة لها.

ولكن عرض هذه التفسيرات على ميزان النقد – كما يذكر جمال بدوي – يكشف عن تهافتها، فالمأثور عن الأشعري أنه كان زاهدًا ورعًا متدينًا ، والأبحاث الحديثة عن «الإمام الأشعري» تؤكد ذلك بعد التنقيب في كتب المؤرخين القدامى.[2]

ويقدم الأشعري سببًا آخر في تحوله عن مذهب الاعتزال ، مرجعًا ذلك إلى رؤيته للنبي ﷺ في نومه، والذي أعطاه أمرًا بنصرة المذاهب المروية عنه فإنها حق، وواعدا له في المرة الأخيرة بتأييد الله.

وحاول كثير من الباحثين تعليل وتفسير هذا التحول المفاجئ للأشعري، وليس لدينا متسع من الوقت لمناقشة هذه القضية الآن لأن ما يهمنا في المقام الأول مناقشة منهجه الفكري الجديد وما يميزه عن مدرسة الاعتزال...

فقد ذكر أحمد محمود صبحي أن منهج الأشعري والذي حدد موقفه من المعتزلة يستند إلى عاملين رئيسيين:

الأول: إن إعطاء قيمة مطلقة للعقل لا يؤدي إلى نصرة الدين إنه استبدال العقل بالعقيدة وكيف تكون معتقداتنا عن الله إذا كان العقل هو المرجع عند التعارض على العقل؟

الثاني: أنه لابد من الإيمان أن في الدين أحكامًا توفيقية * ذلك مبدأ جوهري في

---

(١) محمد أبو زهرة: تاريخ المذاهب الإسلامية – دار الغد العربي ، ص١٦٨.

(٢) جمال بدوي : مرجع سابق ذكره، ص١٨٩.

(*) دارت مناقشة بين الأشعري وأستاذه الجبائي حول وجوب فعل الصلاح والأصلح على الله، وهي فكرة لابد أن تثير تساؤلين: الأول : هل يجب على الله شيء؟ والثاني: هل جميع أفعال الله تعليلية؟ كيف ذلك =

الاعتقاد ولا يكون بدونه إيمان وما عسى أن يكون الدين إذا استباح الإنسان بعقله أن يخوض في كل فعل أو أمر أو نهي إن ذلك يتنافى تمامًا مع مفهوم الإيمان وما يقتضيه من تصديق وتسليم.

غير أن محمد أبو زهرة (١٣١٦ – ١٣٩٤هـ / ١٨٩٨-١٩٧٤م) يرى خلاصة مذهبه تتمثل في الآتي:

(١) أنه يجوز أن تكون للصالحين آية وهي التي اصطلح العلماء على تسميتها باسم الكرامة تمييزًا لها عن المعجزة، وأنه يرى جواز الدعاء للميت والتصدق عليه وأنهما ينفعانه.

(٢) وأنه يرى –أي الأشعري– أن يؤخذ بكل ما جاءت به السنة من عقائد لا فرق في ذلك بين سنة متواترة وأخبار آحاد ويحتج لكل ما استلمت عليه السنة من عقائد بكل وسائل الاحتجاج وقد أعلن اعتقاده لأمور تثبت أحاديث الآحاد.

(٣) أنه أخذ بظواهر النصوص في الآيات الموهمة للتشبيه من غير أن يقع في التشبيه في نظره فهو يعتقد أن لله وجهًا لا كوجه العبيد وأن لله يدا لا تشبه يد المخلوقات.

(٤) وأنه يرى –أي الأشعري –أن ما يعتقد هو رأي الإمام أحمد بن حنبل ويعتبره الإمام المقدم العالم المفهم.[1]

(٢) المذهب وظروف التكوين:

ظهر المذ هب الأشعري في وقت كانت الأمة الإسلامية في مسيس الحاجة إليه لتوحيد صفوفها وإنقاذها من الفوضى الفكريّة التي ضربت أطنابها في كل مكان، وجعلت من أمة الإسلام –كما يذهب بدوي– فرقًا وشيعًا وأحزابًا تتصارع بالقول حينا، وبالسيف أحيانا، وكل منهم تزعم أنها الفرقة الناجية والآخرين (من الفرق

=

وهو «لا يسأل عما يفعل» (الأنبياء: الآية ٢٣)، وهل يتقيد الفعل الإلهي بضرورة مراعاة مصالح العباد؟ أليس في ذلك تأييد للمشيئة؟ لزيادة التفاصيل في هذا الشأن انظر: في علم الكلام: أحمد محمود صبحي، الجزء الثاني، ص٤٥.

(١) محمّد أبو زهرة: مرجع سابق ذكره، ص١٧٤.

والمذاهب الأخرى) في النار حتى بدأ الناس يتشككون في جدوى الحريّة الفكريّة، وقد أدت إلى تفتت الأمة واختلافها وانقسامها إلى تيارات يستحيل لقاؤها على أمر جامع، كانت هذه حالة الأمة الإسلامية في ختام القرن الهجري الثالث، فكان على الأشاعرة أن يقوموا بهذا الدور التاريخي في التقريب بين المذاهب المتعارضة، والتخفيف من غلوائها، والتهذيب من تطرفها حتى تلتقي في تيار واحد معتدل يحافظ على عقيدة الأمة.[1]

ومن ثمّ، كان ظهور الأشعري إذن تلبية لضرورة تاريخية - كما يذكر بدوي - كانت تتطلب بروز شخصية تحترم النص الشرعي والنظر العقلي أو تزاوج بين العقل والنقل أي تفهم النص في ضوء العقل وتتابع العقل في سياج من الشرع حتى يجمع الأمة على كلمة سواء.[2]

فقد كان المناخ الفكري الذي أثمر هذا التحول وهذه النشأة للمذهب الجديد قد تميز هذا المناخ - وقتئذ - بالاستقطاب الحاد بين «العقلانية - الاعتزالية» وبين «النصوصية - الحرفية» لأهل الحديث الذي ازدادوا جمودًا على ظواهر النصوص، ففي ظل هذا «الاستقطاب الحاد» كانت الحياة الفكرية الإسلامية بحاجة إلى من يذكر الأمة وجمهورها بالوسطية الإسلامية، وقد نجحت «الأشعرية» في تقديم صورة جديدة لهذه الوسطية كسرت بها حدة هذا الاستقطاب واستدعت سمات عديدة من المذهبين وتمثل ذلك في التالي:

(١) لقد رأت أن «المعتزلة» قد غلوا في «التنزيه» إلى حد «التعطيل» وأن «الحشوية» العاجزين عن تجاوز ظاهر النصوص - قد بلغوا في «التشبيه» إلى حد التجسيد والتجسيم فسلكت بين السبيلين طريقًا وسطًا يثبت للذات الإلهية الصفات، ولكن مع ضبط العبارات التي تعرف عن التجسيم.

(٢) ورأت إحجام الفقهاء عن علم الكلام - كراهة في المدرسة الاعتزالية والذين أسسوه - كما رأت إهمال المتكلمين لمنهج أصول الفقه فجمعت «الأشعرية» بين الفقه وأصوله وبين علم الكلام ومباحثه الفكرية.

---

(١) جمال بدوي: مرجع سابق ذكره، ص٢٠٣.

(٢) جمال بدوي : مرجع سابق ذكره، ص٢٠٤.

(٣) ورأت الأشاعرة نفور (السلفية – النصوصية) من أدوات النظر العقلي، وميل الفلاسفة والمتكلمين إلى العقل على حساب النقل فأرادت التوسط بين العقل والنقل على نحو أعلى سلطان النقل على العقل في كثير من الأحيان.

(٤) ورأت الأشاعرة أن «الجبرية –الخُلص » قد أنكروا أن يكون للعبد شيء من أفعاله، فهو عندهم كالريشة في مهب الريح على حين أن «المعتزلة» يعتقدون إنه خالق أفعاله على سبيل الحقيقة لا المجاز فتقدمت الأشعرية بنظرية «الكسب» طريقًا وسطًا بين الفريقين حيث أثبت للإنسان «قدرة» واستطاعة مع الفعل.

(٥) ورأت الأشاعرة أنّ «المشبهة» يثبتون «رؤية الناس لله بالأبصار» على نحو يُؤدي إلى تحديد الذات الإلهية وتجسيدها ، في حين أن المعتزلة رفضت ذلك بإطلاق فحاولت التوسط بين المذهبين فقالت برؤية بصريّة من غير تحديد أو تجسيد.

(٦) ورأت الأشعريّة أن «الحشوية» من «السلفيين – النصوصيين» يقولون بقدم القرآن معنى وحروفًا وأصواتًا على حين أن «المعتزلة» يقولون أنه مخلوق، فتوسطت بين الاتجاهين بقول الأشاعرة بقدم الكلام النفسي وبحدوث الحروف والأصوات.

(٧) وفي تفسير الآيات التي تتحدث عن «وجه الله» و«يده» و«المجيء» و«الاستواء على العرش» رأت الأشعرية إحجام «السلفية – النصوصية » عن التأويل، على حين قد بالغ المعتزلة في تأويل هذه الآيات، فحاولت التوسط بين النهجين بإثبات «الوجه» و«يد الله» و«المجيء» و«الاستواء على العرش» ولكن دون «كيف» فاختارت بذلك الإثبات دون التشبيه.[1]

ولا يتصورن أحد أن الأشعرية توقفت على تأسيس المذهب وصياغة النشأة الأولى له على يد أبي الحسن الأشعري بل تطور المذهب بعد تأسيسه حيث تمثلت إضافات وإبداعات أبرز أئمة الأشعرية – بعد إمامها – مثل البقلاني أبو بكر محمد بن أبي الطيب (٤٥٣ هـ – ١٠١٣م) وإمام الحرمين أبي المعالي الجويني عبد الملك بن عبد الله ابن يوسف (٤١٩ – ٤٧٨هـ / ١٠٢٨–١٠٨٥) وحجة الإسلام الغزالي أبو حامد محمّد بن محمّد بن محمد (٤٥٠–٥٠٥هـ / ١٠٥٨–١١١١م).

(١) محمد محمود ربيع : إسماعيل صبري مقلد (محرران) : موسوعة العلوم السياسية، جامعة الكويت، طبعة خاصة بمصر ، دون تاريخ، الجزء الثاني، ص٢٢٣.

(٣) الأشاعرة.. والتكفير.. والتكفير معكوسًا

⌑⌑⌑⌑

اعتمد الأشعري على المنهج الإقصائي وهو بصدد الدفاع عن أهل السنة والجماعة حيث نصب نفسه للدفاع باسم هذه «الفرقة الناجية» شأنه في ذلك شأن الحنابلة والمذهب الظاهري، غير أن المنهج الإقصائي للأشعري في مدوناته كان به خفوت حدة «التكفير» إلّا أنه ومن بعده من كتاب المدونات والأشاعرة قد كفروا الخوارج والشيعة والمرجئة والمعتزلة ، وقد كان أتباعه – كما يقول أحمد سالم – أكثر تشددًا منه، وكان التكفير سمة مميزة في كتاباتهم ، فنجد أبا إسحاق الشيرازي بعد عرض عقيدة أهل السنة والجماعة في كتابه (الإشارة إلى مذهب أهل الحق) يقول: «من اعتقد غير ما أشرنا إليه من أهل الحق المنتمين إلى الإمام أبي الحسن الأشعري رضي الله عنه فهو كافر، ومن نسب إليهم ذلك فقد كفرهم فيكون كافرًا بتكفيرهم لهم».[1]

ورغم ما أبداه الأشعري مؤسس المذهب من تسامح مختلف عن بقية أتباعه إلّا أنه كفر المعتزلة، والذي كان انتمائه لهم – حتى بلغ الأربعين من عمره – ولا سيما في مشكلة خلق القرآن.

فما أبداه «الأشعري» من أصول لمذهبه في رده على «المعتزلة» في ذات الله وصفاته ورؤيته بالأبصار يوم القيامة وإقراره بعذاب القبر ومنكر ونكير ويقر بخروج الدجال، ويصدق حديث المعراج ويرى الصدقة عن موتى المؤمنين ويؤمن أن الله ينفعهم وأن الصالحين يخصهم الله بآياته كما يقول في قضية «خلق القرآن» والتي كفر في شأنها المعتزلة بأن القرآن كلام الله غير مخلوق ومن قال – في رأيه – بخلق القرآن كان كافرًا به.

وحقيقة الأمر أن قضية «خلق القرآن» وكلام الله محدث أم قديم من أكثر الموضوعات التي أثارت اختلافًا كبيرًا وشديدًا بين المعتزلة من جهة والحنابلة من جهة

(١) أحمد سالم : إقصاء الآخر، ص٤١.

أخرى زمن المأمون والمعتصم والواثق حتى قاربت على الانتهاء في عهد المتوكل «العباسي»، وقد بلغ الخلاف إلى حد إراقة الدماء، وكانت المشكلة سبب محنة أحمد بن حنبل.(١)

وبالرغم من حرص الإمام الغزالي في عدم تكفير الخصوم أو الفرق الأخرى حتى أنه قلب الحديث عن «الفرقة الناجية» كما أسلفنا من قبل – حيث اعتبر تفرقة الأمة إلى بضع وسبعين فرقة كلهم في «الجنة» إلّا الزنادقة، وكان على النقيض من الرواية المشهورة في هذا الشأن، وذلك لاتساع مساحة التسامح لديه، كما أن الغزالي كان يطالب بضرورة أن يكف الإنسان لسانه عن أهل القبلة طالما أنهم يقولون لا إله إلا الله وأن محمَدًا رسول الله وذلك لأن التكفير فيه خطر في حين أن السكوت لا خطر فيه ويرى الغزالي – أيضًا – «أن أصول الإيمان ثلاثة الإيمان بالله ورسوله واليوم الآخر وما عداه فروع وأنه لا تكفير في الفروع».(٢)

ورغم مساحة التسامح لديه – كما ذكرنا – إلّا أنه وقع في فخ التكفير، ولكن هذه المرة طالت الفلاسفة فقد كان متشددًا في هذا الأمر، حيث حكم على الفلاسفة بـ«الكفر» على تفاوت في البعد عن الحق أو القرب منه حيث قسمهم الغزالي إلى ثلاثة أقسام:

أولا: دهريون جحدوا الصانع وزعموا أن العالم لم يزل موجودًا بنفسه وهؤلاء زنادقة.

ثانيًا: طبيعيون بحثوا عن عالم الطبيعة وعجائب الحيوان والنبات، فرأوا فيها عجائب صنع الله فاعترفوا بخالق حكيم ولكنهم ذهبوا إلى أنه حين يموت الإنسان لا يعود وأنكروا الحشر والنشر والقيامة والحساب ، وهؤلاء زنادقة.

ثالثا: إلهيون كشفوا عن تهافت أقوال السابقين، ولكن بقيت في أفكارهم رواسب من البدع توجب تكفيرهم وأقوالهم في الرياضيات والمنطقيات لا تتعلق بالدين أصلًا أما الإلهيات فهي أكثر أغاليطهم وقد انتقدهم الغزالي في عشرين مسألة – كما يذكر صبحي – وبدعهم في سبعة عشرة مسألة كقولهم بأن السماء والكواكب نفوس حية عاقلة تتحكم في العالم السفلي واعتقادهم بأن صلة الله بالعالم أو بالآخرين بعقول

---

(١) أحمد محمود صبحي : مرجع سابق ذكره، ص١٣٠ ، الجزء الأول المعتزلة.

(٢) أحمد سالم: مرجع سابق ذكره ، ص٥٣.

الأفلاك صلة فيض أو صدور ثم كفرّهم في ثلاث مسائل هي: قدم العالم وقولهم بأن الله يعلم الكليات دون الجزئيات وأن الحشر يوم القيامة للأرواح دون الأجساد.[1]

فكما كفر الأشاعرة أو أكثرهم فرق مخالفة لهم في الاعتقاد كالمعتزلة والمرجئة والخوارج والشيعة، فقد بادلهم ابن حزم الظاهري بإلصاق صفة الكفر بهم وكأنه تكفير معكوس ومتبادل بين الفرق والجماعات حتى كاد يصبح سمة لكل الفرق والمذاهب بالتكفير وإكفارهم للآخرين فقد وضع ابن حزم الأشعرية ضمن المرجئة ومع الجهمية في سلة واحدة ، وأغدق عليهم الكفر بناء على تقول عليهم وفي أقوالهم، فيقول عن أبي الحسن الأشعري: «وكان لشيخهم في إعجاز القرآن قولان أحدهما: كما يقول المسلمون إنه معجز النظم والآخر: إنما هو المعجز الذي لم يفارق الله عز وجل قط والذي لم يزل غير مخلوق ولا أنزل إلينا ولا سمعناه قط ولا سمعه جبريل ولا محمد عليهما السلام قط ، وأما الذي يقرأ في المصاحف ونسمعه من القرآن فليس معجزًا ، وهنا كفر صريح وخلاف لله تعالى ولجميع أهل الإسلام».

كما يكفر ابن حزم أحد كبار الأشاعرة وهو الباقلاني حيث ادعى أنه قال: «إن لله تعالى خمسة عشرة صفة كلها قديمة لم تزل لله تعالى وكلها غير الله وخلاف لله تعالى، وكل واحدة منهن غير الآخرة منها وخلاف لسائرها وأن الله تعالى غيرهن وخلافهن».

ويقول ابن حزم على هذا التقول : هذا والله أعظم من قول النصارى وأدخل في الكفر والشرك.[2]

ويدعى ابن حزم (٣٨٤ – ٤٥٦هـ/ ٩٩٤-١٠٦٤م) ادعاءات باطلة على الباقلاني فيقول ابن حزم عنه في موضع آخر من كتابه «الفصل في الملل والأهواء والنحل»: «من أعظم البراهين على كفر الباقلاني وكيده للدين قوله في فصل آخر من كتابه «الانتصار» في القرآن أنه لا يجب على من سمع القرآن من محمّد بن عبد الله بن عبد المطلب أن يبادر إلى القطع أنه له آية وأنه على يده ظهر ومن قبله نجم حتى يسأل

(١) أحمد محمود صبحي: مرجع سابق ذكره ص١٨٧ الجزء الثاني الأشاعرة.

(٢) ابن حزم الأندلسي : الفصل في الملل والأهواء والنحل ، المكتبة التوفيقية، الجزء الثالث، طبعة ٢٠٠٣، ص١٤٩.

أهل النواحي والأطراف ونقلة الأخبار، ويتعرف حال المتكلمين بذلك اللسان في الآفاق، فإذا علم بعد التثبت والنظر لم يسبقه إلى ذلك أحد لزمه حينئذ اعتقاد نبوته»، وذكر أحمد سالم تعليقا على ذلك: «لا نجد لكلام ابن حزم هذا أي أساس في آراء الباقلاني فقد حمل هذه الآراء عليه حملًا».[1]

ويستمر ابن حزم في التحقير من شأن الأشاعرة واتهامهم بالكفر، فيكفرّ القاضي أبا جعفر السماني (ت ٤٤٤هـ) عندما قال السماني عن شيوخه من الأشعرية: «إن معنى قول النبي ﷺ: «**إن الله خلق آدم على صورته إنما هو على صفة الرحمن من الحياة والعلم والاقتدار واجتماع صفات الكمال فيه وأسجد له ملائكته كما أسجدهم لنفسه وجعل له الأمر والنهي على ذريته، كما كان لله تعالى كل ذلك**»، هذا نص كلامه حرفًا حرفًا، وهذا كفر صريح وشرك بواح.[2]

ويذكر ابن حزم أن «قاضي الموصل أبو جعفر السّماني» وهو أكبر أصحاب الباقلاني قال: إن من سمّي الله تعالى جسمًا من أجل أنه حامل لصفاته في ذاته فقد أصاب المعنى وأخطأ في التسمية فقط، وقال هذا السّماني أيضا: إن الله تعالى مشارك العالم في الوجود وفي قيامه بنفسه كقيام الجواهر والأجسام وفي أنه ذو صفات قائمة به موجودة بذاته كما ثبت ذلك فيما هو موصوف بهذه الصفات من جملة أجسام العالم وجواهره، وهذا نص كلام السّماني حرفًا حرفًا، ثم يقول ابن حزم: «ما أعلم أحدًا من غُلاة المشبهة أقدم على أن يطلق ما أطلق هذا المبتدع الجاهل الملحد المتهور – من أن الله تعالى مشارك للعالم حاشا لله من هذا».[3]

ويقول ابن حزم: «إن من الأشاعرة من كذبوا القرآن وكذبوا الآذان وكذبوا الإقامة التي فرضها الله تعالى خمس مرات كل يوم وليلة وعلى كل جماعة من المسلمين، وأن من الواجب أن يقولوا: محمد كان رسول الله وعلى هذه قتل محمود بن سبكتكين مولى أمير المؤمنين وصاحب خراسان رحمة الله ابن فورك (ت٤٠٦هـ) شيخ الأشعرية فأحسن الله جزاء محمود على ذلك ولعن الله ابن فورك وأشياعه وأتباعه.

(١) أحمد سالم: مرجع سابق ذكره، ص٤٧.

(٢) ابن حزم: مرجع سابق ذكره ص١٥٠.

(٣) ابن حزم: مرجع سابق ذكره، ص١٥٠.

وقد ردت الأشاعرة على هذه الاتهامات والدعاوى بأن مقتل أبي بكر فورك تم بطريقة مختلفة ، وهي أن ابن فورك كان شديدًا في نصرة الدين، وكان يحارب المشبهة والكراميّة وأنه صوب إليهم سهامًا لا قبل لهم بها فتحزبوا عليه ووشوا به عند السلطان محمود بن سبكتكين وقالوا له: إن الذي يؤلب علينا عندك أعظم منا بدعة وكفرًا وذلك أنه يعتقد أن نبينا محمد ﷺ ليس نبيًا اليوم وأن رسالته انقطعت بموته فاسأله عن ذلك. فعظم على السلطان هذا الأمر وقال: إن صح لأقتلنه. ولما حضر بين يديه وسأله السلطان فكذب الناقل وذكر معتقد الأشاعرة الصحيح، وحينما فشلت وشايته سلطوا عليه من قام بسمه.[1]

وقد قدح السبكي صاحب كتاب «طبقات الشافعية» في ابن حزم الظاهري، وفي جهله بالمذهب الأشعري وفي تصديقه للتشنيعات التي أثارتها الكراميّة ضد الأشاعرة، فيقول: أعلم أنّ أبا محمد بن حزم الظاهري ذكر في النصائح أن ابن سبكتكين قتل ابن فورك بقوله لهذه المسألة ثم زعم ابن حزم أنها قول جميع الأشاعرة قلت: وابن حزم لا يدري مذهب الأشعري ولا يفرق بينهم وبين الجهمية لجهله بما يعتقدون وقد حكى ابن الصلاح ما ذكره ابن حزم ثم قال: ليس الأمر كما زعم بل هو تشنيع على الأشعريّة أثارته الكرامية.[2]

(١) أحمد سالم: مرجع سابق ذكره ، ص٤٨.

(٢) أحمد سالم: مرجع سابق ذكر ، ص٤٩.

فذلكة أخيرة:

لا يستطيع أن يماري أحد في أن «الأشعريّة» أو «الأشاعرة» امتلكت ناصية جمهور كبير من المسلمين لعدة قرون حتى وصفها البعض بأنها تمثل أهل السنة والجماعة فقدرتها على أنها كانت وسط بين استقطابين في منطقة «بغداد» حاضرة الفكر والسياسية – وقتئذ – وكانت وسطا – كما ذكرنا – بين المعتزلة بنظرتها العقلية وبين الحنابلة بنظرتها النصوصية – الحرفية أي بين العقل والنقل في حالات الاستقطاب الحاد بين متطرفين ، صحيح أن المذهب الأشعري ينسب لمؤسسه وإمامه، أبي الحسن الأشعري، وأن هذا كان له تأثير قوي في تأسيس وشرعنة«علم الكلام» غير أن تعقيد قواعد المذهب وإنشاء أركانه وتثبيت مداميكه تعود إلى الإمام الغزالي والذي كان لكتبه وأفكار وسيرته التأثير الأوسع في نشر المذهب الأشعري وإعطائه مصداقية لدى جمهور المسلمين.

بيد أن الأمر بالنسبة للمذهب وفرقة الأشاعرة وسيرورة تاريخه وأفكاره تدفعنا أن نتوقف عند عدة اعتبارات مهمة نوضحها في التالي:

الاعتبار الأول : إن بقاء الأشعري مؤسس المذهب في مدرسة الاعتزال لمدة أربعين عاما – أو وصول سنة إلى أربعين سنة في أرجح الأقوال – ثم تخلى عنه ونزعه عن أفكاره كما ينزع الثوب عنه ثم قضي ربع قرن من الزمان في محاولات التأسيس وإبراز التفرد عن مدرسته الأولى وأيضا الهجوم عليها وتكفيرها فيما ذكرته من مبادئ كان معتقدا بها كل الاعتقاد، ولا أدري أن هناك مبررًا لقيام مذهب جديد ، وفرقة أخرى يتوجب رصد الانتقادات للآخر وكيل الاتهامات له والتسفيه منه وتكفيره مما يدل على التعصب للأفكار والمذاهب واحتكار الحقيقة والحط من شأن المذاهب الأخرى..!!

الاعتبار الثاني: رغم أن انبثاق «الأشاعرة» لم يحدث طفرة أو صدمة بل تمخض عن ظروف موضوعية من استقطابات متناقضة ونفوس تواقة للوسطية، فخرج فكر جديد من تناقضين من الاستقطاب حسب قوانين الفكر وحركة المجتمعات وحسب ما عدده الباحثون من وسطية الأشعرية بين العقل والنقل إلّا أنها في حالات التضارب بين النقيضين يميل «الأشعري» ميلا إلى النقل والسمع ولاسيما فيما يتعلق بأمور العقيدة وأسماء الله، ومن ثمّ يكون الانطباع العام عن المذهب أنها ليست وسطية جامدة بل هي أميل إلى السمع والنقل في كثير من آرائه العقيدية.

الثالث: إن استمرار الأشعري ربع قرن في الترصد للمعتزلة والهجوم عليهم وتكفيرهم وإخراجهم من الملة بعد اكتشافه ضعف حلولهم العقلية وتناقضاتها في الرد على الإشكاليات الفكرية والكلاميّة، فإذا بابن حزم الظاهري والذي كان يحاول بمذهبه أن يكون في مقدمة أهل السنة والجماعة مع الأشعرية يقيض معظم آرائه للتهجم على الأشاعرة والتحقير من شأنهم وتكفيرهم وكأنما العصر كانت قضيته من يكفر من؟!

غير أنه لو حرص أصحاب المذاهب والفرق على طرح مبادراتهم الفكرية والفقهية في مناخ من التسامح وقبول الآخر المخالف في الرأي وفي الفروع كان هذا أنفع للعقيدة وأسلم للدين من الصراعات الفكرية والكلامية المبنية على التكفير والمؤدية في النهاية إلى إهدار الدماء وإراقتها لخروج أصحابها من الملة!!

الرابع: اضطر العديد من الشخصيات في المذاهب والفرق المختلفة والمتصارعة إلى تحميل النصوص بكل فرقة أكثر مما تحتمل وكأنهم يبحثون عن كلمات لتكفيرهم كما حدث من ابن حزم للأشاعرة فصبغ العصر كله بصبغة الادعاءات والتشويه والتسفيه من فرقة تحسب على أهل السنة.!!

فقد كان الحرص على إظهار كل من ينتمي إلى فرقة من الفرق الإسلامية أن يبين أن فرقته هي «الفرقة الناجية» وما عداها من الهلكى لأنها لا تسير على النهج النبوي.

الخامس: كانت السمة التي اتسمت بها الفرق والأحزاب والمذاهب الإسلاميّة في المرحلة الإسلامية الأولى تتمثل في القيام بأمرين :

الأول: تكفير الفرقة المخالفة لها في الرأي، فالحنابلة يكفرون المعتزلة والعكس، والفقهاء يكفرون الصوفية والعكس، والخوارج يكفرون المرجئة، والشيعة يكفرون السنة والعكس... إلخ.

والأمر الثاني : تقارب الفرقة إلى السلطة واستغلالها في التأليب على الفرقة الأخرى المناوئة لها، وقد حدث تعذيب وسجن وإراقة دماء وإهدار للنفس والنفيس حينما تمكنت الفرقة الأخرى من تأليب السلطة والتمكن من رأس الحكم والخلافة وحشوه لصالحها، فقد حدث ذلك في عهد المأمون ضد الحنابلة، وحدث للمعتزلة في فترة المتوكل وما بعده، وما حدث للأشاعرة ، وما حدث للخوارج في عهد الدولة الأموية..!!

المبحث الثاني

الفرق والجماعات والتنظيمات الإسلامية
في العصر الحديث والمعاصر.. وقضية العنف التكفيري

المطلب الأول : الوهابية ونزعة التكفير في منهجهم العقيدي!!

المطلب الثاني: السَّلفية والسَّلفيون وفتنة التكفير

المطلب الثالث: الإخوان المسلمون وصياغة أيديولوجيا التكفير «وهم الاعتدال والإصلاح»

المطلب الرابع : الفنية العسكرية.. رسالة إيمان أم رسالة كفر!!

المطلب الخامس: جماعة التكفير والهجرة

المطلب السادس: تنظيم الجهاد وتكفير النظام السياسي والحاكم

المطلب السابع: الجماعة الإسلامية وقضية تكفير أنظمة الحكم وجاهلية الحكام

المطلب الثامن: تنظيم القاعدة وخطابه التكفيري

المطلب التاسع: داعش.. الخطاب التكفيري والتوحش الإرهابي!!

المطلب الأول

الوهابية .. ونزعة التكفير في منهجهم العقيدي

¤ ¤ ¤ ¤

(أ) المؤسس وظروف النشأة والتكوين:

مؤسس الفرقة هو : «محمد بن عبد الوهاب بن سليمان بن عليّ بن محمّد بن أحمد ابن راشد بن بريد بن مشرف التميمي» ، هذا ما أورده ابن غنام – المؤرخ المعاصر له – في كتابه (تاريخ نجد) بينما اختلف ابن بشر في بعض آباء ابن عبد الوهاب في كتابه (عنوان المجد في تاريخ نجد) ، وكذلك اختلف أيضًا في اسمه عبد الرحمن بن محمد بن قاسم العاصمي في (الدرر السنية في الأجوبة النجدية)، ولكن المعول لدينا – ولدى كثير من الباحثين أيضًا – هو ابن غنام لمعاصرته محمد بن عبد الوهاب (١١١٥ – ١٢٠٦هـ / ١٧٠٣-١٧٩٢م) ، والذي هو على التحقيق عربي خالص العُروبة تعود به أصوله إلى «قبيلة تميم» ، والتي كان يضرب بها المثل في القوة والمنعة حتى لقد قيل:« لو تأخر الإسلام لأكلت تميم العرب».[١]

الميلاد:

ولد محمد بن عبد الوهاب في بلدة العُيينة من بلدان نجد عام (١١١٥هـ - ١٧٠٣م) ، وكان مولده في بيت علم ودين، فوالده عبد الوهاب بن سليمان كان آنذاك قاضي العيينة والذي روى عنه أنه كان عالمًا فقيها وألف عدة رسائل في الفقه والتفسير، وكان مشهورًا عند الناس بالتواضع وسهولة الأخلاق وكريم الطباع، أمّا جده سليمان بن علي المتوفي عام (١٠٧٩م) فقد ذكر مؤرخو نجد عنه أنه كان فقيه زمانه متبحرًا في علوم المذهب الحنبلي، وكان علماؤه المعاصرون له يرجعون إليه في كل مشكلة وله إجابات مفيدة.[٢]

---

(١) آمنة محمد نصير : الشيخ الإمام محمد بن عبد الوهاب ومنهجه في مباحث العقيدة، دار الشروق، الطبعة الأولى ١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م ، ص٢٦.

(٢) آمنة محمد نصير: مرجع سابق ذكره ، ص٢٨.

وقد أتاحت هذه البيئة لابن عبد الوهاب أن يبدأ رحلته في تحصيل العلم مبكرًا إذا أخذ في تلقيه منذ طفولته (فحفظ القرآن قبل العاشرة من عمره وكان حاد الفهم وقاد الذهن سريع الحفظ فصيحًا فطنًا) كما يذكر عنه عبد الرحمن العاصمي وابن بشر، وبعد نشأته في بلده «العُيينة» في نجد وتعلم دروسه الأولى بها على رجال الدين من الحنابلة، سافر إلى المدينة ليتم تعلمه وتحصيله ثم طوّف في كثير من بلاد العالم الإسلامي – كما يذكر أحمد أمين – فأقام نحو أربع سنين في البصرة وخمس سنين في بغداد وسنة في كردستان وسنتين في همذان ثم رحل إلى أصفهان ودرس هناك فلسفة الإشراق والتصوف ثم رحل إلى «قُمّ» ثم عاد إلى بلده واعتكف عن الناس نحو ثمانية أشهر ثم خرج عليهم بدعوته الجديدة.[1]

ولا يظنن أحد أن رحلات محمَّد بن عبد الوهاب قد مرت بسلام وأن تلقيه للعلم وتحصيله للعلوم الدينية ومقابلة العلماء كان يتم في سهولة ويسر، ففي مرحلة الشباب اتجه ابن عبد الوهاب إلى «الحجاز» لأداء مناسك الحج وزيارة قبر الرسول فالتقى ببعض العلماء وأخذ عنهم، ثم عاد إلى نجد فبقى فيها قليلًا ثم رحل إلى العراق والشام، واستقر بالبصرة نحو أربع سنوات درس فيها اللغة والحديث إلّا أنه لم يلبث أن طرد منها عندما أثار خواطر الشيعة بالمدينة لحملته الشديدة عليهم وعلى مناسكهم، فاتجه نحو «الإحساء» حيث أخذ من بعض علمائها وقصد بعد ذلك إلى «حريملاء» في إقليم نجد، ولم تطل إقامته في تلك الناحية لاستفزازه مشاعر الكثيرين فيها – كما يذكر إبراهيم الفحام – بسبب حملته على البدع والخرافات التي اعتبرها مظاهر الوثنية، فاضطر إلى الرحيل إلى مسقط رأسه في «العُيينة» حيث استكمل نشاط وكثير أنصاره واستطاع أن ينشر عدوته ويطبل الكثير من العادات المنافية لتعاليم الإسلام، ولكنه حورب مرة أخرى فاضطر إلى الرحيل إلى «الدرعية» في سنة ١١٥٧هـ حيث كان فيها عدد ممن يعول عليه بها ومنهم بعض أبناء سعود بن محمّد مؤسس الإمارة السعودية بها.[2]

---

(١) أحمد أمين : زعماء الإصلاح في العصر الحديث ، مكتبة الآداب، طبعة ٢٠٠٩، ص١٢.

(٢) إبراهيم الفحام : الحركة الوهابية في كتاب «المتشددون المحدثون» ، الهيئة المصرية العامة للكتاب، عام ٢٠١٣، الجزء الأول ، ص٢٤١.

وفي بلدة الدرعية قوبل ابن عبد الوهاب (١١١٥- ١٢٠٦/ ١٧٠٣-١٧٩٢م) بحفاوة بالغة، وهناك عرض دعوته على أميرها محمد بن سعود فقبلها – كما يذكر أحمد أمين (١٨٨٦-١٩٥٤م) – وتعاهدا على الدفاع عن الدين الصحيح ومحاربة البدع ونشر الدعوة في جميع جزيرة العرب باللسان عند من يقبلها وبالسيف عند من لم يقبلها، وإذ ذاك دخلت الدعوة في دور خطير وهو اجتماع السيف واللسان، وزاد الأمر خطورة نجاح الدعوة شيئا فشيئا، ودخول الناس أفواجًا وإخضاع بعض الأمراء بالقوة لحكمها، وكلما دخلوا بلدة من البلاد أزالوا البدع وهدموا القباب حتى هددت «الحركة» كل جزيرة العرب، ولما مات الأمير محمّد بن سعود والشيخ محمد بن عبد الوهاب تعاقد أبناء الأمير وأبناء الشيخ على أن يسيروا سيرة أبويهم في نصرة الدعوة متكافئين ومتعاضدين وظلوا يعملون حتى غَلَبُوا على مكة والمدينة.[1]

(ب) بيئة نجد وأثرها في الفكر الوهابي:

فكما ذكرنا من قبل أن محمد بن عبد الوهاب قد ولد ونشأ في بيئة نجد العربية البدوية، والتي ظلت بمعزل عن التأثيرات الحضرية والحضارية إلى حد كبير – كما يذكر محمّد عمارة – والتي استمرت – هذه البيئة النجديّة – الامتداد لبساطة الحياة العربية البدوية القديمة، فلم تهضم أو لم تعرف العلوم والفنون التي أثمرتها احتكاكات العرب الأوائل بالأمم التي فتحوا بلادها وصراعات الإسلام السلفي والبسيط مع الأبنية الفكرية والديانات التي تحدته وتحداها بعد إنجاز الفتوحات.[2]

وإذا كان صحيحا ما يقول المؤرخون من أنّ الجغرافيا تصنع التاريخ فإن ذلك – كما تذكر آمنة نصير – أصح ما يكون بالنسبة للجزيرة العربية وإنسائها في جاهليتها وإسلامها، ومن ثمَّ نجد أنّ هناك جملة من المصادر تذهب إلى أن الجزيرة العربية عامة ونجدا بصفة خاصة سلخت القرون المتأخرة والمنتهية بظهور الشيخ محمد بن عبد الوهاب في جهالة جهلاء حتى أصبحت «موطنًا للجور والظلم ومسرحًا للحروب والقتال والنهب والسلب» بحيث يمكن القول أنها بلغت من التدني أحط الدركات – كما تذكر نصير – حتى لتبدو في جاهليتها الأولى أقل سوءا مما آلت إليه.

---

(١) أحمد أمين : زعماء الإصلاح في العصر الحديث ، ص٢١.

(٢) محمد عمارة: تيارات الفكر الإسلامي ، دار الشروق ، الطبعة الثانية ، ١٤١٨هـ ، ١٩٩٧م، ص٢٥٣.

فقد خلعت حجب العزلة التي انسدلت أستارها على نجد والجزيرة العربية والتي هيأت الأسباب لتفشي كل بدعة ضالة ونزعة منحرفة ولم تنل الجزيرة العربية من اهتمام الدول الإسلامية المتعاقبة إلا بالقدر اللازم لتأمين سبل الحج إلى بيت الله الحرام بمكة المكرمة وزيارة المسجد النبوي الشريف بالمدينة، وقلما تم تأمين هذه السبل إلا عن طريق القوة التي تخضع لها الأعراب ريثما تنكشف عنهم ثم يعودون إلى طباعهم المتمردة. (١)

بيد أن غاشية الضلال التي حجبت وجه الحق والحقيقة في سائر أرجاء الجزيرة العربية إلّا أن حظ نجد من هذه الغاشية وهذا الضلال كان مهولًا ، فقد كان في كل بلد وفي كل قرية ولدى كل قبيلة بادية أو حاضرة أشتات من الطواغيت تصد الناس عن الحق وتصرفهم عن اتباع الصراط المستقيم، فهم في كل وادٍ يهيمون حتى «كثر الاعتقاد في الأشجار والأحجار والقبور والبناء عليه والتبرك بها والنذر لها والاستعاذة بالجن والنذر لهم». (٢)

ورغم شيوع الشرك في الاعتقاد إلى هذا الحد – كما تذكر نصير – لم يلتفت العلماء والحكام إلى معالجته وتنبيه الأذهان إليه فأمض العوام في الضلالات «حتى جهروا بكل ذلك وتظاهروا به عيانا ولم يبد أهل العلم من يزيل هذا الضلال بل تألبوا على مخالفة الحق وحاولوا تغيير الصواب». (٣)

والجدير بالبيان أن الدعوة الوهابية في سبيل مواجهتها لهذه البدع وتلك الضلالات لم تقتصر على الدعوة المجردة ، بل عمدت إلى حمل السيف لمحاربة المخالفين لهم باعتبار أنهم يحاربون البدع وهي منكر تجب محاربته، ويجب الأخذ بالمعروف والنهي عن المنكر وذلك لتحقيق قوله تعالى : ﴿ **كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ** ﴾ (آل عمران : ١١٠). ولقد قاد الفكرة الوهابيَة في ميدان الحرب والصلاح محمَّد بن سعود جد الأسرة السعودية الحاكمة للأراضي العربيّة، وقد كان صهرًا

(١) آمنة محمد نصير : مرجع سابق ذكره، ص٥٨.

(٢) آمنة محمد نصير : مرجع سابق ذكره، ص٥٩ .

(٣) آمنة محمد نصير : مرجع سابق ذكره، ص٥٩ ، وحسين بن غنام : تاريخ نجد، ص١٢.

للشيخ محمَّد بن عبد الوهاب واعتنق مذهبه وتحمس له، وأخذ يدعو للفكرة بقوة السيف وعنفوان القوة معلنًا أنه يفعل ذلك لإقامة السنة النبوية وإماتة البدعة.[1]

وكلما نجحت الدعوة الوهابية في التمكين لها والنصر لشأنها من قرية أو مدينة أتت على الأضرحة هدمًا وتخريبًا حتى أطلق عليها بعض الكتاب الأوروبيين وصف هدامي المعابد، ولعل هذا الوصف فيه بعض المبالغة – كما يذكر محمد أبو زهرة– لأن الأضرحة ليست معابد ولكن يبدو أنهم كانوا يهدمون المسجد مع الضريح أخذًا من الخبر الذي استنكر فيه النبي ﷺ عمل بني إسرائيل إذ اتخذوا من قبور أنبيائهم مساجد.

ولم يقف عنفهم عند هذا الحد إذ أنهم جاءوا إلى القبور الظاهرة فهدموها. ولما آل إليهم السلطان في البلاد الحجازيّة هدموا كل قبور الصحابة وسووها بالأرض، ولم يبق منها الآن إلّا إشارات تومئ إلى موضع القبر ، وقد أجازوا زيارتها والاقتصار في الزيارة على تحية صاحب القبر.[2]

وقد دفعهم هذا التشدد والتعلق بأمور صغيرة ليس فيها وثنية ولا ما يؤدي إلى وثنية، وأعلنوا استنكارها مثل التصوير الفوتوغرافي ، بل توسعوا في مفهوم البدعة ومعناها توسعًا غريبًا حتى إنهم ليزعموا أنّ وضع ستائر على الروضة الشريفة أمر بدعي، ولذلك منعوا تجديد الستائر التي عليها حتى سارت أسمالا بالية.[3]

وترى آمنة نصير أنه «لكون الشيخ محمد بن عبد الوهاب نجدي الأصل والنشأة تميمي العرق والنسب ، ولكون حركته اقترنت منذ البدء بالأمير محمد بن سعود الذي يعود نسبه إلى عترة ربيعة ولأسباب أخرى، فقد وجه إلى الشيخ محمد بن عبد الوهاب أكثر من اتهام من أكثر من مصدر بأنه يدعو دعوة الخوارج وينسج على منوالهم، بدليل مذهبه في تكفير مخالفيه وبدليل عقد الإمامة في غير أصحاب النسب القرشي، وهذان الأمران هما رأس عقيدة الخوارج كما شرحها مؤرخوا الفرق وعلماء الكلام».

---

(١) محمَّد أبو زهرة : تاريخ المذاهب الإسلامية، طبعة ١٤٣٠هـ/ ٢٠٠٩م، ص٢١٩.

(٢) محمد أبو زهرة: مرجع سابق ذكره، ص٢٢٠.

(٣) تاريخ المذاهب الإسلامية، ص٢٢٠، ٢٢١.

(١) محمد بن عبد الوهاب وتأثيراته على الفكر الإسلامي

⌑⌑⌑⌑

ترك محمد بن عبد الوهاب كتبا تتسم بالصغر ومقتصده على النصوص عالج فيها قضايا الفكر الإسلامي معالجة سلفية متأثرًا فيها بالإمام أحمد بن حنبل (١٦٤-٢١٤هـ/ ٧٨٠-٨٨٥م)، وابن تيمية (٦٦١-٧٢٨هـ / ١٦٢٣-١٣٢٨م) وابن القيم الجوزية (٦٩١-٧٥١هـ/ ١٢٩٢-١٣٥٠م) أي أنها لم تخرج عن النهج السلفي حيث رسم فيها خطوط الدعوة ومنهاج الدولة الجديدة المؤسسة على العقيدة والتوحيد، كما نزل العديد من الرسائل والتي كانت أكثر من كتبه ونذكر على رأس مصنفاته:

(١) كتاب «التوحيد»: وهو أول كتاب ألفه ابن عبد الوهاب قبل قيامه بالمرحلة الأولى من الدعوة والذي قام فيه بتعريف التوحيد وفضله وتفسيره لشهادة «لا إله إلا الله» وبين فيه نواقض التوحيد من الأمور الشركية والوثنية.

(٢) كشف الشبهات: كتيب صغير يتضمن رسالة مطولة إلى الناس كافة وبين فيها معرفة التوحيد وأصوله.

(٣) كتاب الكبائر والمسائل التي خالف الرسول ﷺ أهل الجاهلية.

(٤) كتاب تفسير القرآن: وقد ذكر فيه مسائل خاصة بالتوحيد وتعريف الشرك بالله وشيء من أسرار الآيات.

(٥) اختصر من الشرح الكبير والإنصاف مجلدًا لبيان الخلاف وأمر بالقراءة فيه.

(٦) اختصر كتاب الهدي النبوي لابن القيم الجوزية.

(٧) أخذ من شرح الإقناع نبذة في أحكام الصلاة والزكاة والصيام.

(٨) كتاب أصول الإيمان.

(٩) السيرة المختصرة : اختصار لسيرة الرسول ﷺ عن سيرة ابن هشام.

(١٠) السيرة المطولة: ذكره سيرة الرسول الكريم ومواقعه وغزواته.

(١١) مختصر الهدي النبوي.

(١٢) مجموع الحديث على جواب الفقه.

(١٣) فضل الإسلام: فيه بيان بفضل الإسلام.

(١٤) الأصول الثلاثة وأدلتها: به شرح لأصول المعرفة بالله ومعرفة نبيه ومعرفة دين الإسلام بالأدلة.

(١٥) نصيحة المسلمين بأحاديث خاتم المرسلين.

(١٦) نواقض الإسلام.

(١٧) تفسير سورة الفاتحة.

(١٨) تفسير كلمة التوحيد.

(١٩) معنى الطاغوت ورؤوس أنواعه.

(٢) أحاديث الفتن.

(٢١) مختصر زاد المعاد.

(٢٢) مفيد المستفيد.

(٢٣) الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

هذه هي مؤلفات ابن عبد الوهاب وله عديد من الرسائل هي:

١- الرسائل التي يشرح فيها حقيقة دعوته والتي أرسل إحداها إلى العالم العراقي السويدي.

٢- رسائل يرد فيها على التهم الباطلة التي كان المخالفون يشيعونها عنه تنفيرًا للناس من مثل رسالته إلى اتهامات سليمان بن محمد بن سحيم مطوع أهل الرياض.

٣- رسائل تعليمية يشرح فيها لدعاته أو لمن يطلب من العلماء المعاصرين له تفسير الأشياء الغامضة أو إزالة الشبهة.

٤- رسائل التحذير من الوقوع في الشرك والارتداد عن الدعوة مثل رسالته إلى مطاوعة أهل سدير والوسم والقصيم.

٥- الرسائل التي كان يكتبها خصيصًا للبدو وفي داخل نجد لنشر الدعوة بينهم.

٦- الرسائل التي كانت تكتب لا لدعوة الأمراء داخل الجزيرة العربية فحسب بل دعوة العلماء والقضاء في الحرمين والشام ومصر والعراق.. إلخ.(١)

وقد رأى عديد من الباحثين أن ابن عبد الوهاب قد ترك أثرًا في مفهومين هامين وهما: التوحيد والجهاد.

أولا: التوحيد:

تقدم النظرية الوهابية تفسيرًا مختلفًا وخاصا لمعنى «التوحيد» ينطلق من تفسير كلمة (الله) أو (الإله)، ومن ثمّ تقدم تطورًا خاصا لمعنى (المسلم) الذي يشهد (ألا إله إلا الله)، فخلافا لما كان يعتقده عامة المسلمين منذ الجيل الأول للإسلام من أن معنى (الإله) هو خالق الكون حسبما يفهم من هذه الآية وغيرها من الآيات المتشابهة ﴿ لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللهُ لَفَسَدَتَا ﴾(الأنبياء : ٢٢) وأن شهادة التوحيد تعني الاعتراف والتسليم بعدم وجود شريك لله في الخلق حيث تقول النظرية الوهابية: إن المقصود بكلمة «الإله» المعبود وليس الخالق، وبالتالي فإنه لا يكفي للمرء أن يعترف بعدم وجود شريك للخالق لكي يصبح موحدًا، وإنما يجب عليه أن يمارس العبادة لله وحده، وإذا مارس أي نوع من العبادة لغير الله فقد أصبح مشركًا، كما أنه لم تعد العبادة تفسر بمعنى أداء الطقوس الخاصة كالصلاة أو الطاعة، بل تعني العبادة – من منظور – النظرية الوهابية – هي ممارسة كل ما يختص بالله تعالى من الدعاء والنذر والقسم والاستغاثة والخوف والرجاء وطلب الشفاعة وما إلى ذلك بالنسبة لشخص آخر غير الله، ومن ثمّ يعتبر ابن عبد الوهاب أن دعاء الصالحين والأئمة والأنبياء والنذر لهم وطلب الشفاء منهم نوعًا من العبادة التي ترقى إلى مستوى الشرك الأكبر بالله.(٢) مما يخرج مرتكبها من ملة الإسلام ويعيده إلى الجاهلية الأولى، حيث تابع محمد بن عبد الوهاب شيخه ابن تيمية والذي كان يعتبر بعض الممارسات المختلف حولها بين المسلمين مثل دعاء الأنبياء والصالحين والاستغاثة بهم شركًا أكبر مخرجًا من الملة

---

(١) آمنة محمد نصير : مرجع سابق ذكره، ص٣٦، ٣٧.

(٢) أحمد الكاتب : الفكر السياسي الوهابي – قراءة تحليلية – مكتبة مدبولي – الطبعة الثالثة، ٢٠٠٨، ص١٥.

والدين.[1]

ومن أجل ذلك أطلق أصحاب ابن عبد الوهاب على أنفسهم (الموحدين) أو (المسلمين) واعتبروا كل من يتبع هذه البدع مشركا يحل دمه وماله ، وأن النطق بالشهادتين لا يكفي دليلًا على «الإسلام» إن لم يقرن ذلك بالعمل.

وقد بلغت المغالاة الوهابية شأوا كبيرًا وشأنا متعاظمًا فقد كفروا المخالفين لهم، بل اعتبروا البلاد الإسلامية التي لم تستجب لدعوتهم دار حرب ، وألزموا أتباعهم الذين يعيشون خارج نطاق نفوذهم بالهجرة إليهم.[2]

ثانيًا: الاجتهاد:

دعا ابن عبد الوهاب إلى الاجتهاد في إطار القرآن الكريم والسنة النبوية وآثار السلف الصالح، وأنكر تقليد أحد غير الأئمة الأربعة (مالك وأبي حنيفة والشافعي وابن حنبل) لعدم ضبط المذاهب الأخرى كمذاهب الشيعة والإباضية.[3]

وطالب محمد بن عبد الوهاب كل مجتهد بأن يعود إلى مسيرة السلف من حيث البحث عن دليل قبل شخص المستدل به حتى لا يعرف الحق بالرجال وإنما يعرف الرجال بالحق «فإذا صح لنا نص جليّ من كتاب أو سنة غير منسوخ ولا مخصص ولا معارض بأقوى منه أخذنا به وتركنا المذهب، وعندها أن الإمام ابن القيم وشيخه إماما أهل السنة وكتبهما من أعز الكتب إلا أنا غير مقلدين لهما في كل مسألة فإن كل واحد يؤخذ من قوله ويترك إلا نبينا ﷺ.[4]

ومن المسائل التي خالف فيها محمد بن عبد الوهاب شيخه ابن تيمية وابن القيم هي:

(١) طلاق الثلاث بلفظ واحد.

(٢) «ونرى الوقف صحيحا».

---

(١) أحمد الكاتب : مرجع سابق ذكره، ص١٦.

(٢) إبراهيم الفحام: الحركة الوهابية ، الجزء الأول، ص٢٤٢.

(٣) إبراهيم الفحام: مرجع سابق ذكره، ص٢٤٣.

(٤) آمنة محمد نصير : مرجع سابق ذكره، ص٧٩.

(٣) والنذر جائز الوفاء به في غير معصية.

- والجدير بالبيان في هذا الأمر أنه لم تقتصر الدعوة الوهابية على الحجاز والجزيرة العربية بل تعداها إلى غيرها من كثير من الأقطار الإسلامية فقد قام زعيم وهابي اسمه السيد أحمد (١٧٨٢-١٨٣١م) والذي جاب الهند داعيًا إلى تحريم زيارة الأضرحة والشفاعة بالأولياء ، وهاجم الوعاظ ورجال الدين، وفي اليمن ظهر أعلم علمائه وإمام أئمته وهو الإمام الشَّوْكاني (١١٧٢-١٢٥٥هـ) فسار على هذا النهج نفسه وإن لم يتلقه عن ابن عبد الوهاب وألفه كتابه القيم (نيل الأوطار) ، وفي مصر شب محمد عبده (١٢٦٦-١٣٢٦هـ ١٨٤٩-١٩٠٥م) فرجع إلى تعاليم ابن عبد الوهاب، فقد حرص على محاربة البدع وما دخل على العقيدة الإسلامية من فساد وإشراك الأولياء والقبور والأضرحة مع الله تعالى، وفتح باب الاجتهاد الذي أغلقه ضعاف العقول من المقلدين.[١]

بيد أنه قد ثار جدلًا كبيرًا ولغطا صاخبًا بين الباحثين والدارسين حول قيمة ما تركه ابن عبد الوهاب في الفكر الإسلامي وتأثيراته فقد اعتبره البعض إماما مجددًا واعتبره آخرون مصلحًا دينيًا ، وذهب آخرون إلى اعتباره مجددًا لفكر ابن تيمية وابن القيم الجوزية وابن حنبل ، والذي يحتوي فكرًا سلفيًا ضيقًا، غير أن هناك «رؤيتان» بينهما اختلاف واضح نحرص على ذكرهما:

فالرؤية الأولى: يرى محمّد عمارة أن ابن عبد الوهاب كان أكثر من «شيخ» وأعظم من «فقيه» فإنه لم يشأ أن يقف بدعوته عند رسائل يؤلفها أو مواعظ يلقيها أو حتى حلقة أو حلقات من الأتباع والمريدين، وإنما أراد هذه الدعوة أن تكون أكثر وأكبر من مجرد «دعوة» أو «مذهب» يستقر في مجرى التاريخ ومتحف التراث.[٢]

والرؤية الثانية : يراها محمود إسماعيل بأن دعوة محمد بن عبد الوهاب رغم أنها أهم الدعوات السلفية على الإطلاق نظرًا لسعة انتشارها ونجاحها السياسي بتوحيد شبه الجزيرة العربية تحت لواء الدولة السعودية الأولى، إلا أنه يرى أن رصيدها الفكري هاشًا لعدة أسباب هي:

(١) أحمد أمين: زعماء الإصلاح في العصر الحديث ، ص٢٣.

(٢) محمد عمارة : تيارات الفكر الإسلامي ، ص٢٥٥.

أولا: نشأتها في بيئة بدوية متخلفة ليس لها رصيد يذكر في مجال الفكر الإسلامي.

ثانيًا: محدودية ثقافة مؤسسها حيث اقتصر رصيده المعرفي على العلوم الدينية التي تدهورت في زمنه فاقتصرت على الشروح والملخصات والحواشي.

ثالثًا: تمذهب المؤسس بمذهب ابن حنبل والذي يعد أكثر المذاهب الفقهية نصية وانغلاقًا حيث رفض الاجتهاد بالكلية ولم يأخذ بالقياس.

رابعًا: نقل ابن عبد الوهاب فكر ابن تيمية بالكامل دون أدنى تعديل أو تطوير بحيث يستحيل بخصوصية مميزة للوهابية.

ونحن أميل لرؤية إسماعيل في فهم الفكر الوهابي وتأثيراته حيث أننا لن نستطيع أن نقول عنه أنه صاحب مذهب فقهي خالص أو منظومة إسلامية متكاملة بعيدة عن رؤية السَّلف أو أنه تفرد باجتهاد وقدرة على استنباط الأحكام برؤية غير تقليدية بعيدة عن شيوخه، فكان فكره تجديدًا لفكر ابن حنبل وابن تيمية وابن القيم الجوزية الممعنين في السلفية والنصوصية.

(٢) الوهابية .. والنزعة التكفيرية:

أسرف محمد بن عبد الوهاب في التكفير إسرافًا كبيرًا لم يسلم منه أحد سواء من السابقين أو المعاصرين له حتى غدا يكفر الأفراد والمجتمعات البدو والحضر دون تفريق في قضية التكفير بين الشخص والنوع فقد يقول الشخص كفرًا – كما يذهب اليماني الفخراني – ولكن لا يعتبر ذلك الشخص كافرًا لجواز فوات شرط أو ثبوت مانع فقد يتوب أو يكون له رصيد من الحسنات تمحو عقوبة الجرم الذي ارتكبه، أو يكون له تأويل أو عنده شبهة لم يجد من يزيلها عنده.. وللأسف الشديد فلم يسلم أحد من «سيف التكفير» أو «ضرب الأعناق» ، وقد تناول الشيخ بهذين السيفين كل فئات المسلمين.[(١)]

فالنزعة التكفيرية في فكر الشيخ ابن عبد الوهاب من خلال رسائله الشخصية هي نزعة «طاغية» ويعزى هذا النزوع التكفيري بالنسبة إلى من يبالغ في اعتزازه بنفسه وأنه يمتلك الحقيقة المطلقة وحده ويتعصب لنفسه ولرأيه، وعدم التسامح والانغلاق

---

(١) د. اليماني الفخراني: النزعة التكفيرية في فكر الوهابية ، مكتبة مدبولي، الطبعة الأولى، ٢٠١٢، ص٢١.

الشديد على النفس، والتحجر المذهبي والتصلب والعناد، فالعقل الأصولي «المتطرف» هو الذي يميل إلى اختزال الحقائق المتنوعة والمتعددة للأشياء إلى حقيقة واحدة وإلى نمط واحد من أنماط التفكير كما أنه هو الذي يخضع العقل إلى النقل أو لسلطة النص الديني.[١]

ولو عدنا لما تفرده به ابن عبد الوهاب من صفات نازعة نحو تكفير الكافة سنجدها في الحقيقة مبالغة في الاعتزاز بنفسه ويراها فوق الجميع فلو تابعت مقولة الشيخ ابن عبد الوهاب ، وهو يتحدث عن نفسه ويمن على أتباعه بهدايتهم بعد ضلالهم وهو يقول: «فالرجل الذي هداكم الله به لهذا إن كنتم صادقين لو يكون أحب إليكم من أموالكم وأولادكم لم يكن كثيرًا فكيف يقال: أفتى في مسألة الوقف أفتى في كذا؟ كلها ولله الحمد على الحق إلا أنها مخالفة لعادة الزمان ودين الآباء».[٢]

وسوف نعرض في التالي نماذج من تكفيرات ابن عبد الوهاب للمسلمين كافة وللمتكلمين وللصوفية وتكفيره للمعين...

(١) تكفير كافة المسلمين:

أشاع الشيخ محمدبن عبد الوهاب عملية تكفير المسلمين واتهامهم بالشرك اعتمادًا على بعض الأحاديث التي تشير إلى غربة الإسلام في آخر الزمان وسير الأمة سيرًا انحداريًا أبديًا فقال: «مما يدل على غربة الإسلام ما أخبر به النبي من وقوع الشرك في هذه الأمة (حتى تعبد فئات من أمتي الأوثان) و(تدور رحى الإسلام لخمس وثلاثين أو ست وثلاثين أو سبع وثلاثين فإن يهلكوا فسبيل من هلك وإن يقم لهم دينهم يقم تسعين عامًا).[٣]

ولما كانت زيارة قبور الأنبياء والصالحين منتشرة في جميع البلاد الإسلامية فقد اعتبر الشيخ محمد بن عبد الوهاب عامة المسلمين كفارًا ومشركين ومرتدين كأهل الجاهلية الأولى أو أضل منها وقال: «إن أكثر الخلق قد لعب بهم الشيطان وزَّين لهم

(١) حسن حماد: ذهنية التكفير، الأصوليات الإسلامية والعنف المقدس، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ٢٠١٥، ص٧٦.

(٢) اليماني الفخراني: مرجع سابق ذكره، ص١٩ ، ٢٠.

(٣) أحمد الكاتب : مرجع سابق ذكره، ص٢٠، وابن غنام/ تاريخ نجد ، ص٢٤٤.

الشرك بالله وأخرجه في قالب حب الصالحين وتعظيمهم ، وإن المشركين في زماننا أضل من الكفار الذين في زمان رسول الله ﷺ فلا نخفي عليكم ما ملأ الأرض الشرك الأكبر : عبادة الأصنام».

واعتبر الشيخ محمد بن عبد الوهاب عامة البدو في زمانه كفارًا فقال: «إن كفرهم أعظم من كفر اليهود واستنكر إطلاق صفة المسلمين عليهم لمجرد أنهم يرددون «لا إله إلا الله» مع أنهم حسب قوله لا يعلمون من الإسلام شيئًا...

وغني عن البيان أن تكفير ابن عبد الوهاب لكافة المسلمين بسبب زيارة قبول الأولياء والصالحين والاستغاثة بهم وطلب الشفاعة منهم، وهو ما كان يشترك فيه أهل السنة وأهل الشيعة بصورة عامة، ولكن كان لدى الشيخ ابن عبد الوهاب عوامل أخرى إضافية لتكفير أهل الشيعة والتشيع والذين أطلق عليهم «الرافضة»، وهي تمثل قيامهم بأعمال وأقوال تدخل بصورة غير مباشرة في نواقض الإيمان ، وتلك العوامل أو النقاط هي: القول بالعصمة والنص والوصية في الإمامة وانحصارها في أهل البيت وإنكار شرعية خلافة الخلفاء وسب الصحابة والقول بارتدادهم بعد إيمان وادعاء نقص القرآن.

وقد اعتبر ابن عبد الوهاب «الشيعة - الرافضة» مشركين بناء على حديث رواه بحقهم النبي ﷺ يقول فيه: « يا علي سيكون في أمتي ينتحلون حب أهل البيت لهم نبز يسمون الرافضة قاتلوهم فإنهم مشركون».[1]

وقد رد محمد بن عبد الرحمن بن عفالق على تكفير الشيخ محمد بن عبد الوهاب للأمة كلها فقال في رد: «هذا الرجل كفّر الأمة، بل والله كذّب الرسل وحكم عليهم وعلى أممهم بالشرك وحلف يمينًا فاجرة أن اليهود والمشركين أحسن حالا من هذه الأمة، لقد كفّر هذه الأمة بأسرها وكفّر من لم يقل بضلالها وكفرها».[2]

وقد حكم العديد من الشيوخ كالشيخ عبد الله المويس وابن إسماعيل وابن عبيد علي الشيخ محمد بن عبد الوهاب وأتباعه بالردة والخروج من دين الإسلام بل قاموا بإرسال رسائل تحريض عامة في إنكار الدعوة الوهابية والبراءة من أصحابها.

---

(١) أحمد الكاتب : مرجع سابق ذكره، ص٢٢، ٢٣.

(٢) أحمد الكاتب: مرجع سابق ذكره، ص٣٣.

ويذكر الباحث أحمد الكاتب أنّ تكفير العلماء المسلمين للشيخ (ابن عبد الوهاب) وأتباعه كان رد فعل على تكفيرهم لعامة المسلمين ابتداءً وليس العكس حيث رفض علماء المسلمين التفسير الوهابي لمعنى الشرك والتوحيد الذي يخلط بين الشرك الأصغر الذي لا يُكفّر ولا يخرج من الدين وبين الشرك الأكبر الصريح الذي يجعل مع الله إلها آخر.[1]

٢- تكفير الوهابية للمتكلمين ومنهم الأشاعرة:

علم الكلام من العلوم الشرعية المصطبغة بصبغة شرعية تدور مسائله – كما يذكر أبو الوفا التفتازاني – حول أصول العقائد الإسلامية والدفاع عنها ضد الآراء المخالفة لها.[2]

فعلم الكلام في الإسلام له غاية جليلة تستهدف لمرئيات العقيدة الإسلامية بالبراهين اليقينية التي لا تقبل الشك والأدلة العقلية التي تدافع عن العقيدة والإيمان.

وقد قام المتكلمون في ماضي الأمة الإسلامية بدورهم المشهود في خدمة العقيدة والدفاع عن أركانها وعرض حقيقتها وبذا يكون الهجوم على علم الكلام هو هجوم على خط الدفاع الأكثر أهمية في الدفاع عن الإسلام بالبراهين العقلية والأدلة السمعية ويعتبر هذا الهجوم – في أي وقت – بمثابة غمطًا حقيقيًا للمتكلمين وما قاموا به من أدوار عظيمة في زرع اليقين عند المسلمين ونزع شبهات المشككين.[3]

بيد أنّه لم يكتف محمد بن عبد الوهاب باتهامه المتكلمين بمخالفة الكتاب والسنة بل صرح بتكفيرهم ونسب هذا التكفير إلى السلف الصالح ، وفي ذلك يقول: «وأنا أدعوك إلى التفكر في هذه المسألة وذلك أن السلف قد كثر كلامهم وتصانيفهم في أصول الدين وإبطال كلام المتكلمين وتكفيرهم» وحتى لا يكون كلام ابن عبد الوهاب ملقى على عواهنه فقد ذكر العديد من الأعلام ونسب إليهم تكفير المتكلمين وفي ذلك يقول: «وممن ذكر هذا من متأخري الشافعية: البيهقي والبغوي وإسماعيل

(١) أحمد الكاتب : مرجع سابق ذكره، ص٣٤.

(٢) أبو الوفا التفتازاني: دراسات في الفلسفة الإسلامية، ص٦.

(٣) اليماني الفخراني: مرجع سابق ذكره، ص٤٩.

التيمي ومن بعدهم كالحافظ الذهبي وأما متقدموهم كابن سريج والدارقطني وغيرهما فكلهم على هذا الأمر».[1]

وقد سارت «السلفية الوهابية» على نهج مؤسسها ابن عبد الوهاب فعمت فواحشها الفكريّة – كما يذكر محمَد عمارة – على الأشعرية الذين يمثلون ٩٩٪ من جمهور أهل السنة والجماعة – وذلك عندما تحكم على عقيدتهم بالفساد.. والتبديع والتفسيق «وأحيانًا» بالتكفير أو ما يشبه التكفير!!

(٣) الوهابية .. وتكفير الصوفية:

لم يسلم الصوفية – أيضًا – من تكفيرات محمد بن عبد الوهاب فأخذ في تشويه صورتهم وسيرتهم وحسبك أنه اعتبرهم من «أتباع إبليس» و«أتباع المنجمين والسحرة والكهان» وفي ذلك يقول ابن عبد الوهاب: «ومنها : ما يفعله كثير من أتباع إبليس وأتباع المنجمين والسحرة والكهان ممن ينتسب إلى الفقر ، وكثير ممن ينتسب إلى العالم من هذه الخوارق التي يوهمون بها الناس ويشبهونها بمعجزات الأنبياء وكرامات الأولياء ومرادهم أكل أموال الناس بالباطل والصد عن سبيل الله لدرجة أن بعض أنواعها يعتقد فيه من يدعى العلم أنه من العلم الموروث عن الأنبياء من علم الأسماء وهو من الجبت والطاغوت».

ويؤكد ابن عبد الوهاب على موقفه التكفيري من التصوف والمتصوفة بقوله: «وكذلك أيضًا من أعظم الناس ضلالًا : متصوفة في ميكال وغيره مثل ولد موسى بن جوعان وسلامة بن مانع وغيرهما..» .[2]

فالصوفية – بنظر هذه السلفية الوهابية هم : مشركوا العصور المتأخرة وهم أشد كفرا من كفار قريش.. ذلك أن كفار قريش كانوا إذا ضاقت بهم الحيل وعلموا عجز آلهتهم عن تحقيق مرادهم فزعوا إلى الله تعالى، أما هؤلاء الصوفية – كفار الأزمنة المتأخرة – فشركهم بالله يزداد في المصائب والمحن فيفزعون إلى آلهتهم: إلى القبور

---

(١) محمد عمارة : فتنة التكفير بين الشيعة ... والوهابية، والصوفية، طباعة العدد ١٤٢ ديسمبر ٢٠٠٦، ص٧٢.

(٢) اليماني الفخراني : مرابق ذكره ، ص٦٦.

والأولياء وينادونها بالغوث والمدد والأخذ باليد، فهم أشد كفرًا من أبي جهل وأبي لهب!!

وأتباع هذه الطرق الصوفية : ملاحدة وزنادقة وقبوريون ومنحرفون ، وأمرهم واضح في الضلال والبعد عن الصراط السوي».

«والصوفية : ردة الجاهلية، ونتاج وثني صريح جاء من الهند أو من فارس، وأصحاب هذه الردة الجاهلية إنما يعبدون الأضرحة والأولياء».[1]

وقد ردت الطرق الصوفية على السلفية الوهابية صاعا بصاع، فالطريقة العزمية وهي طريقة صوفية أسسها الشيخ محمد ماضي أبو العزايم (١٣٥٦هـ- ١٩٣٧م) ، هذه الطريقة قد احترفت في الكثير من منابرها قذف السلفيين وخاصة ابن تيمية والشيخ محمد بن عبد الوهاب والوهابية بأبشع الاتهامات بها في ذلك التكفير والإخراج من ملة الإسلام...

فهم يزعمون أن عقائد الوهابية:

(أ) عقائد غنوصيّة هندوسية.

(ب) والوهابية مذهب إرهابي وتيار إلحادي خطير.

(حـ) وهذا الوباء الوهابي لابد من اجتثاث تجربته الخبيثة.

(د) وهذه الطائفة المقلدة لمحمد بن عبد الوهاب مجسمة مكفرة.

(هـ) وهم مبتدعة خراصون.[2]

(٣) ابن عبد الوهاب .. وتكفير المعين:

من أخطر الأمور على المجتمعات الإسلامية وتساهم – بلا شك – في تدمير بنيان تكوينها وتمزق بين الناس من علائق أن يحدث بينهم التكفير بصفة عامة أو تكفير المعين بشكل خاص.

---

(١) محمد عمارة : فتنة التكفير ، ص٧٠ ، ٧١.

(٢) مرجع سابق ذكره ، ص٦٦.

فالأشد على النفس أن تخرج مسلما من دائرة الإسلام إلى دائرة الكفر والمروق من ملة الإسلام فيكون كافرًا أو مرتدًا ، ومن ثمَّ تنقطع العلائق بينه وبين المسلمين ويتم إهدار دمه وعرضه ويصبح مستباح الدم ومهدره.

وقد وقع في دائرة التكفير العامة الشيخ محمّد بن عبد الوهاب، فقد جعل أهل الدرعية لا يميزون بين دين الإسلام ودين عمرو بن لحى ، وجعل كفار قريش أفضل من المسلمين، أي أنه كفّر أهل زمانه وكفّر السواد الأعظم من أهل الحرمين والبصرة والعراق واليمن، بل جعل كل البلاد أهل شرك إلا من دخل في طاعة ابن عبد الوهاب، حتى أن رجلا لو أراد أن يدخل في دينه يقول: أشهد على نفسك أنك كنت كافرًا وأشهد على والديك أنهما ماتا كافرين ، وأشهد على العالم الفلاني والفلاني أنهم كفار وهكذا، فإن شهد بذلك قبله وإلا قتله».[(١)]

كما وقع ابن عبد الوهاب في دائرة «كفر المعين» وساير في ذلك ابن تيمية رغم تحذير الأخير من الوقوع في ذلك، ولكنه لم ينفع في ذلك ، فوقع في تكفير الإمام أبي حامد الغزالي وفخر الدين الرازي (٥٤٣ – ٦٠٦هـ)، وقد سار ابن عبد الوهاب في الوقوع في هذا التحذير وأقر كلام ابن تيمية في تكفيره للغزالي والرازي، كما كفر ابن عبد الوهاب محيى الدين بن عربي (٥٦٠-٦٣٨هـ/ ١١٦٥-١٢٤٠م) عالم التصوف والشيخ الأكبر، ففي معرض تكفيره لابن عربي يقول : «... ابن عربي الذي ذكر العلماء أنه أكفر من فرعون حتى قال ابن المقري الشافعي: «من شك في كفر طائفة ابن عربي فهو كافر».[(٢)]

ويؤكد ابن عبد الوهاب على موقفه التكفيري بقوله : «وقد ذكر أهل العلم أن ابن عربي من أئمة أهل مذهب الاتحادية وهم أغلظ كفرًا من اليهود والنصارى فكل من لم يدخل في دين محمّد ﷺ ويتبرأ من دين الاتحادية فهو كافر بريء منه الإسلام ولا تفتح الصلاة خلفه ولا تقبل شهادته».[(٣)]

---

(١) أحمد الكاتب : مرجع سابق ذكره، ص٣٣.

(٢) اليماني الفخراني: مرجع سابق ، ص٨٣، والرسالة الحادية عشرة ٧/ ٧٢ الدرر السنية ١٠/ ٢٥.

(٣) اليماني الفخراني : مرجع سابق ذكره، ص٨٤.

فقد أمعن ابن عبد الوهاب في تكفير معاصريه من «الحنابلة» كما حدث منه في تكفير سليمان بن سحيم من علماء الحنابلة لأن الأخير كان من المناقشين أو المعترضين على فكره، كذلك كفر ابن عبد اللطيف وابن عفالق وابن مطلق وابن فيروز وأحمد بن عبد الكريم العالم الحنبلي النجدي نظرًا لاحتجاج الأخير - رغم انتمائه للحنابلة - على الشيخ ابن عبد الوهاب بكلام ابن تيمية يضبط فيه «تكفير المعين» بما يضيق نطاقه لدرجة كبيرة، ولكن يبدو أن الشيخ لا يقبل النقاش أو التعارض معه، وأسهل ما لديه إلصاق تهمة الكفر والخروج من الملة.[١]

(١) اليماني الفخراني: مرجع سابق ذكره، ص٨٥، ٨٦.

فذلكة أخيرة:

يبدو أن الحركة الوهابية من خلال استقراء تاريخها والذي بزغ في جزيرة العرب وفي منطقة نجد أنها وعلى المستوى الديني والفكري قد أثرت في عديد من الفكريات الدينية في أوطان مختلفة وأنها تفردت بعديد من الأمور والتي تستحق أن نطرحها في التالي:

الأمر الأول : أنها خير معبر عن جدلية الفكر والواقع المعاش فقد أثرت البيئة البدوية «البسيطة» و«الساذجة» في فكر ابن عبد الوهاب حتى يمكن القول: إن هذه الجدلية أنتجت «فقها بدويًا» يتناسب مع شبيه هذه الحالة في الجزيرة العربية والمتمثل في الفكر المتشدد بخلاف ما تكون الحركة ناتجة في بيئة حضارية وحضرية وتراعى متغيرات الأحداث وظروف النشوء والتكوين، وقد حدث ذلك مع الإمام محمد بن إدريس الشافعي حينما كان في العراق في مرحلة مبكرة فصاغ فقها قديمًا يتناسب مع بيئة العراق المادية ، ثم انتقل إلى مصر في سن متأخرة فصاغ فقهًا جديدًا يتناسب مع بيئة مصر المادية فاختلاف البيئتين ماديا – كما يذكر أمين الخولي (١٨٩٥-١٩٦٦) – كان بلا شك مصحوبا باختلاف البيئتين معنويًا لاختلاف طراز الحياتين في الإقليمين.[1]

الأمر الثاني : أن هناك ثمة اتفاق بين الفقيه والأمير والسلطان والقرآن أدى إلى استمرارية الحركة الوهابية وفرضها الفكر الوهابي على مستوى الجزيرة العربية رغم ما عانته من جراء إرسال حملة عسكرية مصرية بزعامة محمّد علي بعد أن فشلت الدولة العثمانية في إخضاع الحركة الوهابية وإخمادها.

الأمر الثالث: أن محمد بن عبد الوهاب لم يكن صاحب فقه جديد ومنظومة مذهبية متكاملة ونسق معرفي يمكن أن يواجه به مستحدثات الأمور ومجريات الحياة ومتغيرات الأوضاع وإنما هو في الحقيقة مجددًا لفكر ابن تيمية السلفي وقد أكد هذا المفهوم الملك عبد العزيز بن سعود في ١١/ ٥/ ١٩٥٩ قائلًا: «يسموننا بالوهابيين ويسمون مذهبنا «الوهابي» باعتبار أنه مذهب خاص وهذا خطأ فاحش نشأ في الدعايات الكاذبة التي يبثها أهل الأغراض نحن لسنا أصحاب مذهب جديد أو

(١) أمين الخولي : المجددون في الإسلام – الهيئة المصرية العامة للكتاب عام ٢٠٠٨، ص٣٨.

عقيدة جديدة ولم يأت محمّد بن عبد الوهاب بالجديد فعقيدتنا هي عقيدة السلف الصالح التي جاءت في كتاب الله وسنة رسوله وما كان عليه السلف الصالح».[1]

وقال الملك فهد بن عبد العزيز عام ١٩٨٩: «إن الوهابية ليست مذهبًا وإنهم يُنعتون بالوهابية مدحًا تارة وذمًا تارة أخرى في حين أن الشيخ محمد بن عبد الوهاب لم يقم إلا بالدعوة لتطهير العقيدة من البدع والضلالات، وقد سار على هذا النهج - أيضا - وزير الأوقاف والشؤون الإسلامية السعودي الشيخ صالح بن عبد العزيز آل الشيخ بتاريخ ١٨/ ١١/ ٢٠٠١ حيث أكد أنه «ليس هناك مذهب اسمه «الوهابية» وأن الشيخ محمد بن عبد الوهاب الذي ينسب إليه تأسيس هذه الحركة في القرن الثامن عشر لم يأت بجديد بل أحيانا مذهب السلف الذي يحرص على أن يكون الدين خالصًا وخاليًا من الشوائب والبدع».[2]

الأمر الرابع: أثرت البيئة البدوية وما أحاطها من بدع وتقاليد وعادات أن أوسع محمد بن عبد الوهاب من التكفير بشكل مغالي فيه بل غالوا في هدم الأضرحة والعنف في التهديم والتشريك، ومن مغالاتهم في أول الأمر أنهم حرموا شرب القهوة وما يماثلها ثم تراجعوا عن ذلك ولكنهم أصروا على أن الدخان «حرام» وشددوا على حرمانية الدخان حتى اعتبر عامتهم أن ما يفعل ذلك مشركا، وقاموا بهدم الأضرحة بشكل مبالغ فيه رغم أن الأضرحة ليست معابد كما أنهم استنكروا «التصوير الفوتوغرافي» رغم أنه ليس من الوثنية في شيء أو ما يؤدي إلى الوثنية ولكنه التشدد المغالي فيه حتى أنهم توسعوا في البدعة واعتبروا وضع ستائر على الروضة الشريفة أمر بدعي ولذلك منعوا تجديد الستائر التي عليها حتى صارت أسمالا بالية تقذي بها العين.[3]

الأمر الخامس: قد أصاب محمد بن عبد الوهاب ما أصاب «الدعاة» حيث ينظرون إلى أنفسهم بأنهم يمتلكون «الحقيقة المطلقة» ويتميزون عن أقرانهم من الناس فهم يتحدثون عن الدين باعتبارهم أوصياء عليه وأنهم أصحاب مهمة رسولية ونبوية

---

(١) أحمد الحصين: دعوة الإمام - سلفية لا وهابية، ص٣٧٨، وانظر الفكر السياسي الوهابي، ص١١.

(٢) أحمد الكاتب: مرجع سابق ذكره، ص١١/ ١٢.

(٣) تاريخ المذاهب الإسلامية، ص٢٢٠.

فقيل عن ابن عبد الوهاب: «إذا أراد رجل أن يدخل في دينه فيقول له ابن عبد الوهاب: اشهد على نفسك أنك كنت كافرًا وأشهد على والديك أنهما ماتا كافرين، وأشهد على العالم الفلاني والفلاني أنهم كفار وهكذا، فإن شهد بذلك قبله وإلا قتله».

ويقال: أنه كان يأمر المسلمين «الجدد» بحلق رؤوسهم كما كان رسول الله ﷺ يأمر المشركين عند دخولهم في الإسلام ويقول: «ألق عنك شعر الكفر».[1]

---

(١) الفكر السياسي الوهابي، ص٣٣.

المطلب الثاني

السَّلفية .. والسَّلفيون.. وفتنة التكفير

¤ ¤ ¤ ¤

(أ) السَّلفية لغة:

ورد في لسان العرب لابن منظور (٦٣٠-٧١١هـ / ١٢٣٢ - ١٣١١م) أن السَّالف: المتقدم والسَّلفُ والسَّليف والسُّلفَة: الجماعة المتقدمون قوله عز وجل ﴿فَجَعَلْنَاهُمْ سَلَفًا وَمَثَلًا لِلْآخِرِينَ﴾. ويقرأ سُلُفًا وسُلفاً قال الزجاج: سُلُفًا جمع سَليف أي جمعًا قد مضى، ومن قرأ سُلفًا فهو جمع سُلَفِة أي عصبة قد مضت والتسليفُ: التقديم، وقال الفراء: يقول: جعلناها سلفا متقدمين ليتعظ بهم الآخرون، وقرأ يحيى بن وثّاب سُلُفًا مضمومة مثقلة..

ولاقتْ مناياها القُرون السَّوالفُ كذلك تلْقاها القرونُ الخوالفُ

يقول الجوهري: سَلَفَ يسْلُفُ سَلَفًا مثال طلب يطلب طلبًا أي مضى والقومُ السُّلافُ: المتقدمون وسَلَف الرجل: آباؤه المتقدمون والجمع أسْلاف وسُلَّاف[1]

وفي القاموس المحيط: سَلَف الأرض: حولها للزرع أو سواها بالمِسْلفَة لشيء يُسوي الأرضُ فأسْلَفها والشيء سَلَفًا محرَّكة معنى وفلان سلفًا وسُلوفًا تقدم والمزادة: سلْفًا: دهنها والقرضُ الذي لا منفعة فيه للمقرض وعلى المقرض رده كما أخذهُ وكل عمل صالح قدمته أو فرطٍ فرط لك فكل ما تقدمك من آبائك وقرابتك جمع سُلاف وأسلافٌ.[2]

والسلف أيضًا: من تقدمك من آبائك وذوي قرابتك الذين هم فوقك في السن والفضل وأحدهم سالف ومنه قول طفيل الغنوي يرثي قومه:

مضوا سلفًا قصد السبيل عليهم وصرف المنايا بالرجال تقلب

---

(١) لسان العرب لابن منظور: المجلد الرابع، دار الحديث، ٢٠٠٣، ص٦٤٩.

(٢) القاموس المحيط للفيروزآبادي، دار الحديث، القاهرة، طبعة ٢٠٠٨م، ص٧٩٣.

أراد أنهم تقدمونا وقصد السبيل عليهم أي نموت كما ماتوا فنكون سلفًا لمن بعدنا كما كانوا سلفًا لنا.[1]

(ب) السلف في القرآن الكريم والحديث النبوي:

١ – ورد لفظ سلف بمعنى تقدم أو مضى في القرآن الكريم في عدة مواضع هي:

(أ) قال تعالى : ﴿ فَمَنْ جَاءَهُ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّهِ فَانْتَهَى فَلَهُ مَا سَلَفَ ﴾ (البقرة:٢٧٥).

(ب) قال تعالى : ﴿ وَلَا تَنْكِحُوا مَا نَكَحَ آبَاؤُكُمْ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ﴾ (النساء :٢٢)

(جـ) قال تعالى : ﴿ وَأَنْ تَجْمَعُوا بَيْنَ الْأُخْتَيْنِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ ﴾ (النساء :٢٣)

(هـ) قال الله تعالى: ﴿ قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَنْتَهُوا يُغْفَرْ لَهُمْ مَا قَدْ سَلَفَ ﴾ (الأنفال: ٣٨).

(و) قال تعالى: ﴿ هُنَالِكَ تَبْلُو كُلُّ نَفْسٍ مَا أَسْلَفَتْ ﴾(يونس:٣٠).

(ر) قال تعالى : ﴿ كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الْأَيَّامِ الْخَالِيَةِ ﴾ (الحاقة : ٢٤).

(ح) قال تعالى: ﴿ فَجَعَلْنَاهُمْ سَلَفًا وَمَثَلًا لِلْآخِرِينَ ﴾(الزخرف : ٥٦)[2]

ونفس معنى السلف والذي يقصد منه في القرآن الكريم (الماضي) فكذلك في الحديث الشريف:

(١) ففي سند الإمام أحمد بن حنبل عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه لما ماتت زينب ابنة رسول الله ﷺ قال رسول الله : الحقي بسلفنا الصالح الخير عثمان بن مظعون.

(٢) وفي حديث عن فاطمة الزهراء رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ قال لها في مرض موته: «... **ولا أراه إلا قد حضر أجلي أنك أول أهل بيتي لحوقًا بي ونعم**

(١) علاء بكر: ملامح رئيسية للمنهج السَّلفي ، الطبعة الأولى١٤٣٢هـ/ ٢٠١١م، ص١٤.

(٢) علاء بكر : مرجع سابق ذكره ص١٥ ، ١٦،

السلف أنالك».

(٣) كما نجد (السلف) مستخدما في حديث النبي بمعنى الشائع في دوائر المال والتجارة أي إقراض الأموال، فالسائب بن أبي السائب يروي (أنه كان يشارك رسول الله ﷺ قبل الإسلام في التجارة فلما كان يوم الفتح جاءه فقال النبي مرحبًا بأخي وشريكي كان لا يداري ولا يماري يا سائب قد كنت تعمل أعمالا في الجاهلية لا تقبل منك وهي اليوم تقبل منك وكان ذا سلف وصلة» أي كان يقرض المال ويصل الأرحام.[١]

السَّلفية تاريخًا: يرى عديد من الباحثين الإسلاميين أن السلفية المعاصرة تعود تاريخيا إلى أحمد بن حنبل والذي تعرض لمحنة خلق القرآن في أيام المأمون والمعتصم والواثق والتي ترجع إلى جهم بن صفوان (ت ١٢٨هـ / ٧٤٥) ، وقد تلقاها الجعد ابن درهم ولم يأخذ ابن حنبل بالرخصة وتمسك بمنهج أهل السنة - كما يذكر الداعية السلفي علاء بكر - في الاستدلالات بالكتاب والسنة وأقوال الصحابة مما كان له أثره في حفظ منهج أهل السنة في مواجهة خصومه من «المعتزلة»، فالتفتت حوله الأمة - كما يذكر بكر - من جديد لتحافظ على عقيدتها ومنهجها القديم، ولذلك سمي إمام أهل السنة والجماعة[٢] فقد وقفت هذه المدرسة وإمامها ابن حنبل على الرواية أكثر من وقوفهم على الدراية، وقد برز أئمة في هذا الصدد اشتغلوا بصناعة الرواية وعلومها من أمثال: ابن راهويه (٢٣٨هـ/ ٨٥٢م) وإمام علم الجرح والتعديل وأصحاب الصحاح والجوامع والمسانيد : البخاري (٢٥٦هـ/ ٨٧٠م) والطبراني (٣٦٠هـ/ ٩٧١م) والبيهقي (٤٥٨/ ١٠٦٦م)[٣] ثم آلت المرجعية الفقهية للسلفية - أو أهل السنة والجماعة لأحمد بن تيمية والذي ظهر في مرحلة تاريخية عصيبة ليقف في وجه النزعات على اختلاف نحلها مدافعا عن مذاهب أهل السنة بكل قواه - كما يذكر مصطفى حلمي - مناديًا بالرجوع إلى السلف من الأمة، وقد وضع ابن تيمية

---

(١) محمد عمارة : تيارات الفكر الإسلامي، ص١٢٦.

(٢) علاء بكر : مرجع سابق ذكره ، ص٣٢.

(٣) محمد إسحاق عبد الرسول: السلفيون وصناعة الجهل ، ص١٠.

العقل في خدمة الشرع. للتوضيح والتفسير والفهم فقد خشى (شيخ الإسلام) أن يتجاهل المسلمون تراثهم ويبتعدوا عن الكتاب والسنة ويندفعوا في اتجاهات شتى يصبحون فيها أعوانا لأعداء الإسلام فلم يحيد عن التمسك بمنهج السلف وهو لا يدعو الوقوف عند النصوص فقد سيطرت النصوص على فكر ابن تيمية سيطرة تامة: إنه يدور في دائرتها ويصطبغ به مذهبه وفقهه وآراؤه كلها[1] ثم من بعده ابن القيم الجوزية ، ومما لا شك فيه أن هذه المدرسة السلفية قد تطورت على يد ابن تيمية وكذا ابن القيم الجوزية ، فقد جمعت إلى جانب المأثور بعضًا من أدوات النظر العقلي وإن ظلت الغلبة والأولوية عندها للنصوص والمأثورات.

ويرى أحمد كريمة أن السلفية المدعاة قد مرت بمرحلتين:

أولهما: عهد الإمام أحمد بن حنبل – رضي الله عنه – والإمام ابن تيمية – رحمه الله تعالى – وقد نبه على هذا الانتساب أكابر أئمة العلم قبل الفقيه الحنبلي الخطيب الجوزي – رحمه الله تعالى – في نقده السلفية ما بعده.

ثانيهما: ما بعد هذه الفترة خاصة ظهور فرقة «الوهابية» التي أسسها محمد بن عبد الوهاب النجدي، وقد نبه على هذا أئمة العلم مثل: السيد محمد زكي إبراهيم والشيخ حسن بن فرحان المالكي والدكتور عمر عبد الله كامل والأخيران من مفكري موطن النشأة بالمملكة العربية السعودية والسيد محمد الكثيري وغيرهم.[2]

(جـ) معنى السلف اصطلاحًا وإشكالياته الجدلية :

على الرغم من أن المعنى المتبادر من كلمة «سلف» بمفهومها اللغوي يندرج تحت المعنى «النسبي» حيث أن كل زمن من الأزمان سالف بالنسبة إلى الأزمة الآتية في أعقابه وخَلَفٌ بالنسبة إلى الأزمنة التي سبقته ومرت من قبله غير أن هذه الكلمة قد اكتسبت معنى اصطلاحيًا ثابتًا – عند العديد من الباحثين والمفكرين الإسلاميين – حيث يقصد من الاصطلاح الدلالة على أفضل العصور الإسلامية وأولاها بالاقتداء والاتباع.

---

(١) مصطفى حلمي: نظام الخلافة بين أهل السنة والشيعة، دار الدعوة، الأسكندرية، الطبعة الأولى، ١٤٠٨هـ/ ١٩٨٨م، ص ٢٣٠.

(٢) أحمد محمود كريمة : تهافت السلفية ، مكتبة جزيرة الورد ١٤٣٦هـ / ٢٠١٥م، ص ١٠، ١١.

والمعنى الاصطلاحي المستقر لهذه الكلمة هو القرون الثلاثة الأولى من عمر هذه الأمة الإسلامية أمة سيدنا محمد عليه الصلاة والسلام وإنما مصدره قول رسول الله ﷺ فيما رواه الشيخان من رواية عبد الله بن مسعود «**خير الناس قرني ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم ثم يجيء أقوامٌ تسبِق شهادةُ أحدهم يمينه ويمينه شهادته**».

وقد أثار محمد سعيد رمضان البوطي (١٩٢٩-٢٠١٣) إشكالية خاصة بخيرية القرون الثلاثة التي شهد لها الرسول ﷺ وأبان أن الخلاف في الخيرية على أمرين:

(أ) رأى الجمهور: والذين يرون أن الخيرية ثابتة لأفراد هذه القرون الثلاثة جميعًا على اختلاف درجاتهم وتفاوتهم في الصلاح والاستقامة.

(ب) رأى ابن عبد البر (٣٦٨-٤٦٣هـ/ ٩٧٨-١٠٧١م): وقد ذهب ابن عبد البر إلى أن الخيرية ثابتة لمجموع المسلمين في تلك العصور الثلاثة ، أما الأفراد فقد لا تنطبق الخيرية على بعض منهم بل قد يأتي فيمن بعدهم من هو أفضل منهم.[(١)]

وقد رأى البوطي أن اتباع السلف ليس مرادًا ولا مطلوبًا لمجرد أنهم كانوا سلف هذه الأمة في الترتيب الزمني بل لكونهم أحرى الناس بفهم كلام الله ومعرفة سنة رسول الله ﷺ فإن سليقتهم العربية كانت لا تزال نقية عن شوائب اللكنة في النطق والعجمة في الفهم، فكانوا لذلك أولى الناس بفهم معاني ومرامي كلام الله العربي المبين وكانوا أقرب إلى حياة رسول الله ﷺ والاختلاط به، فكانوا أولى الناس بالتبليغ والفهم منه.

ويستطرد البوطي لتوضيح فكرته فذكر : إن اتباع السلف بالانحباس في حرفية الكلمات التي نطقوا بها أو المواقف الجزئية التي اتخذوها لأنهم هم أنفسهم لم يفعلوا ذلك وإنما يكون بالرجوع على ما احتكموا إليه من قواعد تفسير النصوص وتأويلها وأصول الاجتهاد والنظر في المبادئ والأحكام.[(٢)]

وقد حاول البعض إعطاء تعريفًا لاصطلاح السلف رغم ما شابه من غموض وما اكتنفه من التباس فقد ذكر محمَّد عمارة أن مصطلح السلف يعني الرجوع في

---

(١) محمد سعيد رمضان البوطي: السلفية مرحلة زمنية مباركة لا مذهب إسلامي، دار الفكر ، دمشق، الطبعة التاسعة، ١٤٢٨هـ/ ٢٠٠٧م ، ص١٠.

(٢) محمد سعيد رمضان البوطي: مرجع سابق ذكره، ص١٢.

الأحكام الشرعية إلى منابع الإسلام الأولى ، أي: الكتاب والسنة مع إهدار ما سواهما، ومع وضوح هذا التعريف للسلفية – من وجهة نظره – إلا أنه قد تعددت فصائل تياراتها في التراث الفكري الإسلامي فكل السلفيين يعودون في فهم الدين إلى الكتاب والسنة لكل منهم فصيلًا يقف في الفهم عند ظواهر النصوص ومنهم من يُعْمِلُ العقل في الفهم ، ومن الذين يعملون العقل: مسرف في التأويل أو متوسط أو مقتصد.

ويعرف محمود أمين العالم (١٩٢٢-٢٠٠٩) السلفية بأنها نزعة دينية تتخذ من العودة للتراث بمفهومه الديني الضيق معيارًا أساسيًا لتقييم الحاضر والتطلع إلى المستقبل.[١]

وغني عن البيان في هذا الصدد أن هذا الاتجاه يتضمن تيارات شتى – كما يذكر محمود إسماعيل – فليس ثمة سلفية واحدة بل توجد أكثر من سلفية داخل كل تيار من تياراتها إن لم يكن في فكر المفكر السلفي الواحد، وهذا راجع – كما يذكر إسماعيل – إلى عقم فكر أصحاب هذا الاتجاه وعدم وضوح رؤية أصحابه نتيجة الاقتصار على جانب واحد من جوانب التراث ناهيك عن إغفال المعارف الأخرى نتيجة مصادرات لاهوتية بل حتى بالنسبة للتراث في مفهومه العقيدي فثمة فقر مُدقع نظرًا للاقتصار على الجانب السني وحسب باعتبار المذاهب الدينية الأخرى هرطقات في نظرهم فإذا أضيف إلى ذلك انعدام الأطر النظرية والقواعد المنهجية أدركنا هذه الحقيقة بالنسبة للسلفيين التقليديين سواء أكانوا أكاديميين أو من «مدرسي الدين» في المؤسسات التعليمية.[٢]

بيد أن هناك بعض الباحثين الذين لم يوقفوا اصطلاح السلفية واقتصارها على الجانب الديني وحسب باعتبار أن هناك «سلفية دينية» ولا غير بل تم توسيع شقة الاصطلاح على الجوانب الفكرية والسياسية الأخرى ما دامت تنظر إلى أنموذج سلفي ماضوي قديم وفي هذا الصدد يذكر محمّد سعد أبو عامود بأن السلفية ليست قاصرة على السلفية الدينية التي تدعو إلى الرجوع إلى الإسلام الأصولي في صورته

(١) محمود أمين العالم: الوعي والوعي الزائف ، دار الثقافة الجديدة ١٩٨٧، ص٢.

(٢) محمود إسماعيل: الإسلام السياسي بين الأصوليين والعلمانيين، مؤسسة الشراع العربي، الكويت، الطبعة الأولى، ١٩٩٣، ص٢٣.

الأولى، بل إننا نجدها أيضًا لدى المفكرين الذين يدعون إلى تبني الغرب وقيمه وأسلوبه من أجل تحقيق النهضة، وكذلك الماركسيين العرب فهم يقومون بتكرار منهج مطبق ويحاولون تطبيق نموذج سبق تطبيقه في مجتمعات أخرى في مرحلة تاريخية معينة وفي ظل ظروف مختلفة تمام الاختلاف عن ظروف المجتمع العربي.

(١) سلفية معاصرة أم سلفيات متعددة:

يرى الباحث ممدوح الشيخ أن ظاهرة السلفية المعاصرة تحتوي عدة سلفيات وهي:

(١) السلفية العلمية.

(٢) السلفية الحركية (*)

(٣) السلفية الجهادية.

وذكر الشيخ أنه على الرغم من أنّ هذا التقسيم من الشيوع الكبير فإنه ثمة عديد من الباحثين ما يتحفظ عليه نظرًا لأن هذا التقسيم ليست نتيجة دراسة واسعة ومعمقة للواقع السلفي بل هو - كما يذكر الشيخ - قد يكون رؤية شخصية لواقع

(*) السلفية الحركية هي في حقيقتها التيار السروري والذي تم تدشينه على يد محمد بن سرور وهو رجل دين سوري ولد في «حوران» عام ١٩٣٨ ، وكان ضابطًا في الجيش السوري ثم عضوا في جماعة الإخوان المسلمين في سوريا عام ١٩٥٣، وعندما حدث الانشقاق في جماعة الإخوان في سوريا عام ١٩٦٩ بين «جماعة حلب» والتي تمسكت بأفكار حسن البنا (١٩٠٦-١٩٤٩) و«جماعة دمشق» والتي استلهمت فكر سيد قطب (١٩٠٦-١٩٦٦) التكفيري الصدامي وقد مال محمد بن سرور بطبيعة الحال إلى جناح عصام رضا العطار (المراقب العام للإخوان السابق) متأثرًا بأفكار قطب، وبسبب الملاحقات الأمنية والتي تعرض الإخوان بشكل عام خلال حقبة الستينيات من القرن الماضي انتقل محمد بن سرور إلى السعودية عام ١٩٦٥ حيث أقام في مدينة «حائل» عامًا واحدًا ومنها إلى «بريدة» حيث عمل مدرسًا بالمعهد العلمي في ذات المدينة ومن السعودية انتقل إلى الكويت، والذي أقام فيها خلال الفترة ١٩٧٣- ١٩٩٠ حيث عمل في المجال الصحفي هناك وتحديدًا في مجلة المجتمع، ومن دولة الكويت إلى برمنجهام في بريطانيا (المملكة المتحدة) حيث أسس مركز الدراسات السنة الشريفة ومنه أصدر مجلة «السُّنة» ، وفي عام ٢٠٠٤ انتقل إلى المملكة الأردنية الهاشمية واستقر بها، ومن ناحية المنهج فرغم أن محمد بن سرور من كوادر الإخوان إلى أنه تأثر بالمنهج السلفي، وقد انتشر هذا المنهج في المملكة العربية السعودية، وقد أصبحت السرورية من التيارات التي ثار حولها خلاف كبير حول تصنيف البعض لها بأنها تيار سلفي يهتم بالدعوة والفكر وآخرون يصنفونها على أنها تنظيم حركي سياسي لديه قيادات ومؤسسات موجودة في السعودية والعديد من الأقطار العربية، لزيادة التفاصيل انظر: السراب لجمال سند السويدي ، ص٤٢٥، وما بعدها.

الدعوة السلفية في الأردن في لحظة ما حيث أن الباحث الأردني محمد أبو رمان هو صاحب الملكية الفكرية في صك هذا التقسيم.

كما أن الشيخ يعترض على صك مصطلح «السلفية الجهادية» لأنه من وجهة نظره يحتوي على تناقض كبير كونها حركة هدمت بعض أهم أسس الرؤية السلفية وأرادت الجمع بين «السلفية» ومفاهيم أخرى كانت دائما مرفوضة تمام الرفض في الرؤية السلفية التقليدية وعليه – فإن السلفية الجهادية هي في الحقيقة خارج خارطة السلفية.[1]

بينما يؤطر ماهر فرغلي الحركة السَّلفية إلى أطر أساسية وهي:

(١) **السلفية الجهادية** : وهي سَّلفية تقوم على التغيير بالقوة سواء في مواجهة الأنظمة الحاكمة أو في مواجهة القوى الغربية المهيمنة أو في مواجهة الاحتلال العسكري ، وبالطبع فكل القيادات الإسلامية تتفق على مواجهة الاحتلال بالقوة (لاحظ ما أبداه ممدوح الشيخ من تحفظات على السلفية الجهادية ورفض إدراجها ضمن الحركة السَّلفية في العموم).

(٢) **السلفية التقليدية** : وهي تمثل الفكر السَّلفي ونشره بين الناس وتهتم ببناء الفرد والمجتمع والأمة وتعمل من خلال الدعوة والتربية وتؤجل كل ما له شأن بالسياسة ومواجهة العدو الخارجي وتعمل جاهدة على تحصين المجتمعات الإسلامية ضد الغزو الثقافي الغربي وتميل إلى الحيطة والحذر، كما أنها تعمل من خلال هدنة بينها وبين الأنظمة الحاكمة وتنادى بطاعة ولي الأمر ولكنها تدعو إلى دولة إسلامية تختلف عن الدول القائمة (الوطنية) وتدين ضمنا الأنظمة الحاكمة ولكنها ترفض الخروج على الحاكم.[2]

(٣) **السَّلفية الاصلاحية**: وهي تمثل – كما يرى فرغلي – التوجهات التي قررت خوض غمار العمل السياسي وقبلت بالديمقراطية كآلية لتحقيق الشورى وتحقيق ولاية الأمة على الحاكم وحقها في اختياره ومحاسبته وهذا الاتجاه يطور من أفكاره بالقدر الذي يحتاجه تفاعله العملي المباشر مع الشأن العام ويحاول طرح صيغ عملية للتعامل مع الشأن السياسي والشأن الاجتماعي العام، ونستطيع أن نقول أنه ومن

(١) ممدوح الشيخ : السلفيون من الظل إلى قلب المشهد، أخبار اليوم ، ص٦.

(٢) ماهر فرغلي: سراديب السلفيين ، محاولة لفهم الحالة السلفية، كنور للنشر والتوزيع عام ٢٠١٤، الطبعة الأولى، ص١٦ ، ١٧.

خلال هذه التقسيمات الخاصة بالحركة السلفية وظاهرة «التسليف» والتي اجتهد الباحثون في تحديدها يحكمها عدة أطر يمكن سردها على النحو التالي:

الإطار الأول : إن هذه التقسيمات ليست إطارًا جامدًا يفصل فصلًا تامًا بين أقسام الحركة السلفية وإنما يحدث تداخل بين فرقة وأخرى وتقسيم وآخر لأننا نتكلم عن ظاهرة إنسانية تحرص على الاجتهاد والاقتداء بسلف الأمة.

الإطار الثاني: إن هذه الأطر تعمل في تضامن كل في حالة تعرض الحالة السلفية أو إحداها أو فرقة من فرق تيار الإسلام السياسي لأزمة حادة مع النظام أو ظهور «مظلومية جديدة» ومن ثمَّ ستفنى الفواصل وتنتهي الفواصل من أجل مواجهة ما حدث لهذه الفرقة!!

الإطار الثالث: أن هذه التقسيمات الخاصة بالحركة السلفية ليست بناء على دراسات معمقة واستبيانات فاصلة ومواقف بحثية «بحتة» إنما هي أقرب إلى الاجتهاد الشخصي والرؤى الخاصة بأصحابها والتي تحتاج إلى تعمق أكثر من الاجتهاد.

(٢) السلفية والسلفيون بعد ثورة ٢٥ يناير (المواقف المتناقضة):

كانت السلفية في بُعد عن السياسة وشؤون الحكم طوال تاريخها وبناء على ذلك – كما يذكر فرغلي – لم يقدر بعض السَّلفيين طبيعة المرحلة (مرحلة ثورة ٢٥ يناير ٢٠١١) ولم يفهموا حجم القوى المؤثرة فيها ولكنهم فجأة انقلبوا على مواقفهم وذهبوا ناحية السياسة وخرجوا من الشرنقة والبعد عن السياسة إلى المشاركة في فعاليات «الثورة» وخطوات التغيير.[١]

فقد كانت الحاضنة الرئيسية للفكر السلفي مدار تاريخنا الإسلامي – كما يذكر أحمد بان – هي المجتمعات البدوية والتي وسمت الفكر الإسلامي بلونها الخاص فهم أهل «السنة» و«الجماعة» و«أنصار السنة» و«أهل الحديث» و«أهل الأثر» و«الفرقة الناجية» و«السلفيون» كل هذه التسميات لشيء واحد هي فرقة تعتقد أنها هي التي احتكرت الصواب في فهم الدين والأقرب إلى حقيقته الأولى أما غيرها مثل الخوارج والمعتزلة والجهمية والقدريّة والصوفية والشيعة وغيرها من فرق الضلالة.[٢]

---

(١) سراديب السلفيين ص٧٥.

(٢) أحمد بان : محنة الفكر السياسي السلفي ، في كتاب «واقع ومستقبل الحركات السلفية في مصر ، مركز =

ولذا لم يكن للسلفيين المعاصرين رؤية سياسية واضحة أو دقيقة تجاه النظام الحاكم ولا يهتمون بطرح مشروع سياسي متكامل، فقد حاول مشايخهم مثل أبي إسحاق الحويني ومحمد إسماعيل المقدم وسعيد عبد العظيم طمأنة المجتمع وطرح مشروع سياسي ولكنهم لم يفعلوا سوى تقديم تعميمات تؤكد فقط عودتهم السياسية من تصور «واضح» للتعاطي مع المتغيرات الجديدة، الأمر الذي أوقعهم في أخطاء فادحة – كما يذكر فرغلي – بعد حصولهم مع بقية التيارات على حريّة واسعة جعلت من كل سلفي مشروعًا لحزب سياسي أو لجهادي يمكن أن ينفجر في أي لحظة.[1]

ونستطيع أن نحدد مواقف ملتبسة للسلفيين من ثورة ٢٥ يناير ٢٠١١، بل «مواقف متناقضة» أيضًا أهمها من الداعية محمّد حسان والذي عارضها، ولما نجحت – في إقصاء مبارك ونظامه – عاد وأيدها كأنه لم يعارضها من قبل، ومثله مثل الشيخ «أبو إسحاق الحويني» الذي ظل في صمت حتى لا يكشف ما بداخله ثم كانت المواقف المتتابعة للدعوة السلفية بالإسكندرية – والتي تمثل أكبر تكتل سلفي في مصر – والتي جاء رفضها عبر فتوى لياسر برهامي أحد أهم رموزها ومنظر هذه المدرسة حول المشاركة في ثورة ٢٥ يناير، والموجودة على اليوتيوب حيث قال: «نرى عدم المشاركة في تظاهرات الخامس والعشرين من يناير...! وكان من أبرز المعارضين للثورة الشيخ السلفي محمود المصري الذي خاطب جموع الثوار في ميدان التحرير محاولًا حثهم على العودة إلى ديارهم وترك الاعتصام بالميدان، ولكنه طرد من الساحة جزاء ذلك، وكذلك الشيخ مصطفى العدوي الذي تحدث بدوره في مداخلة للتليفزيون المصري رافضًا ما يحدث، مشددًا على حرمة الدماء والتقاتل بين المسلمين، وكذلك محمد حسين يعقوب الذي رفض «الثورة» ووصفها بالفتن المتلاطمة.

وقد صدر البيان الثاني عن السلفيين يوم ٢٩ يناير يقول: «لا يخفى على أحد ما حدث بعد مظاهرات الأمس من تخريب للممتلكات العامة والخاصة وعمليات سلب ونهب تُعرّض المجتمع كُله لأعظم المخاطر وأي مكاسب تحصل للأمة من تدمير

=

النيل للدراسات الاقتصادية الاستراتيجية، ٢٠١٢، ص١٠٤.

(١) سراديب السلفيين، ص٧٦.

وحرق المباني العامة والوثائق والمستندات .. إلخ».

ثم جاء بيان في الأول من شهر فبراير في موقع «صوت السلف» ليعبر عن الرؤية السلفية الرافضة للثورة بقوله: «... إن تغيير الوضع السابق على الأحداث ضرورة حتمية فلا يمكن الاستمرار في دفع البلاد إلى مزيد من الفوضى».

والجدير بالبيان في هذا الشأن أنه كان موقف جماعة «أنصار السنة المحمدية» والجمعية الشرعية وكذلك التيار المدخلي هو تحريم المظاهرات والمسيرات والخروج على الحاكم على لسان الشيخ أسامة القوصي الذي دعا إلى الوقوف بقوة أمام المتظاهرين والسمع والطاعة للسلطة الحاكمة وذلك في خطبته يوم الجمعة بمسجده بمنطقة عين شمس.[1]

بيد أن وضع السلفيين لم يبق على حاله بعد تغير النظام وإزاحته فقد طالبت الدعوة السلفية – بالإسكندرية – بالحفاظ على هوية مصر الإسلامية ، واستمر عدد من القادة والشيوخ السلفية مثل محمد إسماعيل المقدم وعبد المنعم الشحات وسعيد عبد العظيم وطالبوا في المؤتمر الذي عقد بالقاهرة يوم الاثنين ١٤ فبراير بتفعيل حدود الشريعة أي أنهم يريدون استثمار الوضع القائم مع المجلس العسكري لتنفيذ مطالبهم بعد أن عارضوا قيام الثورة والتي كانت بمثابة الفتنة المتلاحمة.

وأظهرت الأحداث أنّ مشكلة مشكلات السلفيين أنهم أبعدوا عن السياسة فترات طويلة وعادوا إليها – بعد ٢٥ يناير – وأبان أحداثها وتطورات أفعالها وبذا دخلت مصر الزمن السلفي – كما يذكر فرغلي – وصار السلفيون الديناميكية الفاعلة التي تمددت في فضاء ميدان التحرير، وكان نهاية هذا التمدد أحزاب سلفية على هذا النحو:

(١) **حزب النور السلفي :** هو أول الأحزاب السلفية بحسب تاريخ الظهور القانوني وهو أول حزب سياسي في تاريخ الجماعات السلفية في مصر، وقد أعلن عنه في ١٢ يونيو / حزيران وأصبح من المحاولات الحزبية الإسلامية «الناجحة» بعد أن أعلن يوم ١٣-٦-٢٠١١م البدء في ممارسة حقه في النشاط السياسي بعد حصوله على الموافقة من لجنة الأحزاب على تأسيس الحزب وقد أكد عماد عبد الغفور وكيل المؤسسين –

---

(١) ماهر فرغلي : مرجع سابق ذكره، ص٧٧/ ٧٨.

بعد موافقة لجنة الأحزاب عليه – أن الحزب سوف يلتزم بـ «المرجعية العليا للشريعة الإسلامية» وتأمين الحرية الدينية للأقباط وإثبات حقهم في الاحتكام إلى شريعتهم ودعا – عبد الغفور – إلى إقامة دولة عصرية على الأسس الحديثة ، وأعلن رفضه نموذج الدولة الدينية.[1]

ويقع برنامج الحزب في ٤٣ صفحة ويضم ٧ فصول وهي : الهوية والبرنامج السياسي والبرنامج الاقتصادي والمجال الاجتماعي والسياسة الخارجية والمجال الأمني والتعليم والبحث العلمي.

وقد نشبت داخل حزب النور «السلفي» أزمة طاحنة وصراع مرير حين قرر بعض أعضاء الحزب فصل النور عن «الدعوة السلفية» وخرج منها ما يعرف «جبهة إصلاح حزب النور» وذلك عقب تأسيس الحزب مباشرة في عام ٢٠١٢ مما دفع عماد عبد الغفور رئيس الحزب وقتئذ إلى الإعلان عن انتخابات داخلية مبكرة بالرغم من وجود قرار سابق بتأجيل إجرائها إلى أنّ وصلت الأزمة ذروتها المتفاقمة والصراع إلى قمته حين ظهرت داخل الحزب «هيئتان عليتان» يترأس إحداها أشرف ثابت والأخرى يترأسها عماد عبد الغفور حيث قررت الهيئة العليا للحزب إعفاء عبد الغفور من منصبه، فيما قررت الهيئة الأخرى بدورها فصل عدد من القيادات الحزبية وهم أشرف ثابت ويونس مخيون وجلال مرة واستبعاد نادر بكار من منصب المتحدث الرسمي بالإضافة إلى إلغاء الانتخابات الداخلية.

وقد حاول مجلس أمناء الدعوة السلفية الاتفاق على عقد مصالحة بين طرفي النزاع إلا أن الخلافات تجددت والصراع تفاقم واستقال عماد عبد الغفور من رئاسة الحزب ليعلن – من جديد – عن إنشاء حزب الوطن فيما تولى يونس مخيون رئاسة الحزب بالتزكية.[2]

وحقيقة الأمر أن عبد الغفور قد أراد أن يحفظ على حزب النور «استقلاليته» عن الدعوة السلفية، فسرعان ما دفع شيوخ الدعوة الكبار بزعامة «ياسر برهامي» وأخرجوه وأنصاره ليؤسس حزب «الوطن» مع مجموعة أخرى من المنشقين، حيث

---

(١) ماهر فرغلي : مرجع سابق ذكره، ص٧٩.

(٢) جريدة الوطن: العدد ٢٥٦ – الإصدار الثاني – الأربعاء ١٩ أغسطس ٢٠١٥ الصفحة الثامنة.

كانت رسالة الشيوخ واضحة بأنه لا يوجد ثمة انفصال بين الدعوة السلفية والحزب وأن «النور» هو ابن الدعوة ولا مناص في ذلك ولن يخرج عن طوع شيوخها.[1]

(٢) **حزب الوطن :** أسس الحزب عماد عبد الغفور الرئيس السابق لحزب النور – كما ذكرنا من قبل – وقد تولى عبد الغفور مستشار الرئيس الأسبق المعزول (محمد مرسي) حيث أعلن عبد الغفور – في وقت سابق – عن انسحابه من حزب النور عقب المشادات والصراعات التي حدثت بين أعضاء الهيئة العليا للحزب وحدوث انشقاق وانقسام بين الأعضاء على اختيار رئيس الحزب وأعلن عن تأسيس «حزب الوطن».

ويعد هذا الحزب حزبًا ذا مرجعية إسلامية سلفية وكانت مواقفه مؤيدة وداعمة للإخوان (الإرهابية) وخاصة بعد إسقاط مرسي وعزله بعد ثورة ٣٠ يونيو ٢٠١٣م حيث أعلن «الوطن» عن رفضه لما سماه «الانقلاب العسكري» ، كما أعلن مقاطعته استفتاء الدستور الذي أعدته لجنة الخمسين برئاسة عمرو موسى.

وفي المجمل الحزب فيما عدا من ذكرناه من مواقف مؤيدة ومنحازة لجماعة الإخوان وهم على سُدة الحكم لم يكن له نشاط يذكر في أوساط العمل السياسيّ

(٣) **حزب الفضيلة :** يعتبر حزب الفضيلة من حيث الترتيب الزمني للإعلان عن نشوء «الأحزاب السلفية» هو الثاني بعد حزب النور حيث نجح المؤسسون في جمع أكثر من ٥٠٠٠ توقيع لإشهار الحزب والذي يقصد من نشوئه نشر قيم العدالة والمساواة وإعادة الصدارة لمصر في مختلف الميادين بما يتفق مع مبادئ الشريعة الإسلامية وكما ورد في بيانه التأسيسي ، وقد تشكل المجلس الرئاسي للحزب من كل من : الدكتور محمد جلال والمهندس محمود فتحي والدكتور مؤمن وهبان.

والجدير بالبيان في هذا الصدد أنه كانت هناك ثمة محاولات للوحدة بين حزب الفضيلة – قبل إشهاره رسميا – وبين حزب السلامة والتنمية بزعامة القيادي الجهادي كمال السعيد حبيب ، وقد أكد الأخير ذلك غير أن نفي محمود فتحي وكيل المؤسسين بحزب الفضيلة وجود أي تحالف مع حزب السلامة والتنمية.[2]

---

(١) البوابة : مجلة ٧ سبتمبر ٢٠١٥ ، السنة الأولى ، تحت عنوان : «سرداب السلفيين» ، .الصفحة ١٨.

(٢) سراديب السَّلفيين ، ص١٣٤، ١٣٥.

وقد تم اختيار اللواء عادل عبد المقصود عفيفي رئيسا لحزب الفضيلة وهو المدير السابق لمصلحة الجوازات والهجرة والشقيق الأكبر للشيخ محمد عبد المقصود أحد مشايخ السلفيين في مصر ، وقد ضم المكتب السياسي للحزب الدكتور محمد عبده أستاذ القانون بجامعة الأزهر والدكتور خالد سعيد مدير المركز الإسلامي للدراسات الفلسطينية والدكتور حسام أبو البخاري المتحدث الإعلامي باسم «ائتلاف دعم المسلمين الجدد» والمحامي ممدوح إمام والشيخ فرحان رمضان من رموز الدعوة السلفية في محافظة كفر الشيخ.

- ويعد حزب الفضيلة أحد الأحزاب ذات المرجعية الدينية والذي لم يلق قبولًا كبيرًا في الوسط السياسي فلم يكن حزب الفضيلة أحد الأحزاب الداعمة لأي شيء ، بالإضافة أنه الحزب الوحيد الذي حدثت به موجة انشقاقات منذ لحظة إنشائه خاصة بعد تولي اللواء متقاعد عادل عبد المقصود رئاسته وانسحابه من الحزب عقب إنشائه بفترة وجيزة بسبب ما اعتبره عبد المقصود «مؤامرة» تستهدف تغيير مبادئ الحزب وهويته حتى أعلن عن تأسيس حزب الأصالة بمساعدة محمد حسان ومحمد عبد المقصود ومحمد عبد السلام.[(١)]

(٤) **حزب الأصالة :** من المعروف أن حزب الأصالة حزب سياسي بمرجعية إسلامية ومن أهم أهدافه إعادة دور مصر إلى الريادة كما كانت في الماضي سياسيًا واقتصاديًا وعسكريًا والعمل على ممارسة «الديمقراطية» في إطار الشريعة الإسلامية وتفعيل مبدأ «الشورى» [(*)] وتفعيل المادة الثانية من الدستور وإعلاء شأن اللغة العربية والهوية الإسلامية وإعادة «مصر» إلى هويتها العربية وقوميتها العربية والإسلامية وتحقيق العدل الاجتماعي بين أفراد المجتمع الذي يحقق التعايش السلمي بين كل طبقاته ورفع المستوى الفكري والثقافي والتعليمي ورفع دور العلم والعلماء وإيجاد مناخ سياسي

---

(١) سراديب السلفيين ، ص٨.

* لمحاولة الاستزادة من رؤية التيار الإسلامي ورؤية الحركة السلفية في الديمقراطية والشورى فليرجع إلى كتابنا «الشورى والديمقراطية بين الإسلام والسياسة» ففيه تجلية لموقف الأحزاب ذات المرجعية الإسلامية من الشورى والديمقراطية والتي وصف الديمقراطية كثير من التيار السياسي الإسلامي بـ «الديمقراطية الكافرة».

يستطيع من خلاله المواطن أن يعبر فيه عن رأيه وأن يختار من يمثله بحرية مطلقة وإيجاد آليات لتنمية موارد الدولة والاستفادة من هذه الموارد بالنهوض في المستوى العام للشعب ووضع استراتيجية لتقليل نسبة الأمية والبطالة ومعدل الجريمة والانهيار الأخلاقي والعمل الجاد على استقلال «السلطة القضائية» بجميع درجاتها وتوفير المقدمات اللازمة لذلك – كما يذكر فرغلي –والعمل على استعادة الأموال المنهوبة ومحاكمة الذين أفسدوا الحياة السياسية ونهبوا المال العام.(١)

ويقود حزب «الأصالة» عادل عبد المقصود عفيفي بعد أن أعلن عن انشقاقه عن حزب «الفضيلة» موضحًا في بيان له أن عددًا من أبرز الدعاة السلفيين يدعمون حزبه، كما يسحبون دعهم لحزب الفضيلة – وقد أسلفنا ذكرهم من قبل – وبعد فترة وجيزة أعلن ممدوح إسماعيل وكيل مؤسسي ورئيس حزب النهضة في سبتمبر ٢٠١١ دمج حزبه مع حزب الأصالة حيث أعلن الحزبان في أكتوبر ٢٠١١ عن تكوين تحالف الكتلة الإسلامية مع حزبي الوسط والبناء والتنمية.(٢)

- **حزب الإصلاح** : وحزب الإصلاح حزب سياسي اجتماعي سعى لتصور الدولة المدنية بمرجعية إسلامية، والحزب على لسان مؤسسه ينبثق عن مشروع الإصلاح الاجتماعي وهو مشروع موجود في الإسكندرية منذ ١٢ سنة ، ويذكر مؤسسه (هشام مصطفى عبد العزيز) مدير مركز «المستشار للدراسات الإنسانية والإدارية» أن الحزب ينطلق من إيجاد أرضية مشتركة بين أطياف المجتمع، فمشروع الإصلاح داخل المجتمع كي ينجح يجب أن ينطلق من أرضية مشتركة من كل القوى السياسية الموجودة سواء أكانت مرجعية دينية أو غيرها(٣).

وأكد عبد العزيز أن العلمانية ليست هي الحل في مصر رافضًا الربط بين الديمقراطية والعلمانية أو الليبرالية ورأى أنها تراث إنساني وأن الجنة الموعودة في الديمقراطية ليست علمانية ولا ليبرالية ، واعتبر أن الديمقراطية أقرب للنظام الإسلامي من العلماني ، مدللًا بعقد البيعة بين الحاكم والمحكومين والشورى في الوقت الذي يأتي

(١) سراديب السَّلفيين ، ص١٣٨.

(٢) الوطن: العدد ٢٥٦ في ١٩ أغسطس ٢٠١٥.

(٣) سراديب السَّلفيين ، ص١٤٠.

فيه العلماني بديمقراطية محملة بأخطاء الغرب.[1]

(٣) الأسس المعرفية للسلفية:

يقوم النظام المعرفي للسلفية على عدد من الأسس - كما يذهب هاني نسيرة - والتي تبلورت بجهود عدد من علماء السلف مثل أميّة بن عثمان الدمشقي (ت ٢٢٥هـ) وأحمد بن حنبل وأبو جعفر الطحاوي (ت ٣١٢هـ) صاحب «بيان السنة والجماعة» وابن بطة العكبري الحنبلي (ت ٣٨٧هـ) وتقي الدين ابن تيمية وابن العز الحنفي (ت ٧٩٢هـ) صاحب شرح «العقيدة الصحاوية» وتمثل كلمة عبد الله بن مسعود «اتبعوا ولا تبتدعوا» الرابط الجامع بين أجزاء هذا النظام المعرفي، وكثيرًا ما يردد السلفيون كلمة أبي الحسن الأشعري كلُّ خير في اتباع من سلف ، «وكل شرّ في اتباع من خلف» دون أن يشيروا إلى قائلها محل التحفظ منهم لكونه يمارس الكلام لم يكن ممثلا حقيقيًا لعقيدة السلف.[2]

وقد عدد نسيرة الأسس الشرعية والفكريّة التي يقوم عليها المنهج السلفي نوجزها في التالي:

(١) التسليم والاستسلام لنصوص الكتاب والسنة وتفسيرها بلا تأويل ولا هوى وأن الأصول ثلاثة هي: الكتاب والسنة وإجماع الأمة أو حسب ابن تيمية أن أصول الإسلام والألباب أربعة هي: الدال هو الله والدليل وهو القرآن والمبين وهو الرسول والمستدل وهم أولوا العلم والألباب.

(٢) اعتبار أهل القبلة مسلمين مؤمنين ما داموا بما جاء به النبي ﷺ معترفين مصدقين.

(٣) التبرؤ من أهل الأهواء والبدع والتأويل من المشبهة والمعطلة الذين يأخذون الدين بالعقل أو بغير سنة الاتباع عند الصحابة والسلف الصالح.

---

(١) سراديب السّلفيين ، ص١٤٢.

(٢) هاني نسيرة : أزمة النهضة العربية وحربُ الأفكار ، قراءات في الخطاب العربي المعاصر، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، عام ٢٠٠٩، ص٩٣.

(٤) في مسائل الطاعة والخروج والسلطات والجماعة يقول الطحاوي : «ولا نرى الخروج على أئمتنا وإن جاروا ولا ندعو عليهم ولا ننزع يدًا من طاعتهم ونرى طاعتهم من طاعة الله عز وجل» *.

(٥) تولي الخلفاء الراشدين والصحابة التابعين وأئمتهم والاقتداء بهم والسكوت عما بدر بين الصحابة من خلاف وما اشتجر بينهم من صراع.

(٦) التأكيد على وجود منهج للسلف في القرون الثلاثة الأولى رغم ما اشتهر عن الخلاف بين الجيل الأول أو الأجيال التالية التي تلته في كثير من فروع المسائل وأصولها.

(٧) رفض منتوجات الحضارة الغربية غير المادية والتأكيد على كمال الدين وتمامه، فلا حاجة لنا في هذه الحضارة في غير الأمور المادية أو التحديثية .

(٨) يمتلك النظام المعرفي السلفي التاريخي والمعاصر آليات الاستدلال الخاصة التي ترفض القياس والاستحسان والإجماع مما عرفت به مذاهب الحنفية والشافعية والمالكية بالخصوص، ويكاد يلف المعقولية السَّلفية كلمة واحدة هي هيمنة السند.[1]

وقدم الباحث السلفي مصطفى حلمي قواعد ثلاثة للمنهج السلفي وهي:

القاعدة الأولى : تقديم الشرع على العقل: فطريقتهم هي إخضاع العقل للنص لا العكس مخالفين بذلك منهج المتكلمين من المعتزلة والأشاعرة الذين قدموا العقل وأولوا النصوص تبعًا.[2]

القاعدة الثانية : رفض التأويل الكلامي، فالتأويل عند المتكلمين بعامة يقتضي

---

* ويذكر هاني نسيرة أن هذا المبدأ الرابع يظهر الاختلاف بين السلفية المعاصرة والسلفية الجهادية التي تمثل مرجعية مختلف الجماعات التكفيرية القتالية المعاصرة وفي مقدمتها تنظيم «القاعدة» وبين السلفية المعاصرة حيث تتفق الأولى مع الثانية في كل شيء إلا في مسألة الخروج عن الطاعة للحاكم والنزوع إلى تكفيره ولكن تظل الأدوات المنهجية والمنطلقات الفكرية واحدة بين الاتجاهين. لزيادة التفاصيل: انظر: هاني نسيرة: مرجع سابق ذكره ، ص٩٥.

(١) هاني نسيرة : أزمة النهضة العربية ، وحربُ الأفكار ، ص٩٤.

(٢) مصطفى حلمي: قواعد المنهج السلفي في الفكر الإسلامي ، دار ابن الجوزي ، القاهرة، الطبعة الثالثة، عام ٢٠٠٥، ص٢٠٥.

اتخاذ العقل أصلًا في التفسير مقدمًا على الشرع فإذا ظهر تعارض بينهما فينبغي تأويل النصوص إلى ما يوافق مقتضى العقل ولكن السلف على العكس – كما يذكر شيخ الإسلام – احتكموا – إلى الآيات القرآنية والأحاديث النبوية ، مكتفين بها ، فطوعوا المفاهيم العقلية لها ، لأن العقل في كتاب الله وسنة رسوله ﷺ هم أمر يقوم بالعاقل سواء سمي عرضًا أو صفة ليس عينًا قائمة بنفسها كما يعتبره الفلاسفة والعقل ، كما يرى الدكتور الغمراوي يعجز عن الإحالة بالحقائق التي أوردها الدين .(١)

القاعدة الثالثة : الاستدلال بالآيات والبراهين القرآنية: فما من مسألة من المسائل الكلامية والفلسفية التي خاض فيها الخائضون في العصور التالية – كما يرى شيخ الإسلام – إلا وكانت قد أوضحت في القرآن فقد أمد المسلمين بتقريرات وبينات عن الذات الإلهية وصفاتها ومسائل التوحيد والنبوات واليوم الآخر الإنسان وبدء خلقه ومصيره وموقفه من الكون الأمم السابقة ومواقفهم من أنبيائهم الماضي السحيق وتاريخ الأمم وعن حقائق عالم الغيب كالملائكة والجن إلى غير ذلك من الموضوعات التي كانت – وستظل مثار التساؤل والبحث في ميدان الفكر الإنساني.(٢)

وقدم الباحث السلفي علاء بكر قواعد أربعة لا تبتعد كثيرًا عن ما عرضه حلمي في قواعده ونلخصها في الآتي:

(١) الاستدلال بالكتاب والسنة.

(٢) تقديم النقل على العقل.

(٣) رفض التأويل الكلامي.

(٤) التمسك بفهم الصحابة. (٣)

ولا يجد الباحث عناءً في أن قواعد المنهج السلفي تعتمد على النقل والسمع والموروث من المرويات على العقل والمنطق والحجة في حالة التعارض بينهما أي بين النقل والعقل فهم – أي السلفيين – يقدمون «النص» على ما عداه وينزهون المتن عن ما اعتراه من جرح

---

(١) قواعد المنهج السلفي في الفكر الإسلامي، ص٢٠٩.

(٢) قواعد المنهج السلفي في الفكر الإسلامي ، ص٢١٢.

(٣) علاء بكر : ملامح رئيسية للمنهج السلفي ، مكتبة فياض ، ٢٠١١، ص٦٤.

وتعديل، فلم يعد في مقدورهم استخدام العقل في تفسير النصوص أو تأويل المعاني الظاهرة إلى معاني باطنة توضح حقيقة النص!! وهذه آفة السلفيين دائمًا..!!

(٤) السلفيون .. وفتاوى التكفير والتحريم والتبديع والتفسيق:

تمهيد مطلوب : كانت الدعوة السلفية حريصة على الابتعاد عن السياسة والاشتراك المباشر في العملية السياسية بل رفضت المشاركة في ثورة ٢٥ يناير ٢٠١١ واعتبرتها أنها سوف تؤدي إلى «مؤامرة» تقسيم الوطن، وقد ظهر جليًا أن هناك ثمة انقسامًا واضحًا بين دعاة الفكر السلفي : فقسم منهم يعلن صراحة كفر الرئيس الأسبق مبارك كفرًا أكبر كمحمد عبد المقصود وفوزي السعيد ونشأت أحمد، ومن كان على شاكلتهم فيما يعرف سلفية القاهرة وذلك لأن «مبارك» حكم بالقوانين الوضعية وبطل الأحكام الشرعية ووالى اليهود والنصارى، وزعموا أن من يفعل ذلك فلا شك في كفره وردته، ويدخل برهامي وسعيد عبد العظيم وأحمد فريد وهؤلاء أيضًا على تكفير الحاكم الكفر الأكبر إلا أنهم أقل جرأة في التبيين من إخوانهم.[(١)]

والقسم الآخر : كان يظهر من قوله أن الحاكم لا يكفر الكفر الكبير حتى لو حكم بالقوانين الوضعية ما لم يستحل الحكم بذلك، وبالتالي كان يفتى قبل الثورة بتحريم المظاهرات ونحوها ومن هؤلاء مصطفى العدوي ووحيد عبد السلام ومحمد حسان والحويني وغيرهم.[(٢)]

والجدير بالبيان في هذا الأمر أنّ الدعوة السلفية عقب قيام الثورة (في ٢٥ يناير) وتشكيل لجنة لتعديل دستور ١٩٧١ حيث صاحب هذا الظهور وأبرزه تخوفات من الدعوة السلفية من أن يمتد التعديل إلى المادة الثانية من الدستور، ومن ثَمَّ قامت بتنظيم «حملات» للدعوة بالتصويت «بنعم» حيث حولوا الأمر إلى معركة بين الإيمان والكفر فظهر الخطاب الطائفي التحريضي ضد من يقول «لا» للتعديلات الدستورية ، وبعد الاستفتاء تم الدعوة لإنشاء حزب النور والذي بدوره دخل الانتخابات البرلمانية بغرفتيه (الشعب والشورى) حيث تم التخلي عن فتوى «الديمقراطية كفر»

---

(١) محمد يوسف بلال: بدع السلفية الوهابية في هدم الشريعة الإسلامية، مكتبة جزيرة الورد ، عام ٢٠١٥، ص٣١٤.

(٢) محمد يوسف بلال : مرجع سابق ذكره، ص٣١٥.

إلى دعوة «نادر بكار» في لجنة الخمسين لعمل دستور (٢٠١٣) والذي يذكر فيها أن السيادة لله واعتقاد بحق التشريع المطلق للشعب نقول إنها في الأصل لله وهو أعطاها للشعب ، فعلى الشعب أن يصون هذه المنحة الإلهية. (١)

وقد نجح حزب النور وحصل على ٢٥٪ من أصوات الناخبين في مجلس الشعب والشورى وسبب إزعاجًا للإخوان باعتبارهم الطرف الثاني في المعادلة السياسية وقد حدث بعد ثورة ٣٠ يونيو مواقف خاصة بحزب النور والدعوة السلفية حيث أعلنا رفضهما للدعوة إلى انتخابات رئاسية مبكرة – في أول الأمر – وبعد اندلاع التظاهرات وهدير الجماهير الغفيرة يوم الثلاثين من يونيو طالب حزب النور الرئيس (المعزول) محمد مرسي بتقديم تنازلات وعرضوا القيام بدور الوسيط بينه وبين المتظاهرين واستمر الخطاب السلفي العدائي تجاه جماعة الإخوان واصفين إياهم بأنهم يقومون بتقسيم شعب مصر إلى مسلم وكافر وطالبوهم بالجلوس إلى مائدة المفاوضات وإعادة النظر في موقفهم والقيام بمراجعة شاملة لكافة أدبيات الإخوان لإبعادها عن «التكفير» بنوعيه «الديني» و«السياسي» وإعادة النظر أيضا في مفهوم «التمكين» و«التثبيت والنصر الإخواني» ، ودعمت الحركة والحزب (عبد الفتاح السيسي) في معركته الانتخابية غير أن بقية القيادات الأخرى السلفية حاولت إثناء الدعوة السلفية والحزب عن ذلك فلم تجد إذن صاغية في هذا الشأن مما عرضها للعزلة، فلم يكن بمستطاع حزب شارك في خريطة الطريق بعد ٣٠ يونيو أن يتراجع عن موقعه، بل شارك في الانتخابات البرلمانية أواخر عام ٢٠١٥ ومُني بهزيمة، ولم ينجح منه سوى ١٢ عضوًا فقط ، بعد أن كان عددهم ١١٢ عضوا في برلمان الإخوان، وقد عزا كمال حبيب ذلك إلى عدة اعتبارات منها : تخلي الحزب بسهولة عن مشروعه الجوهري والرئيسي وهو العمل على تطبيق الشريعة الإسلامية، وموقفهم من ترشيح الأقباط – رغم تكفير قيادتهم للأقباط– ورفض تهنئتهم بأعيادهم ، ووضع الأقباط على رؤوس قوائم الحزب تحت زعم أن القانون والدستور يفرضان ذلك مما أعطى انطباعًا

(١) جريدة الوطن : أكاذيب في ملف «النور» ، العدد ١٢٥٠ الأول من أكتوبر ٢٠١٥، السنة الرابعة في الصفحة التاسعة.

أن الحزب لم يعد سلفيًا أنها أصبح حزبًا مدنيًا علاوة على بنيته التنظيمية غير المكتملة وخروج «عماد عبد الغفور» وأنصاره وإنشاء حزب الوطن مما أحدث إنشقاقًا في حزب وليد.(١)

فتاوى التكفير ... وتخريجات شرعية:

يكفر السلفيون «الديمقراطية» على لسان شيوخها، فيذكر محمد صفوت نور الدين بأن: من اعتقد أن البرلمان كهيئة تشريعية يجوز له أن يسن الشرائع فهذا كفر ولا يجوز أن تظن أن الأمة هي مصدر السلطات.(٢)

ويقول محمد صفوت الشوادفي أن: الإسلام بريء من الديمقراطية فإنها ضلال وفساد ويقول أيضا: استطاع النساء دخول مجلس النواب (١٩٥٣)، وذلك بفضل الغمزات والهمزات، الديمقراطية ليست حكم الله فهي في ميزان الله جاهلية، تداول السلطة مفهوم غربي النشأة لا علاقة له بالإسلام به وللحاكم أن يستمر بالحكم مدى الحياة، لا يجوز تحديد مدة للرئاسة، إقامة الأحزاب حرام بصريح القرآن.(٣)

ويذكر محمد حسان رأيه في الديمقراطية في قوله: «إن الديمقراطية من قوانين كفر»، ويقول محمد إسماعيل المقدم: «إن الشجر والحجر سيقولون: يا مسلم يا عبد الله، ولا يقولون: يا علماني يا اشتراكي يا ديمقراطي يا بعثي يا قومي»، كأن هذه الأشياء ضد الإسلام وهؤلاء كفار! كما يذكر محمد الحلفاوي – في كتابه «فتاوى داعش وبوكو حرام»، ويستعيذ ياسر برهامي بالله من مقولة: «إن الشعب مصدر السلطات» الواردة بالدستور المصري ويستشهد بآية ﴿**أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ شَرَعُوا لَهُمْ مِنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنْ بِهِ اللَّهُ**﴾، ويقول عبد المنعم الشحات: نحن لا نقول فقط إن الديمقراطية حرام بل الديمقراطية كفر».

ولم يسلم الدستور الإخواني (٢٠١٢) من التكفير رغم أنهم سارعوا إلى قول

---

(١) كمال حبيب: السلفيون أسقطوا حزب النور في الانتخابات، جريدة الصباح، ٢٦ أكتوبر، ٢٠١٥.

(٢) مجلة التوحيد: العدد (١١)، ص٦، المجلد ٢٣.

(٣) محمد الحلفاوي: فتاوى داعش وبوكو حرام (جولة في العقل السلفي)، دون دار نشر، الطبعة الأولى، ٢٠١٤، ص٤٦.

«نعم»، ويعلق أحمد النقيب على ذلك: «هذا الدستور هو أسوأ دستور شهده أي بلد إسلامي على مدار التاريخ.. هذا الدستور به ١٤ خطأ شرعيّ وبه عشرات الملاحظات الموضوعية».[١]

وينتقد مصطفى العدوي دستور الإخوان (عام ٢٠١٢) قائلا: «أما عن الدستور المصري الذي صنعت مسودته وسيطرح للاستفتاء عليه : فأشهد الله وأشهدكم على براءتي من هذه المسودة .. فالدستور مليء بالضلالات مليء بالأباطيل ، فالحذر الحذر من الموافقة على هذا الدستور الذي لا تشم فيه رائحة الشرعية إلا الفقرة الأولى والفقرة المتممة لها، والله والله أرى من يوافق على هذا الدستور لكلمة نعم سيأثم لإقراره ضلالات بعضها فوق بعض.. عياذا بالله من الكفر ومن طرائق الكفر ومن سبل الكفر والعياذ بالله».[٢]

وينتقد محمّد حسين يعقوب صاحب «غزوة الصناديق» الدستور فيقول: «أقول كلام واضح محدد وصريح: نحن ليس لنا دستور إلا الكتاب والسنة بفهم سلف الأمة هذا الدستور دستورهم والقوانين قوانينهم وما يفعلونه يخصهم أمّا نحن – أهل الديانة أهل الدين – العباد عباد الله الموحدون فلا يحكمهم دستور فيه شرك وفيه كفر بل ... طاغوتًا».[٣]

وقد استطاع الدكتور أحمد محمود كريمة في كتابه عن «السلفية بين الأصيل والدخيل» أن يجمع فتاوى وغرائب الفتاوى للسلفيين:

فالأرض ثابتة لا تدور.. والتوسل بجاه النبي ﷺ من وسائل الشرك، والذبح عند الأضرحة شرك، وسب الدهر شرك أكبر تسخط المصاب بمصيبة كفر ، والقول بعدم تكفير اليهود والنصارى كفر، والتوسل بالنبي ﷺ في حياته وبعد مماته بدعة لا يجوز ، وتعظيم السلام أو العلم الوطني ذريعة إلى الشرك، وتحية الجندي المصري لرؤسائه لا يجوز، والحكم بغير ما أنزل الله تعالى – مع اعتقاد مشروعيته - كفر أصغر.. لا عذر في

(١) قناة البصيرة : ٣٠-١١-٢٠١٢.

(٢) قناة الرحمة: موقع الفرسان السنة.

(٣) فتاوى داعش وبوكو حرام، ص٣٧.

الجهل في الشركيات، وتحديد نوع الجنين دعوى كاذبة ، لا يجوز السفر خارج الدولة الإسلامية، لا تجوز الإقامة في بلاد الكفار، تهنئة الكفار حرام (يخضع لهذا الأمر النصارى باعتبارهم كفار ولاحظ إصرار حزب النور على ترشح أقباط على قوائمه ، لأن القانون والدستور يوافقان على ذلك) ، لا يجوز السلام على الكافر – ولو كتابةً من اليهود والنصارى، ولاء المؤمنين وبغض الكافرين، الذهاب للكنيسة لا يجوز، دخول الكنيسة لا يجوز، يجب نبش القبور ونقل رفاتها من المساجد ويجب هدم القبور القديمة وإزالة المسجد لأنه شرك (لاحظ تأثير المفهوم الوهابي على السلفية في مصر) ، الصلاة في المسجد الذي فيه قبر باطلة، عيد الأم حرام وبدعة، عيد الميلاد بدعة، الاحتفال بالمولد النبوي حرام، الاحتفال بالإسراء والمعراج حرام، وقول (صدق الله العظيم) لا أصل له، لا يجوز قصد زيارة قبر النبي ﷺ، لا يجوز ركوب المرأة السيارة من غير محرم ، النقاب للنساء فرض لا تجوز الدراسة في جامعات مختلطة، لا يجوز للمرأة قيادة السيارة، حفلة الخطوبة محرمة، تحرم اتخاذ الصور، تحريم التصوير بالآلة، تحريم إطالة الثياب للرجال ولو بحكم العادة، إزالة الشعر من جسد المرأة حرام ولو من الحاجبين، تحريم صبغ الشعر بالسواد، تصوير المحاضرات بالفيديو فيه توقف والأولى تركه، لا يجوز العمل في البنوك ولا معاملتها، الغناء حرام ومنكر، لا يلزم القيام للقادم، القول بحرية الكفر كفر، لا يجوز تقبيل القرآن الكريم، الإيمان ليس مجرد التصديق، يكفر المعين كمن يتوسل بالقبور، بدعة الاحتفال بشم النسيم، بدعة الاحتفال بليلة النصف من شعبان، لا يجوز للمرأة لبس البنطلون.

فتاوى أصول للسلفية وتتمثل في :

يحرم الخروج على الحاكم ولو كان ظالما، غير العقيدة السلفية زيغ في العقيدة وفساد، حرق كتب الأئمة والنووي وابن حجر رحمهما الله وغيرهما، تحريم العمل السياسي كالمجالس النيابة والأحزاب (لاحظ ما قام به السلفيون من أحزاب بعد ثورة ٢٥ يناير كحزب النور والأصالة والوطن وغيرها، يبين لك مدى التناقض والبراجماتية في التعامل السياسي)، جماعة الإخوان والتبليغ فيها نظر، التصوف والفلسفة والمنطق علوم كفرية وشركية، العقيدة الأشعرية للسواد الأعظم من المسلمين وعلى رأسها الأزهر الشريف شرك مطلق!! وعبادة الأصنام والأوثان مشركون في قسم وموحدون في قسم كأبي جهل وأبي لهب!! زائر قبور الأنبياء والرسل ﷺ والأولياء – رضي الله

عنهم – شرك مطلق!! يجب تغيير المنكر باليد.

وينضاف إلى ذلك بأن هناك فتاوى غريبة للسلفيين خارجة عن المعقول والمنقول وهي:

يجب إعادة الرق لعلاج الفقر والعزوبية (انظر فتوى سيد أحمد المهدي حيث يقول: الحق أن إلغاء الرق من المصائب العظيمة التي مُني بها المسلمون بسبب ابتعادهم عن شريعة ربهم وتقاعسهم عن نصرة دينه، انقطع بانقطاع الرق سبل كثيرة من سبل الخير في الدنيا والآخرة على المسلمين.

ويقول عبد الرؤوف عوف في فتواه : ملك اليمين هو نظام إسلامي أصيل موجود في كتاب الله موجود في أحاديث رسول الله.

- لحوم الجن حلال!!
- التداوي ببول الإبل والحجامة سنة مؤكدة.
- السيدة خديجة رضي الله عنها خدعت أباها بإسكاره بخمور لتتزوج برسول الله ﷺ.
- يجوز للزوج مضاجعة (جماع) زوجته الميتة قبل دفنها بست ساعات!!
- يجوز دفع رشاوي في الانتخابات لمصلحة الدعوة!
- الفنانات فاجرات داعرات زانيات!
- القرآن الكريم والنبي محمد ﷺ، والصحابة صدر منهم سباب وشتائم لعن ضد عصاة المسلمين!!
- محمد ﷺ إمام السلفيين.
- السلفية وحدهم فرقة ناجية منصورة.
- يحرم خلوة الأب بابنته.
- يجب تحطيم علامة (شوفرولية) في السيارات لمشابهتها بالصليب.
- كل المسلمين الحاليين من فرق (٧٢) فرقة كلهم في النار عدا السلفية.
- لبس الكرافتة – إحدى قطع البدل للرجال – بدعة !!

- يجب إلغاء السياحة.

- يجب تحطيم الآثار كلها وإزالتها.

فذلكة أخيرة:

يعترض «السلفية» ويعتريها كثير من الغموض والالتباس وذلك إذا ما أطلقت «السلفية» بدون قيود على عديد من التيارات الفكرية والإسلامية أو إذا ما أطلق على التيار الإسلامي وحده دون غيره من التيارات الأخرى، فالأمر في الحالتين سنكون إزاء سلفيات متعددة وليست سلفية واحدة، وربما قد ساهم في هذا «الالتباس» معناها اللغوي باعتبار أن السلف يعني المتقدم في الزمن والتاريخ وبذلك يكون كل متقدم لآخر يكون سلفه بغض النظر عن كونه إسلاميا أو فكريا، ومن ثمَّ يكون من الأهمية بمكان أن نوضح ما نقصده وأن نجلي ما نطرحه وأن نحاول تفكيك هذا الالتباس بوضع عدة أمور لذلك وهي على هذا النحو:

الأمر الأول : إذا كان المقصود من السلف بمعناها اللغوي فهو المتقدم في الأسبقية والزمن والوجود ومن ثمَّ يمكن إطلاق السلف على الانموذج الماضوي والذي سبق ويحاول الخلف أن يستعيده ويستحضره مرة أخرى باعتباره الأنموذج «الأمثل» سواء إعادته للأذهان أو للمجتمعات أو هما معًا مرة أخرى، فيكون هنا – وطبقا لهذا المنطق – الماركسي – سلفيًا إذا حرص على استعادة واستحضار الماركسية «الأنموذج» ويكون الليبرالي سلفيا فإعادته النموذج الليبرالي السالف ويكون بالطبع الإسلامي سلفيًا لإعادة النموذج الإسلامي من خلافة راشدة ، والموروث القديم والماضوي للدولة الإسلامية في فترتها الأولى، فالحرص على إعادة «الأنموذج» و«المثل» طبقًا لأي تيار يمكن أن يوصف في هذه الحالة بـ «السلفية» بمعناها العام ولا غضاضة في ذلك لأن السلف «المتقدم» ولأن المقصود من ذلك إعادة نموذجه الماضوي للحاضر والمستقبل مرة أخرى واستحضاره واستدعائه من الماضي لفك طلاسم الحاضر والمستقبل!!

الأمر الثاني: أنه في الحالة الإسلامية فإنه تتعدد تيارات السلفية أيضا، بل تكون هناك سلفيات إذا حرص «الخلف» إعادة أنموذجه الماضوي السَّلفيّ، فكان النصوصيّ – الحرفيّ الذي يفهم الإسلام على أصلين: الكتاب والسنة فهو حرفيّ نصوصي في إطار عودة المرويات دون إدخال العقل وجعلها أنموذج لحل مشاكل الحياة وتعقيدات

المجتمع ، وكذا «الإسلاموي» الحريص على إعادة النموذج العقلي والمتمثل في عصر المعتزلة مثلًا فيكون سلفيا في عودة هذا النموذج لحاضره وكذلك من يحرص على أنموذج «الأشاعرة» أي يمكن أن يكون هناك «سلفيات» في إطار التيار الواحد مثل السَّلفية – النصوصية والسَّلفية – العقلية والسلفية التي تجمع بين العقل والنقل.. وهكذا..

الأمر الثالث: أنه في حالة السلفية النصوصية ، والتي تعتمد على «النص» والموروث من المرويات والأصول من الكتاب والسنة تجد نفسها في مواجهة مع مستحدثات الأمور ونظر لأنها لا تقبل العقل في مروياتها وبذا تعتمد هذه السلفية النصوصية على «التكفير» و«التبديع» و«التفسيق» كمعالجة نصوصية لمجريات الأحداث ومتغيرات الأحوال، فنجد أن التصوير الفوتوغرافي «حرام» وسماع الغناء «حرام» ، و«التداوي» ببول الإبل والحجامة سنة مؤكدة ،وتقبيل القرآن لا يجوز ، ولبس الكرافتة – إحدى قطع بدل الرجال – بدعة، لا يجوز العمل في البنوك ولا معاملتها، الاحتفال بشم النسيم وميلاد الرسول «بدعة»، يجب تحطيم الآثار وإلغاء السياحة، إلخ، وكلها فتاوى ضيقوا بها الإسلام على النص دون مراعاة لقواعد فقهية أخرى تتناسب مع الحال ومتغيرات شؤون البشر، مثل الاستحسان والاستصحاب والأقيسة والعرف السائد، فالسلفية النصوصية لا تؤمن بغير النص في القرآن والسنة ، ومن ثمّ اتجهت للتكفير على أوسع نطاق ، لأن ليس لديها الأدوات الفقهية الأخرى ما يساعدها في الخروج من هذا الأفق الضيق ، والذي لا يقبل التأويل أو التفسير العقلي للأمور..!!

المطلب الثالث

الإخوان المسلمون ، وصياغة أيديولوجيا التكفير
مناقشة وهم الاعتدال والإصلاح

⌑⌑⌑⌑

المؤسس الأول للإخوان وبذور التكفير:

اختلف الكثيرون على شخصية المؤسس الأول للإخوان حسن أحمد عبد الرحمن البنا (١٣٢٤-١٣٦٨هـ/ ١٩٠٦-١٩٤٩م) المولود بقرية «المحمودية» محافظة البحيرة ما بين محب له ، مولع به، ومريد من مريديه، وبين شانئ بغيض ، وكاره لما تركه من أفعال صنعها وجماعته، فهو الشيخ الدجال حسن راسبوتين ، الشيخ الغامض والمناور والذي يخدم من في قصر الحكم، الرجل الانتهازي والمتناقض هادم للشُّورى المتشبه بالرسول في تعاملاته مع جماعته ، صاحب العلاقة المشبوهة مع بريطانيا (العظمى) والممالئ لهم، إلخ، وفي الجانب الآخر نجد عند محبيه ومريديه وأتباعه يطلقون عليه أسماء عدة فيها إضفاء هالات من التقديس والزعامة منها: رجل الساعة، القائد الإسلامي والأخ الروحي والمناضل العربيّ والرجل الرباني والإمام المرشد والرجل القرآني والمصلح الاجتماعي والمؤمن القوي[(١)]، بل ذكر محمّد مورو أنه لولا حسن البنا لأصبحنا أمة من الهنود الحمر، نعم لولا هذا الرجل القرآني – والإنسان الفذ – لضاعت أمتنا وأصبحت في خبر كان.[(٢)]

وفي موضع آخر يذكره مورو في عدة صفات وهالات من التقديس فيقول: حسن البنا.. هل تستطيع الكلمات البسيطة أن تحدد ملامح شخصيته؟ هل هو رجل من طراز فريد؟ هل هو الملهم الموهوب؟ هل هو أستاذ الجيل؟ هل هو إمام أنقذ أمة؟ هل هو الإمام الشهيد؟ هل هو داعية فوق المساومات؟ هل هو روح تسرى في كل البقاع؟ هل هو رجل تطابق قوله مع عمله؟ هل هو زعيم يمتلك فراسة وخبرة؟ هل هو عطاء

---

(١) رفعت السعيد: حسن البنا ، متى وكيف ولماذا؟ الهيئة المصرية العامة للكتاب عام ١٩٩٩، ص٨٠.

(٢) محمد مورو: الإسلام السياسي، شخصيات ، مكتبة جزيرة الورد، الطبعة الأولى ٢٠١١، ص٥.

كامل لدعوته؟ هل هو الشجاع الصابر والمؤدب؟ هل هو الرجل الواضح والعملي؟ هل هو الرجل المتجرد؟ نعم هو كل هذا وليس شيئا من هذا وحده[1].

بيد أنه وبعيدا عن ترّهات التنقيص والتبغيض والذي مارسها كارهوه وشانئوه، وبعيدًا أيضًا – عن ترهات التقريظ والتمديح المستطاب وإضفاء هالات من التقديس والزعامة والتفرد والذي أطلقها محبوه ومريدوه وأتباعه نجد هناك ثمة من ناقش دور الرجل بعيدًا عن هذا وذاك بشكل موضوعي وحيادي لتبيان دوره في التاريخ السياسي في مصر.

فقد رأت هالة مصطفى في البنا وحقيقة دوره فتقول في هذا الشأن: «ولعل أهم ما يميز هذه الشخصية ويجعلها تخالف جميع رموز الحركة الإصلاحية هو انتقالها من حيز الفكر إلى الحركة السياسية المنظمة، ومن مجال العمل الفردي إلى العمل العام المباشر بحيث يمكن القول أنها لعبت دورًا هامًا في إحداث انقطاع مع الفكر الاصطلاحي الذي ساد من قبل، فالنزول إلى العمل السياسي والتجديد الديني الذي أولته الحركة الإصلاحية برموزها المختلفة أهمية كبيرة»[2]

وتلخص مصطفى الأفكار الأساسية التي قامت عليها استراتيجية البنا في عدة نقاط هي:

(١) تجنب العمل على أرضية الفكر الديني ونقل الصراع حول «الإسلام» إلى الساحة السياسية.

(٢) التمسك بالفكر السلفي.

(٣) المطالبة بإحياء الخلافة واعتبار الخليفة رمزًا للوحدة الإسلامية.

(٤) رفض التنظيمات السياسية «الانقسامية» كما يصفها البنا أي رفض التعددية الحزبية بمفهومها الحديث.

(٥) الإيمان «بالجهاد» لتحقيق أهداف الحركة بما فيها القوى المسلحة مع القبول

(١) محمد مورو: مرجع سابق ذكره، ص٧، ٨.

(٢) هالة مصطفى: الإسلام السياسي في مصر – من حركة الإصلاح إلى جماعات العنف، مركز الدراسات السياسية ولاستراتيجية، الأهرام، الطبعة الأولى، ١٩٩٢، ص٨٨.

بالمرحلية في تحقيق هذه الأهداف،

(٦) رفض الحضارة الغربية بكل ما تقوم عليه من قيم ومبادئ مع القبول بالاستفادة من منجزاتها المادية والتكنولوجية.

(٧) معاملة أي نظام – غير إسلامي – باعتباره طاغية يجب مقاومته بكل الطرق.

(٨) الدعوة لتغيير السلوكيات الاجتماعية باسم «محاربة الفكر».

ويعدد أحمد عبد الرحيم مصطفى (١٩٢٥-٢٠٠٢م) مميزات حسن البنا من ناحيتين : الإيجابية والسلبية ونواحي فكره بما يقارب بينه وبين ما ذكرته الباحثة هالة مصطفى فيقول: « فقد كان متواضعًا حاد الذكاء قوي الذاكرة شديد الفصاحة وخطيبا مفوها يهز مشاعر سامعيه ببلاغته واستشهاده بالآيات القرآنية والأحاديث النبوية ، مما أدى إلى سيطرته على جماعته سيطرة مطلقة بالصورة التي غطت على الزعامات الأخرى المحتملة خاصة أنه كان من أنصار الزعامة الفردية، وقد التقت جماعته منذ نشأتها مع الأنظمة الفاشية في إقامة تشكيلات شبه عسكرية (الجوالة) ودعوتها إلى توحيد القوى وإلغاء الأحزاب السياسية ومركزية السلطة الفردية وربطها كل ذلك بنوع تفسيرها لنظام الحكم في الإسلام، ولهذا كانت جماعة الإخوان المسلمين تشبه غيرها من الحركات السياسية التي شهدتها الساحة المصرية في أعقاب الحرب العالمية الأولى من حيث قصور التنظيم وارتباطه على الأغلب بشخص واحد يحتكر الزعامة والتوجيه، وبالتالي فقد تجمدت زعامة الإخوان المسلمين والتي أخذت بمبدأ الزعيم والتابع المستند إلى القيادة والطاعة».[١]

وقد رأت فاطمة سيد أحمد أن زعامة حسن البنا لم تكن وليدة اللحظة التي كان فيها مؤسسًا لجماعة الإخوان، بل كان شغوفًا بها في مراحله الأولى، وفي أثناء دراسته بمدرسة «الرشاد» الإعدادية وخاصة عندما تكونت جمعية «الأخلاق الأدبية» ورشح نفسه ليختاروه وزملاؤه رئيسًا لهذه الجمعية، وكبرت الفكرة في رأسه بعد أن التحق بمدرسة المعلمين بدمنهور فكون جمعية أطلق عليها «الحصافية الخيرية» وعندما انتقل

(١) أحمد عبد الرحيم مصطفى: شخصيات مصرية ، دار الهلال، العدد ٥١٦ ديسمبر ، ١٩٩٢، ص٧٧، ٧٨.

إلى القاهرة ليدرس في مدرسة دار العلوم العليا، اشترك في جمعية «مكارم الأخلاق الإسلامية» وكانت هذه الجمعية الوحيدة الموجودة بالقاهرة في ذلك الوقت، ولأنه يحب القيادة ويعشقها لم يقتنع بأن يكون عضوًا فقط في الجمعية وبحث عن فكرة – كما تذكر سيد أحمد – يكون هو قائدها، فاقترح على زملائه بدار العلوم وبعض أصدقائه الأزهريين أن يخرجوا للدعوة في المقاهي والمجتمعات العامة لمكارم الأخلاق.[1]

ويرى الباحث السيد يوسف أن لدى حسن البنا المؤهلات والخصائص والتي ساعدت على تدعيم زعامته، فقد كان خطيب حلو الكلام ، مؤثر ، متنوع الثقافة، لماح، لبق، متقشف، زاهد، متواضع ، ألوف، وأن هذه الصفات الشخصية له قد ساعدها مناخ اجتماعي ملائمًا لسيادة هذا النوع من الزعامة الفردية – كما يذكر يوسف – ففي شعوب العالم الثالث حيث يتفشى الجهل والأمية ويندر التفكير العلمي وتسود الخرافة وتسيطر الميتافيزيقيا على العقول يظهر الزعيم الفرد نجمًا متألقًا، تحوطه القداسة وعبادة الفرد، كما ساعد على ذلك المناخ الدولي أيضًا، فقد كان مهيأ لتدعيم فكرة الزعيم الفرد، فقد كانت الفاشية والنازية فيما بين الحربين (الأولى والثانية) في صعود.[2]

وقد ساعد على تدشين زعامة حسن البنا نجاحه في السيطرة الكاملة على الجماعة، فقد كان الرجل الذي يعد العدة لحركة الإخوان – كما يذكر أنور السادات (١٩١٨-١٩٨١) – ويرسم سياستها ثم يحتفظ بها لنفسه وإن أقرب المقربين لم يكن يعرف من خططه شيئًا ولا من أهدافه شيئًا.[3]

غير أن محمود إسماعيل يرى أن أفكار حسن البنا تتسم بالغموض والفضفضة، وهذا يظهر من خلال كتاب «مذكرات الدعوة والداعية» بل يصر إسماعيل على أن يشاحح في كون البنا مفكرًا ذا إسهامات في تطوير الفكر السلفي، ويرجع ذلك إلى

(١) فاطمة سيد أحمد: ماذا لو حكم الإخوان، دار الحرية للصحافة والطباعة والنشر، الطبعة الأولى ١٤٢٩هـ/ ٢٠٠٨م، ص ٢٢، ٢٣.

(٢) السيد يوسف : الإخوان وجذور التطرف الديني والإرهاب في مصر، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، عام ١٩٩٩، ص١٧٩.

(٣) السيد يوسف : مرجع سابق ذكره ، ص١٨٠.

ضحالة ثقافته وإلى تعويله على السياسة من ناحية أخرى وتنم أفكاره وممارسته السياسية عن نزعة عملية – إن لم تكن ميكافيلية – في التحليل الأخير، فبرغم تنديده بالنظم القائمة، لم يتورع عن ممالأة القصر – رغم فساده – نكاية في «الوفد» بهدف استقطاب أعضاء وإرث جماهيريته، وبرغم تنديده بالأحزاب السياسية هادن إسماعيل صدقي (١٨٧٥-١٩٥٠) رغم موالاته سلطات الاحتلال، كما اعتبر جماعة «الإخوان» حزبًا سياسيًا سعى إلى الاعتراف بمشروعيته في العمل السياسي، بل اعتبر كافة الأحزاب غير شرعية، ودعا إلى إلغائها، وبرغم موالاة «الأزهر» للسلطة، حاول احتواء رجالاته وتجنيدهم في سلك الجماعة.[١]

ولكن يبقى السؤال المهم: كيف بذر حسن البنا بذور التكفير والتي قام سيد قطب بجعلها أدلوجة تكفيرية في مرحلته وسار على نهجها تيار الإسلام السياسي المتطرف والتكفيري؟

استطاع محمد سعد أبو عامود أن يلحظ هذا الجانب في فكر حسن البنا في مراحله المبكرة من خلال نصين له:

الأول: ذلك النص الذي أوضح فيه البنا موقف الجماعة من لا يقبل دعوة الإخوان فيقول: «فنحن حرب على كل زعيم أو رئيس حزب أو هيئة لا تعمل على نصرة الإسلام ولا تسير في طريقه لاستعادة حكم الإسلام ومجد الإسلام سنعلنها خصومة لا سلم فيها ولا هوادة معها حتى يفتح الله بيننا وبين قومنا بالحق وهو خير الفاتحين».[٢]

الثاني: إن هناك نص آخر هو بمثابة خطوة أخرى باتجاه وضع إطار فكري للجماعة يحدد موقفها تجاه الآخر. يقول حسن البنا في افتتاحية العدد الأول من مجلة الإخوان المسلمين في سنتها الخامسة «فأحب أن أقول لكم هنا بكل وضوح: إن دعوتكم هذه أسمى دعوة عرفتها الإنسانية وإنكم ورثة رسول الله ﷺ وخلفاؤه على قرآن ربه

(١) محمود إسماعيل: الفكر الإسلامي الحديث بين السلفيين والمجددين، رؤية للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، ٢٠٠٦، ص٤٠.

(٢) حسن البنا : مذكرات الدعوة والداعية، تقديم عبد الله العقيل، والعلامة أبو الحسن النَّدوي، مركز الإعلام العربي، الطبعة الرابعة، ١٤٣٣هـ، ٢٠١٢م، ص١٨٣.

وأمناؤه على شريعته وعصابته التي وقفت كل شيء على إحياء الإسلام في وقت تصرفت فيه الأهواء والشهوات وضعفت عن هذا العبء الكواهل وإذ كنتم كذلك فدعوتكم أحق أن يأتيها الناس ولا تأتي هي أحدًا وتستغني عن غيرها إذ هي جماع كل خير وما عداها لا يسلم من نقص».[1]

وواضح من هذا النص – كما يذكر أبو عامود – أن الإمام حسن البنا قد جعل جماعة من جماعة الإخوان هي جماعة المؤمنين في المجتمع فهم ورثة رسول الله وخلفاؤه وأمناؤه على شريعته وإن كانوا هم كذلك فمنطقيا أن تكون دعوتهم هي جماع كل خير وما عداها لا يسلم من نقص، والواقع أننا لا نعلم من أورث الإخوان دون سواهم من المسلمين رسول الله ﷺ ولا نعرف سندًا لخلافتهم دون الآخرين، ولا نعرف من أمنهم على شريعة الله دون غيرهم من المسلمين تلك معضلة تواجه الفكر السياسي للإخوان بلا شك ، غير أن أخطر ما في هذه الأفكار هو توحيدهم بين جماعة الإخوان وجماعة المؤمنين لأن معنى هذا إن من هو خارج جماعة الإخوان (أي جماعة المؤمنين) إنما هو من جماعة «الكافرين» وموقف الإسلام من الكافر واضح لا لبس فيه ونحن نرى أن هذه الرؤية الفكرية التي طرحها حسن البنا إنما تنظر لموقف الإخوان تجاه الآخر وتقدم تبريرًا موضوعيًا للأسلوب الذي تحدث عنه – من قبل – بصدد مواجهة من يعارض دعوتهم وهو أسلوب الحرب والخصومة التي لا سلم فيها.

ونستطيع أن نقول : إن حسن البنا قد وضع بذور التكفير والإقصاء والتخلص من الآخر من خلال مستويين.

المستوى الأول: الخطاب والنص: فقد كان الخطاب الديني للبنا وكتاباته ومذكراته وأحاديثه تتسم بالطائفية والعنصرية والشوفينية والتفرد وهذا يظهر جليًا من خلال ما عرضناه من نصوص في مذكرات الدعوة والداعية وما استنتجه الباحث أبو عامود من خلال خطاباته ورسائله للإخوان بأنهم جماعة المؤمنين وغيرهم خارج عن الإسلام وبالتالي يكون في خانة «الكفار» والخارجين عن الملة..!!

المستوى الثاني : من خلال الفعل الحركي والتنظيمي: ويظهر ذلك واضحًا لا لبس

(١) حسن البنا: مرجع سابق ذكره، ص٢٨٩.

فيه ما قام به البنا من إنشاء «النظام الخاص»العسكري في عام ١٩٤٠ وهو الجهاز الذي يأتمر بأمر البنا شخصيا وهو الجهاز الذي قام باغتيال شخصيات سياسية وقضائية مصرية لابتعادهم عن منهج الإخوان ومخالفتهم في سياساتهم وإصدار أحكام قضائية على أفرادهم «المؤمنين» فكان إهدار الدم والقتل جزاء الخارج عن حظيرة الإخوان – في مرحلة النبأ – فكان مقتل المستشار أحمد بك الخازندار في ٢٢ مارس ١٩٤٨ وقام بارتكاب الجريمة اثنان من الطلاب المنتسبين للإخوان وهما: «محمود زينهم» و«حسن عبد الحافظ» واغتيال محمود فهمي النقراشي (١٨٨٨-١٩٤٨) رئيس وزراء مصر بعد عشرين يومًا من قرار حل جماعة الإخوان المسلمين في ٢٨-١٢-١٩٤٨ على يد أحد أعضاء الجهاز السري للإخوان وهو عبد المجيد حسن، وأيضا محاولة اغتيال حامد جودة رئيس مجلس النواب في ٥ مايو ١٩٤٩، إلخ ، فإهدار الدم وسفكها مرتبط بالتكفير والحكم على دينه بخروجه من حظيرة الإسلام وهو الذي تمثل في فكر الإخوان إبان التأسيس في مرحلة البنا واستمرار المنوال على ذلك .

سيد قطب وأيديولوجيا التكفير والحاكمية:

لا شك أن شخصية سيد قطب إبراهيم (١٣٢٤-١٣٨٦هـ/ ١٩٠٦-١٩٦٦م) من الشخصيات المثيرة للجدل والمفجرة للاختلاف سواء على مستوى حياته وما شابهها من مواقف «قلقة» أو متنقلة من الطرف إلى الطرف أو ما تركه من آثار فكرية ومصطلحات ثقافية أثارت خلافا وتركت آثارا على مستوى جماعة الإخوان والجماعات المتطرفة حتى وقتنا الراهن.

فقد اختلف الباحثون في تقدير «الفكر القطبي» اختلافا بينا فمنهم من ذهب إلى أنه أحيا الفكر «المودودي» خصوصًا فيما يتعلق بمقولتي «الحاكمية» و«الجاهلية» ومنهم من اعتبر «فكره» قراءة جديدة للفكر الإسلامي الذي يستند على القرآن والسنة أساساً فهو اجتهاد خاص يرقى بصاحبه إلى أن يعد مجددًا، ومن الباحثين من ذهب إلى القول بتنوع «مرجعياته الفكرية» إلى حد الجزم بتأثره بالماركسية خصوصًا في قضية العدل الاجتماعي (والتي تم طرحها في كتابه العدالة الاجتماعية في الإسلام)، ومنهم من أنكر عليه كونه «مفكرًا دينيًا»، بل هو في نظرهم مجرد «انتهازي» متسلق يتخذ من الإسلام مطية لتحقيق طموحات شخصية.

وعند محمود إسماعيل أن جل هذه الأحكام صائبة باستثناء كونه مجددًا، فقد استعار

مقولات «المودودي» مؤلًا إياها تأويلا خاصًا تحت تأثير معطيات تاريخية مغايرة، مفيدًا من ملكاته ونبوغه وثقافته كذا من معطيات محنة الإخوان ومحنته. وينوه إسماعيل بأن ذلك المنحى لا يجعل منه مجتهدًا مجددًا؛ إذ ظل سلفيًا محضًا، لا يقيم وزنًا للعقل أو الاجتهاد.[1]

فمن الخطأ في نظر إسماعيل – اعتبار سيد قطب مجددًا في الفكر الديني – كما ذهب الكثيرون، بل من الخطأ اعتباره مفكرًا إسلاميًا أصيلًا إذ أن حصاد أفكاره أبعد ما تكون عن روح وجوهر الإسلام عقيدة وشريعة وحضارة وتراثا بعد ما عبرت (أي أفكاره) عن «فكر أزمة» و«أزمة مفكر» طموح اتخذ من الإسلام مطية لتحقيق طموحات سياسيّة، وكان صيغته جماع أخلاط شتى من معارف قاصرة وثقافة متطرفة ضحلة.[2]

غير أن الباحث الإسلامي محمد مورو يتجه في رأيه إلى الدفاع عن «قطب» الإسلامي مبررًا مرحلته فيقول: «لا يختلف اثنان على فضل الشهيد سيد قطب، ولا على بلائه وابتلائه في سبيل الله، ونحسبه إن شاء الله شهيدًا، ولا نزكي على الله أحدًا، ولا يختلف اثنان على أهمية ما كتبه الشهيد سيد قطب وخاصة تفسيره المعروف «في ظلال القرآن»، ولكن من واجب الشهيد سيد قطب علينا أن لا نستخرج من أحكامه أكثر مما تحتمل، وألا نحمل فكر الرجل غلونا أو تشددنا أو قصر نظرنا، يجب علينا أن نفرق بين ما قدمه الشهيد سيد قطب في إطار التفسير أو الفقه أو التاريخ وبين أطروحته السياسية والفكرية ورؤيته حول قضايا العمل الإسلامي المعاصر، فالقضية الأولى تؤخذ في إطار العلوم الإسلامية باعتباره مفكرًا إسلاميًا مجتهدًا، أما أطروحته السياسية والحركية فيجب ألا نفصلها عن ظرفها الموضوعية ذلك أن الشهيد سيد قطب قد وضع تلك الرؤية في فترة عصيبة من فترات القهر والقمع التي تعرضت لها الحركة الإسلامية المعاصرة في الخمسينيات والستينيات من القرن العشرين في مصر.[3]

---

(١) محمود إسماعيل: الفكر الإسلامي الحديث بين السلفيين والمجددين، رؤية للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى ٢٠٠٦، ص٨٣.

(٢) محمود إسماعيل: مرجع سابق ذكره، ص٨٥.

(٣) محمد مورو: الإسلام السياسي، شخصيات، جزيرة الورد، ص٣١٣.

وتحاول فاطمة سيد أحمد أن تستكشف شخصية سيد قطب ومدى التناقض فيها وأسباب ذلك، فذكرت أن المعضلة الحقيقية في شخصية «قطب» أنه لم يكن له كاريزما «حسن البنا» ولا مكانة «أبو الأعلى المودودي» عالميًا ، ومن قبلهما لم يقدر أن تكون لديه كاريزما «طه حسين» ولا شهرة تلاميذ «العقاد» . كل هذه الشخصيات التي قلدها أو حاول أن يكون مثلها ذائع الشهرة التي لم ينلها في وجودهم كانت لها علاقتها المباشرة بالإجابة على من هو «سيد قطب» الذي لا نعرفه، وما التفسير لتحول شخصيته التي جمعت مناهج فكرية في الأدب والفلسفة وعلم النفس؟[(١)]

وتعتبر -سيد أحمد- شخصية سيد قطب ذات ظلال فهو دائمًا في الطرف الأقصى من الاتجاه الذي يؤمن به، ويرجع ذلك إلى أمرين: الأول : أنه شخصية انطوائية على الرغم من علاقاته وبيئته ، الثاني: وهو النقيض للانطوائية أنه يميل إلى الظهور والتباهي بنفسه إلى أبعد الحدود. [(٢)]

بيد أن هاني نسيرة يرى أن سيد قطب – قبل تحوله نحو التوجه الإسلامي – لم يكن كاتبًا غفلًا مجهولًا في الوسط الثقافي والفكري في مصر ، بل كاتبًا وناقدًا معروفًا ، صدر له قبل التحول عشر كتب منذ أن قرر الاتجاه لتأليف الكتب سنة ١٩٤٥ ، كما كتب قبل هذا التاريخ المقالات والأبحاث النقدية والأدبيّة في مختلف المجالات وصحف عصره، وخاض المعارك الفكرية والأدبية والنقدية في مواجهة طه حسين (١٨٨٩-١٩٧٣م) وكتابه «مستقبل الثقافة في مصر» ، كما دافع عن أستاذه عباس محمود العقاد (١٨٨٩-١٩٦٤) في مواجهة الأستاذ مصطفى صادق الرافعي (١٨٨١-١٩٣٧) وتلامذته : محمود شاكر وعلي الطنطاوي ومحمّد سعيد العريان، الذين انتصروا للأخير، وخاض كذلك دفاعًا عن العقاد، وفي معارك أخرى مع أمين الخولي وعائشة عبد الرحمن «بنت الشاطئ» (١٩١٣-١٩٩٨) ومدرسة الأمناء وغيرها. [(٣)]

وبغض النظر عن الاختلاف المشروع حول شخصية سيد قطب ومحور أفكاره ومدى تميزه الفكري في الجانب الثقافي والإسلامي إلّا أنه يثار السؤال الهام في

---

(١) فاطمة سيد أحمد : مرجع سابق ذكره، ص٦٠.

(٢) فاطمة سيد أحمد : مرجع سابق ذكره، ص٦١.

(٣) هاني نسيرة : أزمة النهضة العربية وحرب الأفكار ، ص١١٠.

الأذهان: كيف كان سيد قطب في الإخوان ومدى ما قدمه من أفكار على المستويين الإخواني والتيارات الإسلامية الأخرى؟

يذكر عدد من الباحثين بل نستطيع أن نقول عنها : أنها الرواية الأشهر والتي يذكرها كثير من المهتمين والباحثين في الشأن الإخواني وتيار الإسلام السياسي أنه يبرز حدثان لعبا دورًا مهمًا في انتساب سيد قطب إلى الإخوان المسلمين – كما يقول صلاح خالدي – الحدث الأول: تمثل في الفرحة الكبيرة والغامرة والتي لمسها سيد قطب عند الأمريكيين بعد اغتيال البنا . والثاني: اجتماع سيد قطب مع عميل بريطاني اسمه «جيمس هيورث دونّ» الذي أخبره – كما يقول – أن الإخوان وحدهم يقفون حاجزًا أمام التقدم والحضارة في الشرق، وعرض «دونّ» على قطب تقارير المخابرات الأمريكية عن البنا وحركته[1].

بيد أن نسيرة خرج من هذا الاتفاق استنادًا على روايته كما ذكرها طارق البشري في كتابه المهم «الحركة السياسية في مصر بين عامي ١٩٤٥ و ١٩٥٢» يذكر فيها أن حسن البنا (١٩٠٦-١٩٤٩) قد سعى لضم سيد قطب للإخوان بعد إصدار الأخير لجريدة تسمى «الإصلاح» عام ١٩٤٧ ، كان يراها حسن البنا منطبقة في التوجه مع الإخوان ، ولكن قطب رفض الانضمام للتنظيم، مؤثرًا العمل وحده، مستقلًا كما كان.

وقد علق نسيرة على هذا الموضوع لينتقد ما سرده البعض من تحول قطب للإخوان عقب مجيئه من أمريكا وبعد أن استقبله الإخوان في قطار الإسكندرية ، وهاتف مرشدهم من المطار، طالبًا عضويته، وأوضح نسيرة أن كتاباته وخاصة كتابيه «التصوير الفني في القرآن الكريم » ، و«مشاهد القيامة في القرآن الكريم» ، وكتابه الذي ألفه قبل سفره «العدالة الاجتماعية في الإسلام» تنم عن التوجه الإسلامي، غير أنه عقب عودته تحول ميله من «الفردية» التي كان يعيشها إلى الارتباط بالتنظيم ، بل والذوبان في فكرة التنظيم كلية، فقد انتقد نسيرة التفسيرات التي سبقت تحول سيد قطب والتي رآها تناقض العقل وتجافي المنطق مثل الحديث الذي يذكر أن قطب دعا للعُري قبل تحوله وأنه كان ملحدًا وداعية للإلحاد وهو ينكره كل من عرفه كما لا

---

(١) عبد الغني عماد: حاكمية الله وسُلطان الفقيه ، قراءة في خطاب الحركات الإسلامية المعاصرة، دار الطليعة، بيروت، ص١٣ .

يستطيع إثباته أي ممن يدعيه.[1]

وسواء قبلنا بالرأي الأشهر في انضمام سيد قطب للجانب التنظيمي والفكري للإخوان والتي عرضته للمواجهة مغ نظام ثورة يوليو بسبب كتاباته ومواقفه السياسية المعارضة للمعاهدة المصرية – الإنجليزية في يوليو ١٩٥٤ مما عرضه للحكم عليه بالسجن لمدة خمسة عشرة عامًا، وسواء قبلنا بالرأي المتفرد لهاني نسيرة، إلا أننا نتساءل: ما هي القيمة الفكرية المضافة للإخوان من انضمام سيد قطب؟ وما هي أيديولوجيته والتي أضافت تغييرا في المنهج الإخواني؟

نستطيع أن نقول مع جيلز كيبل : إن سيد قطب هو الذي ملأ الفراغ الأيديولوجي من خلال الكتب التي ألفها في السجن بن عام ١٩٥٤ (عندما تم اعتقاله لأول مرة) عام ١٩٦٤ (عندما أطلق سراحه لفترة وجيزة ليعاد القبض عليه مرة أخرى، وتجري محاكمته وينفذ فيه حكم الإعدام ١٩٦٦) ، فقد كان حسن البنا مؤسس الإخوان هو الذي يقرر كل شيء ، وهو الذي يحدد خط التنظيم في ضوء تطورات الموقف السياسي والاجتماعي والاقتصادي والديني، وكان أهم ما تركه من أعمال مكتوبة سيرة ذاتية «مذكرات الدعوة والداعية» ومجموعة من الرسائل، ولم يكن هذا الإنتاج كافيا بحال من الأحوال لمعالجته كل المشاكل والتحديات.[2]

فقد لعبت هذه الشخصية المحوريّة – كما تذهب هالة مصطفى – دورًا خطيرًا في تاريخ جماعة الإخوان المسلمين فكرة وحركة، كما كان لها التأثير الأول نمو وتطور الجماعات الإسلامية المعاصرة بتياراتها المختلفة.

فمن الصعب اعتبار فكر سيد قطب – رغم ثوريته – فكرًا جديدًا تمامًا على الفكر الإخواني التقليدي والذي أرساه حسن البنا أو متناقضًا ، فالمرتكزات الأساسية التي بني عليها قطب فكره – كما تذكر مصطفى – هي في جوهرها نفس المرتكزات التي استند إليها البنا فيما يتعلق بالقضايا الأساسية والرؤية العامة، فقطب مثل حسن البنا آمن بأولوية العملي الحركي على أي عمل آخر ، واعتبر الحركة هي مجال العمل الأساسي لإحداث تغيير جذري في المجتمع من أجل إقامة الحكم الإسلامي.

---

(١) هاني نسيرة : مرجع سابق ذكره ، ص١١، وما بعدها.

(٢) جيلز كيبل: النبي والفرعون، مكتبة مدبولي ، عام ١٤٠٩هـ/ ١٩٨٨، ص٢٢.

كما أنه لم يختلف موقف سيد قطب من مفهوم «القوميّة» بمعنى أن تكون العقيدة هي رابطة التجمع الأساسيّة وموازية للجنسية.. وأن هذا يتفق مع الهدف الأعلى لهما وهو إقامة «الخلافة الإسلامية» التي لا تعترف بالحدود القومية ولا بالدولة القومية بمعناها الحديث. [١]

بيد أن انتقال «قطب» من موقف الإعجاب الشديد بالحضارة الغربية إلى المعاداة التامة لها وللعالم الغربيّ المعبر عنها لم يبعد هذا العداء عن موقف حسن البنا من الحضارة الغربية – كما تذكر مصطفى – والذي فصل فيه الأخير بين علومها الإنسانية وفكرها وفلسفتها وبين النتاج المادي لها ، وفي حين رفض التفاعل مع الجانب الأول منها، فقد قبل التعامل مع الجانب الآخر الناتج عن التقدم العلمي والتكنولوجي. [٢]

وأيا ما كان الأمر فإنه لا يمكن أن يفوتنا – ونحن بصدد مناقشة أيديولوجية التكفير – الخاصة بسيد قطب وأثرها على تيار الإسلام السياسي المعاصر فإننا سنجد أنّ انطلاق سيد قطب من حيث انتهى أبو الأعلى المودودي (١٣٢١-١٣٩٩هـ / ١٩٠٣-١٩٧٩م) حيث يعتبر أنّ العالم –اليوم- بما فيه العالم الإسلاميّ يعيش جاهلية سائدة قبل الإسلام وهو يقول في تعريف الجاهلية: «إن المجتمع الجاهلي هو كل مجتمع لا يخلص عبوديته لله وحده، وبهذا التعريف الموضوع يدخل في إطار المجتمع الجاهلي جميع المجتمعات القائمة على الأرض فعلًا» ، ويرجع ذلك إلى تجاهل مفهوم «لا إله إلا الله» الذي يجعل الحاكمية لله وحده، وذلك استنادًا إلى النص القرآني: ﴿**وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ**﴾(المائدة: ٤٤) ، ويعتبر قطب أن «إعلان ربوبية الله وحده للعالمين معناها: الثورة الشاملة على حاكمية البشر في كل صورها وأشكالها وأنظمتها وأوضاعها». [٣]

ولا يتصورن أحد أن سيد قطب توقف عند مفاهيم المودودي واكتفى بذلك، بل تجاوز صاحب مقولة «الحاكمية» و«الجاهلية» ، فحكم بكفر الأمة وليس المجتمع وحده والدولة فقط ، وقد قطع في حكم هذا بشكل حاكم وكلي وبدون تردد شاملًا

---

(١) هالة مصطفى: الإسلام السياسي في مصر ، ص٩٩.

(٢) هالة مصطفى : مرجع سابق ذكره، ص١٠٠.

(٣) عبد الغني عماد: مرجع سابق ذكره، ص٣٩.

الحاضر وأربعة عشر قرنًا من الماضي – كما يذكر عبد الغني عماد – ولم يستثن إلا الخلافة الراشدة في عهديها الأولين في –حكمه– إذ قال: «ليس على وجه الأرض مجتمع قرر فعلًا تمكين شريعة الله وحدها ورفض كل شريعة سواها». فالأمة الإسلامية «انقطع وجودها منذ انقطاع الحكم بشريعة الله من فوق الأرض جميعًا».[(١)]

وهذا الكفر الذي عمّ الأمة – بنظر سيد قطب ليس كفرًا بالشريعة وحدها بل هو كفر بالعقيدة، فهو يعتبر أن الأمة تعيش في الردة ويسودها الحرام ويحكمها الكفر وهي تغرق في «جاهلية» أظلم من تلك التي عاصرها الأوائل...

ويرى قطب أنه لا مناص من أربع مراحل لتحقيق البعث الإسلامي:

(١) التكوين العقيدي والحركي (القناعة).

(٢) الاعتزال الشعوري (المفاصلة).

(٣) الاستعلاء على المجتمع (الثبات).

(٤) التمكن لقتال الجاهلية الجديدة وإسقاطها وإعلاء الحاكمية (التفويض) ومن ثمّ يصل سيد قطب إلى مرحلة (التفويض) حيث تقيم الطليعة المجتمع الفعلي الخاضع للحاكمية الإلهية.[(٢)]

وقد أثارت صيغ سيد قطب تأويلات متعارضة بين مريديه – كما يذكر ريتشارد دكمجيان – تركزت حول عدة قضايا أساسية: دور «الطليعة» ، خصائص أعضائها وقياداتها، طبيعة الانفصال عن المجتمع، والعلاقة بين «الطليعة« والمسلمين المخلصين ممن يعيشون تحت النظام الجاهلي،

وقد أنتجت الخلافات حول هذه القضايا انشقاقًا بين أتباع قطب، فقد آمنت مجموعة كبيرة من شباب «الإخوان» يقودها «شكري أحمد مصطفى» بتفسير ضيق لآراء سيد قطب ، وبدأت تعزل نفسها عن «المجتمع الجاهلي» وأفراده ورموهم بتهمة «الكفر»، هذه المجموعة التي سمّت نفسها «جماعة المسلمين» وعرفت فيها بعد باسم «التكفير والهجرة» انضم إليها بعض أفراد «جماعة التبليغ» بينما كون آخرون جماعات

---

(١) عبد الغني عماد: مرجع سابق ذكره، ص٤٢.

(٢) حاكمية الله وسلطان الفقيه، ص٤٧.

مشابهة قائمة على أساس فكرة الانفصال عن المجتمع، من بين هذه الجماعات «جماعة الحركية» ، وجماعة «العزلة الشعورية» و«جماعة التكفير» بالإسكندرية.

والحق – كما يذكر دكمجيان – أن منظمة التحرير الإسلامي والجهاد كانا يشاطران سيد قطب اعترافه بأن قيام نسخة من المجتمع الإسلامي من غير ممكن عمليًا بسبب متطلبات الحياة الحديثة.[١]

ويرى عبد المنعم الحفني أنه نتيجة لكتاب سيد قطب «معالم في الطريق» انقسموا إلى أربع فرق: الأولى هم الجماعة الذين واصلوا ما بدأه حسن البنا قبل الاصطدام بالسلطة ، وهؤلاء هم من يسمون حتى اليوم باسم «الإخوان المسلمون» ، والثانية: هم من يُدعون بالسلفيين وهؤلاء يقرّون أنهم لا قبل لهم على التصدّي للمجتمعات الجاهلية إلا بإنكار ما تقوم به السلطة فيها بالقلب وليس باليد ولا باللسان ، والثالثة: جماعة التكفير والهجرة وهم الذين يرون أن يعتزلوا مجتمعات الجاهلية بالفرار بدينهم إلى أن يقووا ويشتدوا في دار الهجرة ويصبحوا قادرين على مواجهة من يسمونهم بالكفار ، وذلك أنهم قد كفرّوا هذه المجتمعات، والرابعة: جماعة الجهاد الذين يرون القتال ضد السلطة الكافرة واجبًا دينيًا وهو الوسيلة الوحيدة لتحقيق الدولة الإسلامية.[٢]

(١) ريتشارد دكمجيان : الأصولية في العالم العربي ، ترجمة وتعليق: عبد الوارث سعيد، دار الوفاء للطباعة والنشر، المنصورة، الطبعة الثالثة ، ١٤١٢هـ / ١٩٩٢م ، ص١٣٧ وما بعدها.

(٢) عبد المنعم الحفني : موسوعة الفرق والجماعات والمذاهب والأحزاب، والحركات الإسلامية، ص٥٧.

(١) في أصول النشأة الإخوانية وانتقاد مرحلتها

نشأت جماعة الإخوان المسلمين بمدينة الإسماعيلية حوالي ١٩٢٧ (وفي روايات أخرى راجحة عام ١٩٢٨م) كجمعية دينية – كما يذكر طارق البشري – تحض على «الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر» حيث تطلق نشاطها في البداية بالوعظ الديني والدعوة لإقامة مسجد أو لبناء مدرسة مع استثارة المشاعر الإسلامية لدى الناس ضد مظاهر التحلل الأخلاقي.(١)

والجدير بالذكر في هذا الصدد أن الدعوة ما لبثت أن بدأت تنتشر خارج الإسماعيلية في أبو صوير القريبة منها ثم بورسعيد والبحر الصغير والسويس والمحمودية، ومما يلاحظ – كما يذكر البشري – أنه كان هناك نشاط تبشيري قوى تمارسه بعض الإرساليات الأجنبية المسيحية في كل من المحمودية والمنزلة والإسماعيلية وبورسعيد وأبو صوير ، وفي القاهرة في ذات الفترة.(٢)

فلم تكن الفترة الأساسية لدى الشيخ حسن البنا قاصرة على إنشاء جماعة خيرية أو جمعية تقوم بالخدمات الاجتماعية وإنما كانت أبعد وأشمل تتصل بالمجتمع كله وتحاول أن تحيط بظواهره المختلفة وتردها إلى سبب واحد وتقترح لعلاجها منهجًا واحدًا.(٣)

بيد أن وحيد عبد المجيد يرى أن امتزاج الدعوة الدينية بالفكرة السياسية منذ اليوم الأول لتأسيس جماعة الإخوان بخلاف الاعتقاد الشائع في أنها نشأت جمعية دينية ثم تحولت إلى العمل السياسي عام ١٩٣٨ فلم يكن ذلك العام نقطة تحول من الديني إلى السياسي بل انعطافه انخرطت بمقتضاها الجماعة في معترك السياسة الذي ذهبت فيه إلى أبعد مدى ولم تكتف بوسائله السلمية بل أضافت إليها أدوات عنفية.(٤)

---

(١) طارق البشري : الحركة السياسية في مصر (١٩٤٥-١٩٥٢) ، الطبعة الثانية ١٤٠٣هـ/ ١٩٨٣، ص٤٣.

(٢) طارق البشري: مرجع سابق ذكره، ص٤٤.

(٣) طارق البشري : مرجع سابق ذكره ، ص٤٥.

(٤) وحيد عبد المجيد: الإخوان المسلمون بين التاريخ والمستقبل ، كيف كانت الجماعة، وكيف تكون؟ مركز الأهرام للنشر عام ٢٠١٠، ص١٣.

وعلل عبد المجيد هذه الانعطافة في العمل السياسي عام ١٩٣٨ رغم امتزاج الدين بالسياسة لدى مؤسس الجماعة وتأسيسها عام ١٩٢٨ بأنه من الطبيعي بالنسبة إلى جماعة صغيرة محدودة أنّ تعمل بشكل تدريجي لتحقيق أهدافها المبكرة التي لا تحدها حدود لم تكن أهداف حسن البنا صغيرة وكبرت بل الجماعة التي اعتمد عليها لتحقيق هذه الأهداف التي كانت كبيرة منذ البداية ، ولأن الجماعة كانت في مهدها صغيرة فالحكمة تتطلب أن تكون حركتها تدريجية تبدأ بالوعظ الديني لإقامة مسجد ومواجهة التحلل الأخلاقي والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر من الإسماعيلية إلى ما حولها: أبو صوير وبورسعيد والسويس مرورًا بالقاهرة التي انتقل إليها البنا عام ١٩٣٢م ومنها إلى باقي أنحاء البلاد، ولكن توسعها لم يكن جغرافيًا فقط ، بل في مجالات النشاط أيضا من الدعوة الدينية والإرشاد الأخلاقي إلى العمل الخيري وأشكال شتى من الرعاية الاجتماعية وصولا إلى العمل السياسي المباشر الذي بدأت إرهاصاته في المؤتمر العام الثالث الذي عُقد في مارس ١٩٣٥. [١]

واللافت في الأمر أن حسن البنا حينما بدأ تحركه في الإسماعيلية لم يبدأ في المساجد لأنه يذكر في «مذكرات الدعوة والداعية» أن جمهور المسجد يذكرون دائمًا الموضوعات الخلافية ويثيرونها في كل مناسبة فاتجه إلى المقاهي، ويقول كلمة قصيرة جذابة مشوقة رطبة لا تزيد مدتها على عشرة دقائق، فكان لهذا الأمر سحره في الجمهور الإسماعيلي، وحينما نضجت كل الظروف الموضوعية في الإسماعيلية لقيام جماعة الإخوان زاره في منزله في مارس ١٩٢٨ الإخوة الستة: حافظ عبد الحميد «نجار» ، وأحمد المصري «حلاق» ، وفؤاد إبراهيم «مكوجي» وعبد الرحمن حسب الله «سائق» وإسماعيل عز «جنايني» وزكي المغربي «عجلاتي» وحدثوه في شأن الطريق العملي الذي يجب أن يسلكوه «لعز الإسلام وخير المسلمين» وعرضوا عليه ما يملكون من مال بسيط، وحملوه تبعة عملهم، فكان القسمة والبيعة، وبعد مشاورة مع البنا على تحديد تسمية أنفسهم قال لهم: «نحن إخوة في خدمة الإسلام، فنحن إذا «الإخوان المسلمون». [٢]

---

(١) وحيد عبد المجيد: مرجع سابق ذكره، ص١٥.

(٢) زكريا سليمان بيومي: الإخوان المسلمون والجماعات السياسية في الحياة السياسية المصرية ١٩٢٨-١٩٤٨ ، مكتبة وهبة، الطبعة الثانية، ١٤١٢هـ، ١٩٩١، ص٨١.

والجدير بالبيان في هذا الصدد أن حركة الإخوان المسلمين قد شهدت توسعًا وانتشارًا هائلا منذ عام ١٩٣٣ بالقاهرة، وفي عام ١٩٤٠ أصبح لجماعة الإخوان المسلمين ٥٠٠ فرع ، وكل فرع له المركز الخاص به سواء كان هذا المركز متواجدًا في مسجد أو مدرسة أو ناد أو منزل أو مصنع، وكانت مدارس الإخوان تضم فصولًا لتعليم الفكر والنواحي الدينية ولتعليم النواحي الجسمانية البدنية (تحولت فيما بعد إلى التدريبات العسكرية) لأعضائها من أجل الكفاح المسلح أو الجهاد ، وكان الهدف من الجهاد – كما يذكر دليب هيرو – ليس فقط تحرير مصر وإنما أيضا تحرير الوطن الإسلامي كله إذ ينبغي أنّ يقام في الوطن الإسلامي حكومة إسلامية حرة تطبق مبادئ الإسلام وتطبق الأسلوب الاجتماعي الخاص بها، وتقدم مبادئها الأساسية الراسخة وتنقل نداءاتها الحكيمة إلى الشعب، وكان هدف الإخوان مشابها للأهداف التي عرضها جمال الدين الأفغاني (١٨٣٨-١٨٩٧م) منذ عشرات من السنين إلا أن الأفغاني كانت تنقصه الوسيلة التي تعينه على تنفيذ أهدافه، كانت تنقصه قاعدة شعبية عريضة من المؤمنين بآرائه وأهدافه.[١]

ويمكن لنا أن نتتبع مراحل أربع لحركة الإخوان المسلمين بها تحولات كبيرة على هذا النحو:

المرحلة الأولى : عام ١٩٢٨-١٩٣٢:

وفي هذه المرحلة وفي مدرسة التهذيب (وهي عبارة عن غرفة واحدة مؤجرة) تلقى الرعيل الأول من الإخوان المسلمين دروسهم في القرآن الكريم تلاوة وحفظًا، كما حفظوا أحاديث السنة المحمدية، وتمرنوا داخلها على الخطابة والتدريس، ولم تمض إلا شهورًا قليلة حتى أصبح عددهم يزيد على السبعين رجلًا.[٢]

كان البنا يريد أن يسرع الخطى في وضع تنظيم للجماعة تمارس من خلالها دعوتها، ويتضح ذلك جليًا في عقده لجلسات خاصة – كما يذكر سليمان بيومي – لا يجتمع فيها إلا عدد قليل من المنضمين للجماعة، وما أن تمكنوا (بعد جمع التبرعات ومنها ٥٠٠

(١) دليب هيرو: الأصولية الإسلامية في العصر الحديث، ترجمة: عبد الحميد فهمي الجمال، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٧، ص١١٩، ١٢٠.

(٢) زكريا سليمان بيومي: مرجع سابق ذكره، ص٨١.

جنيه من شركة قناة السويس) من شراء قطعة أرض لبناء الدار، وقد اشتملت هذه الدار – بعد اكتمال بنائها – على مسجد ومدرستين إحداهما للبنين والأخرى للبنات، وناد، وقدم بذلك دليلًا على رغبته في ألا تقتصر الدعوة الإسلامية على الوعظ والإرشاد، وإنما ينبغي أن تطابق وتطبق أحكام الإسلام في كل ميادين الحياة.(١)

المرحلة الثانية: ١٩٣٢-١٩٣٩:

ركز حسن البنا والإخوان في هذه المرحلة على أنشطة تعريفية بجماعة الإخوان، ومن ثمّ كثر التركيز على المحاضرات والدروس في الدور والمساجد وإصدار المجلات (مجلة الإخوان المسلمين) و(مجلة النذير) وإصدار عدد من الرسائل والنشرات وإنشاء الشعب في القاهرة والأقاليم والاتصال بخارج مصر (اليمن – الجزائر – سوريا)، وإقامة المؤتمرات الدورية في القاهرة والأقاليم، والمساهمة الفعالة في الاحتفالات والأعياد الإسلامية والدعوة الواضحة الجليّة إلى المنهاج الإسلامي.(٢)

المرحلة الثالثة: ١٩٣٩-١٩٤٥:

وفي هذه المرحلة استثمر البنا والإخوان انشغال الحكومة والإنجليز بمجريات الحرب العالمية الثانية وأحداثها الجسام للتركيز على استكمال البنى التنظيمية والإدارية للجماعة ليس في مصر فحسب، بل حتى في البلاد العربية الإسلامية، فنشطوا أيما نشاط في اتصالهم بالخارج في هذه المرحلة، كما استطاعت جماعة الإخوان أنّ تصل لكل قرية ومدينة وعزبة في جميع أنحاء مصر من خلال التنظيم المحكم مع تجنب التوغل في الجوانب السياسية.(٣)

المرحلة الرابعة: ١٩٤٥-١٩٤٩:

وهي مرحلة يطلق عليها – عبد الله النفيسي – مرحلة التنفيذ بعد مرحلتي التعريف والتكوين وهي تعد أخطر مرحلة قاطبة مرّت بها جماعة الإخوان المسلمين من حيث ضخامة الأحداث، والتي شاركت فيها، وما ترتب عليها من انعكاسات على الجماعة

---

(١) زكريا سليمان بيومي: مرجع سابق ذكره، ص٨٢.

(٢) عبد الله النفيسي: الإخوان المسلمون في مصر، التجربة والخطأ، في كتاب: الحركة الإسلامية، رؤية مستقبلية، مكتبة مدبولي، ١٤١٠هـ/ ١٩٨٩، ص ٢١٠.

(٣) عبد الله النفيسي: مرجع سابق ذكره، ص٢١.

وأهمها اغتيال حسن البنا (مؤسس الجماعة) في ١٢/ ٢/ ١٩٤٩ ، وشهدت هذه الفترة مطالبات الإخوان بإلغاء معاهدة ١٩٣٦، كما كانت الفترة من عام ١٩٤٥ وحتى عام ١٩٤٩ فترة اضطراب سياسي وصراعات حزبية، حيث تعاقب على الحكم ثلاث وزارات في فترة قصيرة، كما اشترك الإخوان في مظاهرات في ١٤-٢-١٩٤٦ وحدثت مصادمات أخرى في ٢٦-١١-١٩٤٦ احتجاجًا على مشروع (صدقي - بيفن)، وفي عام ١٩٤٨ اغتيل المستشار أحمد الخازندار بيد اثنين ممن ينسبون إلى الإخوان، وفي ٨-١٢-١٩٤٨ اتخذ محمود فهمي النقراشي (١٨٨٨-١٩٤٨م) رئيس الحكومة قرارًا بحل جماعة الإخوان بناء على أن الجماعة كانت تهدف لقلب نظام الحكم، وعلى أثر ذلك تم اغتيال النقراشي .(١)

وتجدر الإشارة هنا أنه لا توجد ثمة خلاف في أن الإخوان واحدة من أهم الحركات السياسية في تاريخ أمتنا العربية - كما يذكر صلاح عيسى - فقد لعبت دورًا مؤثرًا - بالسلب والإيجاب - في تطوره السياسي والاجتماعي والفكري منذ نشأتها في عام ١٩٢٨ وحتى الآن، وخلال الربع قرن المنصرم دخل الإخوان المسلمون في مجموعة من الصراعات السياسية مع أنظمة الحكم العربية التي تولت الحكم عقب الحرب العالمية الثانية (١٩٣٩-١٩٤٥) وهو ما انتهت بها بسبب ظروف معقدة إلى صدامات دموية - قلصت وجودهم المعلن، وألقت عليهم ستارًا من الصمت الثقيل اللهم إلا من أقوال أعدائهم ومخالفيهم في الرأي.(٢)

ومن ثمَّ فقد تعرضت الجماعة ومؤسسها لاختلاف الرؤى وتعدد مناظير التقويم ما بين مادح وقادح، وقد حرص العديد من الباحثين على التقويم الموضوعي للحركة من خلال مراحلها - المشار إليها سالفا - ومن هؤلاء عبد الله النفيسي ، والذي يرى أن نقاط الضعف لدى البنا (رحمه الله) تتركز في ثلاث جوانب أساسية : أولها: ضعف إشرافه على (النظام الخاص) أي الجناح العسكري في الجماعة وثانيها: إهماله تدريب كوادر قيادية تتمتع بأهلية القيادة لتأتي من بعده ، وثالثها: تحامل حسن البنا الدائم على الحزبيّة والأحزاب مما يعكس لديه غياب النظرية الكاملة لعلاقاته السياسية داخل

(١) عبد الله النفيسي: مرجع سابق ذكره، ص٢١٢.

(٢) صلاح عيسى: الكارثة التي تُهددنا ، مدبولي ، الطبعة الأولى ، ١٩٨٧.

مصر.[1]

وينتقد النفيسي التنظيم والتركيب الإداري للجماعة بأن هذا التركيب القيادي للجماعة لم يُعد مُجديًا اليوم، بل أصبح هو ذاته عقبة أمام الدعوة الإسلامية في مصر وبعض الأقطار العربية التي امتدت لها الجماعة نفسها، أقصد أن العصر لم يعد يحتمل (المرشد العام – مكتب الإرشاد – مجلس الشورى) وهو تركيب يُكرِّس كثيرًا من الأمراض الإدارية في القيادة وأهمها تركيز السلطة والقرار بيد فئة قليلة من الأشخاص ربما يعدون على أصابع اليد الواحدة كما هو حاصل اليوم، ويمتد نقده إلى التنظيم بشكل عام وخلط الإخوان بين الدين وتنظيم الجماعة، فذكر – أنه ينبغي التفريق بين الدين كمعتقد وغاية والتنظيم كحشد ووسيلة ، ذلك أن الخلط الحاصل بين الاثنين في جماعة الإخوان صار أحيانًا يؤدي إلى استعمال الدين كوسيلة بُغية الحفاظ على التنظيم كغاية ، وهنا مكمن الخطر على الدِّين والتنظيم والمجتمع السياسي الذي يتجاذبان فيه لذا ينبغي تشجيع النقد الذاتي للتنظيم وفتح المجال أمام الجميع في ممارسة هذا الحق الطبيعي الذي باتت تعترف به كل النظم والجماعات والأحزاب في هذا العصر، ولا يبدو أن قيادة الإخوان في مصر بهذا التأصيل.[2]

وينتقد رفعت السعيد الإخوان ويميز الجماعة بعلامتين مميزتين أساسيتين عن غيرها من القوى السياسية: البيعة، والجهاز السري.

أما البيعة: فقد استند حسن البنا إلى حديثين شريفين:

الأول يقول: « من مات وليس في عنقه بيعة فقد مات ميتة جاهلية».

والثاني يقول: « من بايع إمامًا وأعطاه صفقة يده وثمرة قلبه فليعطه إن استطاع، فإن جاء آخر ونازعه فاضربوا عنق الآخر».

وقد بايع الأتباع إمامهم (البنا) بيعة كاملة في المنشط والمكره وعاهدوه على السمع والطاعة، ولم يكن حسن البنا يخفي ذلك على الناس فهو لم يكن يقبل منهم بأقل من السمع والطاعة دون نقاش، ويصنف البعض ولاء الأتباع قائلين: «إن سيطرة البنا

---

(١) عبد الله النفيسي: مرجع سابق ذكره، ص٢١٦.

(٢) عبد الله النفيسي: مرجع سابق ذكره، ص٢١٥.

على أتباعه كانت مطلقة وكاملة وتصل إلى درجة السحر».[1]

أما العلامة المميزة الثانية فهي الجهاز السري الذي مارس عمليات إرهابية وقتل، فقد تدرج الفكر التنظيمي لحسن البنا في سلاسة ويسر ليصل إلى هذا الهدف غير المعلن فبدأ «بالجوالة» بهدف تعويد الإخوان على النظام شبه العسكري وتدريبهم على الطاعة التامة والتفاني المطلق، ثم كانت «كتائب أنصار الله» ، ولقد أنكر البنا طويلا أنه يوجد ثمة جهاز خاص، ثم لا تلبث الحقيقة الواضحة أن تظهر عندما يتنافس رجال الإرهاب الإخواني القدامى في كتابة مذكرات يحاول كل منهم أن ينسب إلى نفسه أكبر قدر من القتل والإرهاب ، فكانت مذكرات صلاح شادي، أحمد عادل كمال، عبد المنعم عبد الرؤوف (١٣٣٣-١٤٠٥/ ١٩١٤-١٩٨٥م) ومحمود الصباغ، وقد اعترفوا جميعا بأعمال إرهابية بشكل مثير للدهشة لأنهم تحدثوا في تباه وتمجيد للفعل الإرهابي ، مؤكدين انتسابهم إلى الجهاز السري والتزامهم بصيغته وأهدافه.[2]

ويذكر السعيد في مضمار نقده لمؤسس الجماعة والإخوان أن لعبة السياسة عند الشيخ (حسن البنا) استمرت على هذا المنوال قول ونقيضه في وقت واحد، وإن كان الخط الثابت هو المناورة بين الجميع والتلاعب بالجميع، غير أن الشيخ قد أدرك وإن متأخرًا أن الجميع كانوا يتلاعبون به بينما يتخيل هو أنه يتلاعب بهم...

ويرى السعيد أن لعبة السياسة عند الشيخ بلا مبادئ، وذكر إشارات وهي:

- شركة قناة السويس قدمت له عونًا ماليا وقبله.
- الطاغية إسماعيل صدقي قدم له عونًا ماديًا ومعنويًا كبيرًا في بداية نشأة الجماعة.
- علي ماهر (١٨٨١-١٩٦٠) داهية القصر والموصوم بعلاقات مريبة خارجية كان الصديق الحميم للجماعة.
- عقد الإخوان المسلمون مؤتمرهم الرابع للاحتفال باعتلاء «جلالة الملك العرش».

---

(١) رفعت السعيد: التيارات السياسية في مصر، شركة الأمل للطباعة والنشر، الطبعة الأولى، ٢٠٠١، ص١٧١.

(٢) رفعت السعيد : مرجع سابق ذكره، ص١٧٢، ١٧٣.

– وقام الجوالة بدور المنظم في الاحتفالات الصاخبة بهذه المناسبة.

– عندما اختلف مصطفى النحاس باشا (١٨٧٩-١٩٦٥) مع الملك وخرج الوفديون في مظاهرات تهتف «الشعب مع النحاس» ، خرج الإخوان في مظاهرات أخرى تهتف «الله مع الملك».

– كتب أحد قادة البوليس تقريرًا يقترح «أن تشجع الحكومة الجماعة وتعمل على تعميم فروعها في البلاد حتى يكون ذلك أكبر خدمة للأمن والإصلاح» ويتباهى حسن البنا بذلك ويورده في مذكراته.

– يقول ريتشارد ميتشيل: «منذ أكتوبر ١٩٤١ قامت علاقات بين البنا والإنجليز».

– وتؤكد جريدة الإخوان أن اتصالا قد تم مع الإنجليز وأن الطرف الإنجليزي قد أبدى استعداده لتقديم عون مالي للجماعة، وتقول: إن البنا قد رفض ذلك، ولكن باحثًا آخر يؤكد استنادًا إلى ما أسماه مصدر إخواني كان على علاقة بالسفارة البريطانية «أن عونا ماليًا كبيرًا قد قدم بالفعل وخاصة في غضون ١٩٤٧». [1]

بيد أن أحمد محمود كريمة قد ذهب في نقده للإخوان مذهبًا مختلفًا حيث نظر إليها من رؤية شرعية ، حيث أوضح أن جماعة الإخوان – من واقع إصداراتهم المنشورة بأقلام وأقوال كبراءها – تدعو إلى إنشاء جماعة مناقضة ومناهضة لأصول مصادر وأدلة ومقاصد الشريعة.

فقد عدد كريمة المؤاخذات الشرعية على فكر الإخوان فأولها – في نظره – غموض الفكر حيث الإخوان «توليفة» من تيارات وفرق كشأن فرق ضالة تراثية ومعاصرة تجمع شوارد من ديانات وشرائع مما يجافي المنهج العلمي السليم يدل على هذه التوليفة ما قرره مؤسس جماعة الإخوان حسن البنا (إن الإخوان دعوة سلفية وطريقة سنية وحقيقة صوفية وهيئة سياسية وجماعة رياضية ورابطة علمية وثقافية وشركة اقتصادية وفكرة اجتماعية).

ومن عواقب هذا الغموض :

(١) رفعت السعيد: مرجع سابق ذكره، ص١٧٥، ١٧٦.

(أ) عدم التفكير من التابع (العضو).

(ب) انتظار التفسيرات والتعليمات.

(جـ) تحكم غير المؤهل في التابع مهما كان التابع.

(د) التلون والتحول والروغان حسب مقتضيات الأحوال.

كما أن من المؤاخذات ابتداع البيعة، فالشريعة لا تعرف البيعة إلا لله عز وجل، وهي مبايعة المسلمين للرسول ﷺ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ﴾(الفتح : ١٠)، وما حدث في بيعة العقبة الأولى وبيعة الحديبية وبيعة النساء ، أما بالنظر لبيعة المرشد والتي تعتمد على قسم البيعة من (العضو المجاهد): «أعاهد الله العلي العظيم على التمسك بدعوة الإخوان المسلمين والجهاد في سبيلها والقيام بشرائط عضويتها والثقة التامة بقيادتها والسمع والطاعة في المنشط والمكره، وأقسم بالله على ذلك والله على ما أقول وكيل».

وهذا مؤداه: الخضوع والخنوع دون تفكير أو مناقشة ، ومن المؤاخذة أيضا شخص المرشد والتي تتركز السلطات في يده، وقد قرر رموز الجماعة عن شخصية المرشد ما قاله مصطفى مشهور: (إمام الدعوة في القرن العشرين – يقصد حسن البنا) ويعتقد أتباعه ولا يزالون فيه القداسة والملائكية ويقر بعض الأعضاء في فترات من الزمان أن المرشد لا يقبل أي نقد ولا مشورة وأن مجلس الجماعة وجمعيته العموميّة لا تخالف للمرشد أمرًا وتطيعه طاعة عمياء، وهذا مؤداه: قداسة شخص المرشد وعصمته كبابوات المسيحيين وأئمة الشيعة الإمامية.[1]

(١) أحمد محمود كريمة : جماعة الإخوان، رؤية نقدية وشرعية، ص١٢٦، ١٢٧.

(٢) الهيكل الإداري للإخوان المسلمين

(١) الهيئة التأسيسية «مجلس الشورى العام» :

وهي الهيئة التي تنبع منها السلطة الأولى في الإخوان وهي تقوم مقام الجمعية العمومية في سائر المنظمات، وتتكون الهيئة التأسيسية من الإخوان المسلمين والذين سبقوا بالعمل للدعوة وهي منوطة «بالإشراف العام على سير الدعوة واختيار أعضاء مكتب الإرشاد وانتخاب مراجع الحسابات إلى غير ذلك من أعمالها».

والاجتماع الدوري للهيئة التأسيسية في أول الشهر المحرم من كل عام هجري والذي يتم فيه سماع ومناقشة تقرير مكتب الإرشاد عن نشاط الدعوة في العام الجديد واختيار الأعضاء الجدد إذا حل موعد اختيارهم ومناقشة تقرير المراجع عن الحساب الختامي للسنة المنصرمة والميزانية المقترحة للسنة الآتية ويمكن للهيئة أن تجتمع في غير هذا الموعد المحدد هو اجتماع فوق العادة على أن يتم ذلك بدعوة من المرشد العام للإخوان إذا كان هناك ما يدعو إلى ذلك من أحداث أو بقرار من مكتب الإرشاد العام أو بأمر ثالث وهو طلب مقدم من عشرين عضوا والمرشد العام هو الذي يرأس الاجتماع ويكون – الاجتماع – صحيحا طبقًا للائحة إذا حضرت الأغلبية المطلقة (النصف + واحد).(١)

ويتألف مجلس الشورى في مصر من ١٢٣ عضوا منتخبًا يمثلون جميع المحافظات حيث يتم انتخابهم من مجالس شورى المحافظات ، وينضاف إليهم مكتب الإرشاد الحاليين وفقًا للائحة، وتتضمن مهامه – كما يذكر عاصم بسيوني – في الإشراف العام على الجماعة وانتخاب المرشد العام، وفي يوليو ٢٠١٠ م أعلن الإخوان عن انتخاب مجلس شورى جديد للجماعة في مصر حيث وصلت نسبة التغيير في المجلس إلى ١٦٪ .(٢)

---

(١) حسين بن محسن بن علي جابر : الطريق إلى جماعة المسلمين، دار الوفاء، المنصورة، الطبعة الثالثة، ١٤٠٩هـ/ ١٩٨٩م، ص٣٢٣.

(٢) عاصم بسيوني: نهاية الإخوان، الجماعة إلى أين ، مكتبة جزيرة الورد، ص٥٦.

وشروط العضوية فيها:

(أ) أن يكون من المثبتين.

(ب) ألا يقل سنه عن ٢٥ سنة هجرية.

(جـ) أن يكون قد مضى عليه ٥ سنوات في الدعوة.

(د) أن يكون متصفًا بالأخلاق والثقافة التي تؤهله لذلك، ولا يزيد عدد الذين يمنحون عضوية الهيئة التأسيسية على عشرة أعضاء كل عام.[(١)]

٢- المرشد العام:

يتم انتخاب المرشد العام* عن طريق الهيئة التأسيسية بحضور ما لا يقل عن أربعة أخماس أعضائها بموافقة ثلاثة أرباع الحاضرين منهم فإذا لم يكتمل النصاب القانوني يتم تأجيل الجلسة لمدة لا تقل عن أسبوعين، ولا يزيد عن أربعة أسابيع من تاريخ انعقادها الأول، فإذا لم يكتمل النصاب القانوني مرة أخرى يتم تأجيل الجلسة بنفس الشروط على أن يتم الإعلان عن الاجتماع المزمع عقده وعن أهدافه، ويتم الانتخاب في هذه الجلسة بنسبة ثلاثة أرباع الحاضرين أيا كان عددهم.[(٢)]

ويشترط فيمن يتولى المرشد ما يلي:

(أ) ألا تقل مدة عضويته في الهيئة التأسيسية عن خمس سنوات قمرية.

---

(١) رضوان أحمد شمس الشيباني: الحركات الأصولية الإسلامية في العالم العربي، مكتبة مدبولي، الطبعة الأولى، ص١٣١.

- منذ تأسيس جماعة الإخوان بلغ عدد المرشدين ثمانية وهم: حسن البنا (١٩٠٦-١٩٤٩) المرشد الأول ومؤسس الجماعة (١٩٢٨-١٩٤٩) وحسن إسماعيل الهضيبي (١٨٩١-١٩٧٣) المرشد الثاني للجماعة (١٩٤٩-١٩٧٤)، وعمر التلمساني (١٩٠٤-١٩٨٦) المرشد الثالث للجماعة في الفترة (١٩٧٣-١٩٨٦) ومحمد حامد أبو النصر (١٩١٣-١٩٩٦) المرشد الرابع للجماعة في الفترة (١٩٨٦-١٩٩٦) ومصطفى مشهور (١٩٢١-٢٠٠٢) المرشد الخامس للجماعة (١٩٩٦-٢٠٠٢)، ومأمون حسن الهضيبي (١٩٢١-٢٠٠٤)، المرشد السادس للجماعة في الفترة(٢٠٠٢-٢٠٠٤م) ومحمد مهدي عاكف المرشد السابع للجماعة (٢٠٠٤-٢٠١٠)، ومحمد بديع المرشد الثامن للجماعة من ١٦ يناير ٢٠١٠ حتى تم حبسه على ذمة التحقيقات بعد ثورة ٣٠ يونيو ٢٠١٣. انظر: نهاية الإخوان، ص٢٥.

(٢) حسين بن محسن بن علي جابر: مرجع سابق ذكره، ص٣٢٤.

(ب) أن يكون عالمًا متصفًا بالأخلاق والدراية بالشؤون العلمية.[1]

وللمرشد العام صلاحيات هائلة ولمدة قد تطول إلى نصف قرن لأنه منصب مدى الحياة، ولم تحدد له مدة للتقاعد، ومن الغريب أن يكون هذا في جماعة الإخوان وهي التي تعترض على القيادات المتشبثة بالسلطة مدى الحياة!!

وقد حددت المادة التاسعة (من النظام العام للإخوان) صلاحيات المرشد العام تحت أربعة بنود:

(١) الإشراف على كل إدارات الجماعة وتوجيهها ومراقبة القائمين على التنفيذ ومحاسبتهم على كل تقصير وفق نظام الجماعة.

(٢) يمثل الجماعة في كل الشؤون والتحدث باسمها.

(٣) تكليف من يراه من الإخوان للقيام بمهام يحدد نطاقها له.

(٤) دعوة المراقبين العاملين الممثلين للأقطار عند الحاجة لكل هذه الصلاحيات.[2]

وبعد انتخاب المرشد العام يقسم اليمين التالي:

«أقسم بالله العظيم أن أكون حارسًا أمينا لمبادئ الإخوان المسلمين ونظامهم الأساسي وألا أجعل مهمتي سبيلًا إلى منفعة شخصية وأن أتحرى في عملي وإرشادي مصلحة الجماعة وفق الكتاب والسنة وأن أتقبل كل اقتراح أو رأي أو نصيحة من أي شخص بقبول حسن وأن أعمل على تنفيذه متى كان حقًا، وأشهد الله على ذلك».

ثم تبايع الهيئة التأسيسية المرشد العام «الجديد» وكذلك يبايعه أعضاء الجماعة سواء بتقديم البيعة إلى رؤسائهم أو عند لقائهم بالمرشد العام، ونص بيعة الولاء هو الآتي:

«أعاهد الله العلي العظيم على التمسك بدعوة الإخوان المسلمين والجهاد في سبيلها والقيام بشرائط عضويتها والثقة التامة بقيادتها والسمع والطاعة في المنشط والمكره وأقسم بالله العظيم على ذلك وأبايع عليه والله على ما أقول وكيل».

ويظل المرشد في منصبه مدى الحياة – كما أسلفنا – وفي حالة وفاته أو عجزه يقوم

---

(١) الحركات الأصولية في العالم العربي، ص١٣٢.

(٢) عبد الله النفيسي: مرجع سابق ذكره، ص٢٤٤، ٢٤٥.

بعمله وكيله إلى أن تجتمع الهيئة التأسيسية في خلال شهر من تاريخ خلو المنصب لانتخاب المرشد الجديد.[1]

(٣) مكتب الإرشاد:

تنتخب الهيئة التأسيسية مكتب الإرشاد العام والذي يتكون من اثني عشر عضوا ينتخبون من بين أعضاء الهيئة عدا المرشد العام للإخوان ويلاحظ في انتخابهم أن يكون تسعة منهم من إخوان العاصمة (القاهرة) والثلاثة الباقون من بين إخوان الأقاليم.

وهناك شروط عن من يرشح نفسه لعضوية مكتب الإرشاد تتمثل في الآتي:

(أ) أن يكون من بين أعضاء الهيئة التأسيسية وأن يكون قد مضى على عضويته فيها مدة لا تقل عن ثلاث سنوات.

(ب) أن يكون مؤهلًا خلقيًا وعلميًا وعمليًا.

(جـ) ألا يقل سنة عن ثلاثين سنة هجرية.

وبعد الانتخاب والذي يتم بالاقتراع العام السري تعلن نتيجة الانتخاب ويقسم العضو على أن يكون حارسًا لمبادئ الإخوان واثقًا بقيادتهم، ثم تنتخب الهيئة التأسيسية أيضا من بين الإخوان التسعة القاهريين وكيلا وسكرتيرا عاما وأمينا للصندوق ومدة عضوية المكتب سنتان ويجوز اختيار العضو لأكثر من مدة ، وإذا خلا مكان أحد الأعضاء قبل مضى المدة حل محله الذي يليه في عدد الأصوات في انتخابات الهيئة[2] ومن هذه الأركان (الهيئة التأسيسية – المرشد العام – مكتب الإرشاد) يتكون المركز العام للإخوان المسلمين ومكانه في عاصمة البلاد حيث يقرر الباب الأول أن مقر القيادة الرئيسي هو مدينة القاهرة (مصر) وبسبب ما تضيف المادة نفسها (ويجوز نقل القيادة في الظروف الاستثنائية بقرار من مجلس الشورى إذا تعذر ذلك من مكتب الإرشاد).

ومع ذلك فتأكيد «المادة الأولى» على أن القاهرة – كما يذكر النفيسي – هي المقر

---

(١) الطريق إلى جماعة المسلمين ، ص٣٢٤.

(٢) الطريق إلى جماعة المسلمين ، ص٣٢٥.

الرئيسي للقيادة تأكيدا أيضا أن قيادة النشاط الإسلامي على المستوى الدولي ينبغي أن يؤول في النهاية للتنظيم المصري وقيادته، وهذا ما حصل بالفعل للتنظيم الدولي للإخوان فرغم اتساع النشاط الإسلامي اليوم في العالم، وبرغم تواجد أعداد كبيرة من أصحاب الخبرات والملكات والمواهب في الفكر والقيادة والإعلام والسياسة، والاقتصاد خارج مصر نجد ثمة ميل قوى في «التنظيم الدولي» للإخوان المسلمين نحو تأكيد (مصرية) القيادة.(١)

على كل حال يتفرع عن المركز العام المكاتب الإدارية والمناطق والشُعب والأسر ومهمتها كما يلي:

١- المكتب الإداري:

يتكون من رئيس المكتب ووكيل المكتب الإداري وسكرتيره وأمين الصندوق ويكون عادة نفس المناصب في الشعب الرئيسية أما بقية أعضاء مجلس إدارة المكتب فهم رؤساء المناطق في دائرة المكتب الإداري وأعضاء الهيئة التأسيسية في نفس الدائرة ومندبو النشاط في المكتب الإداري وزائر مكتب الإرشاد العام وليس للأخير حق الإدلاء بالتصويت.(٢)

٢- المنطقة:

ويتكون مجلس إدارة المنطقة من رئيس الشعبة الرئيسية في نفس المنطقة ورؤساء بقية الشعب الداخلة في المنطقة وزوار الشُعب وكذلك زائر المكتب الإداري ومندبو أوجه النشاط في الشعبة الرئيسية.(٣)

٣- الشُعبة:

يتكون مجلس إدارتها من خمسة أشخاص، يختار أحدهم المركز العام وهو رئيس الشعبة والأربعة الباقون تنتخبهم الجمعية العمومية للشعبة اثنين منهم وكيلين، والثالث منهم سكرتيرًا ، والرابع يتولى أمانة الصندوق، ويكون الانتخاب سريًا.

---

(١) عبد الله النفيسي : مرجع سابق ذكره، ص٢٤٤.

(٢) الحركات الأصولية الإسلامية في العالم العربي، ص١٣٣.

(٣) الطريق إلى جماعة المسلمين، ص٣٢٦.

ويشترط في عضو مجلس إدارة الشُعبة ما يلي:

(١) ألا يقل عمره عن ٢١ سنة هجرية.

(٢) أن تمضي على عضويته في الشُعبة سنتان على الأقل.

(٣) ألا يأتي ما ينافي واجبات العضوية أثناء عضويته.

أما ما يشترط في عضوية الشعبة فهو ما يأتي: [١]

(أ) ألا يقل عمره عن ثمانية عشرة عاما.

(ب) أن يكون حسن السيرة ولم يصدر ضده أحكام مخلة بالشرف.

(جـ) أن يكون فاهمًا فكرة الإخوان ناهضًا بواجباته.

(ء) أن يتعهد بالعمل بقانون الإخوان والنظام العام ويتابع بيعتهم.

(٤) الأسرة:

وهي الخلية الواحدة من مجموع الخلايا التي تتكون منها الجماعة وهي تتكون من خمسة أشخاص على رأسهم نقيب، وقد كان عدد شُعب هذه الجماعة في عام ١٩٤٨ حوالي ٢٠٠٠ شعبة تحتها يقارب المليون عضو – كما يذكر ريتشارد ميتشيل – أما المكاتب الإدارية فكانت على عدد من محافظات مصر وأما عدد المناطق فكانت أكثر من ٣٠٠ منطقة في مصر وحدها.[٢]

فالأسرة خاضعة للشُّعبة التابعة لها و«الشعبة» بدورها خاضعة للمنطقة التي تتبعها و«المنطقة» خاضعة للمكتب الإداري الذي تتبعه و«المكتب الإداري» خاضع لمكتب الإرشاد العام ومكتب «الإرشاد العام» بدوره خاضع للمرشد العام وحركة «المرشد العام» تسير ضمن الإطار العام الذي رسمته الهيئة التأسيسية للإخوان .[٣]

(١) الحركات الأصولية في العالم العربي ، ص١٣٤.

(٢) الطريق إلى جماعة المسلمين، ص٣٢٧.

(٣) الطريق إلى جماعة المسلمين ، ص٣٢٨.

(٣) النظام الخاص.. جدلية التكوين وعنف الإهدار للمخالفين:

اختلفت الآراء حول تاريخ نشأة هذا الجهاز بل وحول أهدافه ومحاولات تقييم أفعاله فيذكر فهمي هويدي ، وهو من المتعاطفين مع جماعة الإخوان المسلمين، بأنه قيل أن جماعة الإخوان – مثلا – كان لها جهازها السري المسلح فإن ملابسات نشأة هذا الجهاز محل جدل لم يحسم خصوصا وأن الإخوان يصرون على أنه تأسس لمقاومة الاحتلال وللحرب في فلسطين إضافة إلى أنه في أسوأ انحرافاته استخدم ضد السلطة ولم يستخدم ضد القوى السياسية أو الاجتماعية الأخرى ومع ذلك فالثابت أن الإخوان الآن قد تجاوزوا تلك المرحلة وما انفكوا يعلنون توبتهم ويثبتونها كلما جاء ذكر العمل السري أو المسلح.

بينما فهمي أبوغدير – وهو من قيادات الإخوان – يرجع نشأة النظام الخاص إلى عام ١٩٣٥ وعمر التلمساني (١٩٠٤-١٩٨٦) المرشد الثالث للإخوان يرجع هذه النشأة إلى عام ١٩٣٦م وإن كان في حوار مع مجلة «المصور» - بعد اغتيال السادات – نفى أن يكون التنظيم الخاص قد نشأ في وقت مبكر وذكر أنها كانت في الأربعينيات (من القرن العشرين)، أما صلاح شادي ومؤرخ الإخوان – محمود عبد الحليم – يرجعان هذه النشأة إلى عام ١٩٤٠ حيث عرش البنا على خمسة هم: صالح عشماوي (١٣٣٠-١٤٠٤هـ / ١٩١١-١٩٨٣م) حسين كمال الدين وحامد شريت وعبد العزيز أحمد ومحمود عبد الحليم الفكرة مع تكليفهم بإحاطة هذا الأمر بالسرية المطلقة وإن قيادة هذا التنظيم تركزت في محمود عبد الحليم وإن مجموعات هذا النظام قسمت إلى أسر، ثم انتقلت قيادة التنظيم إلى عبد الرحمن السندي الذي أدخله محمود عبد الحليم الجماعة ، ولما وثق به قدمه إلى البنا.[١]

وتعددت الروايات من جماعة الإخوان المسلمين وقيادتها والباحثين الإسلاميين بخصوص النشأة الأولى للنظام الخاص فذكر أحمد عادل كمال أن نشأة النظام الخاص عام ١٩٣٨ حيث ذكر تأكيدًا لذلك: أن الإخوان المسلمين قاموا عام ١٩٣٨ بجمع السلاح لفلسطين، وراح الإخوان يجوبون آفاق مصر وريفها في حركة لجمع السلاح

(١) السيد يوسف: الإخوان المسلمون وجذور التطرف الديني والإرهاب في مصر، ص٢٣٠.

يمدون به إخوانهم المسلمين في فلسطين، فنتج من عدم الخبرة بالسلاح أن كانت بين ما جمع الإخوان قطع غير صالحة، وهنا فكر عبد الرحمن السندي لأول مرة في إنشاء نظام خاص لاستيفاء هذه الدراسة وللقيام على أمرها .. اليوم لفلسطين وغدا لمصر ولسوريا والعراق.. ويشير الدكتور محمد عمارة إلى نشأة هذا النظام فيحددها في يوم الخامس من ربيع الأول ١٣٥٩هـ-١٣ أبريل ١٩٤٠ ويقول: أنه في هذا اليوم تمت البيعة «للعناصر الصالحة لحمل أعباء الجهاد» وانتظمت في «الكتائب الإخوانية» وأصبح لها نظام خاص في الدعوة – كما جاء في رسالة التعليم.. أما الدكتور محمد خميس حميدة – نائب المرشد العام للإخوان المسلمين – فقد حدد نشأة النظام الخاص بأنه حوالي عام ١٩٤٢م، ويرى الدكتور زكريا سليمان بيومي أن الأقرب للصواب أن فكرة التنظيم السري ذي الصفة شبه العسكرية قد ولدت مع الدعوة ، وفي السنة الأولى منها وهو يرجح عام ١٩٤٢ كتحديد لظهور الجهاز الخاص.[(١)]

وينتقد بيومي ما أثير حول نشأة (الجهاز الخاص) أو (الجهاز السري) في بعض المراجع والتي ترجع نشأته قبل الحرب العالمية الثانية، فقد اعتمد أصحاب هذا الرأي على ذلك بقصة ذكرها أنور السَّادات مؤداها أنّ أحد جنود الإخوان المتطوعين قد دخل على البنا ومعه صندوقان مغلقان فأمره البنا بفتحهما فإذا بهما مملوءان بالسلاح ، ويذكر مرجع آخر نقلا عن أنور السَّادات أن البنا كان يجمع السلاح سنة ١٩٤٠ ولا تأتي هاتان الروايتان المتضاربتان بدليل واضح يؤكد البداية الحقيقية لبداية الجهاز الخاص ، فجمع السلاح لا يقيم بذلك الدليل كما أنه أمر تقتضيه ضرورة تدريب الكتائب أو نظام الجوالة كما أن بعض الضباط الذين انضموا للإخوان قد شاركوا في شراء هذه الأسلحة استعدادًا لمواجهة الإنجليز مما يجعل تحديد ظهور ذلك الجهاز سنة ١٩٤٢ هو أقرب إلى الصواب.[(٢)]

غير أن الرأي الذي نميل إليه هو أنّ نشأة هذا الجهاز كانت في عام ١٩٤٠ فقد أكد ذلك مؤرخ الإخوان محمود عبد الحليم وأحد الخمسة والذي دعاهم حسن البنا إلى إنشاء نظام خاص تواجه الدعوة به مسؤولياتها في المستقبل، واقتنع الخمسة برأيه

---

(١) السيد يوسف: مرجع سابق ذكره، ص٢٣١، ٢٣٢.

(٢) زكريا سليمان بيومي : مرجع سابق ذكره، ص١٢٧.

وعهد البنا بإنشائه وتنظيمه وتدريبه على أن يكون على أساس من العسكرية الإسلامية ويحاط بسرية مطلقة، حيث كان برنامج المنضوين تحت لواء هذا النظام يقوم على الأسس التالية:

(١) تقسيمهم إلى أسر – خاص بهم – مع تسلسل القيادة مع اشتراكهم في جميع أوجه النشاط العامة للدعوة.

(٢) دراسة عميقة مستفيضة للجهاد في الإسلام وما جاء بشأنه في القرآن الكريم من سور وآيات وما جاء بشأنه في السنة النبوية والتاريخ الإسلامي القديم والحديث مع أخذ العضو نفسه بأنواع من العبادات والصيام.

(٣) التدريب على الأعمال الشاقة.

(٤) التدريب على توزيع المنشورات.

(٥) التدريب على التخاطب والتراسل بالشفرة.

(٦) التدريب على استعمال الأسلحة.

(٧) المبالغة مع السمع والطاعة في المنشط والمكره وكتمان السر.(١)

ولا يظن الظان أن مرحلة التنظيم لم يحدث لها تطورًا في مراحل متعددة كما كانت دعوة الإخوان ، فقد بدأ التنظيم في صورة نشاط رياضي كشفي ، وألفت الجماعة فرقة الرحلات في كل شُعبها وكان البنا قد ألف أول شعبها وتولى تدريبها بنفسه، وبعد ازديادها أوكل أمر التدريب لمدرس رياضة متصوف وهو (محمد مختار إسماعيل)، ثم عين (علي خليل) مدرسا فرقة «أبو صوير» مدربًا عاما للإخوان، ومع انتقال المركز العام للإخوان المسلمين إلى «القاهرة» وما صحبه من تطور في الجماعة تطورت – أيضا – فرق الرحلات وتعددت أغراضها وأصبح من أول هذه الأغراض التدريب العسكري ثم التعارف ونشر الدعوة في ضواحي القاهرة وتغير اسم فرق الرحلات إلى (الجوالة) وزاد الاهتمام بها في أعقاب المؤتمر الثالث سنة ١٩٣٥ حيث أصبحت تنظيما مستقلا ذا هيكل مستقل يتبع المركز العام مباشرة وقد كان لظهور تشكيلاته

---

(١) محمود عبد الحليم: الإخوان المسلمون ، أحداث صنعت التاريخ رؤية من الداخل، الطبعة الأولى، ص٢٨٠.

القمصان الخضراء (مصر الفتاة) والقمصان الزرقاء (الوفد) أثر في اهتمام المرشد العام حسن البنا بتشكيلات «الجوالة» في جماعته...

وعلى الرغم من أن تنظيم الكتائب قد ظهر بعد فرق الجوالة الأمر الذي يوحي لدى البعض أنه مرحلة متطورة للتنظيم كما أن بعض المراجع - كما يقول بيومي - تعتبر كلا منهما مرادفًا للآخر إلا أن الكتائب قد أسست لتدريب أعضاء الجماعة ومن يتم تدريبه يصبح فردًا من أفراد الجوالة ، وكان التدريب - بالفعل - يشمل ثلاث كتائب في الأسبوع: واحدة للعمال والثانية للطلاب ، والثالثة تجمع الموظفين والتجار ويرتبط تطور تشكيلات «الجوالة» بالظروف السياسية في مصر وبتطور الجماعة ذاتها.(١)

وظلت نشأة النظام الخاص محل خلاف وجدل كبيرين كما أن مبررات النشأة وتقييم الأداء والنظام ونتائجه تحوي العديد من الاجتهادات والرؤى والخلافات ، فيذكر محمود عبد الحليم لدواعي تكوين النظام ومبررات النشأة أنه قد «أدرك الأستاذ المرشد بحاسة القيادة التي وهبه الله إياها أن أعداء الدولة التقليديين وهم المستعمرون وعلى رأسهم الإنجليز ثم أذنابهم من الحكام المصريين الذين هم اليد التي تبطش بها المستعمر، أدرك أن هؤلاء الأعداء هم للدعوة بالمرصاد، وقد أدرك الأستاذ المرشد أن قضية فلسطين هي قضية الإخوان المسلمين وأن الإنجليز بتواطؤهم مع اليهود لن يعدلوا عن خطتهم ويسلموا البلاد لأهلها إلا مكرهين وأنه لابد من معركة فاصلة بين الإخوان المسلمين وبين هذه العصابات ما دام الإخوان مصرين على تحرير هذه البلاد، وأدرك الأستاذ المرشد - أيضًا - أن الحكومة المصرية والحكومات العربية حكومات ضعيفة هاذلة متخاذلة بل متواطئة وأن ليس في البلاد العربية جيوش سوى الجيش المصري، ولكن هذا الجيش من الهزال والجهل وعدم الخبرة بحيث لا يقوي على مواجهة عصابات اليهود.(٢)

ويرى زكريا سليمان بيومي أن اتجاه الإخوان المسلمين لنشأة هذا النظام كانت مثلها في ذلك مثل جميع المنظمات والأحزاب التي لم تعتنق النظام الليبرالي الدستوري حسب

---

(١) زكريا سليمان بيومي : مرجع سابق ذكره، ص ١٢٥، ١٢٦.

(٢) الإخوان المسلمون ، أحداث صنعت التاريخ ، ص٢٨٨.

الدستور سنة ١٩٢٣ إلى إنشاء تنظيم سري له صفة شبهة عسكرية ليعمل إلى جانب التنظيم العلني على أن الفرق بين الإخوان وبين غيرهم هو أنهم قد استندوا في تنظيمهم إلى مبدأ عقائدي ديني وهو مبدأ الجهاد فقد كانوا يرون أن الجهاد واجب على كل مسلم ضد أعداء الله من غير المسلمين وبالذات الذين يغيرون أو يحتلون ديار الإسلام.(١)

ويصر محمد حسنين هيكل (١٩٢٣ – ٢٠١٦(على تقديم رؤيته وتقييمه لنشأة النظام الخاص بقوله: «كان حسن البنا واعيًا للمخاطر التي تحيط به كما أنه يعرف أن هناك قوى كثيرة ترغب في تصفية حركته أو استيعابها وهكذا فإنه أنشأ جناحًا سريًا من الإخوان المسلمين أطلق عليه اسم «النظام الخاص» وتم تسليم هذا «النظام الخاص» وتدريبه ليصبح قوة قادرة على الضرب والردع،

ولقد كان الشيخ «حسن البنا» - وبعض أنصاره – يقولون: إن «النظام الخاص» بتدريبه وتسليحه يعد لمواجهة قوة الاحتلال ولكن الواضح أن هذا «النظام الخاص» كان يُعد للعمل الداخلي فلم يكن حجمه أفرادًا وسلاحًا وتدريبًا قادرًا على أن يمثل تحدّ حقيقي لقوات الاحتلال البريطاني، لقد أحيط النظام الخاص «بطقوس غامضة» تؤكد بدورها غموض أهدافه، فقد كان «الجاهزون» للانضمام له يؤخذون لكي يحلفوا يمين السمع والطاعة للمرشد العام داخل غرفة مظلمة وعلى مصحف ومسدس وبعدها يصبحون على استعداد لتنفيذ أي أمر مهما كان دون تساؤل أو تردد.(٢)

ويقدم الباحث رفعت سيد أحمد رؤيته في تقييم النظام الخاص وما ارتبط بها من نتائج وحقائق تتمثل في الآتي:

الحقيقة الأولى: إن هذا «الجهاز» قد أسس لفكرة الإسلام السياسي المسلح في تاريخ مصر والمنطقة العربيّة الإسلاميّة.

الحقيقة الثانية: أن هذا الجهاز جاء كرد فعل على ممارسات القمع التي مورست

(١) زكريا سليمان بيومي: مرجع سابق ذكره، ص١٢٧.

(٢) محمد حسنين هيكل: خريف الغضب، قصة بداية ونهاية عقد أنور السَّادات ، مركز الأهرام، الطبعة الأولى ١٤٠٨هـ، ١٩٨٨م

تجاه الإخوان من الحكومات الحاكمة وقتها وبالتحديد حكومة سري باشا والتي صادرت أنشطة الجماعة المختلفة بل وحرمانها من الدخول في الانتخابات والمشاركة في الفعاليات الاجتماعية.

الحقيقة الثالثة: إن هذا التنظيم الخاص كان يستهدف محاربة بريطانيا في مصر ومحاربة الكيان الصهيوني في فلسطين، ولكنه أخطأ الهدف رغم وصول بعض طلائعه إلى هناك عام ١٩٤٨م ، والخطأ عندما مارس الاغتيال السياسي تجاه خصوم الإخوان مثل النقراشي باشا رئيس وزراء مصر والقاضي أحمد الخازندار.[١]

وتقدم الباحثة هالة مصطفى تقييما لمرحلة النظام الخاص ونتائجه وتبدي الملاحظات التالية[٢]:

أولاً: أن نشأة «النظام الخاص» في ظل جماعة الإخوان المسلمين إنما يقدم دلالة قاطعة على محوريّة مبدأ «الجهاد الإسلامي» لدى أي حركة إسلامية، ومن هنا يصبح العنف السياسي أحد أدواتها «المشروعة» لتحقيق مطالبها ولمواجهة أي نظام.

ثانيًا: أن جماعة الإخوان المسلمين رغم الواقعية السياسية التي تنتهجها في مراحل مختلفة ومواضيع مختلفة لم تكن بعيدة عن تكريس العنف السياسي في إطار الحركة الإسلامية المعاصرة بل وإعطاءه شكلا تنظيميًا أو مؤسسيًا من خلال النظام الخاص.

ثالثا: أن طبيعة هذا النظام من حيث الشكل والمضمون فضلا عن طبيعة المهام التي اضطلع بها وطابع السريّة الذي أحاط به كلها عوامل صبغت سمات معينة على نمط العضوية ، فكان أغلب الأعضاء من الشباب القادر على حمل السلاح وسيادة النزعة الحماسية على توجهات النظام ، وهذا الأمر أدى إلى ظهور عاملين - كما تذكر مصطفى – كان لها أكبر الأثر على مسار الحركة: **الأول** : ازدواجية القيادة وعدم قدرة القيادة العليا على السيطرة على النظام الخاص.

والآخر: هو كثرة الانشقاقات وظهور جماعات صغيرة متمردة لكل منها توجهها

---

(١) رفعت سيد أحمد: قرآن وسيف، من ملفات الإسلام السياسي ، مكتبة مدبولي، الطبعة الثانية، أغسطس ٢٠٠٢، ص٥٤.

(٢) هالة مصطفى : مرجع سابق ذكره، ص١١٩.

ولكن يجمعها نفس الطابع الحماسي والاقتناع بالعنف كوسيلة أساسية للتغيير.

رابعًا: أن الضربات المتتالية التي تعرض لها النظام الخاص بسبب عمليات العنف التي قام بها من قبل السلطة السياسية في مراحل تاريخية مختلفة قد عرضت جماعة الإخوان المسلمين إلى كثير من المحن والأزمات. (١)

أمّا عبد الله النفيسي فهو أقرب إلى تقييم محمد حسنين هيكل لأعمال النظام وهو الأقرب إلى القبول فيقول: « وفي رأيي أن قيام (النظام الخاص) - من الأساس - كان اجتهادا في غير محله فهو قد نشأ وقام كما تقول مصادر الإخوان (لتواجه به الجماعة مسؤولياتها إزاء الإنجليز في الداخل والصهاينة في فلسطين) والسؤال الذي يلح عليّ: هل كان بإمكان الإخوان في ذلك الوقت أو في أي وقت آخر مواجهة الإنجليز أو الصهاينة؟ فالإنجليز خاصة عندما نشأ وقام هذا النظام الخاص (عام ١٩٤٠ في أقرب الروايات التي يعتقدها الباحث أيضًا) كانوا إمبراطورية لا تغيب عنها الشمس وكانوا يحكمون العالم الإسلامي يومها بالمراسلات والمهاتفات التليفونية لعظم سيطرتهم عليه، وكانوا يواجهون (الرايخ الثالث) في أوروبا بكل جبروته وعنفه ويحققون النجاحات تلو الأخرى ضده فهل يعقل أن يواجه هذه القوة الدولية نفرٌ من طلبة كلية الآداب في جامعة فؤاد الأول (القاهرة) مهما أخلصوا النيات والأعمال؟فالواقع السياسي والعسكري فوق الأرض لا تغيره النيات بقدر ما تغيره الإمكانيات ، فما إمكانيات (النظام الخاص) إزاء إمكانيات (التاج البريطاني)؟ أما الصهاينة في فلسطين فمواجهتهم لا تقل صعوبة عن مواجهة الإنجليز في داخل مصر آنذاك. (٢)

ومن الملفت أن ممارسات الجهاز الخاص كانت كلها تقريبًا موجهة لمخالفين الإخوان من السياسيين والقضاة ولم يحدث أن كانت هناك ثمة مواجهات كبيرة بين النظام الخاص والمستعمر الإنجليزي ، ومن ممارسات النظام الخاص لأعمال العنف يمكن طرحها في التالي:

---

(١) هالة مصطفى : الإسلام السياسي في مصر ، ١٢٠/ ١٢١.

(٢) عبد الله النفيسي : مرجع سابق ذكره، ص٢١٨.

١- اغتيال أحمد ماهر باشا (١٨٨٨-١٩٤٥) زعيم الحزب السعدي ورئيس الحكومة عام ١٩٤٥ أطلق عليه شاب إخواني يدعى «محمود العيسوي» الرصاص في مجلس النواب (أقر الشيخ سيد سابق (١٩١٥-٢٠٠٠) أن الفاعل من صميم الإخوان: الإخوان المسلمون والتنظيم الخاص. د. عبد العظيم رمضان).

٢- في ديسمبر عام ١٩٤٦ قام شاب من جماعة الإخوان المسلمين بإلقاء قنبلة على أقسام الشرطة بالقاهرة والجيزة لإرهاب إسماعيل صدقي .

٣- وقوع انفجار في أماكن بالقاهرة أهمها : حارة اليهود الممر بين محلات أركو وشيكوريل ومحلات داود عدس بنزايون وجاتينو وشركة أراض الدلتا المصرية بالمعادي وشركة الإعلانات الشرقية.

٤- اكتشاف مخبأ من الأسلحة والمعدات في عزبة محمَّد فرغلي (١٣٢٦-١٣٧٤هـ / ١٩٠٦-١٩٥٤).

٥- اغتيال حكمدار القاهرة سليم زكي جراء قنبلة حارقة.

٦- اغتيال محمود فهمي النقراشي رئيس الوزراء على يد طالب الطب الإخواني عبد الحميد أحمد حسن.

٧- محاولة اغتيال حامد جودة رئيس مجلس النواب.

خلاصة القول : ليس هناك ثمة شك في أنه من حق أي باحث أن يقتنع بأن الرواية الدالة على تاريخ نشأة النظام أو التنظيم العسكري للإخوان قد نشأ في عام ١٩٣٧ أو في عام ١٩٣٨ أو في عام ١٩٤٠ أو غيرها من الآراء التي قيلت في هذا الشأن ما دام قد ارتاح لرواية أحدهم ووثق فيها دون الآخرين، أو يكون قرار الإنشاء قد شمل أربعة أو خمسة أو ما يزيد عن ذلك أو ينقص من الأشخاص الذين تولوا شأن النظام وتأسيس قواعده ولكنه يكون من الخطأ في التحليل العلمي أن يقبل أن «النظام الخاص» للإخوان قد أنشئ اعتباطا أو جزافا أو بقصد تخويف بعض المخالفين وإرهابهم أو تخويف بريطانيا (العظمى) ودفعها للهروب من مصر أو إرهاب العدو الصهيوني واليهود القاطنين في فلسطين ، ففي هذه الحالة نتهم صاحب هذا الفكر بأنه لم تكن لديه ثمة موضوعية أو قدرة على التحليل وفهم حيادية البحث العلمي ، فليس

من المنطقي قبول فكرة أن «النظام الخاص» العسكري يمكن أن يكون تخويفيا فقط أو مفزعًا بأعمال إيهامية بقصد إرعاب الآخرين وإلا ما سالت الدماء وأهدرت الأنفس وحدث التفجيرات في أرجاء مصر ولشخصيات بعينها - كما أسلفنا بيان ذلك - وليس من المعقول أيضا قبول منطق أن الشيخ حسن البنا بإنشائه هذا النظام كان يقصد إرعاب بريطانيا والقضاء على جيشها في مصر وتحريرها من براثن استعمار بريطانيا وهو الذي ما قام يومًا ومجموعته بمظاهرة واحدة ضد الإنجليز كما فعل العديد من المرات تضامنا مع الملك وضد الوفد بالإضافة أن هذا التفسير - المطروح من الإخوان - يناقضه أمران: **الأول:** أن بريطانيا هي صاحبة اليد الطولى في تدعيم جماعة الإخوان ومؤسسها حسن البنا وإعطاء الأخير مبلغ خمسمائة جنيه وهو في حينه كان مبلغًا معتبرًا جدًا لا يستهان به في أواخر العشرينيات من القرن الماضي، وظلت تدعمه على طوال الدوام ولا تعترض طريقه، **والأمر الثاني** : أنّ بريطانيا (العظمى) إمبراطورية لا تغيب عنها الشمس في أرجاء الكون كله وصاحبة جيش من أقوى الجيوش إن لم يكن أقواها يكون من الختل - إذن - أن نقبل أنّ الشيخ حسن البنا أعد عدة «النظام الخاص» لإنهاء الاستعمار ومحاربة بريطانيا!! كما يكون من غير المنطقي - أيضًا - قبول فكرة أن الهدف من إنشائه القضاء على الصهاينة في فلسطين وعصابات اليهود سواء في مصر أو في فلسطين أو أن تفجير حدث من قبل «النظام الخاص» في حارة اليهود سيجعل حياتهم جحيما لا يطاق ومن ثم يرحلون إلى بلاد أخرى يجرون أذيال الخيبة والضعف والذلة!! إذن من المنطقي أن نقبل أن هناك هدف آخر يخرج من عقلية «إقصائية» و«عنصرية» و«شوفينية» وتميل للعنف التكفيري بشكل كبير!! فهذه العقلية الإقصائية والتي تظهر من اسم الجماعة وتميزها عن غيرها أو أنها تحتكر الإسلام وما عداها لا يسلم من نقص أو عيب في إسلامه وإيمانه لابد أن يخرج من عباءتها عصابة تقتل المخالفين في الرأي وتسفك دم من يخالفهم في الفروع والسياسات !! فمن ليس مع حسن البنا وجماعته فهو ضدها يمارس -إذن - ضده الإقصاء الفكري ثم الإقصاء الجسدي فليس من المقبول أن يعيش على ظهر مصر من خالف حسن البنا وعصاباته التي تحتكر الحق وتختص بالإسلام وتحكم على من خالفها بإهدار دمه وإزهاق روحه دون مبالاة، وهذا كان الهدف والذي ارتد على أصحابه بعد أن خرج «المارد من قمقمه» وتعددت القيادات وخرج الأمر عن مقتضاه وأدى ذلك إلى صراعات لهذه

القيادات في وجود حسن البنا وبعده، ودفع هو ثمن هذا الصراع واشتد بعد موته في وجود حسن الهضيبي والذي حاول القضاء على قيادات النظام الخاص أو احتواء النظام كلية، وقد ظل عدد من كوادر النظام ينفي إلى أن ظهرت مذكراتهم ناضحة وفاضحة بأعمالهم الإرهابية لتدل على تسابقهم على العنف وتباهيهم بذلك!!

(٤) الإخوان ومراحل الصراع التاريخي مع الأنظمة والحكام وحتى ثورة ٢٥ يناير:

(أ) عبد الناصر والإخوان: الصراع السياسي وتكفير رجال الثورة:

مازالت هناك خلافات في الرؤى بين ما حدث من عبد الناصر (١٩١٨-١٩٧٠) والإخوان في مصر من صدام دموي في عامي ١٩٥٤ و١٩٦٥م وما حقيقة هذا الصراع وأصله وما دور الإخوان في نجاح ثورة ٢٣ يوليو عام ١٩٥٢؟؟

فما لا شك فيه أن جماعة الإخوان المسلمين دخلت فترة الخمسينيات من القرن الماضي وهي محملة بكثير من الأعباء والخلافات والتصدعات الداخلية والتي كانت نتيجة ما نشأ من فراغ و الذي حدث بالفعل من غياب القائد المؤسس حسن البنا بما يتفرد به من كاريزما وأنه على الرغم من وجود هذه التصدعات والصدامات لم يكن هناك من ينازعها على الساحة فقد كانت الإخوان هي التيار الإسلامي الوحيد المهيمن على الساحة الإسلامية في مصر وقتئذ.[1]

والجدير بالبيان أن بعض الباحثين يعود بالعلاقة بين الضباط الأحرار والإخوان المسلمين إلى منتصف الأربعينيات (من القرن الماضي) حيث كانت الأوضاع السياسية والاجتماعية في مصر تدخل مرحلة دقيقة في مواجهة القصر والإنجليز ومثلت هذه الأوضاع في مجملها نقطة الالتقاء التي وجدت أغلب القوى السياسية الوطنية وفي إطار تفاعلات الأربعينيات ولدت العلاقة بين الإخوان المسلمين وتنظيم الضباط الأحرار.

ويرى البعض الآخر أن بداية تنظيم الضباط الأحرار تعود إلى عام ١٩٣٨ في منقباد عندما كان عبد الناصر وأنور السادات وبعض الضباط حديثي التخرج هناك فبدؤوا في تشكيل تنظيمهم.[2]

ويذكر الدمرداش العقالي أن البنا قد كتب موصيًا بأن يكون المسؤول عن جماعة الإخوان المسلمين في حالة اغتياله أو غيابه هو عبد الرحمن السندي رئيس الجهاز

---

(١) صالح الورداني: السيف والطاغوت، مصر بين الإخوان والسلفية، الطبعة ٢٠١٣، على حساب المؤلف، ص٢٣.

(٢) رفعت سيد أحمد: الدين والدولة والثورة، كتاب الهلال، العدد ٤١٠- ١٤٠٥هـ/ ١٩٨٥، ص١١٧.

الخاص أو «التنظيم السري» للإخوان المسلمين وإذا لم يكن السندي موجودًا يصبح جمال عبد الناصر حسين هو المرشد العام لجماعة الإخوان المسلمين!![1]

ومن ثمَّ .. يؤكد الإخوان أنهم هم الذين مهدوا للثورة ودعموها وأنّ عبد الناصر من عناصرهم، ولم يكن يتوقعوا أنه سوف ينقلب عليهم ويتخذ سبيلا غير سبيلهم، ومن هنا فإن الإخوان قد انقسموا في مواجهة عبد الناصر وبعد علمه بارتداده عنهم – كما يقول صالح الورداني – ونكوله عن الاتفاقيات التي أبرمت بينهم قبيل قيام الثورة.[2]

فمما لا شك فيه أنه كان هناك اتصال بين الإخوان والثورة وكان من نتيجته أن تم التوصل إلى اتفاق بين المجموعتين بخصوص الدور الذي يمكن أن يلعبه الإخوان – يوم الثورة – وكان الاتفاق – كما يذكر ميتشيل حول ثلاثة أدوار أساسية :

الأول: إذا ما نجحت الثورة فعلى الإخوان تأمين الوضع في الداخل وحماية المنشآت الأجنبية وإثارة حماس الجماهير لها إذا اما احتاج الأمر ذلك.

الثاني: على الإخوان أن يساعدوا في حماية الضباط الأحرار وتوفير سبل الهرب لهم إذا ما فشلت الثورة.

الثالث: التصدي لأي تدخل بريطاني محتمل الوقوع.

ورغم ما ذكره عديد من المؤرخين والباحثين من وجود علاقات تعاون إلا أن الأمر لم يخل من مناورات ولقاءات بين الإخوان وعبد الناصر إلى أن وصل الإخوان إلى قناعة في النهاية إلى التسليم بالأمر الواقع وقبلوا التعامل معه كحركة إسلاميّة فمن ثم تقدموا لعبد الناصر بمذكرة من أربعة نقاط:

الأول: الحكم بكتاب الله.

الثاني: تحديد علاقة الجيش بالحكم.

الثالث: رؤية للإصلاح الزراعي.

---

(١) سليمان الحكيم : أسرار العلاقة الخاصة بين عبد الناصر والإخوان، مركز الحضارة العربية ، ص١١.

(٢) صالح الورداني : مرجع سابق ذكره، ص٢٩.

الرابع: الحكم الدستوري.

ويرى صالح الورداني أنه بالنسبة للنقطة الأولى فقد اعتبر عبد الناصر أن الثورة ما قامت إلا لرفع الظلم وتحقيق العدل الاجتماعي والقضاء على الاستعمار وهذه مبادئ القرآن وبالنسبة للنقطة الثانية فقد طرح المرشد العام للإخوان (حسن الهضيبي) فكرة عودة الجيش إلى الثكنات وإتاحة الفرصة للشعب ليختار صور الحكم الملائمة ، أما إذا اختار الضباط الأحرار الاستمرار في الحكم فعليهم أن يستقيلوا من الجيش، أما النقطة الثالثة فقد طرح الإخوان الحد الأعلى للملكية الزراعية خمسمائة فدان بينما كان رأي عبد الناصر أن الحد الأعلى لا يجب أن يزيد عن مائتي فدان ، واعتبر عبد الناصر أنّ الإخوان ينحازون للإقطاعيين وبخصوص النقطة الرابعة المتعلقة بالحكم الدستوري فقد راوغ عبد الناصر كثيرًا.[1]

فقد كانت نظرة عبد الناصر – للدين – أنّ العقيدة الدينية لن تكون إلا نضالية تدافع عن أهداف ثورة يوليو وفي طليعتها «العقلانية الثورية» وبذلك فقد رفضت الأيديولوجية الناصرية التزمت والتعقيدات الجامدة للدين، إن اعتراض عبد الناصر ليس على الإسلام كعقيدة – كما يذكر فرحان صالح – وإنما كسلوك ورابط سياسي تمارسه الجمعيات والأحزاب بحيث تمزج الدين بالسياسة وعندما أراد أن يحدد دور الإسلام في مجتمع الثورة وضعه في سياق التراث العام للمجتمع المصري وأخذ منه ما يؤيد نظريات الاشتراكية العلمية ومشاريع التنمية والتحول الاجتماعي وفي عملية التعبئة للجماهير الداعمة لهذه النظريات والمشاريع لأن ذلك في رأيه هو الدور السياسي للدين ويجب ألا يتعداه وبسبب هذا الدور وقع الخلاف والصدام بينه وبين الإخوان المسلمين أكبر التنظيمات الإسلامية.[2]

بيد أنه بعد توقيع عبد الناصر اتفاقية الجلاء بدأ يعلن غضبته الفعلية على الإخوان فبدأ نقل الموظفين المنتمين لجماعة الإخوان إلى محافظات أخرى بعيدة عن العاصمة (القاهرة)..

---

(١) صالح الورداني : مرجع سابق ذكره ، ص٣٠.

(٢) فرحان صالح: تجربة الإخوان المسلمين من جمال عبد الناصر إلى عبد الفتاح السيسي، الهيئة المصرية العامة للكتاب ٢٠١٥،ص٧٠.

- واعتقال شباب الإخوان من النظام الخاص...

- ونشر الإشاعات والهجوم الدائم على الإخوان في الصحف.

وفي ظل هذه الأحداث والصراعات عرض على عبد الناصر تصفية الخلاف بينه وبين الإخوان ، وقد عرض قادة الإخوان مذكرة تفاهم لعبد الناصر تحوي نقاط هامة وهي:

١- التركيز مجددًا على رابطة الإخوة بين الإخوان ورجال الثورة.

٢- تحميل مسؤولية الخلاف والتصدع في العلاقة بينهما لعناصر من كلا الطرفين: الإخوان والضباط.

٣- إعادة النظر في مواقف كل من الطرفين.

٤- رفض رمي رجال الثورة «بالكفر» من قبل عناصر الإخوان.

٥- رفض أسلوب معاملة الإخوان بمنطق العدو من قبل رجال الثورة.

٦- الإعداد لاجتماع بين الطرفين في مكان محايد.(١)

ومن الملفت أن الإخوان في بواكير الثورة والخلاف اعتمدوا في صراعهم مع رجالات الثورة والضباط الأحرار على «تكفيرهم» في سبيل مواجهتهم وكان ذلك بتعليمات المرشد العام حسن الهضيبي للهيئة التأسيسية للإخوان لإثارة ذلك على المستوى القاعدي للإخوان.

بيد أنه ومنذ أكتوبر ١٩٥٤ (عام محاولة اغتيال عبد الناصر في المنشية) وحتى ٧ أغسطس عام ١٩٦٥ والعلاقة بين الإخوان والنظام السياسي الناصري مقطوعة بسبب الغياب الفعلي لجماعة الإخوان المسلمين داخل السجون والمعتقلات ولكن التاريخ ينبئنا – كما يذكر رفعت سيد أحمد – بأن هذا الغياب لم يكن مانعًا بأي حال من الأحوال من التحرك بالشكل السري ومن خلال عملية تخطيط واسعة النطاق بقيادة جديدة كانت وقت الصدام الأول لا تزال حديثة السن والخبرة وكان عام ١٩٦٥ هو العام الفيصل في علاقة الإخوان بالنظام السياسي حيث استطاع النظام أنّ يواجه

---

(١) صالح الورداني : مرجع سابق ذكره ، ص٤١،٤٠.

الإخوان للمرة الثانية وكان من نتاج هذه المواجهة إعدام البعض من قيادات الإخوان وسجن الباقين وتطرفهم (المقيت) داخل السجون ليخرجوا منها مع بداية السبعينيات (من القرن العشرين)، وقد تحولت نظرتهم وفلسفتهم للمجتمع المحيط بهم وليبدءوا سلسلة من المواجهات العنيفة مع النظام السياسي الجديد الذي حاول احتواءهم وتوظيفهم في مواجهة القوى الأخرى، والتي كانت نتيجتها النهائية اغتيال الرئيس أنور السادات يوم ٦ أكتوبر ١٩٨١ من خلال أحد التنظيمات الدينية السرية[1]

والجدير بالذكر في هذا الصدد أنه حدث خلاف في حقيقة الصراع بين الإخوان وعبد الناصر والذي أولوه بأنه صراع على الدين، فحقيقة الصراع بين قيادة الثورة (الناصريّة) وبين الإخوان لم يكن صراعا على الدين ولا خلافا على الانتماء إليه والولاء له، وإنما كان صراعا سياسيًّا – وليس دينيا – دارت حول السلطة والحكم أي الفريقين أحق بها وأقدر على مقدراتها . ويدلل محمّد عمارة على قوله بذلك بمتابعة مراحل الصراع بين عبد الناصر والإخوان وتتبع فكرة ثورة ٢٣ يوليو إبان مراحل الصراع ونظرتها إلى «الإسلام» في تلك المرحلة. ففي سبتمبر ١٩٥٤ وإبان الصراع بين الثورة و(الإخوان) يخطب عبد الناصر فيقول: «هم يقولون: القرآن دستورنا، ونحن نخلع الملك ونقضي على الفساد والظلم الاجتماعي ونحقق الجلاء، فهل هذا الذي نعمله خروج على القرآن؟». [2]

فالخلاف بين الفريقين ليس على القرآن – كما يذكر عمارة – بل إن ما بينهما مزايدة على القرآن؟!

وفي ٢٢ مارس ١٩٦٦ أثناء المرحلة الثانية من الصدام العنيف بين الثورة و(الإخوان) – ممثلين في تنظيم سيد قطب يخطب عبد الناصر فيقول: «لم تكن الرجعية أبدًا شريعة الله ولكن شريعة الله كانت دائما شريعة العدل» فأين العلمانية عند عبد الناصر الذي يقول: إنه والثورة ملتزمون حقًا بشريعة الله وليس الإخوان المسلمين!!

خلاصة القول: يتبين من خلال قراءة الوئام والصراع بين عبد الناصر والإخوان أن

(١) رفعت سيد أحمد مرجع سابق ذكره، ص١٥١، ١٥٢.

(٢) محمد عمارة: نهضتنا الحديثة بين العلمانية والإسلام، دار الرشاد ١٩٩٧، ص٢٠٠.

هناك عدة ملاحظات جديرة بالتسجيل والتوضيح على النحو التالي:

الملاحظة الأولى : أن رافد الإخوان المسلمين لم يكن الرافد الثقافي والفكري والسياسي لعبد العناصر وفقط بل كانت له علاقات وروافد أخرى مع مصر الفتاة والشيوعيين والوفد... إلخ، وأنه ربما استفاد من علاقته بالإخوان ، ومن خلال تعامله مع الضابط المتقاعد محمود لبيب ومعرفة القدرة التنظيمية والانضباط من خلال هذا التعامل ، ولكن الإخوان لم يؤثروا فيه ولاسيما فيما قام به عبد الناصر من ربط السياسة والدين.

الملاحظة الثانية: أن عبد الناصر في خلال مراحل الصدام مع الإخوان والصراع معهم لم يسع البتة لخلق الصراع منذ بواكير الثورة، بل أخرجهم من المعتقلات ، وأعاد التحقيق في مقتل حسن البنا مرة أخرى، وحاول أن يخرجهم من زمرة الأحزاب السياسية حتى لا يتعرضوا للحل...

الملاحظة الثالثة: كانت رغبة الإخوان – دائما – الاستئثار بالحكم والوصاية على الثورة بفرض رأيهم ورؤيتهم على مجريات الأحداث وقوانين الثورة وإعلان رغبتهم في معرفة التشريعات والحكم عليها قبل صدورها لمعرفة مدى توافقها مع الشريعة الإسلامية من عدمه، وقد اعتبر عبد الناصر أن هذا تدخل في شأن الثورة وانحراف عن مسارها وأنه في المجمل يحرص على تحقيق «العدالة» بما يتفق مع غاية الشريعة وأهدافها.

الملاحظة الرابعة: إن وجود المرشد الثاني للإخوان «حسن الهضيبي» على قمة الهرم الإخواني فإنه لم يكن لديه المقدرة على ضبط الأوضاع والقيادة فقد فقدت الجماعة بعد اغتيال البنا شخصية كاريزمية لم يستطع الهضيبي ملء الفراغ بعده بل ساهم – بضعفه – في تفاقم الصراع وخلق مراكز قوى داخل الإخوان كما أصابها بالتصدع!!!

الملاحظة الخامسة : لم يكن الصراع – يومًا – بين الإخوان وعبد الناصر على الدين أو ما يرتبط به من تطبيق شريعة الإسلام إنما هو في المجمل صراع سياسي غلفته الإخوان بطابع الدين وغلالة الشريعة لتحقيق أهدافهم للوصول إلى السلطة، فلم يكن عبد الناصر «كافرًا» بالدين والعقيدة حتى يختلف معه الإخوان بل كان واعيًا لدور الدين في وحدة الأمّة وقيام الوحدة العربيّة وتثبيت القومية العربية والشعور القومي

وتعبئة الجماهير للمساهمة في تدشين وحدتها والحرص على الانتماء الحضاري لأمته العربية الإسلامية.

الملاحظة السادسة: اعتمد الإخوان الأسلوب التكفيري في تعاملهم مع خصومهم السياسيين كما فعل الإخوان في خلافهم وصراعهم مع عبد الناصر ولاسيما في مرحلة المرشد العام الثاني للإخوان المسلمين (حسن الهضيبي) حيث تم إكفار رجال الثورة أثناء الخلافات الأولى، وتم تديين السياسية وإلصاق تهمة الكفر لرجال الثورة – كما ذكرنا من قبل – أي أن إلصاق تهمة «الكفر» للآخرين لم يبعد عن الإخوان ويتم استدعاء «التكفير» ضد خصومهم كلما عنّ لهم ذلك!!!

(ب) السادات والإخوان : حسابات خاطئة ونهاية مفجعة :

مات جمال عبد الناصر في سبتمبر ١٩٧٠ ووصل إلى مشارف الحكم وسُدة الرئاسة محمد أنور السادات فأدى ذلك إلى رفع معنويات جماعة الإخوان المسلمين وكان السادات قد تقابل مع حسن البنا مؤسس الإخوان في عام ١٩٤٠ كما حضر العديد من الدروس الأسبوعية التي كان يلقيها البنا في المركز الرئيسي للإخوان في خلال مرحلة الأربعينيات (من القرن الماضي) والسادات لم ينقلب على الإخوان المسلمين إلا بعد أن قام الإخوان بمحاولة الاغتيال الفاشلة لعبد الناصر في أكتوبر ١٩٥٤ [١].

ويذكر فرحان صالح أنه بتولي السادات السلطة مباشرة بعد حكم الرئيس جمال عبد الناصر وأصبح رئيسًا للجمهورية العربية المتحدة والتي تغير اسمها ليصبح جمهورية مصر العربية ، فكان – أي السادات – إن اتخذ قرارًا عام ١٩٧١ يقضي بالإفراج عن الإخوان والتحالف معهم ضد المعارضين لسياسته الداخلية والعربية من الناصريين واليساريين ، ثم ما لبث أن طرد السادات الخبراء الروس وقطع العلاقات معهم – أيضا – بموجب نصيحة من كيسنجر الذي قال للسادات: «إذا كان الروس يقدمون لكم السلاح فنحن الوحيدون الذين نستطيع إعادة سينائكم» [٢].

---

(١) دليب هيرو: الأصولية في العصر الحديث ص١٣١.

(٢) فرحان صالح: مرجع سابق ذكره، ص٢٠.

كما قام السادات - وبعد توليه الحكم - برفع شعار «الإيمان والعلم» وأصدر تعليماته للتليفزيون والراديو التابعين للدولة بإذاعة أذان الصلوات الخمس يوميًا ووعد بأنه تكون الشريعة الإسلامية هي المصدر الرئيسي للتشريع مستقبلا ، ثم أطلق سراح المسجونين المنتمين للإخوان بمن فيهم حسن الهضيبي (المرشد الثاني للإخوان) وتعمد السادات أن يكتسب طابع «الرئيس المؤمن».[١]

وفي مايو ١٩٧١ قام السادات بانقلاب أو «حركة تصحيح» في بعض أدبيات السياسة ضد علي صبري (١٩١٧-١٩٩٩) ومجموعته اليسارية بالاتحاد الاشتراكي العربي «الحاكم» وشجع في حماسة المشاعر الإسلامية والجماعات بهدف إحداث توازن مع النفوذ اليساري ثم أصدر تعليماته للواء عبد المنعم أمين لكي يشيد ألف جمعية إسلامية بالجامعات والمصانع بهدف محاربة الماركسية «الوثنية» وبدأ أعضاء الإخوان المسلمين المبعدين عن مصر ثم يعودون من المملكة العربية السعودية وغيرها من البلاد العربية الأخرى مما أدى إلى تدعيم وتقوية القوى الإسلامية في مصر [٢]

فقد كان السادات بصدد ترتيب الواقع السياسي وخريطته فبدأ خطواته الأولى بإفراغ السجون والمعتقلات من العناصر السياسية بتياراتها المختلفة ومن بينها عناصر الإخوان المسلمين، والتي مارست نشاطها على ساحة الواقع السياسي من جديد بمباركة واضحة من نظام السادات.[٣]

ويذكر الورداني أن رفع السادات - في بداية حكمه- لشعار (العلم والإيمان) كان تخطيطًا منه لركوب الموجة الإسلامية ، وقد وجد الإخوان ضالته المنشودة ، فمنّ ثم كثرت اللقاءات السرية والعلنية بينه وبين قادة الإخوان من أجل تنسيق سبل العمل بينهم والاتفاق على صيغة موحدة تجاه المسألة الإسلامية.[٤]

فقد أصبح الإخوان المسلمون - شأنهم شأن غيرهم من القوى في مصر - يدركون

---

(١) دليب هيرو: مرجع سابق ذكره ، ص١٣٢.

(٢) الأصولية الإسلامية في مصر ، ص١٣٣.

(٣) السيف والطاغوت ، ص٥٠.

(٤) السيف والطاغوت، ص٥١.

رغبة نظام السادات في التعاون مع العناصر الدينية ووجد بعضهم رعاية خاصة من أحد الأصدقاء والقريبين للرئيس وهو المهندس عثمان أحمد عثمان (١٩١٧- ١٩٩٩).[١] فإن الناصريين والشيوعيين وضعوا جميعًا في سلة واحدة بالنسبة للنظام الذي اعتبرهم جبهة واحدة معادية له، وكان منطقيا - كما يذكر محمّد حسنين هيكل (١٩٢٣ - ٢٠١٦) - أنه إذا أراد السادات أن يبحث لنفسه عن حلفاء يساندونه فإن اليمين كان هو الاتجاه الطبيعي الذي يتحتم عليه أن يبحث عنه - ليس فقط اليمين السياسي ولكن أيضا اليمين الديني.[٢]

لقد بدأ يتضح يوما بعد يوم - كما يذكر هيكل - أن هؤلاء الذين استفادوا من الأوضاع الجديدة في مصر - وجدوا ملائما لهم أن يغرقوا كل النقد الموجه إليهم في موجة عاتية من التدين كانت هناك أموال كثيرة تجيء من الخارج، وكان بعضها يذهب إلى جماعات الإخوان التي كانت على استعداد لتأييد سياسات النظام، وتقدم المهندس «عثمان أحمد عثمان» - المقاول الشهير - والسيد «محمّد عثمان إسماعيل» كان محافظ لأسيوط وقبلها كان أمينا عاما للاتحاد الاشتراكي العربي في وقت السادات - وراح الاثنان يقدمان المساعدات لبعض الجماعات الإسلامية وكانت مساعداتها أموالا وأسلحة وكان الجزء الأكبر منها يذهب إلى الجماعات، وجرى تمويل أوجه نشاط تنوعت أساليبها ومظاهرها بل وجرى إنشاء جمعيات من أغراضها تزويد الطلاب بما وصفوه بأنه «الزي الديني» زي الجلاليب للشباب وزي الحجاب للشابات.[٣]

ومن ثمّ .. فقد قام الإخوان بدور فعال في مقاومة التيارات المعاديّة لنظام السادات على مستوى الجامعة، كما قاموا أيضا باحتواء التنظيمات الطلابية الإسلامية المتطرفة داخلها - وإن كان هذا الاحتواء لم يستمر طويلا - وقاموا بمناهضة التيار الشيوعي والناصري وأصدروا البيانات التي يهاجمون فيها كل صور التطرف المتشدد التي برزت في ساحة العمل الإسلامي في مصر، كما أصدروا بيانات ينادون فيها بالوحدة الوطنية والأخوة والتعاون مع نظام الحكم بعد أحداث الزاوية الحمراء عام

(١) محمد حسنين هيكل: خريف الغضب، ص٢٢٨.

(٢) خريف الغضب، ص٢٢٦.

(٣) خريف الغضب، ص٢٥٢.

١٩٨١.[١]

والجدير بالبيان في هذا الشأن أن جماعة الإخوان ينسبون لأنفسهم الفضل في جعل الشريعة المصدر الرئيسي للتشريع وفقا للتعديل الذي أجرى سنة ١٩٨٠، والذي حول الشريعة من مصدر رئيسي للتشريع إلى المصدر الرئيسي للتشريع وهو الأمر الذي تم على ما يبدو في إطار غض الجماعة الطرف عن تعديل المادة ٧٧ من الدستور المصري والتي قضت بحق رئيس الدولة في ترشيح نفسه لمدد أخرى وليس لمدتين فقط على نحو ما كان عليه – الأمر – قبل هذا التعديل.[٢]

ويمكن القول أن هذه الأحداث والتطورات كان في إطار توثيق عرى العلاقات بين نظام السادات والجماعة بزعامة مرشدها عمر التلمساني (١٩٠٤-١٩٨٦) للتخلص بشكل كامل من قوى اليسار كلية من الماركسيين والناصريين الذين لعبوا دورًا سياسيًا بارزًا داخل الجماعات بسبب تداعيات سياسة الانفتاح الاقتصادي وتدهور الأوضاع الاجتماعية والصلح مع إسرائيل وخرق سياسة عدم الانحياز.

وعلى الرغم من توثيق هذه العلاقة والوقوف بجانب نظام السادات لم يشفع لهم عنده شيء من هذا، فعندما صدرت قرارات سبتمبر ١٩٨١ بالتحفظ على رؤوس الفتنة ومهددي الوحدة الوطنية – حسب تعبير السادات – كان الإخوان من أوائل من شملهم موجة الاعتقالات «العاتية» في صباح الثالث من سبتمبر، وكانت هذه الاعتقالات وهي الإرهاصة لنهاية مفجعة للسادات في ٦ أكتوبر عام ١٩٨١ على يد الجماعات المتطرفة!!

خلاصة القول: ويمكن للمتتبع للعلاقة بين السادات والإخوان أن يلاحظ عدة أمور تحتاج إلى توضيح وهي:

الأمر الأول: أنّ من أكبر خطايا السادات والتي أودت بحياته أنه أخرج الإخوان والجماعات الإسلامية من السجون بقصد مواجهة التيارات المعادية له من اليساريين (الماركسيين والناصريين)، فقد كان ثمن ما فعله فادحا عليه وعلى وطنه، فقد أخرج

---

(١) صالح الورداني: مرجع سابق ذكره، ص٥٤.

(٢) عمرو هاشم ربيع: الإخوان والبرلمان، كراسات استراتيجية، العدد ٢٢٢، لعام ٢٠١١، ص٧.

«المارد من قمقمه» فأصابها – أي مصر – بوابل من التطرف والتشظي والإرهاب مازلنا نعاني منه حتى الآن..!!!

الأمر الثاني: أن السَّادات لم يكن جادًا في رفع شعار «العلم والإيمان» بل هي ركوب موجه للقضاء على خصومه السياسيين (الناصرين والماركسيين) وأن ما فعله من رفع الشعار هو كسب مصالح سياسية لتدعيمه وتمكينه من الحكم والسلطة!!

الأمر الثالث: إن الإخوان هم العباءة التي خرجت منها الجماعات الإسلامية المتطرفة، بل هي أصل التطرف والعنف منذ أربعينيات القرن الماضي – كما أسلفنا من قبل – وأن هذا التطرف وذلك العنف يمثلان الركيزة الأساسية في عقلية الإخوان ومنهجها الإقصائي وأدائها السياسي..!!

(جـ) مبارك والإخوان : صدام ظاهري وتوافق باطني :

نستطيع أن نقول: إن الإخوان في عهد مبارك كانوا أكثر بروزا وظهورا من مرحلة السادات، ويمكن ملاحظة ذلك من خلال ما تم في انتخابات مجلس الشعب، وعقد تحالفات الإخوان مع الأحزاب السياسية وممارسة المرشد العام لدوره بهذه العلنية من ذي قبل وغض الطرف عنهم وإفساح المجال لممارساتهم بوسائل غير مباشرة – فقد كانت انتخابات مجلس الشعب عام ١٩٨٤ بمثابة أحد أهم الأسباب التي أحدثت نقلة كبيرة في علاقة نظام مبارك بجماعة الإخوان المسلمين ليس فقط لأن تلك الانتخابات كانت الأولى التي يشارك فيها الإخوان بكثافة في البرلمان، بل كانت وسيلة لإظهار تسامح النظام مع جماعة الإخوان المسلمين لمشاركتها الصريحة في الانتخابات- كما يذكر عمرو هاشم ربيع – رغم وضع قانون انتخابات جديد نص على الأخذ بنظام الانتخابات بالقائمة الحزبية النسبية بدلًا من النظام الفردي الذي كان معمولًا به منذ عام ١٩٢٣ فقد غض مبارك الطرف عن مشاركة الإخوان مع الوفد وآثر السكوت في بداية عهده السياسي.. وفي هذه المعركة فاز ستة من كوادر الإخوان هم : حسن الجمل – محفوظ حلمي – محمد المراغي ومحمد الشيستاني – وحسني عبد الباقي – عبد الغفار عزيز.(١)

---

(١) عمرو هاشم ربيع: الإخوان والبرلمان، ص٩

وقد جرت انتخابات ١٩٨٧ بعد حكم المحكمة الدستورية العليا بعدم دستورية نظام الانتخابات بالقائمة النسبية، فنتيجة عدم منح الفرصة للمستقلين للمشاركة في الانتخابات – وقد فاز الإخوان – وقتئذ بـ٣٨ مقعدًا من إجمالي المقاعد المنتخبة ٤٤٨ مقعدًا، وقد كان دخول الإخوان بالمشاركة مع حزبي العمل والأحرار، وهكذا تسامح نظام مبارك مع الظهور المكثف للإخوان.(١)

وفي عام ١٩٩٠ قاطع الإخوان انتخابات مجلس الشعب فقد دفعهم إلى ذلك ما حدث من تطورات خلال ذلك العام وقبله.. ففي عام ١٩٨٩ جرت انتخابات مجلس الشورى (الغرفة الثانية للبرلمان) ولم يفلح الإخوان بتحالفهم مع العمل والأحرار في حصد مقعد واحد بسبب «تنمر» النظام ضدهم – كما يذكر ربيع – وتعمد إسقاط مرشحيهم بسبب سياسات الإخوان داخل مجلس الشعب كما أن الجماعة قد أدركت أن هناك اتجاهًا من جانب النظام لتوريطهم في أحداث العنف والإرهاب التي شهدتها مصر خلال تلك الفترة والتي تصاعدت بشكل غير مسبوق مع اغتيال رئيس مجلس الشعب رفعت المحجوب في ١٢ أكتوبر ١٩٩٠م(٢)

وفي هذا الإطار بدأت انتخابات مجلس الشعب عام ١٩٩٥ وتحت قيادة مرشدها الخامس مصطفى مشهور (١٩٢١-٢٠٠٢) حيث ثبت لهم أنّ مقاطعة انتخابات ١٩٩٠م لم تثن النظام في طريقه ولم يعر انتقادات الغرب – بسبب حقوق الإنسان – أية أذن صاغية غير أن نظام مبارك قام في نوفمبر ١٩٩٥ بتحويل ٨٢ من قيادات الإخوان إلى القضاء العسكري بعد حملة اعتقالات واسعة، ورغم ذلك طرح الإخوان قائمتهم والتي تضمنت ١٤٩ فردًا من حزبيّ العمل والأحرار تحت شعار «الإسلام هو الحل»، وكان نتيجة ذلك سقوط كل مرشحي الإخوان فيما عدا علي فتح الباب نائب التبين.

وقد أجريت انتخابات عام ٢٠٠٠م وفق «النظام الفردي» وقد رشح الإخوان في تلك الانتخابات ٧٠ مرشحًا فاز منها ١٧ مرشحًا، وقد شارك الإخوان في تلك الانتخابات منفردين واستنادًا على شعار «الإسلام هو الحل».

---

(١) عمرو هاشم ربيع: مرجع سابق ذكره، ص١١.

(٢) عمرو هاشم ربيع: مرجع سابق ذكره، ص١٣.

وفي برلمان ٢٠٠٥ كان قد تولى قيادة الجماعة مرشدها السابع محمد مهدي عاكف وقد شهد وضع الإخوان في هذا البرلمان تطورًا كبيرًا فقد فاز الإخوان خلال تلك الانتخابات بـ٨٨ مقعدًا من إجمالي ٤٣٢ مقعدًا منتخبًا ولم تكن تلك النتيجة بسبب الكفاءة التنظيمية للإخوان فحسب ، بل وأيضا بسبب التصويت الاحتجاجي للناخبين على أداء الحزب الوطني إضافة إلى الصلات التي ربطت الجماعة ببعض أجهزة الأمن ذات الصلة الوثيقة بدوائر الحكم ما مكنها من دخول البرلمان في شبه صفقة بين الطرفين.[١]

وقد جرت انتخابات مجلس الشعب والشورى عام ٢٠١٠ حيث كانت حصيلة الإخوان صفر وللمعارضة كلها – أيضًا – خرجت خاوية الوفاض نظرا لحدوث تزوير فاضح غير مسبوق من جانب نظام مبارك والذي كان يريد أن يمهد الأمر للتوريث رغم أن النظام كان به من الهشاشة غير المسبوقة – أيضا – حتى وصلت إلى مرحلة الشيخوخة إلى جميع أرجاء النظام مما عجلت الانتخابات المزورة وهشاشة وضعه إلى سرعة سقوطه وانهياره كما كانت كل القوى السياسية – رغم ضعفها – ضد النظام إلّا أن الانتخابات كانت بمثابة القشة التي قسمت ظهر النظام وقضت عليه إلى الأبد.

خلاصة القول: نعتقد أن مرحلة مبارك كانت بمثابة انفراجة كبيرة للإخوان، وكانت أفضل من المراحل التاريخية السابقة، بل ساهمت فيما حدث للإخوان من صعود إلى السلطة رغم ما شاب بعد فترات هذه المرحلة الخصبة لصالح الإخوان- في عهد مبارك- من تكسير عظام للإخوان وتحويل قيادتها للمحاكم العسكرية، إلا أنها كانت مرحلة لصالح الإخوان وهناك حقائق تدل على ذلك:

الحقيقة الأولى: أنه لم تشهد خلال التاريخ فترة انفراج وسماح للممارسة إلا في فترة مبارك فإنه لأول مرة يحدث تحالفات بين الأحزاب والإخوان حتى حدث تغيير في بعض الأحزاب من جراء تحالفهم مع الإخوان مثل تحالف (حزب العمل والإخوان)، كما لم يشهد البرلمان وجود عدد كبير من الإخوان إلا في فترة مبارك، كما كانت تحركات قيادات الإخوان ومرشدهم العام تسير دون معوقات أمنية ولكنها كانت محسوبة.

الحقيقة الثانية: كان تضييق نظام مبارك مع الأحزاب المصرية وجعل معظمها

---

(١) عمرو هاشم ربيع: مرجع سابق ذكره، ص١٦.

ديكورًا ومكياجًا لتحلية وضعه السياسي وجمد عدد آخر منها كحزب مصر الفتاة وكذلك حزب العمل عام ٢٠٠٠م وحزب الأحرار بعد وفاة مصطفى كامل مراد عام ٢٠٠٦ ساهم هذا التضييق على الأحزاب السياسية العلنية إلى ظهور الإخوان بقوة بعد أن استوعبت الجماعة طاقات الشباب والتي وجدت فيها متنفسا لها لممارسة العمل ضد النظام وفساده بعد انسداد الطرق الشرعية من خلال الأحزاب لفقدان دورها وتأثيرها الجماهيري في الشارع!!

الحقيقة الثالثة: نجح مبارك في تغيير الإخوان بجعلهم القوة البديلة للنظام بقصد تخويف الغرب من وجود تيار الإسلام السياسي على سدة الحكم رغم أن الغرب حينما وجد أن النظام يترنح وأنه وصل إلى شيخوخة السلطة ولم يقتنع بوجود وريث في ظل ارتباك شعبي ورفض سياسي فبدأ يتواصل مع الإخوان ليتطلع لرؤيته عن الديمقراطية والمرأة وحقوق الإنسان وموقف الجماعة من الأقباط ، ومن ثَمَّ ساهم مبارك في وصول الإخوان إلى الحكم بغباء نظامه وفساده!!

(٥) الإخوان وثورة ٢٥ يناير : الدور والمكاسب

بدأت ثورة يناير ٢٠١١ كثورة شعبية «تلقائية» قادتها طليعة من الشباب المتعلم والقادر على توظيف الآليات الرقمية الحديثة في العالم الافتراضي في الدعوة للثورة وتنسيق فعاليتها ومن ثمّ .. فإن الثورة افتقدت قيادة واضحة ومحددة ومعروفة بنضالها الثوري تتحمل مسؤولية الثورة وتبعات مدها الثوري في صفوف الجماهير، كما أنها افتقدت العقيدة الثورية أو الأيديولوجية (البرنامج الثوري).

- في إطار هذا الفراغ القيادي والأيديولوجي والتنظيمي طرحت التيارات الدينية نفسها على الساعة بشكل واضح .. فقد كان من تداعيات الثورات العربية، والتي كانت قيد التشكيل استقواء التيارات الإسلامية بأطيافها المختلفة المعتدل منها والمتطرف وانعكاسات ذلك على الشكل والخيارات والتوجهات الإقليمية العامة.. فقد بات أن انهيار «الأنظمة الاستبدادية» في عدد من البلدان العربية أنتج انطلاقًا لكل التيارات السياسية والفكرية التي عانت من قمع تلك الأنظمة المستبدة، ومن ضمن ذلك الجماعات والحركات الإسلامية.[1]

---

(١) خالد الحروب : الثورات العربية والنظام العربي ، التفكيك وإعادة التركيب، مجلة شؤون عربية، العدد ١٤٦، صيف ٢٠١١، ص١٥.

فقد استطاعت الثورة (في ٢٥ يناير) أن تنقل نشاط هذه الجماعات من السرية إلى العلانية والشرعية سواء من خلال المشاركة بكل حرية في فعاليات الحياة والحركة السياسية والتعبير عن آرائهم من خلال وسائل الإعلام المختلفة أو استخدام الآليات الرقمية للتواصل مع القوى المختلفة...

ويؤكد الباحث الإسلامي كمال السعيد حبيب في أنّ الثورة المصرية قد قام بها الشعب المصري كله بجميع أطيافه، ولم يكن الإسلاميون (وفي القلب منهم الإخوان) هم المتصدرون للمشهد الثوري بمعنى أنهم لم يكونوا في المواجهة والصدارة، فقد كان هناك شباب وشابات وجيل جديد من أبناء الطبقة الوسطى والفقيرة هم الذين واجهوا الشرطة والنظام السابق، لا ننفي أن هناك شبابا من التيار الإسلامي كان موجودًا – كما يذكر حبيب – لكنه كان جزءًا من المشهد العام لكل المصريون لقد كانوا ينسابون انسيابا لطيفا في شرايين التحرير دون أن يكون في الواجهة.[1]

بيد أن الموقف المبدئي للإخوان عندما اندلعت ثورة ٢٥ يناير ٢٠١١ هو جزء من مواقفهم السابقة في علاقاتهم بنظام مبارك – كما يذكر عمرو هاشم ربيع– أنهم لم يشاءوا بأي حال من الأحوال أن يكونوا في مواجهة هذا النظام في ذلك الوقت خلال الأيام الأولى من الثورة حيث اقتصر موقفهم على ترك حرية المشاركة في «التظاهرات السلمية» لأعضائها كأفراد دون المشاركة فيها كجماعة أو كتنظيم حرصا منهم – كما يذكر ربيع – على عدم قطع الشعرة الباقية بينهم وبين نظام مبارك والتي قد يؤدي إلى قطعها لتبرير قيام النظام بتصفية نهائية للجماعة في حالة استمرار النظام وبقائه في الحكم أو على أقل تقدير محاكمة كافة كوادرها على نمط ما حدث في خمسينيات وستينيات القرن الماضي (في العهد الناصري)، ولم يتضح موقف الجماعة من الثورة بشكل إيجابي وجليّ إلا بعد أن تلمس الإخوان بداية نجاح حركة الشباب هنا أعلنت جماعتهم موقفها من الوقوف إلى جانب الثورة والمشاركة الإيجابية فيها.[2]

ومن الملفت أن تجد من أبناء الجماعة أو من محبيها من يحاول أنّ يعطي لها أدوار

(١) كمال السعيد حبيب: تحت التشكيل: خريطة القوى الإسلامية بعد الثورات العربية، ملحق السياسة الدولية، العدد ١٨٨ أبريل ٢٠١٢، ص١٣.

(٢) عمرو هاشم ربيع: الإخوان والبرلمان، ص٢٤.

البطولة في ثورة ٢٥ يناير بخلاف ما رآه المراقبون السياسيون والمشاركون في الثورة، فنجد عبد الله عبد الباقي أبو عيانة حينما يكتب شهادته عن دور الإخوان في التحرير يقول: «لقد شارك شباب الإخوان في الإعداد للثورة من أول يوم بدءا بإنشاء الصفحات على الفيس بوك وغيرها من المواقع الإلكترونية مثل صفحة (كلنا خالد سعيد) حيث فجر الدكتور عصام العريان (*) المتحدث الرسمي للجماعة مفاجأة في إجابته عن دور الإخوان المسلمين في بدايات الثورة وقال: «إن وائل غنيم التحق فترة بالإخوان والأدمن الثاني بصفحة «كلنا خالد سعيد» عبد الرحمن منصور عضو في جماعة الإخوان المسلمين، ومن المعروف أن صفحة كلنا خالد سعيد هي من دعت لثورة ٢٥ يناير واستجابت لها جموع الشعب.[١]

ويؤكد هذا الكلام - كما يذكر أبو عيانة - ما رواه شباب شارك في الإعداد للثورة . فلنترك الحديث لزياد العليمي أحد أفراد ائتلاف الثورة يقول: «إن حالة التجانس والتوافق التي جمعت الحركة المشاركة في الائتلاف وهي حركتا «شباب من أجل العدالة والحرية» و«شباب ٦ إبريل» وحملة دعم البرادعي ومطالب التغيير وشباب جماعة الإخوان المسلمين وشباب حزب الجبهة الديمقراطية الذين نظموا فعاليات مشتركة في وقت سابق دفعتهم لتشكيل ائتلاف شبابي لتنظيم احتجاجات ٢٥ يناير شارك شباب الإخوان يوم ٢٥ يناير بشكل فردي إلا أنهم حضروا معنا الاجتماع التنسيقي في ٢٧ يناير وهو اليوم السابق لجمعة «الشهداء» .

يوضح العليمي مضيفًا : «أعلنوا عن مشاركة أعدادًا كبيرة منهم في جمعة الشهداء فاتفقنا على أماكن جديدة للمظاهرات منها الجيزة وإمبابة والطالبية وأصبحت كل

(*) محبوس الآن بعد القبض عليه بعد اندلاع ثورة ٣٠ يونيو ٢٠١٣ والعديد من قيادات الإخوان، ومعهم مرشدهم العام محمد بديع ويتم محاكمتهم بتهم عديدة.

(١) عبد الله عبد الباقي أبو عيانة: الإخوان المسلمون في التحرير، شروق للنشر والتوزيع، المنصورة، الطبعة الأولى ١٤٢٢هـ - ٢٠١٢م ص ٢٠ .. والحقيقة أن زعم أبو عيانة وغيره من الإخوان بأن صفحة «كلنا خالد سعيد» هي التي دعت لثورة ٢٥ يناير ٢٠١١ قول مجاف للحقيقة لأن حركة كفاية والحركة المصرية للتغيير وحركة ٦ أبريل والقوى السياسية وحملة حمدين صباحي كلها تيارات دعت إلى الثورة والانتفاضة الشعبية في يوم ٢٥ يناير

مجموعة مسؤولة عن خط سير.(١)

وقد ذكر – أبو عيانة – إرهاصات الحراك المجتمعي التي مهدت الأرض لمثل هذه الثورات والتي بدأتها جماعة الإخوان المسلمين.. فمنذ عام ٢٠٠٤ تحديدًا أعلن مرشد الإخوان (محمد مهدي عاكف) مبادرة الإصلاح في ٣/ ٣/ ٢٠٠٤ من على منبر قيادة الصحفيين ، ومن بعد المبادرة بدأ الحراك المجتمعي في نمو وتزايد من مظاهرات واحتجاجات.(٢)

وبغض النظر عن تحيز كتاب الإخوان لجماعتهم فهذا المتوقع منهم أن يضخموا أداء إخوانهم ويظهروهم باعتبارهم هم الذين فجّروا الثورة وهزوا أركان نظام مبارك الفاسد.. ولكن ما يعنينا الآن ما أضافته الثورة من مكاسب جمة لمصالحة الإخوان.

فالجدير بالبيان في هذا الشأن أن القوى الإسلامية باعتبارها القوى الأكثر تنظيما على الساحة السياسية – وقتئذ – قد استطاعت أن تملأ الفراغ السياسي الذي تركه نظام مبارك (الهش) من ناحية، كما أنها حصدت نتائج الثورة السياسية بحكم تجذرها في الواقع الاجتماعي والسياسي وبحكم تاريخها الطويل (٨٣ عام) وبحكم تحول المزاج العام في مصر بشكل كبير – بعد انهيار نظام مبارك – نحو الاعتقاد بأن الإسلاميين هم البديل المناسب لمرحلة ما بعد الثورة.(٣)

فقد كانت جماعة الإخوان الأكبر والأقدم للإسلاميين وهم الذين كانوا يصارعون مبارك ونظامه على الشرعية والحكم في مصر – بعد خروج الجماعة الجهادية والتكفيرية من مسرح الصراع بعد مراجعتهم – فقد استطاع الإخوان أن يؤسسوا لهم حزب لأول مرة في تاريخهم باسم «الحرية والعدالة» ، واستطاع الحزب أن يحصل على ٤٧٪ من أصوات الناخبين في مجلس الشعب (الغرفة الأولى للبرلمان) وأن يصبح رئيس البرلمان منه ، كما سيطر الحزب على أغلبية لجان مجلس الشعب.

وفي انتخابات مجلس الشورى (الغرفة الثانية للبرلمان) حصل الإخوان على نسبة

---

(١) عبد الله عبد الباقي أبو عيانة : مرجع سابق ذكره ، ص٢١.

(٢) عبد الله عبد الباقي أبو عيانة : مرجع سابق ذكره ، ص١٦.

(٣) كمال السعيد حبيب: مرجع سابق ذكره، ص١٣.

أعلى من الأصوات إذ حصلوا على نسبة ٥٨.٣٪ وكما في مجلس الشعب فإن رئيس مجلس الشورى ينتمي لجماعة الإخوان المسلمين.. بل وصل الأمر في منتهاه إلى ترشيح محمد مرسي العياط ونجاحه في انتخابات الرئاسة.

خلاصة القول: يمكن لنا أن نقول باطمئنان أن وجود الإخوان في الثورة كان بشكل فردي وليس بشكل تنظيمي ومتكامل ولم ينزلوا بكثافة وكتنظيم إلا بعد يوم ٢٧ يناير ٢٠١١ بعد أن اطمأنت القيادة بأنهم في مأمن من محاسبة النظام وتتبعهم بعد أن شاهدوا المظاهرات الصاخبة بالملايين في شوارع مصر وميادينها كما أنهم لم يكونوا يومًا دعاة ثورة، ولم يكن باستطاعتهم أن يكونوا في الصدارة ليتحملوا مسؤولية الثورة ووزر إخفاقها حتى لا يكونوا «كبش فداء» فهم أحرص من صناعة مغامرات غير محسوبة وأن علاقتهم بالأنظمة وصراعاتها جعلهم الأحرص على التعامل بتؤدة وتمهل وحساب المخاطر والمكاسب من الموقف الثوري.

(٦) دولة الإخوان: أخطاء دولية وانهيار اقتصادي وسياسي داخلي:

يعتبر تيار الإسلام السياسي من أكثر التيارات استعدادًا للتعامل مع موضوعات الانتقال والتحول الجديد والتي فرضتها ثورة ٢٥ يناير إلا أن الملاحظ من ممارسته وسلوكه السياسي وإدارته للبلاد – في الفترة الأخيرة – وقوعه في عديد من الأخطاء والخطايا التي جعلته يظهر وكأنه يريد أن يجعل من «الديمقراطية» مجرد رقم حسابي انتخابي – كما يذكر سعيد رفعت – يستثمر لصالحه وأن هدفه الأساسي يتركز في الاستحواذ على الحكم إمّا لغرض الحكم ذاته وإما من أجل إعادة تشكيل الدولة وفقا لرؤيته ومشروعه فضلًا عن أن ممارسته تبدو كأنها في حالة مقاومة خفية لمستتبعات التغيير الذي تفرضه الانتفاضات والثورات.(١)

فقد أصبح من المعروف سياسيًا أنّ جماعة الإخوان جاءت إلى سُّدة الحكم بمباركة أمريكية غير معلنة بعد أنّ حصلت على ضمانات كافية باحترامهم لاتفاقية السلام المبرمة مع إسرائيل والالتزام بكافة أهداف أمريكا في المنطقة ومصالحها الحيويّة

---

(١) سعيد رفعت: الثورات العربية بين متطلبات عصر السرعة وطموحات التيارات الإسلامية، مجلة شؤون عربية، العدد ١٥٠، صيف ٢٠١٢م، ص٩.

والاستراتيجية ، وقد سهلت الولايات المتحدة الأمريكية أمور انفراد الإخوان المسلمين بالحكم في مصر إلى الحد الذي سمحت فيه بإحالة أعضاء المجلس العسكري إلى التقاعد.(١)

وتجدر الإشارة هنا أنه كانت هناك اتصالات سرية بين الإخوان والإدارة الأمريكية أيام نظام مبارك وكان الواسطة في ذلك الأمر «سعد الدين إبراهيم» رئيس مركز ابن خلدون للدراسات الإنمائية والذي كان «عراب» الاتفاقات السرية بين الإخوان والأمريكان. (٢)

وقد صرحت «هيلاري كلينتون» وزيرة الخارجية السابقة وهي بالعاصمة المجرية «بودابست» بعد نجاح الثورة المصرية – في إقصاء مبارك ونظامه – وفي أثناء حكم المجلس العسكري إن الإدارة الأمريكية تواصل سياسة وإجراء اتصالات محدودة مع جماعة الإخوان وهي اتصالات مستمرة منذ ما يقرب من ٥ أو ٦ سنوات.(٣)

وتعود العلاقة الإمريكية والبريطانية مع جماعة الإخوان إلى أبعد من ذلك بكثير، فقد كان اللقاء السري الذي عقده الرئيس الأمريكي الأسبق «دوايت إيزنهاور» مع سعيد رمضان (١٣٤٥ – ١٤١٦هـ / ١٩٢٦-١٩٩٥) زعيم جماعة الإخوان المسلمين في أوروبا في المكتب البيضاوي بالبيت الأبيض ، وكان هذا اللقاء الذي جرت وقائعه خلال النصف الأول من الخمسينيات (من القرن الماضي) بهدف تقديم الدعم بالمال والسلاح لجماعة الإخوان المسلمين للوقوف ضد جمال عبد الناصر وحركة القومية العربية التي يقودها ، وفي هذا الإطار قامت صلات وروابط عميقة بين الإخوان المسلمين والبنوك الأخرى في أوروبا والولايات المتحدة الأمريكية.. فقد تبلورت استراتيجية أساسية في لندن وواشنطن مفادها بأن العدو الأكبر لأمريكا وأوروبا هو الاتحاد السوفيتي السابق، لكن الزعماء الوطنيين أمثال جمال عبد الناصر هم الأعداء المباشرين للاستعمار الأمريكي والأوروبي الحديث في العالم العربي. (٤)

---

(١) عاصم بسيوني: نهاية الإخوان، مكتبة جزيرة الورد ، ص١٢٣.

(٢) حمدي رزق : فتح مصر، دار نهضة مصر، ص٢٨٤.

(٣) حمدي رزق : مرجع سابق ذكره، ص٢٨٣.

(٤) أحمد البرديسي: الملفات السرية للإخوان ، المصرية للنشر والتوزيع ، ٢٠١٣، ص٥١.

كذلك لعبت ١١ سبتمبر ٢٠٠١ دورًا أساسيًا في دفع الغرب في طريقة التعاطي مع الورقة الإسلامية، ومن هنا بدأ التمييز الذي يحرص «الغرب» على ترسيخه وتكريسه وهو التمييز بين إسلاميين معتدلين، وقد يستفيد منهم، وبالتالي رفع تحفظاته عن مشاركتهم في السلطة وبين إسلاميين يشكلون تهديدًا له وذلك قام بتشجيع «الإسلام الليبرالي» لمواجهة السلفيين الجهاديين الذين يشكلون خطرًا على الجميع... وفي هذا السياق كان أمام الولايات المتحدة الأمريكية خياران:

الخيار الأول: هو تشجيع التيار الصوفي وذلك باعتباره يتماهى عمليًا مع الأنظمة السياسية الحاكمة في العالم العربي ويحدث نوعًا من الفصل بين ما هو ديني وما هو سياسي...

أما الخيار الثاني: فهو تشجيع الجماعات الإسلامية التي اعتبرت معتدلة وكان النموذج الذي فرض نفسه هو نموذج الإخوان المسلمين في مصر.

والجدير بالذكر في هذا الصدد أن التحول في السياسة الأمريكية وتعاملها مع الإسلام وقد بدأ في عام ٢٠٠٦ تحديدًا وذلك بعد إقرار مشروع الشرق الأوسط «الجديد» وهنا بدأ الخطاب السياسي الأمريكي بالتحول من الهجوم على الإسلام كدين إلى مرحلة تسويق «الإسلام المعتدل» * فيذكر الكاتب والمفكر السياسي «دانيال بايبس»: المعروف بطرح قاعدة «الإسلام المتطرف هو المشكلة والإسلام المعتدل هو الحل» .. أنه .. لم يتوقف الرئيس جورج بوش «الابن» عن تكرار أنّ الإسلام هو «دين سلام» لا صلة به بمشكلة الإرهاب. ويقول «وارن كريستوفر» وزير الخارجية الأمريكية في عهد «كلينتون»: «إننا ملتزمون أن تبقى قوى الاعتدال (حركات أو

* يعتبر بعض الباحثين أن جماعة الإخوان المسلمين في مصر وبالتحديد قبل التغيير السياسي الذي حدث عام ٢٠١١ ووصولها إلى الحكم بعد انتخابات ٢٠١٢ كانت تعتبر – أيضا – من الجماعات المحسوبة على الإسلام السياسي غير العنيف ولكن الأحداث بعد صعود جماعة الإخوان المسلمين إلى الحكم – كما يذكر الباحث جمال سند السويدي مدير عام مركز الإمارات للدراسات والبحوث الاستراتيجية – أكدت أنها على مسافة بعيدة من هذا الاعتدال «المزعوم» حيث كشفت عن نياتها الاقصائية واستغلت دورها السياسي الجديد لتُظهر نفسها وكأنها المتحدث الرسمي باسم المسلمين وأكدت أن محاولات التخفي وراء مظهر الاعتدال السياسي كانت مجرد وسيلة لتحقيق أهدافها السياسية. انظر السراب، ص١٧٢.

أنظمـة) في المنطقـة أقـوى مـن قـوى التطـرف، وأن الولايـات المتحـدة وأصـدقاءها وحلفاءها سيتخذون الخطوات الضرورية لضمان فشل قوى التطرف ، منذ ذلك الحين أدركت واشنطن أن التغيير هو الحل.[1]

ففي عام ٢٠٠٧ أصدرت مؤسسة «راند» وهي قريبة من دوائر الحكم في أمريكا دراسة شاملة حول «بناء شبكات من المسلمين المعتدلين في العالم الإسلامي» ، وتنطلق الدراسة من فرضية أساسية أن الصراع مع العالم الإسلامي هو بالأساس صراع «أفكار» وأن التحدي الرئيسي الذي يواجه الغرب يكمن فيما إذا كان العالم الإسلامي سوف يقف في مواجهة المد الجهادي الأصولي أم أنه سيقع ضحية للعنف وعدم التسامح ، وقد قامت هذه الفرضية الغربية على عاملين أساسيين:

أولهما : أنـه عـلى الـرغم مـن ضـآلة حجـم الإسـلاميين الراديكـاليين في العـالم الإسلامي إلا أنهم الأكثر نفوذا وتأثيرًا ووصولًا لكل بقعة يسكنها الإسلام سواء في أوروبا أم أمريكا الشمالية.

وثانيها : ضعف القيادات الإسلامية المعتدلة والليبرالية والتي لا يوجد لديها شبكات واسعة حول العالم كتلك التي يمتلكها «الأصوليون».

وانطلاقًا من هذه الفرضية – كما يذكر مصطفى عبد العزيز مرسي – فإن الخيط الرئيسي في الدراسة يصب في «ضرورة قيام الولايات المتحدة بتوفير المساندة للإسلاميين المعتدلين من خلال بناء شبكات واسعة وتقديم الدعم المادي والمعنوي لهم لبناء حائط في مواجهة الشبكات الأصولية».[2]

ونعود ثانية لتجربة الإخوان المسلمين في حكم مصر في إطارها الداخلي وليس فيما طرحناه من علاقات خارجية داعمة لها من أمريكا والغرب تحت زعم «الإسلام المعتدل» في مواجهة «الإسلام المتطرف» أو «الإسلام الأصولي»!!

ومما لا شك فيه أنه قد أدت تجربة الإخوان في الحكم إلى توحد المصريين ضدهم

---

(١) مصطفى عبد العزيز مرسي : ظاهرة اختراق الإسلام السياسي للرأي العام الغربي ، شؤون عربية، خريف ٢٠١٥، العدد ١٦٣، ص٢٠، ٢١.

(٢) مصطفى عبد العزيز مرسي : مرجع سابق ذكره، ص٢٣.

وضد مشاريعهم الوهمية، فالمصريون خصوصًا – الأجيال الجديدة – والتي انتفضت ضد الإخوان وضد سلوكياتهم وممارساتهم في الحكم فالإخوان هم الذين يسألون عن هذا العقم الذي وصلت إليه الحياة السياسية في عهدهم...

فالإخوان لم يستفيدوا من الملاحظات والانتقادات التي تناولت تجربتهم عن حق ودون تجني لقد قدموا ما في جعبتهم وهم الذين اعتبروا أن الثورة مقصورة عليهم دون غيرهم من شركاء وهم الذين نعتوا منافسيهم وشركاءهم بالفلول التي يجب إقصاءها والتخلص منها – كما يذكر فرحان صالح – والإخوان لم يفرقوا بين صديق أو بين منافس أو حتى عدو قد يكون من الفلول، لقد تعاملوا مع المنافسين لهم على أنهم أعداء ويخدمون مؤامرة كبرى تقودها مجموعة موالية للرئيس المخلوع حسني مبارك إلا أن الأسوأ من كل ذلك كان بسبب عدم تفريقهم في تعاطيهم السياسي بين الإسلام كدين والإسلام كممارسة دنيوية سياسية في مجتمع طبقي، كما أنهم لم يطرحوا مشروعا لكل الوطن، وبالتالي لم يوجهوا دعوة إلى الآخرين من أجل المشاركة في بناء مصر – كما يذكر صالح – بل لقد قاموا مع حلفائهم من السلفيين ممن تجلببوا بأغطية دينية بفرض سلطتهم بالقوة والهيمنة وبالتهديد والوعيد. لقد كان الإخوان يخوضون حربًا وهمية مع أعداء وهميين ، والهدف من ذلك كان الابتعاد عن معالجة الهموم الاجتماعية والاقتصادية الأساسية.[١]

لقد فشل الإخوان – في حكم مصر – لأنهم استفردوا بالسلطة ، كانوا خائفين من الجميع ، لم يكن عندهم ثقة بالأطراف المنافسة لهم، فشلوا في إيجاد توافق سياسي ، كما استعدى الإخوان من ساندوهم ومن حالفوهم أو عارضوهم ؛ لذلك انعزلوا ومارسوا وجودهم كدولة ضمن دولة...

لقد مارس الإخوان سياسة التعالي وقذف التهم بوجه هذا الطرف أو ذاك، وذلك في سبيل تبرئة الذات، لقد فوت «الإخوان» فرصًا ثمينة كان من الممكن أن تبعدهم عن شرب هذا الكأس المترعة بالفشل.[٢]

---

(١) فرحان صالح : مرجع سابق ذكره، ص١٣٨.

(٢) فرحان صالح : مرجع سابق ذكره ، ص١٤٠.

إن ما أبداه «الإخوان» من تعجل شديد ونهم للسلطة ومن سرعة فائقة في محاولة الانتقال إلى كواليسها مع ما يتطلبه ذلك من سلوك استئثاري وإقصائي واستعلائي ، ومن محاولات «أخونة» مفاصل الدولة ساهم – بشكل كبير – في إضعاف شعبيتهم وإظهار حقيقة توجهاتهم ، الأمر الذي ساعد في استهلاك حقبتهم في فترة قصيرة وغذّى من مشاعر التأييد الشعبي للإطاحة بهم والثورة عليهم. (١)

ولو عدنا للوضع الداخلي في حقبة تولي محمد مرسي في الثلاثين من يونيو ٢٠١٢ إلى أن تم عزله في مطلع يوليو ٢٠١٣ نجد أن تسلم «مرسي» الحكم وجماعة الإخوان والوضع الحالي لمصر مصاب بحالة اختناق ، فالاحتياطي من العملة الأجنبية يتآكل والسيولة تجف والعملة المصرية تتراجع والنمو في الودائع يتباطأ والنفقات الحكومية تنفلت والإيرادات تتراجع.

وقد غادر مرسي منصبه – بعد عزله – وقد ازداد الموقف المالي للبلاد سوءًا وبدا وكأنه ينتقل من حالة الاختناق ويدخل في طريق يقود إلى «رعشة ما قبل الموت» وهو أمر لم يؤخر حدوثه سوى إقدام مرسي على الاقتراض الخارجي بجرأة غير محسوبة. (٢)

وتجدر الإشارة هنا أن محمد مرسي قد تسلم منصبه واحتياطي العملة الأجنبية بالبنك المركزي ١٤ مليار و٤٢٢ مليون دولار ، وقد تأرجح الرقم ما بين الصعود والهبوط من شهر لآخر ووصل في نهاية أكتوبر ٢٠١٢ إلى ١٥ مليار و٤٨٤ مليون دولار إلى أن وصل في يونيو ٢٠١٣ إلى ١٤ مليار و٩١٤ مليون دولار أي بفارق نصف مليار دولار تقريبا عن نقطة البداية ، مما يشير إلى أنّ جماعة الإخوان المسلمين ورئاسة مرسي لم يتمكنوا من تحسين حالة الاحتياطي. (٣)

وتشير البيانات إلى تزايد معدلات الديون الخارجية بمعدل ٤,٣ مليار دولار خلال تسعة أشهر من حكم مرسي، ومن الملاحظ أيضًا أن المصروفات كانت أكبر

---

(١) سعيد رفعت : ٣٠ يونيو توابعها الداخلية وارتداداتها الإقليمية وتأثيراتها الدولية، شؤون عربية، خريف ٢٠١٣، العدد ١٥٥، ص٩.

(٢) جمال محمد غيطاس : مصر في زمن الإخوان ، وصف بالبيانات والمعلومات، المركز العربي للبحوث والدراسات ، بدون تاريخ، ص١٥.

(٣) جمال محمد غيطاس : مرجع سابق ذكره، ض١٦.

كثيرًا من الإيرادات، الأمر الذي أفرز عجزًا نقديًا في الوضع المالي للبلاد وقد بدأ هذا العجز بـ١٩ مليارا و٩٦ مليونا في الشهر الأول لحكم الإخوان ثم قفز في ديسمبر ٢٠١٢ إلى ٢٨ مليارا و٥٩٤ مليون جنيه ثم وصل في نهاية مدة (مرسي) إلى ٣٥ مليارا و١٠٦ ملايين جنيه أي وصل الفارق في العجز في الأول من يونيو ٢٠١٢ ونهاية يونيو ٢٠١٣ إلى ١٦ مليارًا و١٠ ملايين جنيه.[١]

وبخصوص الديون الخارجية – كما تذكر بيانات البنك المركزي وجهاز التعبئة والإحصاء ووزارة المالية – فقد تسلم مرسي البلاد وديونها تبلغ ٣٤ مليارا و٣٨٥ مليون دولار إلى أن وصلت في نهاية مدته لتصبح ٤٣ مليارًا و٢٣٣ مليون دولار ويعني ذلك أن الرئيس محمد مرسي قد أضاف لديون مصر الخارجية ٨ مليارات و٨٤٨ مليون دولار...

ومن ثمّ يتضح أن الوضع المالي في – زمن الإخوان – شهد تطورات سلبية في ١٣ مؤشّرًا ماليا تتعلق بالاحتياطات الدولية والديون الخارجية والعجز النقدي وقيمة العملة الوطنية وعائدات قناة السويس وتحويلات المصريين بالخارج وإجمالي قيمة إصدارات الأسهم بالبورصة وقيمة الأوراق المتداولة بالدولار في البورصة وإجمالي «المصروفات» على مستوى الدولة.

في المقابل تحسن في أحد عشر مؤشرا ماليا تتعلق بالودائع بالجهاز المصرفي والتسهيلات البنكية والسيولة النقدية وإجمالي الإيرادات وقيمة الأوراق المالية بالجنيه المصري بالبورصة.[٢]

وغني عن البيان في هذا الشأن أنه قد ركز الإخوان أثناء حملتهم الانتخابية الرئاسية عام ٢٠١٢ وكذلك محمد مرسي على قضية الاستثمارات الخارجية ورفع الإنتاجية المحلية لمختلف قطاعات الاقتصاد الوطني لخدمة برنامج تنمية شاملة أطلقوا عليه «مشروع نهضة» شارك فيه مئات العلماء في صياغته وإعداده – كما زعموا – وربطوا بين الوصول لمنصب الرئاسة وتدفق الاستثمارات الخارجية ووصل

---

(١) جمال محمد غيطاس: مرجع سابق ذكره، ص٢٢.

(٢) جمال محمد غيطاس: مرجع سابق ذكره، ص٢٧.

الأمر ذروته عن ٢٠٠ مليار دولار ستصل إلى مصر في صورة مساعدات واستثمارات خارجية مباشرة في شتى المجالات ، ولكن الأرقام الخاصة بالوضع الاقتصادي – خلال فترة حكم مرسي – تشير إلى أن الأمور سارت في الاتجاه المعاكس. (١) ونتيجة هذه الإخفاقات والميل الأمريكي للإخوان والإصرار على الأخونة مما خلق عديد من الدوافع التي حثت التيارات الشعبية على الثورة من جديد ضد نظام الإخوان أجملها مصطفى عبد العزيز مرسي في الآتي: (٢)

١) أن مشروع النهضة أو المشروع الإسلامي ظلا يتسمان بالضبابية والغموض ولم يتضح معالمه طوال عام من حكم الإخوان.

٢) تركيز مخطط الإخوان على «التمكين» وإعطائه الأولوية بالسعي للسيطرة على مفاصل الدولة وهجوم الإخوان الممنهج على القضاء واستعداء الأزهر والإعلام وغيرها واستدراج الدولة المصرية لمواجهات غير مبررة ضد الشيعة، الأمر الذي استشعر منه من قاموا بثورة ٢٥ يناير ٢٠١١ أنها سرقت منهم وانحرفت عن أهدافها السياسية.

٣) لم تحقق حكومة الإخوان أي إنجازات اقتصادية أو اجتماعية ملموسة على أرض الواقع.

٤) واستنكرت غالبية الشعب المصري أساليب تعامل حكومة «الإخوان» مع الأطراف الإقليمية والدولية وما تردد عن وجود مخطط لحل نهائي لمشكلة قطاع غزة ضمن نطاق جغرافي والتعامل الرئاسي المخزي مع مشروع سد النهضة الإثيوبي.

٥) ربما كان أخطر بواعث السعي لإسقاط نظام حكومة الإخوان هو تعمدها اتخاذ قرارات غير معلنة تمس الأمن القومي المصري في سيناء وتزايد نشاط الجماعات الإرهابية فيها وعرقلتها لمحاولات القوات المسلحة المصرية من حسم الموقف. (٣)

---

(١) جمال محمد غيطاس : مرجع سابق ذكره ، ص ٣٣.

(٢) مصطفى عبد العزيز مرسي: مرجع سابق ذكره ، ص١٣.

(٣) مصطفى عبد العزيز مرسي: مرجع سابق ذكره، ص١٤.

(٧) سقوط دولة الإخوان .. وإعادة إنتاج العنف التكفيري:

ثارت الجماهير المصرية في الثلاثين من يونيو بعد إرهاصات حركة «تمرد» والتفاف القوى السياسية والشعبية للإطاحة بحكم محمد مرسي وجماعته بعد أن فشلت في «التمكين» و«فتح مصر» و«تحقيق النصر المبين» بالرغم من المساندة الأمريكية وتوافق السياسات بين الولايات المتحدة وحكم الإخوان بقصد الحفاظ على الكيان الصهيوني واحترام اتفاقيات السلام المبرمة بين مصر وإسرائيل منذ عام ١٩٧٨.. كما تم فض اعتصام «رابعة العدوية» في القاهرة و«النهضة» بالجيزة في ١٤ أغسطس ٢٠١٣ مع الاختلاف في تحديد الأرقام والتي أعلنت رسميا ٦٣٨ قتيلا و ٣٩٩٤ مصابا غير أن الإخوان صنعوا منها شعورا بالاضطهاد و«مظلومية جديدة» لإثارتها والتباكي حولها مما دفع الإخوان إلى إعادة إنتاج «العنف التكفيري» والذي عاش عليه الإخوان منذ تكوين «التنظيم الخاص» أو «الجهاز السري» في أربعينيات القرن الماضي من إهدار دم المخالفين والخارجين عن الجماعة والتنظيم.. غير أنه بعد عزل محمد مرسي وفض اعتصامي «رابعة» و«النهضة» تزايدت حالة العنف الإخواني وتفاقمت وتيرته ... ولذا يعتبر من قبيل وهمية الفهم – في نظر الباحثين المصريين والعرب – اعتبار الإخوان من الإسلام المعتدل.

ويقول السيد يسين في هذا الأمر : «غير أنه تبين عبر الزمن – كما ثبت خصوصًا بعد ثورة ٢٥ يناير ونجاح جماعة الإخوان المسلمين في الوثوب إلى السلطة في مصر بعد أن حصلوا على الأكثرية في مجلس الشعب والشورى وبعد أن أصبح رئيس حزب الحرية والعدالة الإخواني «محمد مرسي» رئيسا للجمهورية أن التفرقة بين الإسلام المعتدل والإسلام المتطرف وهمية وأن جماعة الإخوان المسلمين هي المصدر الرئيسي للتطرف الديني وهي الراعية الحقيقية للإرهاب».[١]

ويذكر الباحث العربي جمال سند السويدي «أنه بعد صعود جماعة الإخوان المسلمين إلى الحكم أكدت الأحداث أنها على مسافة بعيدة من هذا الاعتدال المزعوم

(١) السيد يسين: تقديم كتاب ، حول تجربة الإخوان المسلمين من جمال عبد الناصر إلى عبد الفتاح السيسي ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ص٧.

حيث كشفت عن نياتها الإقصائية واستغلت دورها السياسي الجديد لتُظهر نفسها وكأنها المتحدث الرسمي باسم المسلمين، وأكدت أن محاولات التخفي وراء مظهر الاعتدال السياسي كانت مجرد وسيلة لتحقيق أهدافها السياسية... على أي حال لا يمكن إنكار حقيقة أن الجماعات الدينية السياسية التي تصف نفسها بالاعتدال أو يعتبرها بعض الباحثين كذلك لا تعترض على خيار العنف والعمل العسكري إذا كان يخدم مصالحها السياسية».(١)

ومما يدل على أن العنف متأصل في الكيان الإخواني وأنها – فعلا – على مسافة بعيدة عن الاعتدال وأن ما تقوم به الحركات الإخوانية واللجان النوعية من حرق وتدمير منشآت وأبراج كهرباء وقتل لأفراد الجيش والشرطة ووضع قنابل ومتفجرات في كل مكان وفي مقالب الزبالة وتدمير كل مؤسسات الدولة عن طريق حركات «ولع» و«مشاغبون» و«العقاب الثوري» و«المقاومة الشعبية» و«حسم» .. إلخ.. وهي حركات فوضوية تثير الزعر والتدمير في وسط الناس يؤكد ذلك تأصيل العنف في الوجود الإخواني.(*)!!!

كما أن العديد من العناصر المتطرفة والعناصر التكفيرية بسيناء يرتبطون بوشائج مع الإخوان وأن تنظيم «التوحيد والجهاد» الذي أسسه شوقي عبد اللطيف بات في

---

(١) جمال سند السويدي: السراب، الطبعة الأولى ٢٠١٥، أبو ظبي، الإمارات، ص ١٧٢، ١٧٣.

* ادعى عدد من الإخوان والمتعاطفين معهم أنهم على مسافة بعيدة من العنف والإرهاب والتدمير الذي يحدث في مصر وأن ما يحدث من تدمير وعنف وإرهاب من فعل الشرطة لتفزيع الناس من الإخوان أو من فعل داعش، غير أن ما كشفته التحقيقات مع بعض الجماعة (الإرهابية) في قضية اغتيال العقيد وائل طاحون واعتراف محمد سعد عليوه عضو مكتب الإرشاد من تفاصيل محددة تؤكد أن أعضاء في مكتب الإرشاد ومنهم محمد كمال والمتحدث الإعلامي محمد منتصر امتنعا عن التوقيع على رسائل تدعو إلى السلمية.. وأظهر محمد مهني موسي المسؤول عن اللجان النوعية بشرق القاهرة في تحقيقات نيابة أمن الدولة العليا أنه تم استحداث قسم يرعى العمليات النوعية وقسم للإشراف على الحراك الثوري وأن اللجان باشرت أعمالها النوعية من حرق وتدمير – بعد فض رابعة العدوية – وصلت إلى إزهاق الأرواح .. وقد نشرت هذه التحقيقات في جريدة «الشروق» لتؤكد صدق تبني الإخوان الإرهاب.. وقد طالب عماد الدين حسين رئيس التحرير في عموده (اعترافات إخوانية: نعم مارسنا العنف والإرهاب) في الشروق في عددها ٢٦٨٩ في ١٣ يونيو ٢٠١٦ في الصفحة الثانية بأن يعتذر كل من دافع عن الإخوان سرا وعلانية ونفوا عنها تهمة العنف والإرهاب.

مقدمة التنظيمات الإرهابية الموجودة بسيناء ويضم حوالي ألفي عنصر يستوطنون بجبل «الحلال» وهو يقوم على تكفير كل من يخالف تطبيق الشريعة الإسلامية ويتبنى فكرة إحياء «الخلافة الإسلامية»، وقد تمكنت قوات الأمن منذ سنوات من قتل أمير التنظيم و١٨ من قياداته.

وقد بدأ التنظيم نشاطه بمنطقة «وسط سيناء» وقرى الشريط الحدودي وأعلن التنظيم عن نفسه في مدينة «العريش» ويتبنى أعضاءه أفكارًا قائمة على تكفير الحاكم الذي لا يطبق شرع الله وتنسحب على ما دونه من «أركان نظامه» وصولا إلى قاعدة المجتمع البعيدة عن شرع الله ونشطت هذه الجماعة في عقد التسعينيات من القرن الماضي.

ويعتنق أعضاء جماعة «التوحيد والجهاد» عقيدة أهل السنة والجماعة – كما يذكر رفعت سيد أحمد- وأصول السنة والعقيدة ويقسمون الإسلام إلى أمرين – حسب قولهم – **أولهما**: الأمر بعبادة الله وحده لا شريك له والتحريض على ذلك والموالاة فيه وتكفير من تركه، **وثانيهما**: النهي عن الشرك في عبادة الله والتغليظ في ذلك والمعاداة فيه وتكفير من فعله وبالتالي هم يميلون – كما يذهب سيد أحمد – ناحية الأمور التكفيرية في الدين.[1]

وأن التنظيم الثاني في سيناء هو «الرايات السوداء» والذي يُعد من أخطر الجماعات المسلحة حيث تلقى أعضاؤه تدريبات قتالية في قطاع غزة الفلسطيني ومنطقة «دير البلح» وعادوا إلى مصر حيث تمركزوا في مدن الشيخ زويد ورفح والعريش وأقاموا قواعد عسكرية في جبال سيناء الوعرة، وأبرز أعمال التنظيم هو تحطيم تمثال أنور السادات وتفجير ضريح الشيخ زويد .. وتعتبر «جماعات الرايات السوداء» ضمن الجماعات أو الأفراد الذين حملوا فكرة «الجهاد المسلح» ضد الحكومات القائمة في بلاد العالم الإسلامي أو ضد الأعداء الخارجيين خاصة ضد الكيان الصهيوني أو الولايات المتحدة، وحملوا فكراً محددًا يقوم على مبادئ «الحاكمية» وقواعد الولاء لقياداتهم وأساسيات الفكر الجهادي السياسي الشرعي، ومن أبرز من يحملون هذا الفكر منذ

---

(١) رفعت سيد أحمد: «الأخسرين أعمالا» داعش «ولاية سيناء» بالوثائق، القصة الكاملة، الدور، الموساد، مركز يافا للدراسات والأبحاث، القاهرة، عام ٢٠١٥، ص٢٨ وما بعدها.

بداياته في الستينيات (من القرن الماضي) أبو محمّد المقدسي وعبد القادر عبد العزيز وأبو قتادة الفلسطيني وأبو مصعب السوري. [١]

وتجدر الإشارة هنا أن معظم الجماعات التكفيرية في سيناء تميل إلى الانغلاق على نفسها ولا تميل إلى الاتصال تنظيميًا بأي جماعات إسلامية أخرى وتقوم أفكارها على تكفير جنود وضباط الشرطة والجيش بشكل واضح باعتبارها جنود الحاكم الكافر وأدواته لتوطيد حكمه المخالف للدين والشريعة. [٢]

والتنظيم الثالث في سيناء وهو «السلفية الجهادية» والمتواجد في قطاع غزة وسيناء وهما اللاعبان الرئيسيين في أحداث سيناء خاصة في الخمس سنوات الأخيرة، وتعتبر السلفية الجهادية هي الرابط الفكري المشترك بين الجماعات الجهادية في قطاع غزة والجهاديين في سيناء ويوجد تعاون مشترك بينهم في بعض العمليات التي نفذوها ضد الحكومة المصرية في السابق، وقد أصدر تنظيم السلفية الجهادية في سيناء عدة بيانات للرد على الحملة العسكرية على سيناء والتي ادعت فيها أنها تتوجه فقط للجيش الإسرائيلي وليس في مواجهة الجيش المصري وهو الأمر الذي كذبه الواقع والوقائع والتي حدثت بعد ذلك!! [٣]

ويأتي في المرتبة الرابعة تنظيم «جند الإسلام» وهذه الجماعة ظهرت لمدة واحدة ثم اختفت بعد ذلك ، ولعل تفجير مبنى المخابرات الحربية برفح ١٢ سبتمبر ٢٠١٣ بمثابة العمل الأول والأخير في أدائه وقد راح ضحية هذا التفجير الإجرامي «٦ شهداء من الجنود» وأصيب ٧ آخرون في نفس يوم العملية فهي – أي الجماعة – لم تكن قادرة على تنفيذ عملياتها العسكرية – بعد عزل مرسي – مباشرة ولكنها تأخرت عدة أشهر لتنفيذ عملياتها «الوحيدة» وعندما نجحت في ذلك تغنت بها بالإعلان الفوري في نفس يوم العملية على خلاف التنظيمات «الإرهابية» الأخرى وكأنها كانت تقصد – كما يذكر منير أديب – الإعلان عن العملية وعن نفسها في الوقت ذاته كتنظيم جديد ظهر لمواجهة القوات المسلحة بعد ٣٠ يونيو ٢٠١٣ [٤]

---

(١) رفعت سيد أحمد : مرجع سابق ذكره، ص٢٩.

(٢) رفعت سيد أحمد : مرجع سابق ذكره ، ص٣٠.

(٣) رفعت سيد أحمد : مرجع سابق ذكره ، ص٣١.

(٤) منير أديب : خريطة «الجهاد المسلح» في مصر ، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ٢٠١٥.

بيد أن هذا التنظيم قد انضم لأنصار بيت المقدس فيما بعد فقد نشأ في شبه جزيرة سيناء والتي سيطر عليها تنظيم «أنصار بيت المقدس» أو يعتبر التنظيم الأبرز والأكبر في هذه المنطقة وعلى انضمامه لهذا التنظيم أنه كان ممثلا في مجلس شورى المجاهدين والذي يضم – بطبيعة الحال – تيارات وتنظيمات «جهادية» ومن هنا حدث الالتقاء وارتأت تنظيمات صغيرة منها جند الإسلام الاصطفاف في تنظيم واحد تستطيع مجابهة الجيش المصري!! (١)

أما التنظيم الخامس فهو «مجلس شورى المجاهدين» والذي يضم ٥٠٠ شخص حصلوا على تدريبات عسكرية وتقنية على أيدي عناصر حزب الله اللبناني وحركة حماس (الإخوانية).

أما التنظيم السادس يتمثل في جماعة «أنصار بيت المقدس» والتي بايعت في نوفمبر ٢٠١٤ «أبو بكر البغدادي» خليفة للمسلمين وتغير اسمها إلى (داعش ولاية سيناء) هذه الجماعة تعد الآن أحد أشهر التنظيمات المسلحة في سيناء، وتعتبر جماعة «أنصار بيت المقدس» جماعة مسلحة بشكل كبير حيث امتلكت العديد من أنواع الأسلحة خاصة «الآر بي جي» والقنابل اليدوية والصواريخ القريبة المدى والكلاشنكوف وعادة ما يؤدي أفرادها العديد من التدريبات الشاقة على أرض سيناء.

وقد أعلن هذا التنظيم مسؤوليته من قبل عن إطلاق صاروخين من طراز «جراد» على مدينة «إيلات» جنوبي الكيان الصهيوني وتبنت الجماعة العملية التي تم تنفيذها ضد دورية حرس الحدود الإسرائيلية. (٢)

وتجدر الإشارة هنا أن هذا التنظيم قد أنشئ – بعد ثورة يناير – وإن كان يمثل امتدادًا لتنظيمات أخرى كانت موجودة في شبه جزيرة سيناء قبل هذا التاريخ بتاريخ.. فمن المعروف أن ثورة يناير أعطت قبلة الحياة للتنظيمات «الجهادية التكفيرية» التي رفضت مراجعة أفكارها فخرجوا من السجون بعد أن قضوا الأحكام الصادرة بحقهم وأصبحوا في بقائهم في السجون وضع غير قانوني فضلا عن العفو الرئاسي

---

(١) منير أديب: مرجع سابق ذكره، ص١٤٦.

(٢) رفعت سيد أحمد: مرجع سابق ذكره، ص٣١.

الذي صدر في عهد محمد مرسي والذي صدر لصالح المتشددين وأن عددهم وصل إلى ٨١٢ شخصا من بينهم ٦٧٢ مصريا و١٤١ سودانيا [١] حيث تبين من تحليل عدد المصريين المفرج عنهم بأنهم قد ارتكبوا ١٠ جرائم تتصدرها قضايا التسليح.*

ومما يعنينا الآن أن نبحث في العلاقة بين أنصار بيت المقدس والإخوان.. ولعلنا في موضع آخر من الكتاب نستعرض فيه «التنظيمات الإرهابية» والتي استخدمت العنف والتدمير في مسارها السياسي...

ويمكن لنا أن نقول: إنه برغم تباين الأفكار بين منهج وأنصار بيت المقدس وجماعة الإخوان، فالجماعة الأولى كانت تكفر الإخوان ومحمد مرسي عندما كان في السلطة، وعلى سُدة الحكم ولكنها في الوقت ذاته دافعت عنه عندما عُزل عن السلطة – شأن هذا التنظيم شأن التنظيمات الإرهابية الأخرى والتي اتخذت التكفير منهجا – وهذا يعطينا ملمح من ملامح الشخصية «المتأسلمة» والمتطرفة بأنها تحوي تناقضا وانفصاما..!!

على آية حال قد أثير سؤال لدى الباحثين وهو: كيف تم توحيد ما بين الإخوان وأنصار بيت المقدس من قبلتين رغم أن الأخيرة كانت تكفر «محمد مرسي» وجماعته واستخدمت القوة والتدمير بعد عزله للدفاع عنه؟!

وقد قدم الباحث منير أديب تحليلا أقرب للقبول حيث ذكر أنه اضطرت جماعة الإخوان المسلمين أن تصمت قليلًا أمام العمليات العسكرية التي كانت تقوم بها جماعة أنصار بيت المقدس وبعد عزل محمد مرسي من السلطة فلم نسمع عن شجب وإدانة عبر البيانات الرسمية للجماعة على الأقل في العمليات المسلحة الأولى – بعد

---

(١) مصر في زمن الإخوان، ص١٧٩.

* وقد تم تحليل عدد المصريين المفرج عنهم بعفو رئاسي حيث لم تكن هناك قضايا رأي وخلاف سياسي وإهانة رئيس الجمهورية فيما أفرج عنهم أو تهديد السلم الاجتماعي وقلب نظام الحكم فلا أثر لذلك وكان هناك ٩ من الجماعة ظهرت أسماؤهم في أحد قرارات العفو جنبا إلى جنب مع ١٤ قيادة من أعضاء وقادة الجماعة الإسلامية وتنظيم الجهاد وكانت تهم الإخوان غسيل أموال وهذه الأسماء هي: أشرف محمد عبد الحليم عبد الغفار، إبراهيم منير أحمد مصطفى، وجدي عبد الحميد غنيم (صاحب فتاوى التكفير الإخواني)، علي غالب محمود همت، يوسف مصطفى علي ندا، إبراهيم فاروق محمد الزيات، يوسف علي يوسف المتعايش، فتحي أحمد الخولي، هذا بالإضافة إلى شحته فوزي مختار أبو تريكة الذي اتهم في قضية تزوير. انظر: مصر في زمن الإخوان، ص ١٨.

عزل مرسي – في ٣ يوليو ٢٠١٣ ظنًا من الجماعة أن العمليات تثير الفوضى في البلد وربما تساعد في عودة مرسي للسلطة مرى أخرى أو تعطي الفرصة لقيام «ثورة ثالثة» بعد يناير ويونيو خاصة وأن الإخوان مصرون بتظاهراتهم على عودة مرسي لمكانه مرة أخرى أو سقوط النظام السياسي الذي قام على خلفية عزل مرسي ثانية...

ويذكر أديب أن هذا التعاون بين أنصار بيت المقدس والإخوان رد فعل طبيعي لعزل مرسي من السلطة، ولعل تصريحات محمد البلتاجي «أحد قيادات الإخوان» المصورة شاهدة على إقرارهم للعنف ولو بشكل ضمني، وظهر ذلك عندما وجه لعضو المكتب التنفيذي للحرية والعدالة (الذراع السياسية لجماعة الإخوان) سؤالا عن أعمال العنف التي تجري في سيناء وكان وقتها باعتصام «رابعة العدوية» فرد: سوف يتوقف العنف في سيناء في نفس اللحظة التي يعود فيها مرسي مرة أخرى.(١)

في حين أن الإخوان في تسعينيات القرن الماضي (ذروة الإرهاب المتطرف) كانوا لا يكتفون بنفي علاقاتهم بأحداث العنف بل كانوا يهاجمون من يستخدم العنف ويتبرءون منه ويؤصلون لذلك بمواقف شرعية واضحة وهو لم يحدث من الإخوان إزاء العنف الذي حدث من حركات تنسب إليهم مثل «المقاومة الشعبية» و«مشاغبون» و«العقاب الثوري» ومن غيرهم من التنظيمات العنيفة والمتطرفة والإرهابية، بل أكدت تصريحات قياداتهم في الآونة الأخيرة بأنهم رفضوا «السلمية» وأنهم أمروا بإنشاء هذه اللجان النوعية وتدعيمها والإنفاق على عملياتها.

والجدير بالذكر في هذا الشأن أن جماعة الإخوان المسلمين لم تقم بإدانة أي عملية مسلحة لجماعة أنصار بيت المقدس قبل الهجوم على مديرية أمن الدقهلية بمدينة المنصورة والتي حدث في ٢٤ ديسمبر ٢٠١٣ واضطرت جماعة الإخوان لإدانة هذه العملية بعد وصف رئيس مجلس الوزراء حازم الببلاوي للجماعة بالإرهابية.(*)

---

(١) منير أديب: مرجع سابق ذكره، ص٣٠.

(*) تم وصف بيان رئيس مجلس الوزراء (الأسبق) جماعة الإخوان بالإرهابية من خلال بيان ألقاه نائب رئيس الوزراء السابق حسام عيسى بمؤتمر صحفي جاء فيه: «قرر مجلس الوزراء إعلان جماعة الإخوان المسلمين جماعة إرهابية وتنظيمها تنظيمًا إرهابيا في مفهوم نص المادة ٨٦ من قانون العقوبات المقررة قانونا وكل ما يترتب على ذلك من آثار أهمها توقيع العقوبات المقررة قانونا والخاصة بالإرهاب على كل من =

ومن التنظيمات الإرهابية والتي ظهرت بعد عزل مرسي جماعة أجناد مصر بشكل حقيقي في بدايات عام ٢٠١٤، غير أنها قامت ببعض العمليات في نهاية ٢٠١٣ ولكن الجزء الأكبر من عملياتها كان في مطلع عام ٢٠١٤م.

ومن خلال رصد العمليات التي قامت بها «أجناد مصر» لم يكن منها عمليات انتحارية على سبيل المثال فالعمليات التي قامت بها كانت عبارة عن عبوات تفجيرية فحسب وبدائية الصنع أيضًا تدل على أنّ أصحابها لم تكن لديهم أي خبرة من قبل في العمل العسكري كما لم يكن للعمليات التي قاموا بها الأثر الكبير كغيرها من العمليات التي تشنها تيارات «جهادية» أخرى ومن ثمّ كانت نتائج هذه العمليات ضعيفة الأثر على الأقل في بدايتها ولم تخلف سوى مصابين وقليل من القتلى وبعض العمليات فشلت فشلا ذريعا ولم يعلنوا عنها ولكن أصابع الاتهام أشارت إلى أنهم مرتكبوا هذه الجرائم.(*)

وينضاف إلى هذه الحركات والتي أيدتها جماعة الإخوان فور صدور بيانها في مايو ٢٠١٥ باسم «نداء الكنانة» وقد هاجم بيانها الأول الدولة المصرية والرئيس السيسي ونظام حكمه وحرض على مقاومة النظام وإسقاطه بما سماه «الوسائل المشروعة» وقد وصف البيان والذي نسب لبعض المحسوبين على الجماعة الإرهابية الضباط والجنود والمفتين والإعلاميين والسياسيين بـ «القتلة».

وهناك اتصالات بين قيادات الجبهة والقيادات الإخوانية الهاربة في الدوحة وأنقرة لتدبير مبالغ مالية مطلوبة لبدء عمل هذه الجبهة الإخوانية (الإرهابية) والتي ستضم ما بين ٨٠٠ إلى ١٥٠٠ عنصر من عناصر حركة حماس ومصريين بتمويل مقترح يصل إلى ٢٠ مليون دولار حيث تضم جبهة «إخوان كنانة» ١٠ مجموعات كل مجموعة ما بين

=

يشترك في نشاط الجماعة أو التنظيم أو يروج لها بالقول أو الكتابة أو بأي طريقة أخرى أو كل من يمول أنشطتها وتوقيع العقوبات المقررة قانونا على من انضم للجماعة أو التنظيم واستمر عضوا في الجماعة أو التنظيم بعد صدور هذا البيان وإخطار كافة الدول العربية المنظمة لاتفاقيات مكافحة الإرهاب للعام ٩٨ بهذا القرار وتكليف قوات الشرطة والقوات المسلحة بحماية المنشآت العامة على أن تتولى الشرطة حماية الجامعات وضمان سلامة أبنائنا الطلاب من إرهاب تلك الجماعة».

(*) محاولة تفجير محطات مترو الأنفاق في توقيت واحد وهي محطات: شبرا الخيمة وغمرة وحدائق القبة وحلمية الزيتون وعزبة نخل أسفرت كل هذه التفجيرات فقط عن أصابة شخصين ولم يكن هناك قتلى.

٥٠ إلى ١٠٠ عنصر مدربين على عمليات الاستطلاع والدخول في مواجهات مسلحة والتعامل مع الألغام وأساليب زرع المتفجرات في طريق الآليات العسكرية.

والجدير بالذكر في هذا الصدد أن بيان «نداء الكنانة» الذي أصدره ١٢٠ شخصا من الدعاة الموالين للجماعة سواء في مصر أو خارجها من التابعين للاتحاد العالمي للمسلمين والذي يترأسه «يوسف القرضاوي» والذي يضم عددًا من الدول في العالم كما تضمن ١٠ هيئات وهي: رابطة علماء أهل السنة وهيئة علماء فلسطين في الخارج وهيئة علماء المسلمين في لبنان ومركز تكوين العلماء في موريتانيا ومنتدى العلماء والأئمة في موريتانيا ورابطة علماء المغرب العربي والاتحاد العالمي لعلماء الأزهر ونقابة الدعاة المصرية وجبهة علماء ضد الانقلاب وهيئة علماء السودان.[١]

(١) تحقيق بعنوان: انفراد .. الإخوان شكلوا «جبهة الكنانة» لتنفيذ عمليات إرهابية في سيناء، جريدة الصباح في ٢٥ يناير ٢٠١٦، الصفحة السابعة.

فذلكة أخيرة:

يبدو أن هناك عديد من الملاحظات قد فرضتها ما طرحناه من تاريخ الإخوان السياسي والديني وكذا ما طرحته نتائج وصول الجماعة إلى سُدة الحكم في الثلاثين من يونيو ٢٠١٢ وحتى الثالث من يوليو ٢٠١٣ بعد ثورة جارفة بالملايين ملأت ميادين مصر بعد فشل الإخوان في إدارة البلاد وتتمثل هذه الملاحظات في التالي:

الملاحظة الأولى: أن التأسيس الفعلي للإخوان على يد حسن البنا والذي وضع بدوره بذور «الفرقة الناجية» أو «جماعة الإخوان المسلمين» وهي الفرقة التي تتحمل عبء الدفاع عن الإسلام وتحقيق غايته بأستاذية العالم وتحقيق مفهوم «الخلافة الإسلامية» ومن ثمَّ كان الخارج من الجماعة هو المروق بعينه والخروج عن الدين وملة الإسلام. وقد عمق هذا الاتجاه بالتكفير أطروحات سيد قطب بعد عرض مفهوم الجاهلية والحاكمية!!

الملاحظة الثانية : الظن بأن تيار الإسلام السياسي من يروم إلى «الاعتدال» أو «التسامح» أو «تقبل الآخر» هذا الظن وهذا الكلام يخلو من الدقة لأن هذا التيار أساسه العنف والتكفير والإقصاء وأنّ مقولة أن الإخوان هم الجماعة المعتدلة فهذه «المقولة» قد كذبتها الأحداث وما تلى ذلك من ظهور العنف والتكفير السياسي والديني بعد ثورة ٢٥ يناير ٢٠١١ وبعد ثورة٣٠ يونيو ٢٠١٣ وبشكل عنيف وتكفيري فادح. فما تم طرحه من الإخوان في سنوات كان في حقيقته وهم الاعتدال والتسامح وقبول الآخر وكانت الظروف السياسية والمداراة وتقية الحاكم هي غاية الجماعة من إظهار تسامحها كما أن هدفها الحقيقي الوصول إلى أروقة الحكم والتحكم في مفاصل الدولة هو غاية الغايات لديها تتحمل في سبيل تحقيقه كل العناء!!

الملاحظة الثالثة: سقوط نظرية احتواء المعتدل للإسلام المتطرف والتي طرحتها الإدارة الأمريكية ومنظروها والتي تتضمن أن الجماعة المعتدلة وتتمثل في الإخوان في مصر هي الأقدر في التعامل واحتواء الجماعات «المتطرفة» و«المتشددة» و«التكفيرية» وبذا يكون تنفيذ السياسات الأمريكية وإعادة إنتاج شرق أوسط جديد خلال هذا التيار.. فلم تكن جماعة الإخوان معتدلة يوما إلا بتقية أو مداراة أو ظروف سياسية تقضي ذلك – كما أسلفنا – ولكن في كل مراحل التاريخ ومنذ نشأتها في عام ١٩٢٨

وحتى وقتنا الراهن ساد العنف والتكفير والإقصاء ونفي الآخر وتمكن منها الإقصاء والتكفير حينما يحدث خلاف في الرأي أو عدم توافق اتجاه المخالفين للإخوان!!!

الملاحظة الرابعة: أن ما أصاب الإخوان من فشل يعود لعدة أسباب منها: الاستئثار بالسلطة وإقصاء الآخرين والأخونة الشديدة وعدم القدرة على إدارة الدولة لعدم كفاءة الكوادر وعدم قدرة كوادرها على التعامل بفن الممكن وافتقاد الاهتمام بسياسة المواءمة وفشل الإخوان في إخراج كوادر جديدة ذات تجربة في إدارة الدولة والتعامل مع شؤونها وافتقاد الجماعة لبرنامج سياسي واقتصادي واجتماعي يحل ألغاز المشاكل والقضايا والتحديات التي تمر بها البلاد وعدم وجود أجوبة قاطعة في عديد من الأمور كمشكلة «الديمقراطية» و«الهوية» والموقف من المرأة والأقباط والتخبط في الرؤى والسماح بإصدار الفتاوى الصادمة.. كما أن الفشل في إدارة البلاد سيصيب هذا التيار برمته بنكسة سوف تجعله يتراجع لسنوات طويلة نتيجة ما ارتبط بها من فشل ذريع بعد أن كانت مصر مهيأة لقبول التيار الإسلامي بعد ثورة ٢٥ يناير ٢٠١١ باعتباره البديل الجاهز والمنظم والذي يمكن أن يتحمل مسؤولية الحكم بإعطائه فرصة لذلك.

الملاحظة الخامسة: هناك ثمة قاعدة هامة أنه لا تدمير ولا تفجير إلا بتكفير فالتكفير السابق هو المقدمة للتدمير والقتل وإهدار الدم وإزهاق الأرواح أي أن التاريخ الإخواني المليء بذلك يعبر بالقطع عن سمة التكفير الواضحة في التصور والمنهج الإخواني وإن ما زاد من وتيرة العنف التكفيري من الإخوان والجماعات الإرهابية الموالية لها – سببه عزل محمد مرسي والإخوان عن دست الحكم – ومن ثم كان إقصاء المشروع الإسلامي بالتبعية – كما يذكر مناصروه – ما هو إلا تكئة «فقط» حيث أن العنف التكفيري متأصل في وحدات الجماعة وعقلها ومنهجها منذ تأسيسها سواء على المستوى العملي والنظري من خلال أفكار حسن البنا ومن بعده سيد قطب أو على المستوى بإنشاء الجهاز الخاص أو التنظيم العسكري للإخوان لإهدار دم المخالفين والمعارضين لجماعة الإخوان المسلمين!!!

المطلب الرابع

الفنية العسكرية.. رسالة إيمان أم رسالة كفر !!

¤ ¤ ¤ ¤

(أ) المؤسس : ولد صالح سريّة مؤسس التنظيم في مدينة حيفا (وتذكر بعض الروايات أنه ولد في يافا) عام ١٩٣٣، ويذكر جيلز كيبل أنه ولد في «جزيم» قرب حيفا وجزيم (أو أجزم) كانت أيضًا مسقط رأس الشخصية الغامضة في الحركةالإسلامية العربية: تقي الدين النبهاني مؤسس حزب التحرير الإسلامي[*] الذي أسس عام ١٩٥٠ كرد فعل لهزيمة الجيوش العربيّة في حرب ١٩٤٨ في فلسطين، ومن جهة أخرى لاغتيال حسن البنا مؤسس جماعة الإخوان المسلمين[1].. ولعل قرب المولد يولد تقارب في الأفكار بينهما وانتسب سرية إلى حزب التحرير...

وقد عاش سرية بالأردن بعد خروجه من (حيفا)، وعاصر أحداث سبتمبر ١٩٧٠، وجاء إلى القاهرة عام ١٩٧١، وحصل منها على الدكتوراه في التربية من جامعة عين شمس، ثم ما لبث أن غادرها إلى بغداد، ولعله كان يعمل في إحدى جامعاتها، لكنه لم يلبث أن خرج هاربًا بعد أن حكم عليه – غيابيا – بالسجن، وكانت تهمته تكوين

(*) أنشأ حزب التحرير الإسلامي تقي الدين النبهاني (١٩٠٩-١٩٧٩)، والذي ولد في (جزيم أو أجزم) بقضاء حيفا، حيث تلقى تعليمه الابتدائي في مدارس القرية، وقد غادر قريته إلى القاهرة للدراسة في الأزهر للحصول على شهادة العالمية، وقد عمل مدرسًا في حيفا ثم الخليل فترة من الزمن، هجر بعدها التدريس ليعمل في سلك القضاء الشرعي، حيث تدرج في الوظائف حتى عين قاضيًا شرعيًا في المحكمة الشرعية في بيسان ثم الخليل ثم الرملة واللد حتى حدوث نكبة عام ١٩٤٨، وغادر فلسطين مستقرًا في بيروت. أما ظروف نشأة النبهاني لحزب التحرير فقد قيل: إن نشأته ترجع إلى رد فعل لهزيمة الجيوش العربية في حرب ١٩٤٨ في فلسطين، وقيل: إن سبب النشأة كان لرد فعله تجاه مقتل حسن البنا مؤسس الإخوان في عام ١٩٤٩، وكانت دعوته تبنى على فكرة إنقاذ الأمة الإسلامية من الفناء بإعادة الثقة بأفكار الإسلام وأحكامه المستنبطة من الكتاب والسنة. انظر لزيادة التفاصيل : موسوعة العلوم السياسية، ص٢١٠، وعبد المنعم الحفني: مرجع سابق ذكره، ص ٢٩٢، ٢٩٣.

(١) جيلز كيبل: النبي والفرعون ، مكتبة مدبولي ، ١٤٠٩هـ / ١٩٨٨م، ص٨٤.

خلية لحزب التحرير الإسلامي، ومناهضة نظام الحكم، ومن بغداد جاء إلى القاهرة، وفي «القاهرة» وجد من يدبر له عملا في مقر جامعة الدول العربيّة.(١)

وقد عرض سرّية على بعض كوادر الإخوان الذين خرجوا من السجن استراتيجية حزب التحرير، واستطاع أن يحول «طلال الأنصاري» الذي بدأ في تشكيل جماعة سرية، فأصبح بعد ذلك من أهم قيادات وأقرب «جماعة الفنية العسكريّة» إلى أفكاره ، وقد نجح سرية في تشكيل خلايا سرية في القاهرة والإسكندرية عرفت باسم «الأسر»، وكان أغلب أعضائها من طلاب الجامعات.(٢)

وتجدر الإشارة هنا أن سريّة كان منتميًا للإخوان في العراق، وترقى في الجماعة حتى وصل إلى عضو اللجنة التنفيذية في قيادة الإخوان المسلمين بالعراق عام ١٩٥١ ، وحتى ١٩٥٨ انغمس تمامًا في النشاط الإخواني في العراق، أي أنه كان يدعو لأفكار الإخوان التي كانت تنادى بإعادة تطبيقه في مجالات الحياة.(٣)

والجدير بالذكر في هذا الشأن أن سرية كان أحد أعضاء الإخوان المسلمين في الأردن، ثم انضم لحزب التحرير، وبعد هزيمة عام ١٩٦٧ التحق بتنظيمات فلسطينية متعددة كان لها ارتباط ببعض النظم العربيّة والتي أطلق عليها صفة الثوريّة في هذه المرحلة، منها: النظامين العراقي والليبي، ولا شك – كما تذكر هالة مصطفى – أن التجربة السياسيّة لصالح سريّة لعبت دورًا كبيرًا في تشكيل أفكاره وتوجيهها سياسيًّا خاصة في ظل واقع الاحتلال الإسرائيلي الذي عانى منه بشكل مباشر بصفته فلسطيني.(٤)

---

(١) رفعت سيد أحمد: الإسلامبولي ، رؤية جديدة لتنظيم الجهاد، مدبولي ، ص ٦٤.

(٢) هالة مصطفى: الإسلام السياسي في مصر، ص١٤١.

(٣) مختار نوح: موسوعة العنف في الحركات الإسلامية المسلحة «٥٠ عاما من الدم»، سما للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، يناير ٢٠١٤، ص١٢٠. وقد اعتمد نوح على ما ورد من أقوال سرية في التحقيقات التي أجريت معه بتاريخ ١٩/ ٤/ ١٩٧٤، والتي أسهب فيها باعتراف طويل عن مسيرته، وصلت إلى مئات الصفحات.

(٤) هالة مصطفى : مرجع سابق ذكره، ص١٤١.

وقد ارتأى العديد من الباحثين أن هناك علاقة «سرية» بالإخوان المسلمين والتي أفاض بها بالتحقيقات تبين بجلاء أن هناك صلة للإخوان المسلمين وأنهم كانوا خلف قضية الفنية العسكرية، وخاصة أن هناك اتصال مع زينب الغزالي (١٩١٩-٢٠٠٥) والمرشد العام للإخوان – وقتئذ – حسن الهضيبي غير أن مختار نوح من الرافضين لهذا الارتباط وهذه الصلة نظرًا لرفض «الإخوان» فكرة إقامة الدولة الإسلامية بالقوة، والتي هي مناط تفكير صالح سرية في الوصول للسلطة عن طريق الانقلاب والسيطرة عليها.[١]

(ب)نشأة التنظيم وأفكاره العامة:

أنشأ التنظيم صالح عبد الله سرية، وعرف التنظيم باسم «شباب محمّد»، ولكن الجماعة عرفت إعلاميا باسم «الفنية العسكرية» بسبب قيامها في عام ١٩٧٤ بالهجوم على كلية الفنية العسكرية، مما تسبب في مقتل ١١ فردًا، وجرح ما يقرب من ٢٧ شخصًا في أثناء اجتماع بعض القيادات السياسية المصرية للاستماع إلى خطبة يلقيها رئيس الجمهورية – وقتئذ – الرئيس محمد أنور السَّادات.

والجدير بالبيان في هذا الأمر أن مصر قد عرفت التنظيمات الجهادية* داخل الحركة الإسلامية ما بعد منتصف الخمسينيات (من القرن الماضي)، ولكنها كانت محاولات جنينية لم يقدر لها الاكتمال التنظيمي الواسع إلّا مع حادث اغتيال السَّادات في ٦ أكتوبر ١٩٨١.

فقد كانت محاولات «يحيى هاشم» وكيل النيابة في عام ١٩٦٨ ثم نقله للإصلاح الزراعي من ثوابت الفكر الجهادي، والذي استمرت بعد القبض على عناصر الفنية العسكرية. ويمكن لنا أن نقول: إن تنظيم صالح سريّة يعد أول محاولة غير فردية لأفراد يقتنعون بفكرة «الجهاد»، والتي تهدف إلى قلب نظام الحكم (الغاشم) في مصر خلال حقبة السبعينيات (من القرن الماضي) بخلاف التنظيم الخاص بـ «يحيى هاشم»،

(١) مختار نوح: مرجع سابق ذكره، ص١٢٥.

* نحن نعتبر أن التنظيمات التي تصنف على أنها جهادية ليست كذلك لخلط في مفهوم الجهاد لديهم، ولكنهم في الحقيقة (جماعات تكفيرية) تكفر المجتمع والأفراد والسلطة الحاكمة، ولكننا نساير أدبيات السياسة مع تحفظنا السابق عليها.

والذي يعتمد على أسلوب حرب العصابات.

وكما ذكرنا من قبل أن صالح سرية قد بدأ فور وصوله لمصر في الاتصال بكبار الشخصيات الإسلامية وزعماء الإخوان المسلمين، وعلى رأسهم حسن الهضيبي (١٨٩١-١٩٧٣)، وزينب الغزالي، غير أنه وجد أن مسلك الإخوان وتصورهم لكيفية إقامة المجتمع الإسلامي، وركونهم إلى المهادنة لا يتفق مع منهج سرية في الانقلاب العسكري لإقامة الدولة.

ورغم رؤية سرية في موضوع الإخوان ومسلكهم ومهادنتهم للأنظمة الحاكمة، إلا أنه كان دائم التردد على منزل زينب الغزالي، والتقى هناك بالمصادفة بطلال محمد عبد المنعم الأنصاري (طالب بهندسة الإسكندرية وقتئذ)، وهو شاب متحمس ذو ميول دينية تعرف إليه، واتفقا على وجوب إقامة جماعة إسلامية تسعى من خلال «الجهاد» إلى تغيير النظام القائم وإقامة نظام إسلامي.[١]

وقد نشط بالتالي «طلال الأنصاري» الذي يقيم بالإسكندرية في ضم أعضاء جدد للجماعة ممن يعرفهم عن طريق تردده على المساجد وممن كانوا زملاء له في الدراسة، حيث كان – وقتئذ طالبا بهندسة الإسكندرية – كما ذكرنا من قبل – وتولى هو إقامة إمارة الإسكندرية.

وقد نجح أحد الأعضاء من الذين ضمهم الأنصاري وكان طالبا بالكلية الفنية في التعرف على كارم عزت حسن عبد المجيد الأناضولي (طالب بالفنية العسكرية أيضًا)، وضمه للجماعة، وما لبث أعضاء الجماعة في الفنية العسكريّة أن بايعوا «الأناضولي» أميرًا لهم، كما نجح صالح سريّة في تجنيد حسن محمّد الهلاوي (طالب بالدراسات الإسلاميّة)، وتنصيبه أميرًا عامًا للقاهرة والجيزة.[٢]

---

(١) منى العريني وآخرون: قراءة في تحقيقات قضيتي الفنية العسكرية والتكفير والهجرة ، في كتاب «المتشددون المحدثون»، دراسة لحركات إسلامية معاصرة، إشراف أحمد خليفة ، تحرير سهير لطفي، الجزء الثاني، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ٢٠١٣، ص٧٠٨.

(٢) منى العريني وآخرون: مرجع سابق ذكره، ص٧٠٨.

وقد انتشرت الجماعة سريعًا، وتنامت عضويتها في فترة قصيرة زمنيًا لم تتجاوز عدة أشهر، وقد عزا عديد من الباحثين أن سرعة انتشارهم يعود لما حدث في نكسة ١٩٦٧، وأن السّادات كان يأمل المتدينون منه الكثير، وتأثر معظمهم بالنشاط الديني بالمساجد ودور أئمة المساجد في هذا الأمر.

ولا يتصورن أحد أنّ هذه الجماعة اعتمدت على الشحن الديني وحماس الشباب في التنظيم «فقط» بل كانت هناك للجماعة أفكار يمكن رصدها من خلال «رسالة الإيمان» لصالح سرية ، أو كما ورد على لسان كوادرها أثناء التحقيق معهم، حيث تبين أن هناك نقاط جوهريّة صاغت المحددات الفكريّة، وحددت خطابها السياسي، بل يمكن أن نقول: إنّ هذه الأفكار ظلت حاكمة لمجموعة تنظيم «الجهاد» والتي أتت بعد ذلك وهذه النقاط قد لخصتها هالة مصطفى في الآتي:

(١) العداء الشديد للغرب حضاريا وسياسيا، والوقوف موقف الخصومة منه.

(٢) تكفير النظم السياسيّة القائمة، وربطها بشكل مباشر بالتبعية للغرب.

(٣) رفض الفلسفتين الرأسمالية والاشتراكية، وما يتولد عنهما من نظم سياسية واقتصادية، وطرح «الإسلام» بديلا عنهما.

(٤) اعتبار الصراع العربي الإسرائيلي الذي يكتسب بعدًا دينيًا باعتباره صراعا بين المسلمين واليهود من وجهة نظر الجماعة أحد المحاور الأساسية التي يدور على أرضيتها الصراع مع النظم الحاكمة، وربما ليست مصادفة – كما تذكر مصطفى – أن يكون قائد أول جماعة إسلامية راديكالية في مصر فلسطيني الأصل، بل وأحد الأعضاء والمؤسسين لحركة «فتح» ، وأحد مسؤوليها العسكريين، وبالتالي لعبت شخصية قائد الجماعة «صالح سريّة» دورا في التوحيد السياسي لحركتها.[1]

(١) البناء التنظيمي لجماعة الفنية العسكرية ومراحل العضوية:

تأخذ جماعة الفنية العسكرية (شباب محمّد) بنمط البناء التنظيمي الهرمي حيث تتكون من مجموعات على رأس كل منها أمير، وهناك أمير لكل مدينة يتبعه مجموعة من المجموعات، ولا يوجد عدد محدد لأعضاء كل مجموعة على حدة – كما يذكر كامل

---

(١) هالة مصطفى : مرجع سابق ذكره، ص١٤٠.

محمد عبد القادر – نائب طلال الأنصاري في إمارة الإسكندرية، حيث أنه يمكن أن يصل عدد المجموعة إلى ١٠ أعضاء أحيانًا.

ويمكن النظر للبناء التنظيمي لجماعة «شباب محمّد» على أساس أنه يتكون من جناحين أساسيين:

الأول : الجناح العسكري، ويتكون من تسعة عشر عضوًا وأعضاؤه هم طلاب الكلية الفنية العسكرية وأميرهم كامل الأناضولي.

الثاني : الجناح المدني، ويتكون من ستين عضوًا موزعين على القاهرة الكبرى والإسكندرية، ومجموعة الإسكندرية أميرها – كما ذكرنا – طلال الأنصاري، ومجموعة القاهرة الكبرى، وأميرها حسن محمد الهلاوي، ومعيار الالتزام داخل الجماعة يستمد من البيعة، والتي تتم بين العضو الجديد والأمير، وهي ليست شرطا لدخول الجماعة كما يقول صالح سريّة.

ومن الملفت أن جماعة الفنية العسكرية لم تكن مغلقة البناء التنظيمي بشكل صارم حيث أن الأعضاء قد اعترفوا أنهم تعارفوا مع صالح سريّة واجتمعوا به في لقاءات عديدة، كما أنه كانت تعقد اجتماعات ذات صبغة تثقيفية لمجموعات كبيرة من الأعضاء من مجموعات عديدة وذلك حسب رواية أحمد صالح عامر الذي حضر اجتماعا بحديقة الأورمان تلقى فيه الأعضاء بعض التدريبات البدنية..[١]

تجدر الإشارة هنا أن بالجماعة ثلاث مراحل يتم بها إقناع العضو الجديد وضمه سواء كان من الأعضاء أو من الذين يتم التعارف بهم في المساجد لأول مرة:

المرحلة الأولى: فيها يتم توثيق العلاقة بين عضو الجماعة والشخص المستهدف ضمه إلى الجماعة.

المرحلة الثانية: وفيها يتحدث عضو الجماعة إليه عن الإيمان وشروطه وضرورة نصرة الإسلام ، ويكرر هذه الأفكار على العضو.

المرحلة الثالثة: وهي المرحلة الأخيرة، وفيها تتم دعوى الشخص المستهدف إلى الجماعة، وهذه المراحل الثلاث قد يحدث ألا تتم بهذا الترتيب المذكور وذلك وفقا

(١) منى العريني وآخرون: مرجع سابق ذكره، ص٧١٠.

لظروف ضم العضو الجديد، وقد يحدث ألا يقتنع الشخص المستهدف أو يخرج أحد الأعضاء عن الجماعة، وهذه الظاهرة المعروفة بالانشقاقات، وعدم قبول دعوة الجماعة، وقد تعرضت لهذه الانشقاقات جماعة شباب محمّد، وكانت سببا في التعجيل بالعملية العسكرية – كما يذكر محمود خلاف وطلال الأنصاري – لأنهم خشوا من أن يبلغ الأعضاء المنشقون أجهزة الأمن.(١)

والجدير بالبيان في هذا الأمر أن هناك «أحمد أحمد حامد الرجال» (طالب طب) كان المصدر في هذه القضية، والذي لم تصنعه وزارة الداخلية، وإنما هو صناعة التنظيم ذاته – كما ذكر مختار نوح – وكان من بين أعضائه وبايع على السمع والطاعة ، ولم يكن – أيضًا – لوزارة الداخلية جهد في إعداده، بل على العكس فإن وزارة الداخلية والعديد من الجهات الرسمية لم تصدق هذا المصدر حينما ذهب إليها للإرشاد عن التنظيم. المهم هذا الشاهد (المصدر) قد فجّر لدى الأجهزة المعنية والمسؤولة قضية مشكلة القصور في المعلومات.(٢)

(٢) سمات العضوية في التنظيم من خلال المحاكمة:

غني عن البيان أنه في يوم ١٨ أبريل عام ١٩٧٤ قامت مجموعة «جهادية» صغيرة لم يجاوز عددها مائة شاب بالهجوم الشهير على الكلية الفنية العسكرية في محاولة «ساذجة» للاستيلاء على بعض مخازن السلاح بالكلية وقلب نظام الحكم ثم السيطرة على البلاد من هناك، وأخفقت محاولاتهم، وتم تحويل ٩٢ عضوًا للمحاكمة والتي قيدت القضية برقم ٢٦٨٧ لسنة ٧٤ الوايلي ورقم ١٦٩ لسنة ٧٤ كلي، وكانت الدائرة الجنائية قد انعقدت برئاسة المستشار برهان الدين العبد وبعضوية السيدين عبد اللطيف المراغي ومحمد وجدي عبد الصمد المستشارين بمحكمة استئناف القاهرة، وتمثلت النيابة بالأساتذة مصطفى طاهر رئيس النيابة وعدلي حسين وكيل النيابة وصهيب حافظ وكيل النيابة، وقد تم محاكمة ٩٢ عضوًا بتهم متباينة تتعلق بالتخطيط والانتماء للمجموعة ، وأسفرت المحاكمة عن سجن عدد منهم، وحكم بإعدام ثلاثة :

---

(١) مختار نوح : مرجع سابق ذكره، ص٤٥.

(٢) سلوى محمد العوّا: الجماعة الإسلامية في مصر ، ١٩٧٤-٢٠٠٤، مكتبة الشروق الدولية، الطبعة الأولى ١٤٧٢، أغسطس٢٠٠٦م، ص٧٦.

صالح سرية وكارم الأناضولي وطلال الأنصاري ، ثم خفف الحكم عن طلال الأنصاري وأعدم الآخران.

بيد أنه تكشف ملفات التحقيق مع الأعضاء المتهمين عن مجموعة من الصفات والخصائص التي تتميز بها الجماعة عن غيرها من الجماعات الأخرى من حيث:

١- السن : اتضح أنّ غالبية هذه الجماعة من الشباب تتراوح أعمارهم بين ١٨ إلى ٢٥ سنة أي أن النسبة الغالبة من أفراد جماعة الفنية العسكريّة هم من الشباب أقل من ٢٥ سنة الذين مازالوا في مرحلة التكوين الفكري، وأن الشباب في هذه المرحلة من العمر له من خصائص التحمس والاندفاع قد ساهمت – فضلا عن العوامل الأخرى – في تبني فكرة «الجهاد» وتغيير الأوضاع بالقوة.[١]

غير أن ذلك يبين أن هناك ثمة عامل مشترك يدل على أن عقلية واحدة هي عقلية «صالح سريّة» هي التي كانت تقود تلك العقول التي سايرت الجماعة مسايرة الإعجاب وحب البطولة.[٢]

٢) **المستوى التعليمي**: يتضح من خلال التحقيق معهم بخصوص المستوى التعليمي والمهني للأعضاء المتهمين أن غالبيتهم كانوا طلابا في الجامعات فقد كان ٥٦ فردًا من أفراد الجماعة من الطلاب مما ساهم في سرعة انتشار الجماعة وسرعة اتصال أعضائها بعضهم ببعض وأن ٦٦ فردا من أفراد الجماعة من مجموع ٨٠ فردًا أمكن حصرهم من خلال ملفات التحقيقات كانوا طلبة وليست لديهم مسؤولية اجتماعية، كما أنهم أكثر فئات المجتمع ديناميكية وأكثرها تفتحا وتقبلا لتبني الأفكار الجديدة.

٣) **من حيث الإقامة**: اتضح أن عددًا كبيرًا من الأعضاء المتهمين يقيمون بالإسكندرية (٤٩) فردًا ، وأن (١٣) متهما فقط يقيمون في محافظة القاهرة، بينما تجد أن ١١ فردًا فقط يقيمون في محافظة الجيزة، وفردين في القليوبية، وفردين في الشرقية، وأربعة أفراد في دمياط، وفردًا واحدًا من قنا.[٣]

(١) منى العريني وآخرون: مرجع سابق ذكره، ص٧١٣.

(٢) مختار نوح : مرجع سابق ذكره، ص٣٢.

(٣) منى العريني وآخرون: مرجع سابق ذكره، ص٧١٣.

(٣) الجماعة ... رسائل الإيمان أم رسائل الكفر:

تعتبر أيديولوجية الجماعة إلى حد كبير انعكاسا لأفكار مؤسسها، وقد بلور صالح سرية أفكاره وأيديولوجيته في كتابه «رسالة الإيمان»، وهي لا تتجاوز في حجمها ٦١ صفحة، وهي تحدد رؤيته ، وكيف أن «الجهاد» و«التغيير الثوري» هو الحل لظهور دولة الإسلام، وإنهاء مظاهر الكفر السائدة منذ رحيل آخر الخلفاء الراشدين علي بن أبي طالب.

وفي الحقيقة أن عنوان الرسالة يعطي انطباعًا بأنها تجلي إيمان المسلمين وتجدده، وتكشف عن مظاهره، ولكنها في حقيقة الأمر تطلق العنان للتكفير على عدة مستويات.

أولها: أنظمة الحكم: فالحكم القائم اليوم في جميع بلاد الإسلام هو حكم كافر، فلا شك في ذلك، والمجتمعات في هذه البلاد كلها «جاهلية» ، واعتمد نصوص – من وجهة نظره – قاطعة في ذلك قوله تعالى: ﴿وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ﴾ ﴿وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ ﴿وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾(سورة المائدة)، ولم يعتد بأسباب النزول في هذا الموضوع، واعتبرها قاطعة الدلالة على جاهلية المجتمعات التي لا تحكم بما أنزل الله.

ثانيها: التوحيد فقط كفر: فمن اكتفى بالعقيدة الإسلامية وحدها وكفر بالعبادة والأخلاق والتشريع فهو «كافر» لا خلاف في ذلك ، ومن أخذ بالعبادة وكفر بالعقيدة فهو «كافر» ، ومن قال: الإسلام أخلاق وكفر بالعبادة والعقيدة والتشريع فهو «كافر»، ولقد غفل معظم المتدينين في هذا الزمان عن هذه البديهية.[١]

ثالثها: تكفير المجتمعات: يقول سريّة: «إن المجتمعات كلها مجتمعات جاهلية، والمظاهر العامة للنساء والرجال والرقص والبلاجات وسب الدين والله علنا والمجاهرة بعدم أداء فرائض الإسلام ووجود الخمر والزنا والقمار ونشر الكذب والفسق والخداع والرذيلة كل ذلك يجعلنا نقول ونحن مطمئنين أنّ هذه المجتمعات جاهلية ولو أن المسلم أراد أن يغير هذه المنكرات فإن الحكومة تحميها وتحاربه فهل تكون دولة إسلامية من تحارب المسلمين الذين يحاربون المنكر.[٢]

---

(١) رفعت سيد أحمد: تنظيمات الغضب في السبعينيات، مكتبة مدبولي، ١٤٠٩هـ، ١٩٨٩م. ص ٥٨.

(٢) رفعت سيد أحمد: مرجع سابق ذكره، ص٥٩.

رابعها: يقول صالح سرية : «كل من اشترك في حزب عقائدي فهو «كافر» لا شك في كفره، وهذه الأحزاب مثل الأحزاب الشيوعية أو حزب البعث الاشتراكي أو حركة القوميين العرب أو الحزب القومي السوري أو الاتحاد الاشتراكي العربي (يلاحظ أنه كان لا يزال موجودًا وقت كتابة سريّة هذه الوثائق كما هو معلوم) وأمثالها، ذلك أن هذه الأحزاب لها عقائد ومناهج مخالفة لعقائد ومناهج الإسلام، فمن آمن بها دل على أنه يفضلها على عقائد ومناهج الإسلام، وهذا كفر، والجهل هنا لا يفيد صاحبه لأن الجهل بعد انتشار الإسلام ليس عذرًا، ومثل الأحزاب والجمعيات العقائدية مثل الجمعيات الماسونية أو الليونز أو الروتاري أو غيرها من الجمعيات العالمية ذات الأهداف السرية لأن هذه الجمعيات أيضا لها مناهج وعقائد مخالفة للإسلام، حكمها في ذلك كحكم الأحزاب، وينطبق هذا الحكم على من اعتقد فلسفة مخالفة للإسلام مثل الفلسفة المادية أو الوجودية أو البرجماتية وغيرها، وكذلك من اعتنق مبدأ سياسيا مخالفًا للإسلام كالديمقراطية والاشتراكية والوطنية والقوميّة وغيرها.[(١)]

خامسها: قوانين الدولة: يقول سريّة: «كل القوانين المخالفة للإسلام في الدولة فهي قوانين كفر، وكل من أعدها أو ساهم في أعدادها أو جعلها تشريعات ملزمة، وكل من طبقها دون اعتراض عليها أو إنكارها فهو كافر، وعلى هذا فإن كل أعضاء اللجنة من المستشارين الذين وضعوا هذه التشريعات وكل أعضاء البرلمان الذين صدقوا ، وكل مجلس الوزراء الذي قدمها والرئيس الذي وقعه عليها والقضاء والنيابة ومحققوا الشرطة والمباحث الذين حققوا بموجبها إذا كانوا غير معترضين عليها وأخلصوا في عملهم بموجبها كفار».[(٢)]

سادسها: المعارضون لأحكام الإسلام: يقول صالح سريّة: «كل من اعترض على حكم من أحكام الله ولم يرض عنه فهو كافر، وعلى هذا فكل من كتب ضد الحدود الشرعية بأن من وصف قطع يد السارق أو رجم الزاني بالتخلف والتحجر أو ما شابه ذلك من أوصاف أو طالب بإلغاء عقوبة الإعدام أو اعترض على تحريم الخمر أو غير

---

(١) رفعت سيد أحمد : مرجع سابق ذكره، ص ٦٢

(٢) رفعت سيد أحمد : مرجع سابق ذكره، ص ٦٥.

ذلك مما يعتبر اعتراضا على الله سبحانه وتعالى فهو كافر مبيح دم صاحبه وتطلق منه زوجته، ولا يصلى عليه، ولا يقبر في مقابر المسلمين، ولا يرث ولا يورث».[(١)]

ولم يكتف سريّة بإطلاق العنان لسلاح التكفير لمناحي الحياة، ولكنه وضع قواعد للتكفير وحدود لابد من الارتكاز عليها، ووجدها ثلاث هي:

القاعدة الأولى: أن الإيمان بالله يقتضي بأنه وحده الذي يرسم منهاج الناس وشرائعهم، وعلى البشر أن يسيروا وفق شرع الله، وإلا فهم كفار ، فمن رفض هذه القواعد فهو «كافر»، وكل من نصب نفسه للتشريع أو رسم منهاجًا للحياة فقد نصب نفسه إلها، ومن رضى بهذه التشريعات أو المناهج فقد عبد ربا غير الله فأصبح كافرا.

القاعدة الثانية: وفي رأي صالح سريِّة بشأن القاعدة الثانية من قواعد بناء الدولة الإسلامية في شق التكفير: «إن الإسلام كل متكامل من آمن ببعضه وترك البعض الآخر فهو «كافر» به ، ولا خلاف في أن من أنكر آية واحدة من القرآن فهو «كافر»، فكيف عمن ترك مبدأ كاملًا من الإسلام أو سطرًا كبيرًا فيه فهو كافر لا شك فيه.

القاعدة الثالثة: ويرى بشأنها سريِّة : «إننا نحكم على الإيمان بثلاثة أركان كما يقول السلف (الإقرار بالجنان والتكلم باللسان والعمل بالأركان) فإن اختل ركن واحد من الأركان حكمنا بالكفر، ومع أنه لم يكن هناك خلاف بين السلف في ذلك إلا أننا نجد المتأخرين يغفلون عن هذه القاعدة ويقصرون التكفير على الاعتقاد فقط أو الكلام عنه أحيانا، ولكنهم يهملون جانب العمل إهمالًا كاملًا ، في حين أننا نخالفهم في ذلك على طول الخط، فالعمل عندنا هو الأساس الذي نعمل بموجبه، أما الاعتقاد فلا نستطيع أن نعلمه لأنه بين الإنسان وربه، والله يحاسبه يوم القيامة.[(٢)]

ومن الملفت للنظر من خلال «رسالة الإيمان» لصالح سرية بخصوص حديثه عن الدولة وشكل الحكم والموقف من مؤسساتها وأجهزتها المختلفة وفي مجالاتها المتعددة موقف يستحق الملاحظة والوقوف عنده حيث لا يرفض سريّة التعامل مع هذه المؤسسات بشكل مطلق ، وإنما يضع حدودًا وشروطا على كيفية التعامل معها

(١) رفعت سيد أحمد: تنظيمات الغضب في السبعينيات ص٧٨.

(٢) رفعت سيد أحمد : وثائق تنظيمات الغضب في السبعينيات، مكتبة مدبولي ، ص٨١.

واستخدامها لتحقيق الهدف الأعلى للجماعة وهي إقامة الدولة الإسلامية، ويلخص «سريّة» هذه الشروط في ثلاثة فيقول: «يجوز للمسلم أن يكون موظفًا أو ضابطًا أو وزيرًا أو حتى رئيسا في هذه الدولة الكافرة، ومع ذلك يكون مؤمنًا كامل الإيمان إذا كان واحد من ثلاث:

(١) إذا كان واضحًا في عقيدته مصرحًا بأنه يعمل لإقامة الدولة الإسلامية، ففي الدولة التي تسير على النظام الديمقراطي إذا تكونت جماعة إسلاميّة أو حزب إسلامي جاز له المساهمة صراحة بالانتخابات ودخول البرلمان والمشاركة في الوزارات إذا كان صريحًا بأن يسعى عن هذا الطريق للوصول إلى السلطة وتحويل الدولة إلى دولة إسلامية.

(٢) إذا كان العلن غير ممكن يجوز للشخص أن يدخل مختلف اختصاصات الدولة بأمر من الجماعة الإسلامية ويستغل منصبه لمساعدة هذه الجماعة للحصول على السلطة أو التخفيف عنها في حالة المحن ولا مانع أن يصبح وزيرا مع حكم «الطاغية».

(٣) إذا لم يكن في جماعة إسلامية وقد وطد العزم على أن ينضم إلى الجماعة الإسلامية الحقة حين يجدها ويستغل منصبه في إفادة الإسلام والمسلمين. [1]

وترى هالة مصطفى أن هذا الموقف من مؤسسات الدولة لا يخلو من البراجماتية السياسية رغم مضمونه العقائدي «نقطة» تميز أفكار سريِّة عن باقي الجماعات الأخرى والتي ترفض البقاء مع مؤسسات الدولة تحت أية شروط وربما يعود هذا الموقف «المرن» إلى حد ما الذي يتخذه إلى الطابع الأكثر عصريّة لحزب التحرير الإسلامي الذي انتمى إليه.

خلاصة القول: كان تنظيم «شباب محمّد» أو تنظيم الفنية العسكرية أول تنظيم ديني يهدف للسيطرة على مفاصل الدولة ومؤسساتها بانقلاب عسكري على السلطة القائمة – وقتئذ – رغم أن المحاولة – ومن خلال التحقيقات كانت ساذجة ويملؤها العفوية وقلة التدريب العسكري، والمفترض وصول القائمين بهذا الانقلاب إلى ذروته التدريبية والعسكريّة.. كما كان لشخصية «صالح سرية» الآسرة الدور الكبير في تجميع

---

(١) هالة مصطفى: مرجع سابق ذكره، ص١٤٣.

الشباب المتحمس للالتفاف حوله كما كان لرؤيته الأيديولوجية التأثير الأكبر في صياغة مواثيق التنظيم وخاصة «رسالة الإيمان» والتي تنطوي على تكفير المجتمع والأفراد والسلطة بشكل موسع ، بل أطلق سرية لنفسه العنان الأكبر في توزيع الكفر حتى كان من الأجدى تسميتها «رسالة الكفر»، صحيح أن في بعض آرائه والمتعلقة بالتعامل مع مؤسسات الدولة رغم ظاهرها العقيدي إلّا أنها لا تخلو من البراجماتية السياسية والاستفادة العملية التي تحقق المصلحة – كما أشرنا من قبل – ورغم فشل تنظيم «الفنية العسكرية» في الانقلاب على السَّادات ونظامه للسذاجة العسكرية، إلا أنها كانت البواكير الأولى، والتي دفعت عديد من الشباب إلى تنفيذ هذه الانقلابات وتحقيق أيديولوجية «سرية» كما حدث لتنظيم «يحيى هاشم» وكيل النيابة والذي قضي عليه في عام ١٩٧٥ ، والذي حاول بمجموته أن يقتحم السجن الذي به سريِّة وزملاؤه، ولكنه قتل كما كان هناك عديد من التنظيمات الأخرى والتي سارت على منواله.

فهذا الانقلاب الديني لأول مرة في التاريخ المصري قد أثار لعاب عديد من التنظيمات – رغم فشل المحاولة كما ذكرنا من قبل – بأنه يمكن من خلال الانقلاب والاستخدام العسكري يمكن السيطرة على مفاصل الدولة لو تمت المحاولة بإحكام وإعداد جيد وتخطيط عسكري مفاجئ، كما أثارت محاولة الفنية العسكرية أحلام الشباب المتحمس والممتلئ بفكرة «البطولة الإسلامية» و«البطل» والدولة الإسلامية «الواحدة» ، و«التمكين في الأرض» والتي يمكن من خلالها – أي الدولة الإسلامية – تطبيق شرع الله ونهجه على العباد وينضاف إلى ذلك مداعبة هذه الأحلام والأماني بفكرة التضحية والفداء من أجل الهدف الأسمى والأعز وهو الدعوة الإسلامية والفكرة الإسلامية والتي مازالت – تداعب أفكار الشباب حتى وقتنا الراهن بعودة الخلافة الراشدة وإقامة دولة العدل !!!

المطلب الخامس

جماعة التكفير والهجرة

⌑ ⌑ ⌑ ⌑

المؤسس : ولد شكري مصطفى مؤسس الجماعة في بلدة أبو قرقاص على بعد حوالي ثلاثين كيلو مترًا جنوب أسيوط في مصر الوسطى (كانت موشا رأس عائلة سيد قطب (١٩٠٦-١٩٦٦) على بعد ساعات فقط سيرا على الأقدام، وكانت قرى المنطقة بشكل عام – كما يقول «جيلز كيبل: نفوذ الإسلاميين ، ولعلنا لا نجد حرجًا أن نذكر أن البيئة الجغرافية تنشئ ثقافة متقاربة، ومعين مشترك كما كان في صالح سريِّة (الفلسطيني الأصل)، وتقارب منشأه مع النبهاني مؤسس حزب التحرير الإسلامي.

ونعود لمنشأ مصطفى، فقد كان والده عمدة لهذه البلدة الشديدة التحصين التي تقع على التلال المنخفضة والتي تجثوا في أحضان الجبال الليبية في أقصى المنطقة الزراعية، أي أن شكري مصطفى ولد – إذن – في منطقة نائية قاومت تقليديا اختراق الدولة المركزية في ركن منسي في مصر عاش فيه إلا أن مصطفى كان عليه أن يغادر البلدة مبكرًا، فقد طلق والده والدته، ومن ثمّ رحلت إلى أسيوط عاصمة الإقليم حاملة معها طفلها.(*)

(*) يذهب الباحث الإسلامي ماهر فرغلي مذهبا مختلفًا في تفسير حياة شكري مصطفى مؤسس جماعة التكفير والهجرة ، يميل هذا المذهب إلى تفسير حياة زعماء العنف والإرهاب والتكفير من منظور نفسي اجتماعي لهذه الشخصيات والتي منها شكري مصطفى، ويعتبر التفسير النفسي للشخصيات منزلقا يتوجب الحيطة منه لأنه شائك ويعتمد على نظرية فرويد رائد التحليل النفسي، ويعتمد على فهم الشخصية وتكوينها وما أصابها من عقد وأمراض نفسية في الطفولة المبكرة، وهو تفسير يقبله الكثير لإيضاح الأعمال الفنية والأدبية، ومن ثمّ أصر فرغلي ومن خلال تفسيره النفسي لشخصية مصطفى واعتناقه لفكر الخوارج بأن ذلك لم يكن نتيجة مكوثه في السجن وتعرضه للتعذيب الشديد– كما يذكر العديد من الباحثين في ذلك – وإنما كان سببه – كما يذكر فرغلي – شعوره بالقسوة والاحتقار – قسوة والده على أمه وضربها أمامه عدة مرات ومرات ، ثم زواجه من راقصة، ونظرة الأهالي له ثم احتقار جماعة الإخوان المسلمين له داخل السجن، وتعرض فرغلي لإخفاق مصطفى في حبه الأول وعدم زواجه منها نتيجة سجنه، جعله ينظر =

لم يذهب شكري إلى المدرسة التي أسسها المبشرون الأمريكيون في مدينة أسيوط، وإنما ذهب إلى مدرسة تديرها جمعية خيرية إسلاميّة، وبالكاد حصل على الثانوية العامة، والتحق بكلية الزراعة بأسيوط.[(١)]

والجدير بالإيضاح في هذا الشأن أنه على الأرجح أنّ شكري مصطفى قد انضم إلى الإخوان في عام ١٩٦٥ في عامه الثالث والعشرين حينما قبض عليه لتوزيعه منشوراتهم داخل حرم الجامعة، وكانت في هذه الفترة موجة من الاعتقالات بعد كشف تنظيم الإخوان بعد إلقاء خطاب عبد الناصر في موسكو وكشف النقاب عن ضبط مؤامرة للإخوان، وقد أودع شكري مصطفى أولا سجن طرة ثم تم ترحيله عام ١٩٦٧ إلى معتقل «أبو زعبل» .[(٢)]

وحين كان اللواء حسن طلعت مدير مباحث أمن الدولة يجري حوارًا مع من تبقى من قيادات الإخوان المسلمين عام ١٩٦٩ خرج عليه ١٣ شابًا يقودهم شاب غريب الملامح والنظرات، وقال له: «أرفض الحوار معك لأنك كافر وحكومتك كافرة ورئيسها كافر»، وكان هذا الشاب هو شكري أحمد مصطفى، وكان الـ١٣ شابا هم «النواة الأولى» لجماعته التي أسماها «جماعة المسلمين» وأسمتها أجهزة الأمن و«الإعلام» «جماعة التكفير والهجرة»، وكانت الجماعة أبرز انشقاق في صفوف الإسلاميين في مصر في السبعينيات من القرن الماضي.[(٣)]

وقد أمضى شكري مصطفى ست سنوات في المعتقلات إلى أن خرج في ١٦ أكتوبر ١٩٧١ كجزء من الإجراءات التي اتخذها السّادات بعد حركة التصحيح «المزعومة» في ١٥ مايو ١٩٧١.

=

للحياة برؤية اليائس ، والحرص على العزلة والصرامة في أسلوب حياته، ونرى أنه بالرغم من التفسيرات النفسية للشخصيات قد يوقع الباحث في مخاطر إلا أنه يلقي أضواء على حياة زعماء العنف والإرهاب والتكفير لم تكن منظورة. لزيادة التفاصيل: انظر: ماهر فرغلي: في جريدة البوابة العدد ٥٤٩ في ٧يونيو ٢٠١٦. الصفحة التاسعة تحت عنوان: شكري مصطفى.. قصة العاشق المتهور.

(١) النبي والفرعون ص٦٤. وأيضا ص ٦٥.

(٢) النبي والفرعون ص٦٤.

(٣) رفعت سيد أحمد: تنظيمات الغضب الإسلامي في السبعينيات، مكتبة مدبولي، ص٨٧.

وفي سنوات السجن قرأ في السجن للمودودي (١٣٢١-١٣٩٩هـ- ١٩٠٣-١٩٧٩م)، وسيد قطب (١٩٠٦-١٩٦٦)، وتعلم أن يسمي المجتمع الذي يضم المعتقلات والسجون والتعذيب مجتمعًا جاهليًا.

ويشير عدد من الباحثين إلى أن أثر سنوات الاعتقال والذي تركته على أفكار شكري أحمد مصطفى كان واضحًا وليس فقط من خلال تشدده في أفكاره وفي أسلوب العمل السياسي وإنما أيضا في تمرده على منهج الإخوان المسلمين والذي دعاه إلى تكوين جماعة خاصة باسم «جماعة المسلمين» فور خروجه والتي بدأ الإعداد لها وتجنيد أعضاؤها منذ وجوده داخل السجن في عهد الرئيس عبد الناصر. [١]

ونحن نضيف لمرحلة الاعتقال والسجن وما عاناه شكري فيهما سمات شخصية وظروف النشأة تؤهلانه إلى هذا التشدد والتطرف في الفكر والأسلوب. بيد أن شكري بعد خروجه من المعتقل عاد إلى أسيوط حيث أنهى دراسته الزراعية، حيث استمر في التبشير لدعوته، ونال شهرة واسعة في دوائر الإسلاميين بسبب الاقتناع بآرائه وفصاحته وطريقة ممارسته للسنة.

وفي بداية عام ١٩٧٣م ألقي القبض على بعض أتباع شكري مصطفى وضبطت لديهم بعض النصوص التي كتبها شكري مما أدى بالجماعة إلى الهجرة بين مغارات الجبال أي أنهم هاجروا بالفعل أو انسحبوا من «المجتمع الجاهلي»، ولم تعتبر الدولة شكري وجماعته خطرين على النظام السياسي، حتى أن الذين قبض عليهم منحهم السادات عفوا في أعقاب حرب أكتوبر ١٩٧٣!! [٢]

ففي هذه الفترة كانت النظرة للجماعة تضعها في مضمار «الفرقة الشاذة» والتي تسعى للانسحاب من العالم المعاصر والهجرة إلى اليمن، وكانت نقيصتها الرئيسية – كما يذكر كيبل – هي التغرير بالفتيات القاصرات وتحريضهن على الهرب من أسرهن والعيش مع أعضاء الجماعة.

---

(١) هالة مصطفى: الإسلام السياسي في مصر ص١٤٧.

(٢) النبي والفرعون ص ٦٦.

وفي مايو ١٩٧٥ نشرت صحيفة الأخبار «القاهرية» مقالا عن شكري وأتباعه وصفتهم بأهل الكهف، ويبدو أن ترحالهم بين مغارات الجبال قد ألقى الأمر بظلاله على الذين كتبوا تقارير الأمن وعلى الصحفيين الذين نقلوا هذه التقارير، ورغم وضعهم تحت المراقبة – أي شكري وأتباعه – إلا أنهم لم يتعرضوا للاضطهاد السياسي بشكل منتظم.

بيد أن الأمر تغير – بصورة درامية – في خريف ١٩٧٦ عندما حاولت جماعة إسلامية صغيرة مناوئة له استمالة بعض أعضاء جماعته للخروج منها، ومن وجهة نظر زعيم الجماعة شكري أن الخروج على الجماعة يعني الخروج على الإسلام، ومن ثمّ الكفر وعقاب هذا الموت ، وقد تواصلت حملات البوليس ضد بعض أتباعه بعد هذا الصّدام والتي استغله شكري لعمل حملة لتأديب المارقين عليه، فقامت بعض الاعتقالات وأصبح شكري نفسه مطلوب القبض عليه بعد ذلك، وأدركت وسائل الإعلام قصة الجماعة وصورتها على أنها جماعة من المجرمين وقطاع الطرق وأسمتهم جماعة «التكفير والهجرة» لأن الجماعة – بالفعل – مارست تكفير المجتمع «تكفير» وانسحبت إلى الجبال «هجرة».(١)

وقد حاول شكري مصطفى من المكان الذي هرب إليه أن يصدر بيانا يوضح موقفه، ويصحح ما به ما تم تشويهه على أمل أن يحول من محاكمة أتباعه منبرا لنشر أفكاره إلّا أنّ بيانه هذا لم ينشر.

وفي ٣ يوليو ١٩٧٧ قامت جماعته باختطاف الشيخ محمد حسين الذهبي وزير الأوقاف عسي بفعلتهم أن ينتزعوا استجابة من الحكومة لمطالبهم إلّا أن النتيجة كانت القمع وتقديم قيادات الجماعة والتي وصلت إلى ٥٤ عضوا للمحاكمة... وسوف نوضح بجلاء هذا الموقف لأهميته ولأنه يبين موقف الجماعة من المجتمع والسلطة.

أفكاره : يمكن أن تعكس أفكار شكري مصطفى باعتباره مؤسس التنظيم ومنظره أفكار الجماعة ذاتها: فقد ذكر مصطفى بأن على المسلمين أن يؤمنوا بأن العلم لله وحده، وهذه الفرضية التي تؤكد عليها عدة آيات قرآنية ليسلم بها معظم المؤمنين اليوم

(١) النبي والفرعون ص٦٧.

بصورة مجازية، إلّا أن شكري ذكر على خلاف ذلك أن المعنى المادي للعلم يجب أن تنطوي عليه هذه الفرضية أيضًا: «فالمسلم مُلزم بأن يبحث عن سبيله وعن العلم أمام الله وحده أما ما نسميه نحن بـ«العلم« فهو في الحقيقة ليس بعلم على الإطلاق وهو حرام لأنه لم ينشأ نشأة إلهية، وفي واقع الأمر – كما يذكر كيبل – أنه قد ورد بالقرآن (سورة البقرة) الآيات (٢١٦، ٢٣٢) ، أن الله يعلم وأنتم لا تعلمون، وهذا يعني عند شكري مصطفى أن كل ما جاء بعد القرآن والسنة يجب إخراجه من مجال علم الفقه وأن المذاهب الفقهية الأربعة للسنة: مذهب أبو حنيفة وابن حنبل ومالك والشافعي هي مذاهب ضعيفة وباطلة، ووفقا لهذه الرؤية المتشددة فإن هذه المدارس الفقهية قد رسخت منذ القرون الوسطى حدود الاجتهاد الفقهي في الآيات القرآنية وبعدها أقفل باب الاجتهاد.(١)

وقد انبنى على هذا الرأي الخاص بشكري مصطفى عدة اجتهادات:

أولها: الأئمة الأربعة ليسوا معصومين من الخطأ.

ثانيها: الأئمة الأربعة لا يمكن القول بأنهم أحاطوا بما كان وبما سيكون بحثًا وفقهًا.

ثالثها: ما كتبه الأئمة الأربعة لا يُعد من الذكر «الحكيم» الذي وعد الله بحفظه فلا يضمن عدم تحريفه.

رابعها: هل كلامهم (الفقهي) أوضح وأبين من كلام الله.

خامسها: هل يتم كلامهم شيئا ناقصًا من كلام الله وسنة رسوله؟

سادسها: الكتاب العظيم والسنة النبوية باللغة العربيّة فإن احتاجت إلى «شارح» فإن كلام الفقهاء (الأربعة) أيضا سيحتاج إلى شارح.

ومن مجموع ما حصل توصل – فكر شكري مَصطفى وجماعته – إلى أن باب الاجتهاد مفتوح وحرم التقليد أو الاتباع إلّا بدليل.(٢)

---

(١) النبي والفرعون ص ٦٩.

(٢) سيد السبكي: رأي مبدئي عن جماعة المسلمين التي اشتهرت باسم جماعة التكفير والهجرة في كتاب«المتشددون المحدثون» ، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ٢٠١٣، الجزء الأول ، ص١٢٨.

وعلل شكري مصطفى دوافع أئمة الفقه إلى غلق باب الاجتهاد: وهو أن تصبح أعمالهم وأن يصبحون هم أنفسهم محط كل تبجيل واحترام ليصبحوا هم أصناما تعبد مثلما كانت تعبد في الماضي أرباب الهياكل الوثنية لقد احتلوا مكانا بين الله وبين المؤمنين ووضعوا أنفسهم بالتالي خارج حدود الإسلام، أي أنهم ينتمون إلى الجاهلية وإلى البربرية.[1]

والبديل الإسلامي عند أمير جماعة التكفير والهجرة يعني «الدولة الإسلامية»، والدولة الإسلامية لديه لن تبنى إلّا بوجود هذه الجماعة، وهذه الجماعة لن توجد إلّا بالاعتزال والهجرة من دار «الكفر» ومبايعة الأمير وإطلاق يده في كافة أمور الجماعة صغر شأنها أم كبر.[2]

وعلى الرغم من أن الصلاة هي أحد «الأعمدة الخمسة» في الإسلام (بالإضافة إلى الشهادتين وصيام رمضان وإخراج الزكاة والحج في مكة) إلا أن شكري لم يتردد على الإطلاق في تأكيده لهيئة المحكمة (أثناء المحاكمة) على أن صلاة الجمعة التي تعني لمّ شمل المؤمنين في هذا اليوم لا تجوز في المجتمع الجاهلي ، ذلك هو الشرط الأول لإقامة صلاة الجماعة، فهي لا تجوز إلا في المجتمع المسلم فقط شريطة أن تؤدي في مكان عام ومفتوح (ظاهر)، وهذا الشرط يتوفر فقط إذا كانت جماعة المسلمين في مرحلة القوة «التمكن» أي عندما تتبدل علاقات القوى التي تربط بين الجماعة والجاهلية المحيطة بها لصالح الجماعة.

وقد أوضح شكري كيفية الانتقال من مرحلة الاستضعاف إلى مرحلة التمكن مثلها مثل أي شيء آخر لها درجات وهذه المرحلة تبدأ في رأيه عندما يكسر دائرة الاضطهاد والضعف وبالتالي تتقدم جماعته إلى الفتح والانتشار وليس هناك شك في أن المسلمين عندما هاجروا من مكة إلى المدينة كانوا في أول خطوات مرحلة التمكن حيث لم يعد باستطاعة أحد أن يفرض عليهم شيئا بعد ذلك.

ويرفض شكري دعاوى الوحدة الوطنية والتسامح الإسلامي مع الكفرة بقوله: «نعم، نحن نؤمن بذلك كله وزيادة – في مجال التعامل مع الناس – ونحن فيهم ولكن لا نؤمن بأن هذا الإحسان في التعامل معناه التسويّة بين المسلم والكافر في نهاية الأمر

---

(١) النبي والفرعون، ص٧٠.

(٢) رفعت سيد أحمد: مرجع سابق ذكره، ص٩٩.

سواء محياهم ومماتهم، فيما يسمونه بديمقراطية الإسلام أو بتسامح الإسلام أو بالوحدة الوطنية وسائر شعارات الماسونية في ثياب الإسلام أو أن يكون للكافرين بالله – عزة في أرض الله – وحين تمكن خلفاء الله كما يظن المنهكون بالوكس والبائعين الإسلام بالنجس بل لله العزة ولرسوله وللمؤمنين.[1]

ومن الملفت أنّ شكري مصطفى والذي كان عضوا بجماعة الإخوان المسلمين والذي تشرب تعاليم سيد قطب – قد وقف موقفًا مناهضًا من سياسة المداهنة التي جُبل عليها الإخوان – كما يذكر شحاته صيام – بهدف دعاوى الاستقرار ونزع سمة العنف عنهم، ثم بلوغ مرحلة القوة والاستيلاء على السلطة السياسية وهو الموقف عينه الذي آمن به سيد قطب «مفكر الارتداد الإخواني» عن مسايرة مجتمع الجاهلية والقائمين عليه.

لقد حاول شكري مصطفى أن يعيد ما بدأه الرسول ﷺ إذ جاهر بضرورة إقامة دولة ما بعد الهجرة، فلا إسلام ولا دولة إلّا بعد الخروج، فالهجرة ضرورة حيث تجنب المسلمين العذاب الذي سوف ينزله الله على من لم يهاجر من الكافرين الذين يؤثرون البقاء في أرض الكفر وفي ذلك يقول شكري مصطفى: «إنه ما من رسول إلا وهاجر».

بهذا المعنى يحاول شكري مصطفى – كما يذكر صيام – أن يتماهى مع الرسل في عملية الهجرة إذ فرض على ذاته أن يحمل غاية الوجود كله ألا وهي عبادة الله وحيث إيمان شكري مصطفى الدافع بذلك فإنه أراد أن ينجو بذاته من فتنة السقوط في الشرك والتعرض للعذاب والرجم فضلًا عن قيامه بالبلاغ الشامل لكل القاطنين على صعيد الكرة الأرضية وهو ما يتحقق من خلال الجهاد في سبيل الله.[2]

١- أفكار الجماعة وأصولها الفقهية (بحث في جذور الأفكار):

تتسم أفكار الجماعة بالسلفية الشديدة مثل أغلب جماعات الإسلام السياسي المعاصرة من حيث الاعتماد على القرآن الكريم والسنة النبوية وليس المذاهب الفقهية المختلفة ، والتي تعرضت للنقد من زعيم الجماعة ومؤسسها، فالإسلام الحقيقي

(١) رفعت سيد أحمد: مرجع سابق ذكره، ص٩٨.

(٢) شحاته صيام: العقل التكفيري من التشدد إلى ما بعد المراجعات ، رؤية للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، ٢٠١٥، ص٧٩، ٨٠.

والصحيح وفق هذه النزعة يكمن في هذين المصدرين، ويشير سعد الدين إبراهيم إلى أن الجذور الفكرية لهذه الجماعة تشابهت مع «جماعة الفنية العسكرية»، من حيث التأثر بأعمال سيد قطب والمودودي وعلي شريعاتي (١٩٣٣-١٩٧٧م) وإن كان شكري مصطفى قد تأثر بالإضافة إلى هؤلاء بفكر الخوارج وابن تيمية ومحمد بن عبد الوهاب وجمال الدين الأفغاني (١٢٥٤ - ١٣١٤هـ / ١٨٣٨ - ١٨٩٧م). (١)

فقد أوجب فكر هذه الجماعة أن يلتمس الهدى والعلم من الله وحده دون غيره ولم يصف بالعلم إلا من اتصل سنده بالله تعالى وحده وسنده في ذلك قول الله تعالى : بسم الله الرحمن الرحيم ﴿قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَى﴾ فإضافة الألف واللام إلى كلمة «هدى» يدل لغة على الاستيعاب، ومن ثمَّ فلا هدى إلّا هداه كما قال الله تعالى : ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾، وقال على لسان الملائكة: ﴿قَالُوا سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا﴾ أما لا يتصل سنده بالله فما هو إلا ظن مصداقا لقول الله : ﴿إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الْأَنْفُسُ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنْ رَبِّهِمُ الْهُدَى﴾ سورة النجم.. ومن لفظي إن.. و.. إلا.. استدل على أن ذلك يعني الحصر بمعنى أن كل من لا يأخذ الهدى من ربه لا يكون قوله إلا ظنا وهوى.

ويتصل السند بالله تعالى في أربعة أمور:

أولها: الفطرة التي فطر عليها الإنسان.

ثانيها: السماوات والأرض وما فيهن.

وثالثها: الرسل التي أرسلها.

ورابعها: الكتب التي أنزلها. (٢)

فالإسلام – في فكر الجماعة – وهو الخضوع والإذعان قلبا وجارحة وقد ساوى هذا الفكر بين ألفاظ «أسلم.. آمن.. وأحسن.. وأصلح.. واتقى.. وأطاع» وما شابهها مقررًا أنها كلها مترادفات لمعنى الإسلام ولا فرق بينها في المضمون وعلى العكس من ذلك يكون الكفر وقد ساوى فيه هذا الفكر بين ألفاظ «كافر وظالم.. وفاسق..

(١) هالة مصطفى: مرجع سابق ذكره، ص١٤٧.

(٢) سيد السبكي: مرجع سابق ذكره، ص١٢٩.

ومجرم.. وخبيث ومنافق.. وخائن» ولا يكفي في – فكر الجماعة – لكي يكون المرء مسلما أو ما يشابه ذلك من الألفاظ، أي يسلم بصحة الأوامر والنواهي ولا يجحدها فالتسليم بذلك أو إقراره ما هو إلّا ضرورة عقلية وبدهية لبلوغ الغاية المتغياة من الخلق ألا وهي عبادة الله حق عبادته وليس مجرد الإقرار – فقط – بوجوب تلك العبارة[1]

وينطلق فكر الجماعة بالنظر إلى المعاصي حين ارتكابها يعد هذا ذنبا ما لم تكن من الكبائر ينتهي أمره بالتوبة والاستغفار أما الإصرار على ارتكاب المعاصي فهو كفر يقاتل فاعله ويحل دمه وماله ومن يعد كافرا في حكمهم يكون حلال الدم والمال ولكن قتله أو إقامة الحد عليه إنما تكون بعد التمكين في الأرض وليس في مرحلة الاستضعاف التي هم فيها.[2]

ولهذا الفكر الخاص بجماعة التكفير والهجرة نتائج من الناحية العلمية يمكن أن نوجزها في الآتي:

النتيجة الأولى: عدم شرعية الدستور الدائم للبلاد حيث ورد فيه أن الشعب مصدر السلطات كما أنه غير مُستنبط من الشريعة الإسلاميّة فإن فكر الجماعة يتمحور حول أنّ الله هو الخالق وهو الآمر.

النتيجة الثانية: عدم إطاعة من يحكم بغير الله فإن إطاعته في ذلك تعد كفرًا استنادًا على الآيات الثلاث ﴿وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ﴾ وفي آية أخرى ﴿فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾وفي آية ثالثة﴿فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾، ولما كان الكفر والظلم والفسق مترادفات لمعنى واحد فإن مؤدى ذلك أن يوصف من لا يحكم بما أنزل الله بالكفر، وإذا كانت طاعة غير الله فيما لم يأمر به الله إشراكا في الطاعة فهي شرك في العبادة فيخرج من يطيعه فيها من دائرة الإسلام ليندرج تحت وصف الكافر.[3]

النتيجة الثالثة: الهجرة: إذا كانت مرحلة «الاستضعاف» وليست متمكنة في الأرض فيلزم الهجرة إلى أن يتم «التمكين» ، وقد استدل في هذا المجال بعدة أحاديث

---

(١) سيد السبكي: مرجع سابق ذكره، ص١٣٠.

(٢) سيد السبكي: مرجع سابق ذكره ص١٣١.

(٣) سيد السبكي: مرجع سابق ذكره، ص١٣٢.

وبآيات منها ﴿قَالُوا فِيمَ كُنتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا﴾.

وعند جماعة التكفير والهجرة تعد «الهجرة» فرضا مثل سائر الفروض..والهجرة في منظورها مستمدة من «الهجرة السابقة» للنبي الكريم والغرض منها تميز وانفصال البيئة المؤمنة للجماعة من أرض الكفر.. فهذا الاتجاه يدعو إلى «المفاصلة الكاملة» عن المجتمع، حيث أن المجتمع الجاهلي يجب تكفيره، وفي تجنب خطر المجاهرة بهذا التكفير بينما يعيش أفراده في «مرحلة الاستضعاف» إلا أن طريقتهم لتجنب هذا الخطر كانت الانسحاب من المجتمع وإقامة مجتمع إسلامي صغير على أطرافه، وهذا المجتمع الصغير سيقوم بالتالي بتكفير المجتمع دون أي «كتمان» بل بالمجاهرة.[١]

النتيجة الرابعة: تحريم الصلاة في المساجد الحالية إيمانًا منهم وسندهم في ذلك أنه لا يعلم حاليًا أي من هذه المساجد قد أسس على التقوى ليمكن الصلاة فيه وأيها قد أنشئ ضرارًا وتفريقا بين المسلمين فلا يجوز الصلاة فيه، وفي جميع تلك الحالات فإنه يضاف إلى ذلك أنه ما دام الإمام ليس من الجماعة فإنه ليس بمسلم ، ومن ثمّ فلا يجوز البتة الصلاة خلفه.[٢]

النتيجة الخامسة: تحريم الخدمة في القوات المسلحة: في نظر جماعة المسلمين تعد الخدمة في القوات المسلحة (وقتئذ) محرمة شرعًا وأساس ذلك عندهم أن القوات المسلحة المصريّة لا تجاهد في سبيل الله وما الحرب إلّا دفاعًا عن ذرات رمل وحبات تراب لم يأمر الله بالقتال من أجله، وما القتال المفروض فريضة على المسلمين إلّا الجهاد في سبيل الله[٣]

وعندما سأل القضاء شكري عن موقف جماعة المسلمين إذا غزت القوات الإسرائيلية مصر كانت هذه إجابته: «إذا جاء اليهود وغيرهم فلن تسعى حركتنا للحرب في صفوف الجيش المصري بل العكس ربما نلجأ إلى الهرب لموقع آمن وبشكل عام فإن خطنا تجنب العدو الخارجي والداخلي المتشابهين وليس مقاومتهما».

---

(١) النبي والفرعون، ص٦٥.

(٢) سيد السبكي: مرجع سابق ذكره، ص١٣٣.

(٣) رأي مبدئي عن جماعة المسلمين التي اشتهرت باسم جماعة التكفير والهجرة، ص١٣٤.

ومن الملفت للنظر أن أعضاء الجماعة لم يشعروا بأي ولاء للدولة وبالتالي فإنهم لم يرفضوا فقط ارتدائهم للزي العسكري بل رفضوا أيضًا أي شيء آخر قد يربطهم بالدولة أو حتى يخدمها.[1]

النتيجة السادسة: عن الأسرة والزواج: والزواج الشرعي في نظر الجماعة هو ما يتم بين الذكور والإناث من أعضاء جماعة المسلمين، والأصل فيه أن يتم مشافهة بحضور شهود منهم ونظر الاشتراط «القانون» توثيق عقد الزواج وهو ما يتطلبه الشرع – كما يذكر سيد السبكي – فإنهم يضيفون إلى العقد الشفهي عقدًا كتابيًا يحضره بعضهم ويوثقه المأذون الشرعي المختص، وتكون الأمور في غاية التعقيد فيما لو انشق الزوج عن الجماعة بعد انعقاد الزواج الشرعي فإن حكمهم الشرعي عليه يكون بأن يعد «كافرا» ولا مناص ومتى عد كذلك فيجب التفريق بينه وبين زوجته «المسلمة» التي مازالت في معية الجماعة وفي كنفها لأنها بكفره لا تحل له ويفرق بذلك بينها بأمر من أمير الجماعة بعد نصحه أولا بالعودة إلى الإسلام لأنه مرتد فإن أبى يتم التفريق.[2]

والزواج كما مارسته جماعة المسلمين – كما يذكر كيبل – أحد الأمثلة ذات الدلالة الواضحة على هذا التناقض البين فقد لاحظ شكري في المدن المصريّة نتيجة للظروف أن يأتي – الزواج – في سن متأخرة وأن الشباب يعاني من ذلك التأخير أشد المعاناة، ومن ثمّ فقد أعاد ترسيخ «الزواج المبكر» بين أعضاء الجماعة بالشكل الذي يتم به في القرى المصرية لكن الجماعة نظمت في نفس الوقت زواج أعضائها، وكان شكري نفسه هو الذي يملك هذا القرار ويفرضه على الزوجين فرضا.[3]

(٢) الهيكل التنظيمي لجماعة المسلمين:

لا يختلف الهيكل التنظيمي لجماعة المسلمين (التكفير والهجرة) عن مثيله في جماعة الفنية العسكرية بزعامة سريّة باستثناء نمط اتخاذ القرارات الذي كان يخضع لهيراركية أشد.. فجماعة التكفير والهجرة تأخذ بنمط التنظيم الهرمي وتنقسم إلى مجموعات

---

(١) النبي والفرعون، ص٧٤.

(٢) سيد السبكي: مرجع سابق ذكره، ص١٣٤.

(٣) جيلز كيبل: مرجع سابق ذكره، ص٨٢.

تتكون من ٥ إلى ٦ أفراد على رأس كل جماعة أمير أي أنها تأخذ بنظام الخلايا وهو نفس النظام الذي أخذت به جماعة الفنية العسكرية بحكم كونها من التنظيمات السريّة التي تعتبر هذا الشكل التنظيمي هو الملائم لتلافي الضربات الأمنية من السلطة مع سهولة الانتشار الجغرافي.

وكان هناك أمير لكل جماعة وأمراء لكل حي أو محافظة وكلهم بالقطع يخضعون ويتبعون الأمير العام للجماعة شكري مصطفى.(١)

ويوجد خلاف في أسلوب التجنيد بين الجماعتين – كما تذكر هالة مصطفى – حيث يتعمد في جماعة المسلمين في الغالب على القرابة والعلاقات الشخصية والقرب من الأمير العام، وكما يشير سعد الدين إبراهيم فإن الأخيرة قد اعتمدت الجماعة بصورة أساسية على علاقة «القرابة» وهو ما يعني أن العضوية فيها كانت أكثر انغلاقا من جماعة الفنية العسكرية.

الشيخ الذهبي والعنف التكفيري لجماعة المسلمين:

وفي يوم ٣/ ٧/ ١٩٧٧ يتوجه تسعة من جماعة التكفير والهجرة وقد وزعوا أنفسهم على سيارتين ماركة فيات والثانية مازدا خضراء اللون حيث توجهوا جميعا إلى منزل الشيخ محمد حسين الذهبي بمنطقة حلوان في الساعة الثانية صباحا واقتادوه وتعثر بعضهم وخاصة أصحاب السيارة المازدا وكانت هذه الخطة والتي وضعها أمير الجماعة شكري أحمد مصطفى بالاشتراك مع أهل الشورى من جماعته ويأتي على رأسهم أحمد طارق عبد العليم – هو المتهم السادس في القضية – وكان يعمل ضابط شرطة ، وتم فصله وهو كان أحد ثلاثة أبطال الحادثة وهم (أحمد مأمون صقر)، و(محمد صقر)، و(أحمد طارق)، وكانت البشاعة في قتل الشيخ الذهبي بإطلاق النار على عينه اليسرى فتخترق الجمجمة فيموت الرجل من فوره ويخرج القاتل متماسكا – كما يذكر مختار نوح – ليعلن أنه قد تم المهمة الربانية التي سيحصل من خلالها علي الجزاء الأكبر.(٢)

ولكن السؤال المهم: لماذا تم قتل الشيخ الذهبي دون غيره من شيوخ الأزهر؟

---

(١) هالة مصطفى : مرجع سابق ذكره، ص١٤٦.

(٢) العقل التكفيري من التشدد إلى ما بعد المراجعات ، ص٨٢.

يرى شحاته صيام أن هذا القتل للشيخ الذهبي تم لقناعات شكري مصطفى الفكريّة والعملية، فقد اختارت جماعة المسلمين الشيخ الذهبي لتصفية حساباتها مع النظام على حساب روحه خاصة وأن الذهبي قام في يوليو ١٩٧٥ بسب الجماعة وربط فكرها بالخوارج وهي ما رآته الجماعة تشويها لها[١]

وحينما سأل القاضي عن قتل الشيخ الذهبي تحديدًا فأجاب شكري: بأن الشيخ الذهبي في نظره(كافر) ، وبرر كفره بأنه أقسم قسم الوزارة الذي يشتمل على طاعة القوانين الوضعية المخالفة للشريعة الإسلامية وبأنه كان مسؤولا عن مساجد الضرار التابعة لوزارة الأوقاف.

والجدير بالبيان أن عدد المتهمين في هذه القضية لم يزد عن أربعة وخمسين متهمًا إلّا أن هذه القضية كان لها تابع آخر وهي قضية الانتماء إلى التكفير والهجرة، وقد كانت المحاكمة تحت إشراف المحكمة العسكريّة برئاسة اللواء حسن صادق وعضوية العميد يحيى عبد المعطي علي والعميد مختار محمد حسين شعبان، وكان ممثل الادعاء بها كل من اللواء محمَّد عبد العليم مخلوف ، والعميد محمَّد عماد السبكي ، والعقيد محمَّد عبد العزيز شهاب الدين، وقد حملت القضية رقم ٦ لسنة ١٩٧٧، وقد صدر الحكم يوم الأربعاء الموافق ٣٠ نوفمبر لعام ١٩٧٧ في الساعة الحادية عشرة صباحًا، وصدر على أربعة وخمسين متهمًا، وقد تراوحت الأحكام ما بين الإعدام والأشغال الشاقة المؤبدة والبراءة للعديد منهم.

ولكن من الملاحظ أن المتهم شكري أحمد مصطفى كان على ثقة كبيرة ويقين – حتى وهو بين يدي المحكمة وبعد النطق بالحكم – من أنه لن يتم إعدامه وأن هذه الجماعة ستبقى وتحكم الأرض.

ومن الملفت للنظر – فعلًا – والذي يستحق أن نقف عنده ونتأمله بدقة مطالب شكري مصطفى عقب اختطافه الشيخ الذهبي يوم ١٧ يونيو ١٩٧٧ فكانت:

(١) الإفراج فورًا عن أعضاء جماعة المسلمين (التكفير والهجرة) المقبوض عليهم (مطلب ذاتي).

---

(١) موسوعة العنف في الحركات الإسلامية المسلحة، ص٢٠٦.

(٢) العفو عن أعضاء الجماعة المقبوض عليهم (مطلب ذاتي).

(٣) دفع ٢٠٠ ألف جنيه فدية على أن تكون أوراق نقد سبق تداولها وليس بها أي علامات مميزة وأرقامها غير مسلسلة (مطلب ذاتي).

(٤) تعتذر الصحف والمجلات عما نشرته عن الجماعة بالبنط الأحمر العريض في الصفحات الأولى (مطلب ذاتي + مطلب عام).

(٥) الموافقة على نشر كتاب شكري مصطفى (الخلافة) على حلقات في الصحف اليومية ثم في كتاب بعد ذلك (مطلب ذاتي).

(٦) تكوين لجنة تقصي الحقائق لفحص نشاط مباحث أمن الدولة ومحكمة أمن الدولة ومكتب المدعي العام في المنصورة (مطلب عام + ذاتي).

(٧) إذاعة هذا البيان في الإذاعة المسموعة والمرئية وفي الصحف الثلاث (الأهرام – الأخبار – الجمهورية) وفي الصحف العربيّة والأوروبية.

ويعقب الباحث رفعت سيد أحمد على ذلك بقوله: وهذه المطالب إذا ما قورنت بمطالب صالح سريّة يبرز مدى الخلاف في منهج التعامل مع القواعد بعد الوصول لولي السلطة أو بعد امتلاك أداة الضغط عليها وهي هنا (خطف الشيخ الذهبي) وكيف أن منهج شكري يعد أكبر تخلفًا وذاتية إذا ما قورن بمنهج صالح سرية الذي طالب فيه بمطالب سياسية واقتصادية عامة تهم القطاعات العريضة والمحرومة من الشعب كما جاء في بيانه عام ١٩٧٤ عقب القبض عليه، وهو ذاته الفارق الجوهري بين رؤى الداعمين إلى منهج (الجهاد) (نموذج لهم سرية، محمد عبد السلام فرج، عبود الزمر وغيرهم) وبين الداعمين إلى الهجرة والانزواء والانسحاب من المجتمع القائم تحت وهم جاهليته، وكان طبيعيًا أن يؤدي المنهج الأخير إلى اندثار وزوال الداعين إليه واختفاء أفكارهم تقريبا من ساحة العمل الإسلامي وفي المقابل تعظيم لأصحاب المنهج الثاني ولأفكارهم الجهادية والثورية.[1]

ويرى جيلز كيبل أن البيان نفسه – والذي أشرنا إليه من قبل – عبارة عن مزيج غريب من المطالب قد يبدو بعضها مقنعًا إلّا أن البعض الآخر كان غير واقعي على

(١) تنظيمات الغضب الإسلامي في السبعينيات ص١٢٢، ١٢٣.

الإطلاق في مصر السَّادات مثل (تشكيل لجنة من الخبراء)للتحقيق في نشاطات المباحث العامة، والأخيرة تشير إلى القصور في إدراك شكري للفهم الصحيح والفعال لأجهزة الدولة.

خلاصة القول: يبدو أن آفات تيار الإسلام السياسي سائدة في كل فترات التاريخ حيث يوجد بين هذه الجماعات مشتركات في الآفات والعطب، ولهذه (الآفات) ملامح ودلائل يمكن لنا أن نرصد هذه الملامح في التالي:

الملمح الأول: أن الجماعات والفرق والمذاهب الإسلامية تتمحور حول شخصية زعيمها وأميرها فهو له الطاعة في المنشط والمكره، وله حقوق على أعضاء جماعته تصل إلى درجة (التقديس) فهو صاحب الطول، وفكره هو فكر الجماعة، وأوامره ونواهيه تسير عليهما الجماعة كما حدث لجماعة المسلمين من تمحورها حول شخصية شكري مصطفى فما رآه حسنًا رأته الجماعة حسنا فهو الذي يقوم بتزويج الأعضاء من الرجال والنساء، وهو الذي يصدر أوامره بمعاقبة المرتد، والذي يخرج عن جماعته، فأوامر طاعة لكل الأفراد، وأعضاء الجماعة دون منازع.

الملمح الثاني: أن نظرة أمير الجماعة، والفرقة تعتمد النصوص وتفسيرها من قبل الأمير، وفي الغالب الأعم تعتمد على (النص الحرفي)، ولا مجال لغيره من الأقيسة وأدوات النظر العقلي للنصوص بما يسمح له مقتضى الحال ومتغيرات الأحداث، فالنص (قرآن وسنة) هو الفيصل دون تأويل أو نظر عقلي وأن صاحب هذا التفسير النصوصي هو الأمير.

الملمح الثالث: أن أمير الجماعة حاول أن يتماهي مع سيرة الرسول في هجرته واعتزال الجاهلية لتكوين مجتمع إسلامي، فكانت هجرته إلى الجبال والصحاري، وعزلتهم عن بقية المجتمع متمثلًا الرسول وهجرته من مكة إلى المدينة، ونجاحه في إنشاء دولة المدينة ، وقيامه بعد أن قويت شوكة المسلمين، ومن خلال السيرة النبوية واستشعار أمير الجماعة بأن مهمته رسولية لهداية الناس، ولذلك من ينشق عنهم فهو مرتد ويستحق القتل، ومن يخالف –يُقتل – كما حدث من الخوارج – من قبل – مع الصحابي عبد الله بن خباب بن الأرت، فكذلك حدث مع الشكريين مع وزير الأوقاف محمّد حسين الذهبي.!!

الملمح الرابع: اتساع دائرة التكفير من أمير الجماعة لكل من يخالفه ، وهذا في حقيقته ضيق في الأفق وعدم فهم لمقاصد الشريعة وصفة من صفات المنهج الإقصائي للجماعات والفرق الإسلامية ، والذي لا يقبل الخلاف في الرأي ويمتلك الحقيقة المطلقة والرؤية الأحادية «الصحيحة» وما عداها لا يسلم من عيوب ونقص.

الملمح الخامس: أن مناقشة ما تعرض له أمير الجماعة (شكري أحمد مُصطفى) في حياته الخاصة من عقد وأمراض نفسية كما حدث له من طلاق والدته وإهانة والده لها وقسوته عليها وتزوجه من راقصة من المنيا يمكن أن يلقى الضوء على فهم جوانب هامة من الشخصية نتيجة هذا التفسير النفسي رغم منزلقاته، ولكن لا يمكن التعويل عليه فقط في فهم آفة التكفير وأفكاره المتطرفة والمتشددة لأن الأفكار التي تلقى بظلالها على المجتمعات سلبا أو إيجابا لا تنشأ من فراغ أو من عقد نفسية ومشاعر خاصة وإنما من جدلية الذات بخصائصها وصفاتها ومميزاتها وعقدها وبين الموضوع من ظروف اقتصادية واجتماعية وثقافية وسياسية.

الملمح السادس: إن منهج الهروب من المجتمع والانعزال عن أفراده وشؤونه بدعوى أن هذا المجتمع الجاهلي والذي يعيش مرحلة ما قبل الإسلام من شرك وكفر وفسوق وطغيان فلا شك أن هذا الهروب (آفة شديدة)لدى هذه الجماعات وتصورها أنها «الفرقة الناجية» و«الفرقة المؤمنة» وأنها الوحيدة التي تمثل «الإسلام الصحيح» ، وما عداها لا يبعد عن الكفر والمروق والردة.. وإن الانعزال ابتعادا عن كفر هؤلاء الفسقة وتحصين الفئة المؤمنة من عواقب الشر والكفر..!!

الملمح السابع: رغم ما يتسم به أصحاب هذه الفرق بالصرامة والدوجمائية إلا إنها يتخللها (برجماتية) من صنعهم تحقق لأمير الجماعة نفعا وتمنع عنه ضُرا كما حدث في مطالبات شكري مصطفى عقب اختطاف الشيخ الذهبي، فكثير من المطالبات ذاتية (برجماتية) وقليل منها العام، فمعظم المطالبات تتعلق بنشر كتبه والحصول على مبالغ مالية، والإعلان عن مقالاته في الجرائد السيارة.. إلخ تحوي هذه المطالبات نفع للأمير ولذاتية الزعيم، ولما لا فهو يمثل محور الجماعة وعمودها الفقري وصاحب الطول في شؤونها..!!

المطلب السادس

تنظيم الجهاد.. وتكفير النظام السياسي والحاكم

⌑ ⌑ ⌑ ⌑

منظر التنظيم ودوره التأسيسي:

تخرج محمّد عبد السلام فرج قائد تنظيم الجهاد من كلية الهندسة جامعة القاهرة وهو ينتمي إلى عائلة إخوانية الاتجاه حيث كان والده من العناصر الراديكالية بالبحيرة، وبعد تخرجه عمل بشركة (هايدلكو) بالأسكندرية وفي أوائل عام ١٩٧٨ تعرف على شخص أقنعه بالانضمام إلى تنظيم إسلامي سري يناسب أفكاره العقيدية يسمى(تنظيم الجهاد)، وفيما يبدو أنه وقبل أن تكتمل قوة هذا التنظيم ويشتد عوده قبض على قياداته خلال حوارات الفتنة الطائفية عام ١٩٧٩. [(١)]

بيد أنه لم يتم القبض على محمد عبد السلام فرج نظرًا لأنه لم يكن معروفا للأمن بشكلٍ كافٍ، ومن ثمُ أصبح قريبًا من الشباب والذي كان من السهل تجنيده وخاصة أنّ فرج كان يتميز بطبائع هادئة، وكان لأسلوبه أثر بالغ في تزايد أعضاء تنظيمه.

ويصف مختار نوح «محمد عبد السلام فرج» فيقول: كان شخصا هادئ الطباع، وكان شرسًا في قراراته ، ولم يكن هينًا لكنه كان متواضعًا مع الناس ، لذا أحبه الكثير وانضموا إلى التنظيم، فكان يزور المساجد ليعرض فكر التنظيم على المصلين، وكان لأسلوبه الأثر البالغ في تزايد أعداد التنظيم.[(٢)]

وتجدر الإشارة هنا أن فرج قرر أن يكون تنظيمًا جديدًا للجهاد، وهناك وضع كتاب (الفريضة الغائبة) مانيفستو التنظيم، وراح فرج في صيف ١٩٨٠ يتردد على المساجد القريبة من مسكنه في بولاق الدكرور لكي يضم عناصر شبابية جديدة لقناعته أن العضو الشاب هو بطبيعة الحال صافي القلب صافي النظرة قوي الإيمان، وكان يراعى

---

(١) رفعت سيد أحمد : الإسلامبولي رؤية جديدة لتنظيم الجهاد، مكتبة مدبولي ، ص٧٣.

(٢) مختار نوح: مرجع سابق ذكره، ص٣٥١.

في اختياره أيضًا صفات معينة كالشجاعة والجرأة والإقدام، والمحافظة على السريّة والارتباط الوثيق بزملائه في نفس الجماعة.

وأثناء تردد عبد السلام على مسجد (الفتح) بمنطقة ناهيا القريبة من إمبابة تعرف على طارق الزمر- كان طالب بكلية الزراعة – ونجح في ضمه إلى قواعد تنظيمه وفي إحدى زياراته لطارق الزمر تصادف وجود عبود الزمر [1] ضابط المخابرات، وهو ابن عم طارق، والذي انضم بعد مناقشات لم تستغرق وقتًا، وفي نفس صيف ١٩٨٠ عرف أن كرم زهدي أمير الجماعة الإسلامية بالمنيا – وكان طالبا بنهائي المعهد التعاوني

---

(١) عبود عبد اللطيف حسن الزمر من مواليد ١٩ أغسطس ١٩٤٧ بقرة (ناهيا) بمحافظة الجيزة، حصل على الشهادة الابتدائية من مدرسة الجيزة المستقلة والإعداديّة من مدرسة (أبو الهول)، وحصل على الثانويّة من مدرسة السعيدية ثم بعد ذلك التحق بالكلية الحربيّة عام ١٩٦٥، وتخرج منها عام ١٩٦٧ في أعقاب (النكسة) مباشرة ضمن الدفعة ٥١، وأسرته تنتمي إلى «الأشراف»، وقد شارك الزمر في حرب ٦ أكتوبر ١٩٧٣، وتم ترقيته استثنائيا وهو بميدان الحرب ولدوره المشرف، فقد حصل على رتبة نقيب لبلائه في الحرب، ويمكن النظر لحياة عبود الزمر من خلال عديد من العقد النفسية والتي اعترت حياته وتحكمت في سلوكه وأدبيات تعامله وهي: العقدة الأولى: إنه يتحدث باسم جميع القوى والتيارات الإسلامية والسياسيّة، فتارة يتكلم باسم الإخوان، وتارة ثانية يتكلم باسم ٦ أبريل، والجماعة الإسلامية والجهاد والسلفية وكأنه المتحدث الرسمي باسم الجميع فهو يتصور أنه الرمز لكل هؤلاء مما يدل على نرجسيته المتعالية وذاتية شخصية متضخمة.

العقدة الثانية: أن عمله بالمخابرات ولفترة وجيزة وابتعاده بعدها مازالت تقنعه بأن لديه قدرات غير عادية وتفوق شخصي على ما عداه وأنه متفرد في فهم الأمور والسياسيات ولديه رؤية مستنيرة لم يصل إليها أي رئيس في حل مشاكل مصر وكذلك حل مشكلة (فلسطين) وتحرير القدس، ويبدو ذلك أن لديه إحساس بالتضخم وأنه متفرد في فهم الأمور والسياسات، ولديه رؤية مستنيرة لم يصل إليها أي رئيس في حل مشاكل مصر، وكذلك حل مشكلة (فلسطين) وتحرير القدس، ويبدو ذلك أن لديه إحساس بالتضخم وأنه مركز الكون وحركته..!!

العقدة الثالثة: يبدو من خلال حياته الأسرية أن زواجه مرتين وعدم إنجابه حتى بعد زواجه من أم الهيثم ابنة عمه وابنة خالته (شقيقة طارق الزمر) جعل حياته تتفرد بالصخب والغلظة والصرامة في الأسلوب والعنف في التعامل كما تدفعه هذه الحالة إلى العزلة والاعتزال والاستفادة من هالة العزلة لإصفاء قدسية خاصة على زعامته وهيبته. ولذلك يصف الباحث – ماهر فرغلي – عبود الزمر بالنرجسية والخداع والعقد النفسية في تابوه وخيمة مغلقة بناهيا لتصنع زعيم جماعة ملهم.

لزيادة التفاصيل: انظر ماهر فرغلي في جريدة البداية – العدد (٥٥٤) في ١٢ يونيو ٢٠١٦ الصفحة ٨ مقالة دراسية بعنوان: عبود الزمر.. العقد النفسية لإمام الإرهاب)

العالي بجامعة أسيوط – هارب من القبض عليه (وكان يبلغ من العمر وقتئذ ٢٧ عاما) – بعد حوارات الفتنة الطائفية بالمنيا. فسعى إليه في مخبئه بالمدينة الجامعيّة بالقاهرة، ووافق إذن كرم زهدي أن ينضم إليه ، والذي سافر إلى الصعيد وعاد بموافقة أمراء الجماعات الإسلامية في أسيوط وسوهاج ونجع حمادي على دخول التنظيم.

ومن ثمّ.. وضع التنظيم هيكله وكون أركانه على رأس هذا الهيكل كان (مجلس الشورى) ، والذي يعد بمثابة المجلس الأعلى للتنظيم – كما يذكر رفعت سيد أحمد – وهو يتكون من ١١ عضوًا هم: محمد عبد السلام فرج، عبودعبد اللطيف الزمر، كرم محمد زهدي، ناجح إبراهيم عبد الله، فؤاد محمود حنفي الدواليبي، علي الشريف، محمد عصام الدين دربالة، عاصم عبد الماجد ماضي، حمدي عبد الرحمن عبد العظيم، أسامة حافظ، وطلعت فؤاد، ومن مجلس الشورى ثلاث لجان: الأولى: لجنة (العدة)، والثانية: اللجنة الاقتصادية، والثالثة : لجنة (الدعوة)[١]... والتي سوف نوضح مهام كل لجنة منها فيما بعد...

وفي ذات الوقت الذي كان فيه محمد عبد السلام فرج منشغلا في تأسيس تنظيمه والدعوة إليه والذي يتمحور حول القيام بثورة عسكرية لمناهضة المبادئ الأساسية التي يقوم عليها نظام الحكم في الدولة والتحريض على مقاومة السلطات العامة بها كان محمد سالم الرحال (أردني الجنسية – فلسطيني الأصل والطالب بجامعة الأزهر) يسعى بدوره لتأسيس تنظيم آخر يقوم على ذات الفكر الذي يدعو إليه فرج لإقامة الدولة الإسلامية، ولكن عن طريق مختلف هو الانقلاب العسكري (مثل صالح سريّة) – وفد بدأ الرّحال في وضع أسس هذا التنظيم الانقلابي ومقوماته ولائحته ومنهجه في الوصول إلى مشارف الحكم وتجميع المعلومات الخاصة عن بعض الشخصيات المهمة في الدولة وأجهزتها.[٢]

وبدأب شديد اتصل محمد سالم الرَّحال بعدد من الشباب عارضًا عليهم فكره وتنظيمه ، فاتصل بكمال السعيد حبيب (والذي بلغ من العمر ٢٤ عاما – وقتئذ – وتخرج من كلية الاقتصاد والعلوم السياسيّة)، وعرض عليه فكره، والذي تمحور حول تكفير الحاكم الذي

(١) رفعت سيد أحمد: مرجع سابق ذكره، ص٧٥.

(٢) رفعت سيد أحمد: مرجع سابق ذكره، ص٧٦.

لا يحكم بما أنزل الله، وتكفير الهيئات المعاونة للحاكم لأنهم موالون للحاكم الكافر، وبعد عرض الرَّحال على السعيد مشاركته في تأسيس التنظيم فوافق عليه بعد اقتناع بفكره وصوب هدفه، كما اتصل الرَّحال - أيضًا - بأحمد راشد محمد راشد (الطالب بكلية الزراعة جامعة القاهرة)، وعرض عليه فكرة وإمكانية المشاركة في تأسيس التنظيم، فوافق بدوره، فسلمه الرَّحال وثائق التنظيم التي أعدها، وأسند إليه مهمة الرصد والمتابعة، والذي كان يقوم بها...

والتقى محمد سالم الرَّحال أيضًا نبيل نعيم عبد الفتاح (تاجر ببولاق) وتحدث معه في إقامة الدولة الإسلاميّة، وسلمه بحثا ينادى بإقامة الدولة الإسلامية عن طريق (الجهاد) و(تكفير الحاكم) فاقتنع بفكره، ووافق على الاشتراك معه، واستمر الرَّحال على هذا المنوال في اتصالاته واجتماعاته لدعوة بعض الشباب للانضمام إلى التنظيم فقد كان معروف عنه النشاط الكثيف ، والذي يجوب بهاالبلاد لتبليغ فكره ونشره، ولذلك سرعان ما تولى مهمة التنسيق والمتابعة فيما بين أعضاء (تنظيم الجهاد ١٩٧٩) في المحافظات المختلفة - كما يذكر مختار نوح - فسافر إلى بورسعيد والأسكندرية والبحيرة، وكان محل إقامته في (رواق الشام) بالأزهر، والذي أصبح المركز الرئيسي للتجمع بواسطته انضم عصام القمري وأيمن الظواهري في أواخر عام ١٩٧٩ إلى التنظيم، وبمرور الوقت أصبح الرَّحال[1] وعبد السلام فرج القيادين البارزين للتنظيم وتجمعت في أيديهما كافة خطوط المجموعات المشتتة في محافظات عدة.[2]

(١) إرهاصات التنظيم : وقضية الجهاد الصغرى:

كانت القضية رقم (١) لسنة ١٩٧٧ عسكرية عليا بمثابة إرهاصة لتنظيم الجهاد الكبرى والتي راح ضحيتها السَّادات نفسه في السادس من أكتوبر عام ١٩٨١، فقد بدأت قضية الجهاد الصغرى بتجميع القيادات التي تم الإفراج عنها من تنظيم الجهاد المسماة بالفنية العسكرية، فقد خلقت حالة من الإعجاب لدى كثير من الشباب المنتمي

---

(١) أخرجته الحكومة المصريّة من أرض مصر بالقوة قبل تقديم القضية فحكمت المحكمة عليه غيابيا بالسجن خمس عشرة سنة، وبعد ترحيله في شهر يوليو ١٩٨١، استكمل كمال السعيد حبيب النشاط ملتزمًا نفس المنهج والفكر.

(٢) مختار نوح: مرجع سابق ذكره، ص٣٥٠.

إلى الحركة الإسلامية ، فكانت كلمة (الجهاد) في ذلك الوقت – كما يذكر نوح – تحمل بريقًا مختلفًا مقابلًا لما أسموه (ضعف الإخوان) في ذلك الوقت أو ما يتصوره الشباب ضعفًا.

تم الإفراج عن العديد من الشباب في قضية (الفنية العسكريّة) ليخرجوا إلى الدنيا ببريق جذب نحوه العديد من الشباب المتحمس...

وقضية (الجهاد الصغرى) قد تم اكتشافها بمحض الصدفة فقد كان بطلها (حارس) بسيط يجلس في كشك حراسته بجوار القنصلية القبرصية وشباب متحمس نشط قد شغف حبًا بفكرة (الجهاد) وأولع به مما دفع به إلى محاولة سرقة بندقية الحارس إلّا أن القدر حال دون ذلك ، واستيقظ الحارس، وتورط الشباب في قتله اضطرارًا أثناء محاولتهم الفرار، فقد كان محمّد شريف إبراهيم ومعه حسن الصغير وآخرون في نزهة على طريق قناة السويس فوجد هو ورفقته حارس القنصلية القبرصية نائمًا وبجواره البندقية الخاصة به والتي يحرس بها فاختمر في ذهنهم الشبابي سرقة البندقية، لكن الحارس استيقظ عقب التقاط (حسن) للبندقية ، فطعنوه بالمطواه ، وفروا ، لكن الحارس توفى على أثر تلك الطعنة، وقد اهتمت مباحث أمن الدولة بهذه القضية، ولكن قيدت القضية ضد مجهول – في أول الأمر – لعدم الاستدلال على القاتل، وكان التصور أن هناك ثمة قضية ثأر شخصي إلى أنّ قام خال محمَّد شريف إبراهيم بالإبلاغ عنهم حين وجد السلاح الميري مع محمد شريف، فظل يمارس التجسس عليه بتعليمات من مباحث أمن الدولة حتى اعترف بما حدث منهم...

والملفت في الأمر أن مباحث أمن الدولة تعاملت مع الحدث على أنه مخطط تنظيمي جهادي وليس حدث فردي أقرب إلى العفوية منه إلى الإعداد والتنظيم، وتم القبض على مجموعة كبيرة منهم : وضاح سلامة، عبد الرءوف أمير الجيوشي، ياسر مسعد أحمد صالح.

وقد روى وضاح سلامة شهادته – في هذا الأمر – قائلا: لولا تعامل أمن الدولة وعرضها الخاطئ مع قضية القنصلية القبرصية – ١ لسنة ٧٧ عسكرية – الأسكندرية ما تشكل تنظيم الجهاد، فالحدث كان أشبه بالألعاب الصبيانية أكثر منه عملًا من عمليات تنظيم جهادي، فبينما لم يشترك في عملية القنص أو قضية القنصلية القبرصية

سوى من ٣ إلى ٤ أفراد، ولم يعلم سوى عدد قليل جدًا فإن أمن الدولة أوجد تنظيمًا جهاديًا من عدم حين ألقي القبض في تلك القضية على أكثر من ٢٠٠ فرد [١]

نشأة التنظيم وظروف التكوين:

تعود جذور تنظيم الجهاد إلى جماعة الفنية العسكريّة والتي تم الكشف عنها في عام ١٩٧٤، ويمكن اعتباره أحد حلقات تطورها – كما تقول هالة مصطفى – والتي مرت بمرحلتين الأولى: عام ١٩٧٧ والأخرى: عام ١٩٧٩، وقد تشكل التنظيم الأول على يد اثنين من أعضاء الفنية العسكريّة هما: محمَّد سالم الرَّحال (طالب بالأزهر أردني الجنسية – كما ذكرنا –) وحسن حلوى بعد أنّ تمكن من الهرب أثناء اعتقال الجماعة في عام ١٩٧٤، وقاما بتشكيل تنظيم إسلامي جديد باسم (الجهاد) في الإسكندرية وقد تم الكشف عن هذا التنظيم في أغسطس عام ١٩٧٧ وقد انتقلت قيادة هذا التنظيم بعد الرَّحال إلى كمال السعيد حبيب – كما ذكرنا من قبل – أما الآخر فقد شكله محمد عبد السلام فرج (وكان يبلغ وقتها ٢٧ عاما ويشغل وظيفة مهندس كهرباء بإدارة الجامعة) وقد انضم فرج في أوائل عام ١٩٧٨ إلى تنظيم الجهاد بالإسكندرية قبل أن ينشئ تنظيم القاهرة في العام الثاني أي عام ١٩٧٩ تحت نفس الاسم، وقد اعتبر الكثيرون أن عبد السلام فرج مؤسس التنظيم ومنظره حيث كتب كتيب باسم «الفريضة الغائبة» اعتبر الوثيقة الرئيسية للجماعة [٢]

وغني عن البيان في هذا الصدد أن المجموعة الأولى لتنظيم ١٩٧٧ التي يرأسها «كمال السعيد حبيب » قد انضمت لمجموعة فرج وبذلك حدث توحد في تنظيم الجهاد في عام ١٩٧٩ ، وانضم إلى هذا التنظيم في العام التالي رائد المخابرات عبود عبد اللطيف الزمر، والذي لعب دورًا محوريا على صعيد الأداء الحركي للتنظيم حيث اعتبر أنه المخطط الاستراتيجي الذي وضع أهم خطة في حياة تنظيم الجهاد، وهي خطة الإطاحة بالنظام الساداتي وتأسيس «الخلافة الإسلامية» والتي أسفرت الخطة في النهاية عن اغتيال السادات في ٦ أكتوبر عام ١٩٨١. [٣]

---

(١) مختار نوح : مرجع سابق ذكره ص ٣٢٩.

(٢) هالة مصطفى : مرجع سابق ذكره، ص١٤٩.

(٣) هالة مصطفى: مرجع سابق ذكره ، ص١٥٠.

ومن اللافت للنظر أن تنظيم الجهاد منذ نهاية السبعينيات وحتى أوائل الثمانينيات (من القرن الماضي) أي حتى قيامه بعملية اغتيال السادات قد استطاع «التنظيم» أن يستقطب قيادات التيار الإسلامي في صعيد مصر والتي كانت تمارس نشاطها الديني من خلال ما عرف بـ « الجماعة الإسلامية» والتي قامت بدور كبير داخل الجامعات المصرية وخاصة في محافظات الصعيد وقد قام بهذا الدور - بعد اقتناعه بالتنظيم – كرم محمد زهدي كما ذكرنا من قبل.

والجدير بالإشارة هنا أن قيادات التنظيم (أو أمراءه) قد وافقت على اختيار الدكتور عمر عبد الرحمن (وهو أستاذ ضرير يدرس العلوم الدينية بكلية أصول الدين فرع جامعة الأزهر بأسيوط وكان يبلغ من العمر - وقتئذ – ٤٣ عاما) بالقيام بالفتيا الشرعية والتي أراد التنظيم أن يصبغها على عمليات العنف التي يقوم بها التنظيم...

والجدير بالأهمية في هذا الشأن أن تنظيم الجهاد أقدم في النشأة من «الجماعة الإسلامية» حيث تعود الجذور الأولى لنشأته إلى الستينيات (من القرن الماضي) حيث التقى يحيى إبراهيم هاشم (وكيل نيابة) وإسماعيل طنطاوي وأيمن الظواهري (زعيم القاعدة الآن) وعصام القمري أن ينشئوا سرا أول مجموعة جهادية ولكن اسم (الجهاد) لم يظهر لأول مرة إلا في عام ١٩٧٧ عندما قدم للمحاكمة تنظيم (الجهاد) الذي يتزعمه محمد سالم الرَّحال وظهر في الإسكندرية في هذه الأثناء – كما يذكر رضوان الشيباني – لم يكن قد ظهر تنظيم الجهاد الذي يتزعمه الظواهري فقد ظل هذا التنظيم على حذره وظل يحاول استقطاب عناصر من الجيش في محاولة لاختراق المؤسسة العسكرية (الجيش) لإيمانهم أن التغيير لن يتم إلا عن طريق القوات المسلحة، لذا رفض الانضمام إلى جماعة الرَّحال الذي برأته المحكمة وتمكن من تجميع مجموعات جهادية في كيان تنظيمي موسع ، وكان له الفضل في تكوين التشكيل الهرمي لجماعة الجهاد، وبعد أنّ تم ترحيل الرَّحال إلى خارج مصر أول عام ١٩٨١ – كما يذكر الشيباني – اتفق الجميع على تولية محمد عبد السلام فرج خلفًا له ، وبهذا يتضح أن (الجهاد) اسم لتنظيمات مختلفة ولم يستقر على «جماعة الجهاد» المعروفة حاليا إلا في عام ١٩٨١ بعد اغتيال السادات. [1]

---

(١) رضوان أحمد شمسان الشيباني: الحركات الأصولية الإسلامية في العالم العربي، مكتبة مدبولي ، الطبعة الأولى ٢٠٠٥، ص١٩٠.

(٢) الهيكل التنظيمي وتجنيد العضوية وشروطها:

وضع تنظيم الجهاد هيكله وكان على رأسه «مجلس شورى» والمكون من ١١ عضوا – كما ذكرنا من قبل – وكان يتكون من مجلس الشورى ثلاث لجان هي:

الأولى: لجنة العدة، واختصاصها كالتالي:

١) وضع الخطة.

٢) تنظيم حركة العمل وحركة التدريب.

٣) تجميع المعلومات لصالح الخطة المرتقبة والتي تهدف إلى إحداث الثورة الشعبية عن طريق تفجير الواقع على كافة المستويات والأصعدة.

الثانية: اللجنة الاقتصادية واختصاصها كالتالي:

١) دعم التنظيم وتوفير المالية لحركته.

٢) زيادة الاعتمادات والاستقلال الذاتي عن المجتمع المحيط.

٣) التبرعات مع عمليات الهجوم على محلات المسيحيين (تسمى لديهم غنيمة) يمثلان معًا المصدر المباشر للدعم المادي للتنظيم.

الثالثة: لجنة الدعوة واختصاصها كالتالي:

١) نشر الدعوة.

٢) تجنيد أعضاء جُدُد.

٣) التثقيف الفقهي والسياسي العام.

ويقوم الهيكل التنظيمي على تشكيل مجموعة صغيرة موزعة جغرافيا على مختلف أنحاء المحافظات وهو في ذلك لا يختلف كثيرا عن أغلب التنظيمات السرية وإن كانت طبيعة العلاقات بين هذه المجموعات بالقيادة العليا للتنظيم قد سمحت ببعض المرونة في الحركة بخلاف تنظيمات أخرى إذ كان لكل مجموعة من هذه المجموعات – الموزعة جغرافيا – أمير يدير شؤونها ويتخذ القرارات فيها رغم مسؤوليته أمام رئيس التنظيم.

وقد كان هذا الهيكل التنظيمي يسمح على خلاف الهيكل التنظيمي لجماعة المسلمين «التكفير والهجرة» بمساحة أوسع في الحركة واتخاذ القرار والاستقلالية في القيادة وهو

شكل يقترب من تنظيم «الفنية العسكرية» ويطبق نفس الشيء على عملية التجنيد للأعضاء ، فقد اعتبر تنظيم «الجهاد» أقل انغلاقا من جماعة «التكفير والهجرة» إذ اعتمد التنظيم في بناء قاعدة عضويته على أساليب ثلاثة هي : القرابة والصداقة ودور العبادة (اللقاءات داخل المساجد) واستخدامها بشكل متساوٍ ولم يكن هناك تقسيم صارم لتوزيع مسؤولية التجنيد حيث كان متاحا لأي عضو مسؤول في التنظيم القيام بهذه العملية.

ومن الملفت أن عضوية الفرد في تنظيم الجهاد لم تكن تمنعه من الاتصال بجماعات أخرى وهو ما ساعد على سهولة انتشار أفكار «الجهاد» بل وسهولة استقطاب الأعضاء بعكس جماعة «التكفير والهجرة» ويذكر عدد من الباحثين أن دور العبادة وخاصة الأهلية منها هي التي ساهمت بشكل حاسم في توسيع قاعدة العضوية وسرعة الانتشار فقد تضاعفت دور العبادة منذ سنوات السبعينيات (من القرن الماضي) وحتى عام ١٩٨١ من المساجد الأهلية وقد أدى ذلك إلى أمرين أساسيين:

الأول منهما : فقدان وزارة الأوقاف رقابتها على المساجد.

والآخر : هو نقصان عدد الأئمة من خريجي الأزهر والذين كانوا تقليديا يقومون بوظيفة الإمام في المساجد التابعة للوزارة، ومن هنا بدأ يظهر في العقدين الأخيرين أئمة مستقلين لعبوا دورا هاما على الصعيد الخطابي في جذب أنصار للجماعات الراديكالية ومنها تنظيم «الجهاد». [(١)]

(٣) أيدولوجية تنظيم الجهاد :

يعتبر «الجهاد» هو القضية المحورية التي صاغ محمد عبد السلام فرج أفكاره حولها وتمحورت حولها – أيضًا – استراتيجية التنظيم السياسية ويبدأ فرج مقدمة «الفريضة الغائبة» بالتنويه إلى خطورة إغفال مبدأ الجهاد فيقول: «إن الجهاد في سبيل الله بالرغم من أهميته القصوى وخطورته العظمى على مستقبل هذا الدين فقد أهمله علماء العصر وتجاهلوه على الرغم من علمهم بأنه السبيل الوحيد لعودة ورفع صرح الإسلام من جديد، والذي لا شك فيه هو أن طواغيت هذه الأرض لن تزول إلا بقوة السيف».

---

(١) هالة مصطفى : مرجع سابق ذكره، ص١٥٢.

ويبدأ فرج بصياغة أفكاره من الواقع أو ما يسميه «بالدار التي نعيش فيها » أي هي دار إسلام أو دار حرب. ويشير فرج إلى فتوى «الإمام محمد» و«الإمام أبو يوسف» صاحبا أبي حنيفة النعمان (٨٠- ١٥٠هـ / ٦٩٩-٧٦٧م) بأن حكم الدار تابع للأحكام التي تعلوها فإن كانت الأحكام التي تعلوها هي أحكام كفر (فهي دار كفر) وإن كانت الأحكام التي تعلوها أحكام إسلام (فهي دار إسلام) ... ثم يظهر تأثر فرج بما كتبه ابن تيمية (٦٦١-٧٢٨هـ/ ١٢٦٣-١٣٢٨م) تأثرا كبيرا حتى يمكن اعتباره أنه المفكر الأول للجماعة حيث اختارت إجابته على هذا السؤال وهي الإجابة التي أجاب بها سائلا سأله عن حال مدينة «ماردين» الواقعة بإقليم شمالي العراق وكان «التتار» قد استولى عليها وحكموا رعيتها المسلمة وطبقوا شريعة هي خليط من «ياسة» جنكيز خان (٥٦٢-٦٢٤هـ/ ١١٦٧-١٢٢٧م) الكافر وشرائع الأديان السماوية الثلاثة: اليهودية والنصرانية والإسلام، فكانت «الرعية» مسلمة و«الدولة والحكام» تنطق بالشهادتين وتنتسب إلى الإسلام لكنها تطبق بعضه دون البعض... فالحكام في «ماردين» يؤمنون ببعض الكتاب عندما يطبقون بعضا من شريعة الإسلام ويكفرون البعض الآخر وذلك عندما يطبقون «السياسات الملكية» غير الشرعية.. ولقد أجاب الفقيه ابن تيمية سائله عن حكم تلك «الدار» فلم يقل أنها «دار حرب» بإطلاق اللفظ، وإنما قال:إنها مركب فيها المعنيان فهي ليست بمنزلة دار السلم والتي يجرى عليها أحكام شريعة الإسلام وليست بمنزلة دار الحرب التي أهلها «كفار» بل هي قسم ثالث يعامل المسلم بما يستحقه ويعامل الخارج عن شريعة الإسلام بما يستحقه «فالكفر» ومن ثمَّ «الحرب والقتال» على الدولة والحكام والإسلام ومن ثمّ «السلم» لجمهور المسلمين..[1]

تلك الإجابة هي التي ارتضتها جماعة (الجهاد) ورأت فيها التوصيف الأدق لحال مصر وقتئذ – كما يذكر محمد عمارة – فالدولة تحكم بأحكام الكفر . وبالرغم من أن أغلب أهلها «مسلمون» ... والأحكام التي تعلو المسلمين اليوم هي أحكام الكفر بل هي قوانين وضعها كفار وسيروا عليها المسلمين.[2] وكفر «الدولة والحكام» هذا ليس «أصليا» موروثا فهذه الدولة كانت جزءا من «دولة الإسلام» لكنها «ارتدت» عندما

(١) محمد عمارة : فكر جماعة الجهاد، في كتاب« المتشددون المحدثون» – الجزء الثاني – ص ٥٠٦ ، ٥٠٧.

(٢) محمد عمارة: مرجع سابق ذكره، ص٥٠٧.

حكمت بغير شريعتها وعلتها أحكام الكفر والكفار فيقول فرج: «فحكام هذا العصر في ردة عن الإسلام تربوا على موائد الاستعمار سواء الصليبية أو الشيوعية أو الصهيونية وإذا كانت الردة عن أصل الدين أعظم من الكفر بأصل الدين فالردة عن شرائعه أعظم من خروج الخارج الأصلي عن شرائعه، ويصل فرج بذلك إلى ضرورة الخروج على الحاكم استرشادا بفتوى ابن تيمية في «الفتاوى الكبرى» باب الجهاد ص ٢٨١ (بأن كل طائفة خرجت عن شريعة من شرائع الإسلام الظاهرة المتواترة فإنه يجب قتالها باتفاق أئمة المسلمين وإن تكلمت بالشهادتين».

وهذه الأفكار حول تكفير الحاكم والخروج على الحاكم هي التي ترسم استراتيجية فرج في الحركة السياسية والتي تقوم على العنف لقتال الحاكم وتغيير شكل الحكم القائم والتي يصيغها تحت دعوة «الجهاد» واستراتيجية الجهاد عند فرج تتحدد وفقا لمعيارين:

الأول : هو تحديد العدو القريب والعدو البعيد.

والآخر : هو القتال كفرض على كل مسلم.

فبالنسبة للمعيار الأول فيقول فرج: «هناك من يقول بأن ميدان الجهاد اليوم هو تحرير القدس كأرض مقدسة والحقيقة أن تحرير الأراضي المقدسة أمر شرعي واجب على كل مسلم ولكن يجب توضيح أن قتال العدو القريب أولى من قتال العدو البعيد، إن دماء المسلمين التي ستنزف حتى وإن تحقق النصر فالسؤال الآن: هل هو هذا النصر لصالح الدولة الإسلامية القائمة أم أنّ النصر هو لصالح الحاكم الكافر القائم وهو تثبيت لأركان الدولة الخارجة عن شرع الله».

ثم يتحدث «فرج» عن المعيار الثاني بوجوب القتال فيقول : إن القتال فرض على مصر والجهاد ضد الحكام هو فرض عين (وبالنسبة للأقطار الإسلامية فإن العدو يقيم في ديارهم بل أصبح العدو يمتلك زمام الأمور وذلك العدو هم هؤلاء الحكام الذين انتزعوا قيادة المسلمين ومن هنا فجهادهم فرض عين».(١)

(١) هالة مصطفى : مرجع سابق ذكره، ص١٥٥.

وهؤلاء الحكام الذين ارتدوا عن الإسلام بالبدع وتغيير الشرع وبتعطيل أحكامه كلها أو بعضها لم يعد لهم على المسلمين حق السمع ولا واجب الطاعة.. فالسمع والطاعة قد أعطاها المسلمون لنبيهم صلى الله عليه وسلم عندما بايعوه، وهو قد دعاهم كي يفوا بهما لمن يبايعونه بعده من الحكام في المنشط والمكره والعسر واليسر وطلب منهم ألا ينازعوا الأمر أهله لكنه علق ذلك على «ألا تروا كفر بواحا عندكم من الله فيه برهان».

ولما كان خلع حكام يملكون القوة ويؤسسون عليها حكومتهم ويفرضون بها على الرعية استبدادهم لا يمكن أن يتأتى بغير «العنف الثوري» فلا سبيل سواه لخلع هؤلاء الحكام وإقامة دولة الإسلام، فالذي لا شك فيه هو أن طواغيت الأرض لن تزول إلا بقوة السيف.(١)

(٤) موقف فرج من مؤسسات الدولة:

يتخذ محمد عبد السلام فرج في كتابه «الفريضة الغائبة» موقفا رافضا للتعامل مع كافة مؤسسات وأجهزة الدولة وهو موقف يعتبر أكثر تشددا وتصلبا من الموقف الذي اتخذه صالح سريّة منظر «جماعة الفنية العسكرية» والذي قبل التعامل مع بعض مؤسسات الدولة وفق شروط معينة حددها في كتابه «رسالة الإيمان».

والجدير بالبيان أنّ فرج يقول في رده حول إمكانية قيام حزب إسلامي: «هناك من يقول أن علينا أن نقيم حزبا إسلاميا في قائمة الأحزاب الموجودة، وفي الحقيقة أن هذا يزيد الجمعيات الخيرية لكونه حزبا يتكلم في السياسة بالإضافة إلى ذلك فإن الهدف الذي قام من أجله هو تحطيم دولة الكفر سوف يكون العمل عن طريق الحزب هو عكسه وهو بناء دولة الكفر».

ويرفض فرج أسلوب «الدعوة» كاستراتيجية للعمل من أجل إقامة الدولة الإسلامية كما يحدد موقفه ويرفض مبدأ الهجرة واعتزال المجتمع وأنّ الأسلوب الصحيح لإقامة الدولة الإسلامية هو القتال.

وهذه الآراء تثير ملاحظتين حول استراتيجية فرج السياسية – كما تذكر هالة مصطفى – **الأولى**: هي رفض فرج لجميع الاستراتيجيات المتبعة من قبل الجماعات الإسلامية

(١) محمد عمارة: مرجع سابق ذكره، ص٥١١.

الأخرى بدءا بجماعة الإخوان وانتهاء « بجماعة المسلمين» أو «التكفير والهجرة» والتي ترغب في الهجرة واعتزال المجتمع.. أما الأخرى : فتؤكد على النظرة الأحادية لفكرة «الجهاد» الذي لا يعتبر فرض ديني فحسب وإنما يعتبر هو الوسيلة الأساسية بل تكاد الوحيدة للتغيير عند فرج وهذه النظرة يقترب فيها فرج من جماعة «الفنية العسكرية» التي كانت ترى ضرورة البدء بتغيير النظام والاستيلاء على السلطة وإعطاء الأولوية للعنف المسلح.[١]

ويمكن لنا أن نقول: إن كتاب «الفريضة الغائبة» يكتسب أهمية كبيرة ليس لارتباطه بحادث اغتيال الرئيس الأسبق محمد أنور السادات في أكتوبر ١٩٨١ وفقط ولكن لأنه اعتمد كوثيقة أساسية للتبرير الفقهي والتي ارتكز عليه تنظيم الجهاد في تبريره لإباحة الدماء واستحلال الأموال ومحاولة قلب نظام الحكم وتغييره بالقوة والحرب بل ظل هذا الكتاب «الوثيقة» لتنظيم الجهاد والتنظيمات الأخرى والتي شابهته في استخدام العنف وتكفير الحكام والأنظمة السياسية فقد أصبحت المصدر الفكري لهذه التنظيمات والحركات «الجهادية» في مواجهتها للأنظمة والحكام.

(١) هالة مصطفى : مرجع سابق ذكره، ص١٥٧.

المطلب السابع

الجماعة الإسلامية... وقضية تكفير أنظمة الحكم وجاهلية الحكام

¤ ¤ ¤ ¤

كانت «الجماعة الإسلامية» منذ بواكير نشأتها جزءًا من التيار الإسلامي العام والذي ظهر داخل الجماعة المصرية خاصة في جامعة أسيوط بصعيد مصر في بداية السبعينيات من القرن الماضي.

والجدير بالإشارة هنا أنها كانت تعمل باسم «اللجنة الدينية» قبل أن تعرف باسم «الجماعة الإسلامية» حيث انحصر نشاطها في الأنشطة الاجتماعية والثقافية والرياضية وفي هذه الفترة سيطر التيار السلفي «التقليدي» على أنشطة الجماعة وتوجهاتها الفكرية وذلك وحتى منتصف السبعينيات فقد تمحورت منشوراتها في هذه الفترة على قضايا الأخلاق والسلوكيات والاختلاط في الجامعة بين الجنسين.(١)

وقد تمكن هذا التيار الإسلامي - خلال فترة السبعينيات – من تحقيق بعض الإنجازات فقد سيطر على الاتحادات الطلابية في الجامعات واستغلال هذا الإنجاز واستثماره في نشر الثقافة الإسلامية وهو ما أدخلها في مرحلة جديدة في التشكيل والحركة حيث ساهم بشكل كبير في تحقيق هذه السيطرة وهذا الإنجاز المناخ السياسي السائد في هذه المرحلة.

وقد نهجت «الجماعة الإسلامية» في البداية نهج الإخوان المسلمين الأمر الذي اعتقد من خلاله أنّ هذه الجماعة قد خرجت من عباءة الإخوان مع أنّ «الجماعة الإسلامية» قاومت المحاولات الدعوية للإخوان للسيطرة عليها واحتوائها من قبل الإخوان إلا أنهم – في النهاية – قد نجحوا في استقطاب بعض قيادات الوجه البحري وعديد من الأعضاء الآخرين.

---

(١) الحركات الأصولية في العالم العربي، ص١٨٧.

ولم يقتصر نشاط «الجماعة الإسلامية» في جامعات الصعيد – على وجه التحديد – على الأنشطة الاجتماعية والثقافية بل اتخذ هذا النشاط منحى صدامي حيث قامت بعمليات اعتداء متكررة على الحفلات التي كانت تقام في الجامعة وسعت عن طريق العنف لتغيير أشكال السلوك الاجتماعي بين طلاب الجامعة والتي كانت تراها منافية لأفكارها عن الإسلام ومناقضة للتدين الصحيح إضافة إلى ذلك اصطدامها بالطلبة المسيحيين وأخذت منشوراتها طابعًا عدائيًا شديدًا للمسيحيين والكنيسة المصرية. [1]

وقد تعددت التيارات داخل «الجماعة الإسلامية» في بداية الثمانينيات (من القرن الماضي) فقد أخذ تيار موال للإخوان تركز في جامعتي القاهرة والإسكندرية وتيار اقترب من خط الجهاد في جامعات الصعيد إلى جانب تيار سلفي «محدود» انحصر في جامعة الإسكندرية.

كما شهدت هذه الفترة انتقادات عنيفة من جانب «الجماعة الإسلامية» لموقف الإخوان من النظام والذي وصفته «بالمهادنة» وتزعم أمراء أسيوط وسوهاج وأسوان وقنا وبعض قيادات المنيا هذه الحملة العنيفة ضد الإخوان، وكان على رأس هؤلاء كرم محمد زهدي وناجح إبراهيم عبد الله وعصام دربالة وعاصم عبد الماجد* (لاحظ

---

(١) الإسلام السياسي في مصر من حركة الإصلاح إلى جماعات العنف، ص١٥٩.

* ولد عاصم عبد الماجد ماضي في دير عطية التابعة لمدينة المنيا عام ١٩٤٧ وتميز بانفرادية منذ الصغر، ولكن يبدو من حياته أنها تحتوي على متناقضات جمة وإن ظهرت غلظته وتبدت جلافته في التعامل فقد بدأ ناصريا في صباه لأن والده كان كذلك، وظل هذا عقيدته السياسية حتى التحق بكلية الهندسة جامعة أسيوط والتي التقى فيها بعصام دربالة والذي لم يتركه حتى نهاية الأخير.. وقد بقي عاصم على ناصريته واشتراكيته حتى عام ١٩٧٧ إلى أن التقى بصلاح هاشم مؤسس الجماعة الإسلامية والذي غير من منحى هذا الناصري إلى الجماعة الإسلامية.. وفي حياته – أي عبد الماجد – كثير من التناقضات المتباينة فتارة يظهر أمام الناس باعتباره يحب المزاح والهزار في حين تنطلق من فيه كل ألفاظ العنف والجلافة .. وهو يحرم التليفزيون ويطلق عليه (مفسديون) ويقاتل زملاءه في السجن لقبولهم الغش في الامتحان أثناء وجوده في السجن في حين يستولي هو وشقيقه على أموال مرسلة من أوروبا وصلت إلى ٣٠٠ ألف جنيه لتقديم العون لأسر المعتقلين .. ويطالب أعضاء التنظيم بقتال رجال الشرطة في كل مكان بل قتل منهم ١١٤ شرطيا في أحداث أسيوط والتي أصيب فيها بسبعة رصاصات في حين أنه تميز في السجن وتزوج في خلوة شرعية بخيمة معدة لذلك وأنجب في السجن كما تم نقله إلى سجن المنيا بمعرفة مباحث أمن الدولة، وأتاحت له من الراحة ما لا يتوقع. وكان مع الإخوان بل كان أشبه ببلطجي السلطة في عصر محمد مرسي =

موقفه الآن من الإخوان وموقفه من رئاسة مرسي لحكم مصر) وعلي الشريف وهذه القيادات هي التي قادت تيار الجماعة في الصعيد وهي التي فتحت أبواب التعاون مع تنظيم «الجهاد» وخاصة أنها اتخذت منحى صدامي ورفضت مبدأ العمل السياسي من خلال القنوات القانونية والحزبية. [1]

وهناك أسباب عدة دفعت للصدّام مع نظام السادات لم يكن منها فقط موقفهم من الأحزاب والحياة السياسية وإنما كانت هناك مواقف أخرى قادت إلى هذا الصدام وتفاقمه تمثل في موقف الجماعة من «إسرائيل» ومن معاهدة السلام الموقعة بين مصر وإسرائيل وما جره ذلك من تطبيع وقد استنكرت «الجماعة الإسلامية» في بيانات ومؤتمرات نظمتها للتنديد بذلك.. كذلك ما كان من تأييد «الجماعة الإسلامية» لثورة إيران فقد أثر ذلك في ازدياد حدة التوتر مع النظام خاصة بعد استضافة السَّادات لشاه إيران في ذلك الوقت وهي السياسة التي عارضتها «الجماعة» بشدة وقامت بسببها مظاهرات ضخمة في أسيوط. [2]

وبالإضافة – لما ذكرناه – على مستوى السياسة والعلاقات مع الدول كانت هناك قضايا داخلية أدت إلى صدام الجماعة بالنظام الساداتي وقد تمثل في قضايا داخلية ملحة بالنسبة للجماعة الإسلامية قادتها إلى تصعيد عملية التوتر مع النظام وعلى رأس هذه القضايا قضية «تطبيق الشريعة الإسلامية» وقضية «تغيير المنكر» ، وينضاف إلى هاتين القضيتين الكبيرتين في نظر «الجماعة» كانت هناك عدة قضايا داخلية أخرى وقفت بها موقفا مناهضا للنظام وعقدها لمؤتمرات شعبية منددة بهذه الإجراءات والقوانين التي صدرت في ذلك الوقت ومن ذلك «قانون العيب» وقانون الوحدة الوطنية وتغيير اللائحة الطلابية في صيف ١٩٧٩. [3]

=

يهاجم خصومهم بضراوة ومهددًا بهم بقطع رؤوسهم وبعد العزل هرب إلى قطر ثم تركيا وهاجم الإخوان وطالبهم بخطوة إلى الخلف .. لزيادة التفاصيل عن نفسية وحياة عاصم الاجتماعية . انظر: ماهر فرغلي ومقالته في جريدة البوابة بالعدد ٥٥٥ في ١٤ يونيو ٢٠١٦ الصفحة ١٠ بعنوان : عاصم عبد الماجد.. نفسية البلطجي».

(١) الإسلام السياسي في مصر ، ص١٦٠.

(٢) الإسلام السياسي في مصر ، ص١٦٠.

(٣) الإسلام السياسي في مصر ، ص١٦١.

وقد أدى ذلك إلى صدور القرار رقم ٤٩٣ لسنة ١٩٨١ بتاريخ ٢٣ سبتمبر ١٩٨١ والذي أصدره رئيس الجمهورية بالتحفظ على عدد ١٥٣٦ شخصا ممن توافرت فيهم دلائل جديّة على أنهم ارتكبوا أو جندوا أو استغلوا صورة الأحداث التي هددت الوحدة الوطنية أو السلم الاجتماعي أو سلامة الوطن ، وكان من ضمن هؤلاء المطلوبين قيادات وأعضاء بارزين في الجماعة الإسلامية ثم التحفظ عليهم واعتقالهم...

وبعد الاغتيال استمرت محاكمة قيادات الجماعة الإسلامية ثلاث سنوات كاملة ثم صدرت الأحكام في القضية رقم ٤٦٢ لسنة ١٩٨١ والمتهم فيها ٣٠٢ وهي المعروفة بالجهاد الكبرى بالأشغال الشاقة المؤبدة لمعظم القيادات البارزة (كرم محمد زهدي - عاصم عبد الماجد ماضي (٢٤ سنة طالبة بهندسة أسيوط) - ناجح إبراهيم عبد الله (٢٧ سنة طبيب) - محمد عصام دربالة (٢٤ سنة طالب) - علي الشريف ...).

وقد استغلت هذه الفترة في عمل أبحاث تخلص فكر الجماعة الإسلامية وتبلور أيديولوجيته وتحدد معالمه حيث لم تتح لهم الظروف وهم بالخارج أن يعدوه فلم يكن هناك ثمة كتاب أو بحث يحدد فكر الجماعة قبل أحداث الاغتيال عام ١٩٨١ وكان يغلب عليها الطابع السلفي لاسيما كتب ابن تيمية (٦٦١-٧٢٨هـ/ ١٢٦٣-١٣٢٨م) وابن القيم الجوزية (٦٩١-٧٥١هـ/ ١٢٩٢-١٣٥٠م) .. وكان معالم فكر الجماعة في التالي:

الأول : ميثاق العمل الإسلامي.

الثاني : كتاب «أصناف الحكم وأحكامهم».

الثالث: بحث «حكم قتال الطائفة الممتنعة عن شرائع الإسلام» و«حتمية المواجهة».

الرابع : مرافعة الدكتور عمر عبد الرحمن والتي نشرت فيما بعد في كتاب بعنوان «كلمة حق» نشرته دار الاعتصام.

يتناول الكتاب الأول تسع نقاط .. الغاية .. الهدف.. والطريق والعقيدة والفهم والزاد والعداء والولاء والاجتماع وهو أهداف الحماية وأسلوب حركتها، ويناقش الكتاب الثاني والرابع: قضية «الحاكمية» ويخرج برأي مفاده «تكفير الحاكم» المبدل لشرع الله وخروجه عن ملة الإسلام.. وإثبات كفر السَّادات.

ويناقش الكتاب الثالث : «حكم الجهاد» ويوجب قتال أي طائفة ممتنعة بالقوة عن منع شريعة الله «كالصلاة والزكاة والحدود مثلا» من شرائع الإسلام وهو مبحث مبني على فتوى ابن تيمية بإجماع العلماء على ذلك.. والبحث قدم ليؤصل شريعة إعلان الجهاد ضد نظام السَّادات وتؤكد «حتمية المواجهة» وينضاف إلى ذلك عدة أبحاث عن رأي الحركة الإسلامية في العمل الحزبي والمشاركة في المجالس التشريعية وبحث في «العذر بالجهل» و«الموالاة» وفيها الرد على جماعة التكفير والهجرة حيث منع البحث الأول تكفير المسلم بارتكاب «الكفر» لاحتمال أن يكون جاهلًا، والقسم الثاني: بحث في «الموالاة للكفار» وقسمها إلى« ظاهرة » ولا يخرج صاحبها من الإسلام «وباطنة» ويخرج صاحبها من الإسلام .. وهذا التقسيم يمنع إطلاق «الكفر على الموالين» للكفار بمجرد عمل ظاهري من قبل الموالاة.[(١)]

(١) الجماعة الإسلامية وعلاقتها بالجهاد:

اختلافات في التكتيك واتفاق في الاستراتيجيات:

رغم أن الجماعة الإسلامية تعتبر جماعة الجهاد جزءا منها مع اختلاف الشعارات التي تصدر تحتها منشورات كل منهما إلا أن طريقتهما في صياغة تلك المنشورات واحدة وقد عدت الجماعة الإسلامية خالد الإسلامبولي ورفاقه الذي نفذوا اغتيال السادات في السادات من أكتوبر عام ١٩٨١ من شهدائها.

وبالرغم من وجود الكثير من نقاط الالتقاء بينهما كتكفير الحكام والنخب الحاكمة في البلاد العربية وكذا الموقف من المشاركة السياسية في ظل الأنظمة السياسية الحاكمة إلا أن هناك العديد من الباحثين من يؤكد على أنهما تنظيمان مختلفان حيث يقول منتصر الزيات (أحد الرموز المتهمة في قضية الجهاد عام ١٩٨١) : أنهما – أي الجماعة والجهاد – بالطبع اسمان لتنظيمين مختلفين في الكوادر وفي كل شيء وتتمثل بالقيادة العليا للجماعة السلامية بالدكتور عمر عبد الرحمن أما جماعة الجهاد فتتمثل في رمزها وقيادتها أيمن الظواهري.. غير أن سمير خميس أحد الكوادر التاريخية لجماعة الجهاد ذكر أن جماعة الجهاد والجماعة الإسلامية اتحدتا عام ١٩٨٠ بعد عودة الدكتور عمر

---

(١) هالة مصطفى : مرجع سابق ذكره، ص١٦٣.

عبد الرحمن من السعودية حيث كان يعمل وقبوله قيادة الجماعة الإسلامية وأصبح محمد عبد السلام فرج رئيسا بمجلس الشورى وكانت عملية اغتيال السادات أهم ثمار ذلك الاتحاد إلا أن الجماعتين انفصلتا عن بعضهما عام ١٩٨٣ حيث كانت قيادات الجماعتين في السجون وتمثلت أسباب الاختلاف – كما ذكرها خميس – في التالي[1]:

١) إمامة الضرير حيث اعترض عصام القمري على إمارة الدكتور عمر عبد الرحمن للجماعة.

٢) عملية أسيوط واقتحام مديرية الأمن فيها دون تنسيق أو اتفاق مع الجهاد وأنها كانت عشوائية الأمر الذي حمل الدكتور عمر عبد الرحمن أن يدعو المشاركين في العملية إلى صيام ٦٠ يومًا للقتل الخطأ وهو اعتراف ضمني بخطأ الجماعة.

٣) الاختلاف حول تشكيل مجلس شورى الجماعة حيث كانت الجهاد ترى أنه يجب أن يتم على أساس الكفاءة والجدارة ليس على أساس الثقة والولاء.

٤) رأت الجهاد أن الجماعة تستقطب العناصر على أساس جغرافي فيما اتهمت الجماعة الإسلامية عناصر الجهاد بأنهم غير منضبطين عقائديا لتوسعهم في «مسألة التكفير».

ومن ثم .. يمكن لنا أن نقول : أن هناك استراتيجيات متقاربة بين الجهاد والجماعة الإسلامية تتمثل في المواقف التالية:

١) الموقف من النظام السياسي: تعتبر الجماعة أن موقفها من العلمانية واضح وصريح، فالعلمانية هي الدين الجديد الذي أريد أن يحل محل الإسلام.. وتؤكد جماعة الجهاد أيضا على موقفها الرافض للعلمانية كفكرة وكنظام للحكم وتعتبر العلمانية فكرة «جاهلية».

٢) الحاكم والنخبة الحاكمة: تتفق الجماعتين على الحكم بكفر رئيس الجمهورية كفرعين فهو خارج من ملة الإسلام وتصفا النظام السياسي بأكمله بالجاهلية والكفر.

٣) ترفض الجماعتين الفكرة الديمقراطية رفضا تاما وتجعلانها مناقضة للتوحيد

(١) الحركات الأصولية الإسلامية في العالم العربي، ص١٨٨، ١٨٩.

وترفض الجماعة الإسلامية المشاركة في السلطة السياسية «الباطلة» القائمة في البلاد كما ترى مشروعية الانضمام إلى الأحزاب السياسية أو تكوين حزب ديني يطالب بتطبيق الشريعة الإسلامية سرعان ما تضيع مطالبه مع تضييق الأغلبية في مجلس الشعب[*].

٤) رؤية التغيير: وترتيبا على هذه الرؤية للواقع السياسي في مصر وانطلاق من مبدأ أن «الحاكمية» لله وأن كل من لم يحكم بما أنزل الله فهو «كافر» فإن الجماعتين – الجماعة والجهاد – تتفقان على النهج العنيف لتغيير هذا الواقع وتتبنيان الآليات الثلاثة في التعامل مع الواقع: الدعوة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والجهاد في سبيل الله.

٥) الخلافة: ترى الجماعتين أن إقامة الخلافة (على نهج الخلفاء الراشدين) واجب وأن علماء المسلمين قد أجمعوا على ذلك واتفقت في كل ذلك عديد من الفرق الإسلامية.

(٢) انشقاقات على طريق العنف والتكفير والإرهاب:

ظهرت جماعات انشقت عن التنظيمات الجهادية ولكنها تنويعات على لحن واحد وهو التكفير والعنف.

(أ) **جماعة طه السماوي**[*]: وأميرها شهير بعبد الله السماوي وقد انشقت عن التكفير

(*) لاحظ ما حدث من تغيير تكتيكي في رؤية الجماعتين (الجهاد والجماعة الإسلامية) في دخول مجلس الشعب وتكوين أحزاب ذات مرجعية إسلامية كحزب البناء والتنمية الذراع السياسية للجماعة الإسلامية وذلك بعد أحداث ثورة ٢٥ يناير ٢٠١١.

* طه أحمد السيد هو طه السماوي ولكنه غير اسمه في السجن ليصبح عبد الله السماوي، ولد عام ١٩٤٩ ببلدة درنكة محافظة أسيوط في صعيد مصر وانتقل مع أسرته للحياة في القاهرة واستقر به المقام في منطقة عابدين وعمل فيها تاجرا للعسل.. كان السماوي يؤمن بأن البيعة شرط من شروط الانضمام للجماعة وكان يعتبرها واجبًا شرعيًا وناقضها فاسق منافق لا تجوز الصلاة خلفه، وكانت من أفكار السماوي الأساسية هو تحريم التعليم على أفراد جماعته، كما حرم التعامل مع البنوك، وقد تسبب تحريمه للتعليم أنّ هجر أعضاء جماعته التعليم حتى من التحق منهم بكلية الطب فقام بالاتجار في الفواكه والخضار والعمل بورش النجارة، وقدم الباحث ماهر فرغلي تفسيرا نفسيا لهذا الأمر يتمحور حول فشل طه السماوي في الحصول على الثانوية العامة ولم يكمل دراسته الجامعية إذ اعتقل عن عمر لا يتجاوز ١٥ عاما وبعدها بحوالي ٤ سنوات اعتقل مجددًا في عام ١٩٦٦ واتهم بالانتماء إلى جماعة الإخوان المسلمين وظل معتقلا لمدة خمس سنوات مما أثر على مسيرته التعليمية.. ويرى فرغلي أنّ السماوي وبدءا من عام ١٩٨٧ قد تراجع في بعض أفكاره المتطرفة والتكفيرية تجاه الأحزاب والممارسة السياسية فبعدما كان يقول أنه لا توجد أحزاب في
=

والهجرة وحاول أميرها تجميع أشلاء «تنظيم الجهاد» في بعض المناطق بالقاهرة والجيزة ولكن محاولاته باءت بالفشل. ويقول عبد الله أحمد السماوي منشئ الجماعة : إن كلمة التوحيد كما أنها تعني أن لا خالق ولا رازق إلا الله ولا نافع ولا ضار إلا الله ولا محيى إلا الله وأنه سبحانه هو الوارث والباعث فكذلك تعني أنه لا حاكم إلا الله ولا مشرع إلا الله ولا منظم إلا الله ، ومن ينسب الخلق أو الرزق إلى غير الله وكمن ينسب الإحياء والإماتة إلى غير الله ومن فعل ذلك فقد جعل غير الله شريكا لله تعالى وندًا وهو خارج عن الإسلام وليس له في الإسلام نصيب وإن ادعى الإسلام ويجب قتاله حتى يكون الدين لله والحكم والسلطان كله لله وحتى تقوم في الأرض خلافة الله. (١)

وكانت أهم أفكار السماوي هي تكفير الحاكم ووجوب الخروج عليه لإسقاطه واعتبار أن مصر دار كفر لا تعلوها أحكام الإسلام والجهاد من أجل قتال الكفار البغاة لإقامة الدولة الإسلامية واعتزال أفراد التنظيم المجتمع شأنه في ذلك شأن رفيقه في السجن «شكري أحمد مصطفى» مؤسس جماعة التكفير والهجرة والذي كان يطالب أعضاء جماعته باعتزال المجتمع وهجرته لأنه مجتمع جاهلي وكافر. (٢)

وقد قامت هذه الجماعة بإحراق محلات الفيديو ومحلات الخمور ، وقد اندثرت بعد هذا الحادث وتقدم أعضائها للمحاكمة.

(ب) **التوقف والتبين:** هؤلاء يطبقون قاعدة «التبُّين والتمييز» ويقولون: إن كل مسلم لا يأخذ الأمور قواعد مسلمًا بها وإنما من واجبه مناقشتها والمطالبة بالأدلة عليها.. ويطلق على هذه الجماعة أيضا «جماعة مصطفى البدري» ، ومن البارزين فيها علي عبد الوهاب الذي قتلته الشرطة المصرية في مارس ١٩٩٣ ولا تسجل الجماعة عقود الزواج

=

الإسلام وأن العمل الحزبي حرام شرعا وأنه لا يجوز الدخول في العملية الانتخابية اقترب من حزب العمل نظرًا لتوجهه الإسلامي – كما ذكر – في محاضراته وتبريراته.. انظر: ماهر فرغلي: طه السماوي .. تاجر العسل الذي علمهم التكفير..البوابة – الأربعاء ١٥ يونيو ٢٠١٦ – العدد ٥٥٧ ، ص٨.

(١) عبد المنعم الحفني: مرجع سابق ذكره، ص٢٤٥.

(٢) ماهر فرغلي: طه السماوي.. تاجر العسل الذي علمهم الكفر، جريدة البوابة ، العدد ٥٥٧، الأربعاء ١٥ يونيو ٢٠١٦، ص٨.

ولا شهادات الميلاد ولا تعامل لأفرادها مع الجهات الحكومية الرسمية لتكفيرهم الدولة.[1]

(جـ) **الناجون من النار:** هي جماعة أصولية قيل أنها تفرعت عن جماعة «الجهاد» وقيل أنها انشقت من جماعة «التوقف والتُّبين» وأساسها كتاب «المنهج الحركي في الإسلام» وكتابات ابن تيمية ومحمد بن عبد الوهاب، وتجمع في فكرها بين فكر التكفير والهجرة وجماعة الجهاد وجماعة الإخوان المسلمين أساسها الطبيب مجدي زينهم الصفتي ، وبرز من أعضائها «يسري نوفل» و«محمد كاظم» و«عادل عطية» و «عبد الله حسين أبو العلا» و«أمين عبد الله جمعة» وهؤلاء اعتبروا بدء الدخول في جماعتهم هو بداية الدخول في دين الله وأن الرافض للانخراط في الجماعة «كافر» و«منكر للإسلام» ولا يؤخذ بإقراره بالشهادتين ولا بصيامه ولا صلاته.

والكفر عند هذه الجماعة على معنين : الشرك الأكبر: وهو الشرك بالله ويخرج عن الملة.. والشرك الأصغر: ومثاله الرياء والنفاق والحلف بغير الله وهو شرك لا يخرج من الملة فلا يكفي في الإسلام أن نقر به لفظًا وتصدق به قولًا. وإنما الإيمان عقيدة وعمل وينافي الإسلام عدم تطبيق الشريعة فيكون الحاكم والمحكوم كلاهما كافرًا ويحق حينئذ وصف المجتمع بالجاهلية واعتبار البلاد دار حرب وليست دار إسلام وينبغي لذلك إعلان الجهاد بين المسلمين ومحاربة المجتمع لتغيير نظام الحكم بالقوة ويتوجب قتل المحاربين لله وللرسول من رجالات الحكم واستحلال أموال المجتمع، ويحرُم على المسلمين العمل في جهاز الدولة، وهذه الفرقة انتهجت العنف في مواجهة الواقع فقامت في عام ١٩٨٧ بمحاولات اغتيال كل من وزيري الداخلية السابقين حسن أبو باشا والنبوي إسماعيل فضلا عن الكاتب مكرم محمد أحمد رئيس تحرير مجلة المصور وقتئذ ، ولعل هذا النهج كان من أسباب الخلط بينها وبين تنظيم الجهاد .. كما أظهرت التحقيقات أن هناك أعضاء من الجهاد قاموا بتمويلهم وإيواءهم.[2]

---

(١) عبد المنعم الحفني: مرجع سابق ذكره، ص٢٤٩.

(٢) هالة مصطفى : مرجع سابق ذكره ، ص١٨٣.

(د) جماعة أحمد يوسف ببني سويف: وتضم هذه الجماعة بجانب أحمد يوسف أمير الجماعة مجدي كمال وهو يمثل القيادة التالية بعد يوسف، وقد انشقت هذه الجماعة عن التنظيم الأم «الجماعة الإسلامية» بزعامة عمر عبد الرحمن، وتحمل أفكارا هي أقرب إلى تنظيم «الجهاد» الذي يتزعمه «عبود الزمر» خاصة فيما يتعلق «بعدم العذر بالجهل».[1]

(هـ) جماعة الشوقيين: جماعة جهادية تنسب إلى شوقي الشيخ * وكان مهندسا زراعيًا استقر في الفيوم عام ١٩٨٦ ودعا إلى مبادئ الجماعة الإسلامية في أول الأمر – كما يذكر عبد المنعم الحفني – ثم تحول عنها إلى مبادئ التكفير والهجرة حتى أنه استحل دم الدكتور عمر عبد الرحمن أمير الجماعة الإسلامية التي كان يتبعها الأخير أميرا لها.

ويرى الباحث ماهر فرغلي أنّ «الاستحلال» هي البدعة التي ابتدعها شوقي حيث كان الشوقيون يستحلون أموال كل الناس، وكانوا يستحيلون نساءهم لكنهم لم ينفذوا ذلك بحجة أن الأمة لابد أن يستطيع مولاها أن يحميها وللعلم فداعش تؤمن بالاستحلال ولا تتوقف لا في نساء ولا في غير..[2]

---

(١) هالة مصطفى: مرجع سابق ذكره، ص١٨٤.

* شوقي الشيخ هو خريج جامعة القاهرة كلية الزراعة، قبل تخرجه تشبع بأفكار الجماعات السلفية وأعجبته جماعة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وهي جماعة أسسها الشيخ يوسف البدري في التسعينيات (من القرن الماضي) كان كل همها الخروج في صفوف لتغيير المنكر في الشوارع، وقد عاصر الشيخ جماعة البدري، وكان يركب حصانا ويحمل في يده سيفا ويخرج في شوارع القاهرة من أجل تغيير المنكرات!!.

وقد عمل شوقي بعد التخرج في الجامعة مهندسا زراعيًا في الفيوم، وفي هذه الفترة تعرف على طارق الزمر الذي كان منتميًا لتنظيم الجهاد، والذي أصبح شوقي الشيخ عضوا بالجماعة، واعتقل معها في أحداث اغتيال السادات عام ١٩٨١، ويرى الشيخ أن معظم سكان مصر كفرة مرتدون إلا أنه كان لا يؤمن بالعزلة .. ويرى ماهر فرغلي أن شوقي الشيخ – رغم تشدده – هو في الحقيقة لص في صورة شيخ، حيث شكل مجموعة من أهم أتباعه سطوا على محلات الذهب بحجة استخدامها في الدعوة.. فقد كان لديه مرض السرقة واستحلال أموال الناس بالباطل، فاستطاع أن يفعل ذلك عن طريق الدين والشرع.

انظر: ماهر فرغلي: شوقي الشيخ .. ضحية يوسف البدري وطارق الزمر، جريدة البوابة، ١١ يونيو ٢٠١٦، العدد ٥٥٣، الصفحة التاسعة.

(٢) ماهر فرغلي: مقال بجريدة البوابة بعنوان «شوقي الشيخ.. ضحية يوسف البدري وطارق الزمر»، العدد ٥٥٣ في ١١ يونيو ٢٠١٦، ص٩.

والشوقيون قد مارسوا دعوتهم من مثلث قرى سنرو وكحك القبلي وكحك البحري بمركز أبشواي وتمركزوا في مراكزها الكبرى وكانت نهايتهم في إبريل عام ١٩٩٠ عندما داهمتهم الشرطة وجاءت قوات مدرعة ومعها المئات من الجنود حاصروا قرية كحك وقد اعتلت قوات شوقي الشيخ أسطح المنازل والنخيل وأصابوا عددًا كثيرًا من قوات الأمن ، ولكن الشرطة نجحت في قتل عدد منهم وقتل شوقي الشيخ أميرهم في هذه المعركة.

(٣) مراجعات التكفير أم تكفير المراجعات:

أثارت مبادرة وقف العنف والتي أطلقتها الجماعة الإسلامية جدلًا كبيرًا ونقاشا حادا بين كوادر الجماعة وأفراد التيار الإسلامي وأيضا بين الباحثين والمتخصصين في الشأن الإسلامي – ومازالت – تحوي العديد من التساؤلات حتى وقتنا الراهن، فقد بدأت المبادرة باعتبارها المرحلة الأولى لوقف العنف ثم تلت المرحلة الثانية والتي بدأت من يناير ٢٠٠٢ بصدور أربعة كتب منسوبة إلى القادة التاريخيين للجماعة (كرم محمد زهدي – ناجح إبراهيم عبد الله – حمدي عبد الرحمن – فؤاد الدواليبي.. إلخ).

وقد تم تخصيص كل كتاب لقضية من القضايا فكان الكتاب الأول «مبادرة وقف العنف رؤية واقعية ونظرة شرعية» والكتاب الثاني «النصح والتبيين في تصحيح مفاهيم المحتسبين» وهو يقدم تأصيل لفكرة الرجوع عن تغيير المنكرات بالقوة.. والكتاب الثالث وهو بعنوان «تسليط الأضواء على ما وقع في الجهاد من أخطاء» وهو تأصيل تفصيلي لفكرة الرجوع عن القيام بأية أعمال مسلحة.. والكتاب الرابع : وهو بعنوان : «حرمة الغلو في الدين وتكفير المسلمين» وهو يرد على فكر الغلو في الدين وعدم العذر بالجهل في العقائد وتكفير موظفي الدولة والتكفير بالمعصية.[١]

ثم جاءت المرحلة الثالثة وفيها بدأت الجماعة تصدر كتبا عديدة تعليقًا على أحداث جارية وأصدرت ثلاثة كتب: تفجيرات الرياض الأحكام والآثار ، ونهر الذكريات، واستراتيجية القاعدة.. وقد عارض المبادرة الأولى لوقف العنف رفاعي طه وهو رئيس مجلس شورى الجماعة وحدث جدلا كبيرا حول معارضته غير أن الباحث عبد

---

(١) عبد المنعم منيب: مراجعات الجهاديين ، مكتبة مدبولي، الطبعة الأولى، ٢٠١٠.

المنعم منيب (وهو من داخل الجماعة والتي اعتقلت من ١٩٩٣ وحتى ٢٠٠٧) يحصر الفرق التي اختلفت على المبادرة – من داخل الجملة ذاتها – إلى أربعة وهي:

الفريق الأول: تماهي موقف القادة التاريخيين تمامًا والتصق بهم في كل مواقفهم وأعمالهم وأيديهم وارتبط بهم شخصيا لكن بعض من أفراد هذا الفريق لم يكتف بالسير في ركاب هؤلاء القادة فقط بل زايد على موقفهم تجاه الأمن والحكومة لينافسوا على الإخلاص في ذلك.

الفريق الثاني: ساير هؤلاء القادة وصار مؤيدا لهم ولمواقفهم في الظاهر فقط لكنه أضمر في نفسه وصرح في مجالسه الخاصة أن هذا التأييد وهذه العلاقة ما هما إلا أمرا عابرا سيمر وينتهي بمجرد خروجهم من السجون وحينئذ ستنتهي العلاقة بينهم وبين الجماعة الإسلامية وقادتها.

الفريق الثالث: هم من جاهروا قادة الجماعة الإسلامية بالعداوة والانشقاقات وواظبوا على مشاغبتهم ومخالفتهم كلما لاحت فرصة وبعضهم أعلن انشقاقه عن الجماعة رسميا لدى أجهزة الأمن وطالب بنقله من السجون التي يقيم فيها أعضاء الجماعة الإسلامية إلى سجون أخرى وبعضهم لم يعلن ذلك بنفس الحدة، والأسلوب ولكن أعلن أنهم لا يدينون بأية طاعة رأى من قادة الجماعة الإسلامية.

الفريق الرابع: لم يساير قادة الجماعة ولم يعلن انشقاقه عنهم بل إنه ظل صامتا لا يعارض ولا يوافق بل فقط معتزل الأمور كلها قولًا وفعلًا.(١)

هذا على مستوى الجماعة وانقسامها حول المبادرة ولكن على مستوى البحث والدراسة المنهجية فقد حدث انقسام واختلاف حولها إلى عدة وجهات نظر وهي:

الوجهة الأولى: فقد تم النظر إلى المراجعات بشك كبير وحذر متربص في اتجاه إلى عدم تصديقها واعتبرها البعض نوعا من «التقية» لجأت إليه الجماعة لتجنب المزيد من القمع بعد أن عانت منه لأكثر من ٢٢ عاما.

الوجهة الثانية: شكك البعض في مراجعات الجماعة من زاوية أنها جاءت استجابة لضغوط منها لتحسين أحوال المسجونين أو المعتقلين من أعضاءها وهم بالآلاف

---

(١) عبد المنعم منيب: مرجع سابق ذكره، ص٣٦.

ووضع القادة هذه المراجعات في إطار «صفقة» مع أجهزة الأمن يتم بمقتضاها تحسين هذه الأحوال والإفراج عن الكثير من أعضاء الجماعة مقابل التوقف عن النشاط أو الحركة من جانبهم وزاد البعض الآخر على ذلك بأن ربط بين هذه المراجعات واحتمال أن مصر قد أرادت توصيل رسالة إلى الولايات المتحدة بأن الجماعة العنيفة فيها لم تعد كذلك ومن ثمّ يتم استبعاد مصر من قائمة الدول التي تحمي الإرهاب.[1]

الوجهة الثالثة: ذهب البعض إلى القول بأن الإفراج عن أعضاء الجماعة هدف إلى ضرب الجماعة أي إيجاد بديل لهم في الساحة الداخلية يكون تحت سيطرة السلطات هو الجماعة الإسلامية بعد «تدجينها».

الوجهة الرابعة: إن المراجعات خرجت من السجون ومن ثمَّ فإنها تعرضت لتأثير ضغوط الأمن ولا تكون بذلك تعبيرا عن توجه مستقبل أو اقتناع بصدق التحول الفكري من جانب الجماعة أي أنّ البنية الداخلية التي نبعت منها ليست طبيعية وقد بدت كل هذه الشكوك أقرب إلى الهواجس النابعة من المواقف المسبقة دائمًا القاضية بالشك والريبة بوجه عام في أي تحرك لجماعة إسلامية متطرفة كانت أم مكفرة متشددة.. فلم يكن سهلًا على أي مراقب أن قبل بصدق الطلاق البائن مع العنف الذي أعلنته الجماعة في ضوء هذا التراث الخطير من العنف.. بيد أن قادة الجماعة في خلال حواراتهم مع مكرم محمد أحمد رئيس تحرير المصور (وقتئذ) لم يتوقفوا عند حدود ما جاء في كتبهم الأربعة – السابقة الذكر – حول وقف العنف وحرمة التكفير والغلو في الدين وحدود الحسبة وتصحيح مفهوم الجهاد ولكنهم أدانوا على نحو شامل المرحلة التي سبقت إعلان مبادرة العنف بما في ذلك الأفعال التي ارتكبوها ضد المسؤولين وضد الشرطة وضد الأقباط وضد السياحة كما أدانوا الأفعال التي ارتكبتها الشرطة في صفهم.. بل إن بعضًا من قادة الجماعة لم يداخله الحرج أو الوجل – كما يذكر مكرم محمّد أحمد – وهو يعلن على الملأ من جماعته أن قتل الرئيس السادات حرام شرعا وأن الخروج على الحاكم المسلم ابتداء من خروج الحسين بن علي (٤-٦١هـ / ٦٢٥-٦٨٠م) على يزيد بن معاوية بن أبي سفيان إلى الخروج على الرئيس السادات

(١) عبد العاطي محمد: شيوخ بلا خناجر، تحولات الإسلام السياسي في مصر، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ٢٠٠٤، ص١١٦.

عمل يخاصم الشرع لأن مفاسد عظيمة ترتبت على هذا الخروج الذي فت في عضد الأمة الإسلامية وشغلها طوال الأزمان بأوضاعها الداخلية عن تحديّات عالمها الخارجي.[1]

وقد قدم أبو العلا ماضي وهو قيادة من داخل التيار الإسلامي تقييما للمراجعات تمثلت في الآتي:

١) أنه تم بناء الأساس لتراجعهم عن هذه الأفكار والأفعال للضرر الذي أصابهم فقط وللمصلحة وليس لأن المبدأ الخاطئ (أي مبدأ استخدام العنف بالطريقة التي مارسوها) بل استخدموا تعبير المصلحة والمفسدة كمبرر وحيد لهذه المبادرة وتلك المراجعات.

٢) استخدام مصطلحات ملتبسة وغير معبرة في بعض الأحيان حين يسمى عمليات القتل والعنف التي تمت بـ «العمليات القتالية» وهو تعبير مستخدم في المجال العسكري بشكل يعبر كثيرا بشكل إيجابي عن هذا المصطلح والصحيح أن يسموها عمليات العنف.

٣) من الموضوع نفسه عنوان أحد الكتيبات الأربعة وهو «تسليط الأضواء على ما وقع في الجهاد من أخطاء» فقد استخدموا تعبير «الجهاد» للتعبير عن عمليات القتل والعنف والتي هي عمليات إجرامية ولا يمكن لأي عاقل أن يسميها جهادا.

٤) حينما تحدثوا عن الأفعال السلبية السابقة التي مارسوها وأصّلوها لم يتحدثوا بصيغة مباشرة ولكن تحدثوا كما لو أن من قال بهذا أو فعله قوم آخرون وكان من الأفضل والأكثر تأثيرًا أو مصداقية أن يقولوا إننا كنا نقول كذا والآن نرى كذا عكس ذلك فهذا أدعى للتأثير والمصداقية بشكل كبير.

٥) عدم نضج تعبيراتهم السياسية فيما يتعلق بمفردات السياسة سواء عن الصراع العربي الصهيوني أو العلمانيين.

---

(١) مكرم محمَّد أحمد: مؤامرة أم مراجعة ، حوار مع قادة التطرف في سجن العقرب، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ٢٠٠٨، ص١٦٦.

٦) أغلب الاستشهادات التي استشهدوا بها في عدم جواز قتال الحكومات والأنظمة العربية لعدم القدرة ولعدم توازن العدد هي نصوص ومقولات تتعلق بالحرب مع الأعداء (بمعنى الكافرين) .. وهو قياس غير صحيح .[١]

- وقد استمرت «الجماعة الإسلامية» على مبادرتها والتي كانت تستهدف مراجعة حالات التكفير والتي أطلقته في المجتمع المصري من التكفير بالمعصية وعدم العذر بالجهل وتكفير الحاكم والأنظمة الحاكمة الموالية لها حتى ظهر «التكفير» مرة أخرى بعد ثورة ٢٥ يناير ، ثم دارت عجلة الأحداث ليتم الثورة على نظام محمد مرسي الذي اعتلى حكم مصر في ٣٠/ ٦/ ٢٠١٢ لينقسم المجتمع – مرة أخرى – إلى مسلمين وكفار – كما يذكر مختار نوح – ويقف الشيوخ الذين يتحدثون باسم الإسلام ليخاطبوا معارضيهم خطاب التكفير ، وكانت العبارات الشهيرة التي وجهها بعضهم إلى المخالفين «قتلاهم في النار» و«قتلانا في الجنة» ، وكذلك دعاء الشيخ محمد عبد المقصود على الثائرين في ٣٠/ ٦/ ٢٠١٣ قائلا : «اللهم اجعل ٣٠/ ٦ يوم نصر للمؤمنين ويوم ذل للكافرين» . وهكذا عاد فكر التكفير مرة أخرى على مسرح الأحداث.[٢]

وكانت أحداث ثورة ٣٠ يونيو وما تلاها من أحداث سواء في رابعة والنهضة وما أظهره من رؤيا للرسول وتقديمه لمرسي في الصلاة وأن أرض رابعة أفضل من الكعبة حتى انزاحت الإخوان عن سُدة الحكم بثورة عارمة جابت شوارع مصر بالملايين وظهر «تحالف دعم الشرعية» من القيادات التاريخية للجماعة وتنظيم الجهاد طارق الزمر وعاصم عبد الماجد وعصام دربالة وأيضا صفوت عبد الغني* (المحبوس الآن)

---

(١) أبو العلا ماضي : جماعات العنف المصرية وتأويلاتها للإسلام ، مكتبة الشروق الدولية، الطبعة الأولى، ٢٠٠٦، ص٥٨ ، ٥٩.

(٢) مختار نوح: مرجع سابق ذكره، ص٣١٤.

• صفوت عبد الغني كان طالبا بالاقتصاد والعلوم السياسية ولكنه لم يكمل بها نظرا لسجنه وأكمل بكلية الآداب قسم الدراسات الإسلامية، وكان أول من قام بعمل طوابير تغيير المنكر في الجامعة، وكان لا يسمح بالاختلاط بين الطالبات والطلبة.. اتهم في قضية اغتيال رفعت المحجوب ، وفرج فودة ، ولكنه حكم عليه بخمس سنوات، وحصل على البراءة في موضوع اغتيال فرج فودة، وقد قام بالدفاع عن نفسه لمدة ثلاث ساعات كان فيها خطيبا جذب انتباه المحكمة وبرر في خطبته أنه يجوز الخروج على الحاكم..
=

وهروب بعضهم إلى قطر وتركيا وقاموا بنقد النظام والتحريض على العنف ضد الشرطة وقوات الجيش وتدمير المنشآت بعد سقوط المشروع الإسلامي حسب زعمهم بعد إزاحة محمد مرسي عن الحكم وبذلك تم تكفير المراجعات على يد مجموعة من القيادات التاريخية ولم يشذ عن ذلك إلا القليل من القيادات والذين أصروا على عدم الخروج عن المراجعات مثل ناجح إبراهيم، وكرم محمد زهدي، بينما أصر الآخرون على التكفير السياسي من اتهام بـ «العمالة» و«الخيانة» والتكفير الديني ، كما جعلوا أنفسهم رديف عسكري للإخوان في حالة وصولهم إلى دست الحكم وبعد العزل أصبحوا في مقدمة صفوف التدمير والتخريب ومواجهة مؤسسات الدولة، بل ذهب منهم إلى دولة داعش بسوريا يحاربون في صفوفها ومنهم قيادي اتهم في قتل فرج فودة وهو أبو العلا عبد ربه ، أي أنهم عادوا إلى سيرتهم الأولى وتكفير مراجعاتهم والتخلص من كتبهم الشرعية في هذا المضمار!!!

=

وعبد الغني كان مشهورا بقدرته على الخطابة وهو من الكوادر المهمة التي دافعت على مبادرة وقف العنف وأصر على ذلك.. وفي أيام الإخوان أصدر مرسي قرارا بتعيين صفوت عبد الغني عضو مجلس الشورى الجماعة الإسلامية ضمن المعينين بمجلس الشورى باعتباره من قيادات حزب البناء والتنمية الذراع السياسية للجماعة الإسلامية كما وعده الإخوان بان يجعلوه وزيرا.. وعقب عزل الإخوان سربت الجماعة خبرا لوسائل الإعلام أن صفوت عبد الغني هرب إلى تركيا هو وعائلته وفي نفس التوقيت تقريبا كان يستعد هو وخمسة من قادة الجماعة للهرب من ناحية السودان وعلى الحدود تم القبض عليه فقدم للضابط مليون جنيه كي يتركه يهرب لكن الضابط رفض.. وقد تم تحريز الأموال بالمحضر المحرر بشأنه.. لزيادة التفاصيل: انظر : ماهر فرغلي: صفوت عبد الغني.. قاتل رفعت المحجوب وفرج فودة» بجريدة البوابة، العدد ٥٦٣ في ٢١ يونيو ٢٠١٦ الصفحة الثامنة.

المطلب الثامن

تنظيم القاعدة.. وخطابه التكفيري

⌑⌑⌑⌑

(أ) **المؤسس** : تعددت روايات ميلاد مؤسس تنظيم القاعدة أسامة بن لادن ، ففي تقرير المرصد الإعلامي الإسلامي – في لندن – ذكر أن أسامة ولد في الرياض سنة ١٣٧٧ هجرية ١٩٥٧ ميلادية، بينما مجلة «تايم» الأمريكية تفيد أنه من مواليد عام ١٩٥٦ أو ١٩٥٨ ميلادية وفي موسوعة عبد المنعم الحفني يؤكد أن ميلاده في عام ١٩٥٤ .. ولكن الراجح أنه ولد في عام ١٩٥٧ ميلادية.. وإذا كان ميلاده محل اختلاف وتباين إلا أنه اغتيل في فجر ٢ مايو ٢٠١١ بمعرفة فرقة خاصة أمريكية – بناء على تعليمات «أوباما» ومتابعة منه – وتم دفنه دون تحديد مكانه.

وتعود أسرته إلى ضاحية حضرموت بوسط اليمن.. فقد غادر والده اليمن في بداية العشرينيات (من القرن الماضي) ويرجح أن والد أسامة الشيخ محمد بن عود بن لادن – المهندس المعماري – كما تقول بعض المصادر.. والفلاح البسيط في مصادر أخرى قد استقر به المقام – بعد ذلك – في الحجاز بالمملكة العربية السعودية في عام ١٩٣٢ وهناك كون ثروة طائلة واشتهر كرجل أعمال صارم وشريف ، ويذكر عنه أنه بدأ العمل كعامل وعتال قبل أن يتمكن – بعد سنوات من العمل الشاق – من إنشاء مؤسسته الصغيرة المتخصصة في البناء والتشييد والتي سيعهد إليها ببناء أول قصر ملكي بميناء جدة السعودي الضخم.[١]

وأكثر من ذلك مد محمد بن لادن يد العون المادي إلى المملكة وقتما كانت الخزانة السعودية تجتاز ظروفا صعبة، فقد ملأ رئيس عشيرة بن لادن خزانات وزارة الأشغال العامة لتأمين مرتبات الموظفين ولم ينس عاهل السعودية آنذاك صنيعة هذا وحصل

---

(١) رولان جاكار: اسمي أسامة بن لادن.. ترجمة منار رشدي ، مجموعة الشرقاوي الدولية، دون تاريخ للنشر، ص١٩.

محمد بن لادن على الجنسية السعودية وشغل منصب وزير الأشغال العامة في عهد الملك فيصل ولكنه كان – أيضًا – وقبل كل شيء صديقا له.

وكان على سبيل الشكر والتقدير عهدت لشركة محمد بن لادن مهمة إصلاح الحرم الشريف بمكة وكذا أعمال ترميم المسجد النبوي وانتعشت تجاريا واقتصاديا شركات بن لادن المعروفة باسم Ben Laden Corparation من عملها في مجال البترول السعودي في السبعينيات (من القرن الماضي) وحصلت من الملك على حق التفرد بأعمال تجديد وإنشاء الأبنية الدينية وحصلت شركة بن لادن على عقود في العديد من بلدان العالم العربي منها عقد حصل عليه في الأردن.[١]

توفي محمد بن لادن في عام ١٩٧٠ (وقيل في عام ١٩٧٢) بعد أن سقطت طائرته خلال تفقده مشروع «طريق الهدى» مخلفًا عددًا كبيرًا من الأبناء والبنات ، وهذا المصير قد لاقاه أنشط أبنائه – أيضا – سالم في عام ١٩٨٨ حينما كان يشارك في عرض جوي في مطار كيتي هوك قرب سان أنطونيو في تكساس عندما قذفت الريح طائرته الخفيفة باتجاه أشرطة كهربائية.[٢]

كان أسامة بن لادن الثالث والأربعين في الترتيب في البنات والصبيان والحادي والعشرين بين الصبيان (حسب تقرير المرصد الإسلامي).

والجدير بالإشارة هنا أن علاقة ابن لادن باللاذقية (مدينة ساحلية سورية) بدأت عام ١٩٥٦ عندما حضر والده إلى ما كان آنذاك ميناءً صغيرًا تحيط به قرى فقيرة، وذكر أفراد الأسرة أنه تزوج امرأة محلية من أسرة «غانم» تُدعى «عالية» وكانت زوجته الرابعة والأخيرة وأنجبت له ابنًا واحدًا هو أسامة، وعندما انتقلت إلى السعودية مع زوجها تركت في اللاذقية شقيقين وشقيقة وفي كل صيف ومنذ ولادة «أسامة» كانت «عالية» تقضي فصل الصيف في اللاذقية في بيت ابن شقيقها ناجي وأسرته.[٣]

(١) رولان جاكار: مرجع سابق ذكره، ص١٩، ٢٠.

(٢) يوسف الجهماني: تورابورا أولى حروب القرن ، دار الكتاب العربي، طبعة خاصة، أغسطس ، ٢٠٠٢، ص٦٥.

(٣) يوسف الجهماني: مرجع سابق ذكره، ص٦٦.

وشأن أسامة بن لادن شأن أولاد الأثرياء العرب حظى بن لادن بسفريات عديدة وتذكر المعلومات التي يرددها بعض خبراء التحقيق Profilers الأمريكيين أن بن لادن قد سافر إلى بيروت في الفترة من ١٩٦٨ و١٩٧٠ برفقة أشقائه عمر وغالب وبكري للدراسة في مدرسة غالبية طلابها من القادمين من دول الخليج وفي بيروت اشتهر أسامة بمغامراته النسائية أكثر من تفوقه الدراسي.. وكثيرًا ما ضبط مشرفي المدرسة أسامة في الليل وهو متلبس بتسلق الحائط للذهاب إلى أكثر الأحياء سخونة في بيروت حيث الخمر واللعب يشجعه على ذلك ويقتاده إليها بكري أكثر الطلاب فطنة وذكاء ومن أمهر لاعبي البوكر وكثيرا ما تورط أسامة في مشاحنات علب الليل للحصول على ود الراقصات وبرفقة بكري ومرافقه.(١)

وفي عام ١٩٧٤ (وقيل في عام ١٩٧٥) عندما بلغ أسامة بن لادن الـ١٨ عاما من عمره اتصل طالبا إرسال عروسه نجوى (١٤عامًا)* وأوفت الأسرة بالتزامها وأرسلت العروس لابن لادن ومنذ ذلك الوقت تزوج أسامة من ثلاث نساء.. وقد أنجبت «نجوى» طفلا من أسامة بن لادن، ولم تعد لزيارة أسرتها إلا قبل عامين فقط خلال فصل الصيف.. وتقولي «ليلى غانم» شقيقة نجوى أن شقيقتها كانت ترتدي الحجاب باستمرار وكانت غير مرتاحة لرفضها (ليلى) ارتداءه كما أنها كانت قليلة الحديث عن حياتها في أفغانستان وكانت تكتفي بأن تقول إن «الحياة فيها بسيطة».(٢)

---

(١) رولان جاكار: مرجع سابق ذكره، ص٢٢.

* استطاعت الكاتبة الأمريكية «جين ساسون» أن تضفي بعدا إنسانيا خاصا لحياة أسامة بن لادن في كتابها حيث ذكرت عن بن لادن وعلاقاته بزوجاته وأبنائه وحياته الخاصة وكيف كان يتعامل مع «نجوى غانم» ابنة عمته والتي تزوجها صغيرة وكان يحبها وكيف يتعامل أبنائه معه ويضربهم بالعصا ويرفض علاجهم بالدواء الغربي وأن زوجاته يعاملنه باحترام شديد جدًا وكان لا يجرؤ أحدًا أن يضحك أمامه لا أولاده ولا حريمه وأنه تزوج خديجة ثم خيرية ثم سهام بعد أن عرض الأمر على نجوى الزوجة الأولى أول الأمر.. وذكرت «ساسون» كيف أن أمراء سعوديين عرضوا عليه العودة وتولى أرفع المناصب ولكنه رفض تماما وقرر العيش في مغارات جبال الهندكوش وجبال تورابورا.

(٢) يوسف الجهماني: مرجع سابق ذكره، ص٦٦.

(ب) الغزو السوفيتي وصدمة بن لادن:

شكل الغزو السوفيتي لأفغانستان ١١ كانون الثاني / يناير ١٩٧٩ (وفي مصادر ٢٧ ديسمبر ١٩٧٩) صدمة لأسامة بن لادن إذ رأى فيه احتلالا من دولة «كافرة» و«ملحدة» لدولة إسلامية وتشريدا لسكانها وأهلها... وقد دفعه هذا الغزو أن يراه بنفسه فرتب مع «الجماعة الإسلامية» رحلة إلى باكستان اصطحبته الجماعة من كراتشي إلى بيشاور حيث قابل قيادات المجاهدين أمثال عبد رب الرسول سياف وبرهان الدين رباني.. وقد حرص أسامة على إبقاء تلك الزيارة طي الكتمان وقيد عدم البوح بها أراد أن يعطيها «طابعا استكشافيا» بقي هناك شهرا وصل إلى نتيجة مؤداها أنّ قضية الأفغان تستحق المتابعة.. وأنه باح بها بعد عودته إلى السعودية لبعض زملائه وتحدث معهم عن مشاهداته وانطباعاته ورؤيته عن المجاهدين الأفغان ثم بدأ حملة لمصلحتهم حيث استطاع بالفعل أن يجمع لهم «كميات هائلة من التبرعات المالية والعينية» عملها في رحلته الأخرى إلى «باكستان» مصطحبًا معه عددًا من أهل باكستان وأفغانستان.. وبقي هناك شهرًا وقد كرر أسامة رحلاته عدة مرات غير أنّ هذه الزيارات اقتصرت على مخيمات الأفغان ومعسكراتهم داخل الأراضي الباكستانية.[(١)]

والجدير بالبيان في هذا الشأن أن الرأي العام قد هاج وتعالت تساؤلاته بعد دخول «الجيش الأحمر» في كابول وقد كان هذا – أيضا – إيذانا ببدء حملة دولية واسعة لتجنيد المجاهدين الذين جمعت بينهم أخوة السلاح والجهاد في حرب مقدسة ضد المضطهد الملحد.

وفي عام ١٩٨٠ وحتى عام ١٩٩٠ أصبح هؤلاء المتطوعون القادمون من الدول الإسلامية المتعدد والذين تم تدريبهم في «باكستان» على أيدي أفضل المدربين الحربيين الغربيين (باسم مناهضة الشيوعية الملحدة) بمثابة رأس حربة رجال العصابات ضد «الجيش الأحمر السوفييتي» وقد حملوا اسم «الأفغان العرب» أو «الأفغان المجاهدون» وهو لقب يحظى بكل احترام وتبجيل حتى يومنا هذا في كل العالم الإسلامي .

---

(١) رولان جاكار: مرجع سابق ذكره، ص٧١.

وحقيقة الأمر أن غالبية المجاهدين الأفغان المسلمين والذين انضموا إلى صفوف الأفغان في حربهم ضد السوفييت كانوا صادقين وكثيرون دفعوا ثمن انخراطهم في تلك الحرب من حياتهم إلا أن هناك بضعة مئات أو آلاف آخرين لم يخوضوا تلك الحرب – كما يذكر رولان جاكار – إلا هروبا من أجهزة مخابرات دولتهم التي لم تكن تنتظر أفضل من مناسبة كهذه لتوقيفهم بتهمة الإرهاب وأيا كانت صحة هذا الاتهام – كما يذكر جاكار – فلقد أقرت غالبية الدول الإسلامية – ضمنيا في هذا الوقت – أن شن الجهاد ضد السوفييت يغفر أي مسلك غير منضبط قام به هذا الشخص في الماضي أو حتى أعمال تخريبية يكون قد ارتكبها وكان «المجاهد» يفوز بالعفو وأحيانا بالمجد لعائلته إذا سقط شهيدا في ساحة الشرف.[1]

بيد أنه قد دار التاريخ دورته واليوم ينظر إلى «الأفغان العرب» في الأمم الغربية – وعلى رأسها الولايات المتحدة الأمريكية – على أنهم أشد المرتدين جحودًا ويستحيل على الحكومة الأمريكية أن تغفر لهم أنهم أصبحوا «إرهابيين» بعد أن تقاسموا معهم لما يقرب من عشر سنوات نفس العدو السوفييتي حتى تمكنت أمريكا من القبض على خالد الشيخ محمد ورمزي بن الشيبه المسؤولان عن تفجيرات برجي التجارة العالمي في ١١ سبتمبر ٢٠٠١ بعد تتبعهما بعد مقابلة الإعلامي يسري فودة لهما والذي اعترف في كتابه «في طريق الأذى.. من معاقل القاعدة إلى حواضن داعش» والذي نشر في عام ٢٠١٥ قائلا: «لا يزال الكثيرون يسألونني حتى اليوم إن كانت القاعدة حقا هي التي تقف وراء عمليات الحادي عشر من سبتمبر / أيلول وإجابتي من واقع ما أتيح لي من تجربة خاصة لا تزال هي هي: ليس لدي شك في أن تنظيم القاعدة هو الذي أراد ففكر فخطط فجند فدرب فمول فأرسل فنسّق فمضى في تنفيذ ما أراده ما حدث في ذلك اليوم نفسه وفي السنوات القليلة التي سبقته هو الذي يحتاج إلى مزيد من التحقيق».[2]

كذلك تمكنت أمريكا من إرسال قوة خاصة وبمتابعة من البيت الأبيض على الهواء مباشرة من اغتيال زعيم تنظيم القاعدة أسامة بن لادن في فجر يوم ٢ مايو ٢٠١١ بالقرب من إسلام آباد.

(١) اسمى أسامة بن لادن... الملف السري لأكثر إرهابي يبحث عنه العالم، ص٧٣.

(٢) يسري فودة: في طريق الأذى، دار الشروق ٢٠١٥، ص١٧.

(جـ) المحطة السودانية والمواقف المتناقضة!!

في عام ١٩٩٢ انتقل أسامة بن لادن من أفغانستان إلى السودان لأن السودان كانت بعد حرب الخليج الثانية مرتعا خصيبا لكثير من الأحزاب والشخصيات والتنظيمات التي كانت تريد أن تجد لها مكانا على الجغرافيا السياسية (جيوبولتيك) في العالمين العربي والإسلامي.

كان لأسامة بن لادن نشاطًا ملحوظًا وبارزًا في السودان لاسيما في مجال الاستثمار (بناء الطرق – المزارع – التجارة) كما استغلت بعض الشخصيات السودانية من داخل الحكومة ومن خارجها ثروة بن لادن.

وفي حديث صحفي ذكره أسامه بن لادن حينما توجه لأفغانستان – بعد وضع حد للتواجد السوفيتي – يقول فيه: «تعرفت على ثلاث سودانيين أعضاء في الجبهة القومية الإسلامية التي يتزعمها الدكتور حسن الترابي ولم تكن الجبهة قد وصلت إلى مقاليد السلطة بعد وكأن بينهم شاب يُدعى الطاهر تخرج من كلية الهندسة من جامعة الخرطوم عاطلًا عن العمل، فقرر الالتحاق بالمجاهدين في أفغانستان توطدت العلاقة بيني وبين الطاهر حيث كان الطاهر من أكثر المجاهدين ثقافة ولباقة وقد أغراني بضرورة استثمار أموالي في السودان ثم جاء انقلاب البشير / ترابي في يوليو ١٩٨٩ في ذلك الوقت كنت قد علمت من أوساط المجاهدين العرب بمقتل الشيخ عبد الله عزام مع اثنين من أولاده بسيارة مفخخة في بيشاور في تشرين الأول/ أكتوبر عام ١٩٨٩ بتدبير المخابرات الأمريكية وهنا شعرت بالخطر.. وأحسسنا نحن المجاهدون أن هناك احتمالات حادة لتصفية رموز الجهاد الإسلامي مع بداية انسحاب السوفيت من أفغانستان وأن المخابرات الأمريكية وغيرها قد انقلبت علينا وتوحدت في القضاء علينا حتى لا نشكل خطرًا عليها بما لدينا من وثائق».[(١)]

– والجدير بالبيان في هذا الشأن أن أسامة بن لادن قد ارتبط بعد وصوله إلى السودان بأواصر صداقة متينة مع كل من حسن الترابي وعمر البشير، فبعد فترة قصيرة تم تنظيم لقاء مع حسن الترابي الذي دعاه إلى منزله وقال له هناك أثناء تناول الطعام:

---

(١) يوسف الجهماني: مرجع سابق ذكره، ص٦٨.

لقد قررنا تقديم العون والدعم لك وبالتالي قررنا قبولك مستشارًا منتسبًا في الجبهة القومية الإسلامية.

وبعد قيامه بزيارة لعديد من الوزارات فقد تم إعفاء أسامة من جميع الرسوم الجمركية والضرائب على جميع الآليات الهندسية التي استوردها من ألمانيا للعمل في المشاريع التي نفذها في صفقة بلغت قيمتها ٢٥ مليون دولار.

ومن ثمَّ .. فإن العلاقة الودية التي قامت بين أسامة بن لادن وحسن الترابي قد عادت بالنفع الكثير على السعودي الذي فاز بعدة صفقات خاصة بشق الطرق والأشغال العامة الرفيعة المستوى مثل مطار بور سودان أو طريق شندي في بور سودان على البحر الأحمر.

ولقد أثار حنق الولايات المتحدة الأمريكية وجود أسامة بن لادن على أرض السودان حتى عام ١٩٩٥ – وبصفة خاصة علاقات المودة والتعاطف مع الترابي – وهذا ما دفع واشنطن إلى ممارسة الضغط على الرياض، كما استخدمت الولايات المتحدة سياسة العصا والجزرة مع السودان لطرد أسامة بن لادن من أراضيها من خلال التهديد بالعقوبات والدعم الاقتصادي من جانب آخر.

وبالفعل طردت السودان المجاهدين العرب المتواجدين على أرضها دون أن تفي أمريكا بوعودها في تخفيف العقوبات الاقتصادية التي فرضتها ضد السودان بل زاد الأمر تسلطا عندما ضربت الصواريخ الأمريكية – بعدما أصدر الرئيس الأمريكي بيل كلنتون أوامره في ٢٠ أغسطس / آب ١٩٩٨ – من طراز صواريخ توماهوك بدك مصنع الشفاء في قلب الخرطوم بحجة إنتاجه أسلحة كيماوية وعلاقة المسؤولين فيه بأسامة بن لادن.[(١)]

وقبلها نجحت أمريكا في الضغط على الر ياض لاتخاذ موقف تجاه أسامة بن لادن والذي كان يعيش بأمان في كنف حسن الترابي حتى تم إسقاط الجنسية السعودية عنه في فبراير / شباط عام ١٩٩٤.

---

(١) يوسف الجهماني: مرجع سابق ذكره، ص٦٩.

(١) إرهاصات تنظيم القاعدة:

في مايو عام ١٩٨٦ أنشأ الدكتور عبد الله عزام* (١٣٦٠-١٤١٠هـ/ ١٩٤١-١٩٨٩م) أول معسكر لتدريب «المجاهدين العرب» داخل الأراضي الأفغانية وأطلق عزام عليه اسم «عرين الأسد» ويعد عزام واحدًا من أهم من انخرطوا في صفوف جماعة الإخوان في وقت مبكر من عمره (وهو دون الخامسة عشرة)، وكان للشيخ حسن البنا (١٩٠٦-١٩٤٩م) أثره الكبير في شخصيته وتكوينها.. وقد مارس عزام نشاطًا إخوانيا فعالا في الجامعة الأردنية أثناء عمله في التدريس بها من خلال الخطب الحماسية التي كان يلقيها.

التقى عزام في الحرم المكي بكمال السنانيري (١٣٣١-١٤٠١هـ/ ١٩١٨=١٩٨١م) أحد أهم رجال النظام الخاص في جماعة الإخوان والذي كان مسؤولا عن ملف الجهاد في أفغانستان داخل الجماعة حيث طلب السنانيري من عزام الذهاب إلى أفغانستان لتمثيل الإخوان هناك وتنفيذ أجندتهم الرامية إلى استقبال الشباب الوافد من فلسطين ومصر والسعودية والأردن وباقي البلدان العربية والإسلامية ممن يرغبون في الجهاد وإعدادهم وتعبئتهم وتشجيعهم على المضي في

* ولد عبد الله عزام أمير المجاهدين العرب في أفغانستان عام ١٣٦٠هـ/ ١٩٤١م في بلدة (سيلة الحارثية) من أعمال مدينة حنين بفلسطين وتلقى علوم الابتدائية والإعدادية في مدرسة القرية وأكمل دراسته في خضورية الزراعية بمدينة طولكرم وقد كان ملازمًا لتلاوة القرآن الكريم.. تابع دراسته الجامعية في كلية الشريعة بجامعة دمشق ونال شهادة الليسانس في الشريعة عام ١٣٨٦هـ/ ١٩٦٦م ثم عمل مدرسًا في قريته (سيلة الحارثية) غير أنه تركها بعد احتلال اليهود لها عام ١٣٨٧هـ/ ١٩٦٧م ثم التحق بكتائب الإخوان وكانت قواعدها في الأردن واشترك في بعض العمليات العسكرية ضد اليهود في فلسطين وبعد أحداث سبتمبر ١٩٧٠ انتسب عزام لجامعة الأزهر وحصل على الماجستير في أصول الفقه ثم حصل على الدكتوراه بمرتبة الشرف عام ١٣٩٣هـ/ ١٩٧٣م فعمل مدرسا بالجامعة الأردنية التي أوفدته للحصول على درجة الدكتوراه من جامعة الأزهر، ثم انتقل للعمل بجامعة الملك عبد العزيز في جدة ثم في الجامعة الإسلامية العالمية في إسلام آباد ثم قدم استقالته وتفرغ للجهاد في أفغانستان ومن مؤلفاته العديدة: آيات الرحمن في جهاد الأفغان، الإسلام ومستقبل البشرية، حماس: الجذور التاريخية والميثاق، السرطان الأحمر، العقيدة وأثرها في بناء الجيل، جريمة قتل النفس المؤمنة، بشائر النصر، إلخ... لزيادة التفاصيل: انظر: من أعلام الدعوة والحركة الإسلامية المعاصرة للمستشار عبد الله عقيل سليمان العقيل، دار التوزيع والنشر الإسلامية، الطبعة الأولى ١٤٢٣هـ/ ٢٠٠٢م ص ٧٠٤، ٧٠٥.

الجهاد ، وقد وافق عزام على الفور دون تردد وطلب ندبه من جامعة الملك عبد العزيز للعمل في الجامعة الإسلامية الدولية في إسلام آباد في أواخر عام ١٩٨١.[١]

والجدير بالإشارة أنه بعد انسحاب الاتحاد السوفيتي وانتهاء دور الأفغان العرب رغبت أمريكا في التخلص من خطرهم والتي كانت تحسبه حساباً جيدًا واستطاعت بمساعدة من المخابرات الباكستانية الإيعاز للمجاهدين العرب بإعادة الهجوم على جلال آباد الفائقة التحصين فقد كان المستهدف جر المقاتلين العرب إلى مذبحة مروعة لما تتحصن به من أسلحة متقدمة في حين أن العرب لم يكن معهم سوى أسلحة خفيفة وكلاشينكوف وبالفعل حدثت المذبحة وجاءت خسائر المقاتلين مروعة.

وكان أسامة بن لادن واحدًا من الذين شاركوا في هذه المعركة وشاهد المذبحة وندد عزام بها وطالب الانتقام لوجود مؤامرة واضحة على المجاهدين العرب.

وقبل اغتيال عزام وتحديدًا في عام ١٩٨٨ ظهر اسم «القاعدة» عنوانًا للتنظيم العرب يتزعمه بن لادن ، فقد طلب «عزام» من أسامة تنظيم سجل للمجاهدين العرب يتضمن مسار حركتهم وقدومهم وذهابهم والتحاقهم بالجبهات وعلل عزام طلبه هذا بازدياد عدد الوافدين للجهاد وما تبعها من زيادة في عدد حالات الإصابة والقتل وما يمثله نقص هذه المعلومات من حرج لمكتب الخدمات الذي كان يدير حركة المجاهدين في أفغانستان وعندما أصبحت هذه السجلات لها إدارة مستقلة كان لابد من إطلاق اسم عليها لتعريفها وهنا أطلق عليها عزام اسم «سجل القاعدة» على أساس أن القاعدة تتضمن كل التركيبة المكونة من الأنصار والجبهات ومعسكرات التدريب.[٢]

وبعد انسحاب «الجيش الأحمر» السوفيتي واغتيال عزام (٢٤ من نوفمبر ١٩٨٩) عاد أسامة بن لادن إلى مسقط رأسه في السعودية حيث استقبل هناك استقبال الفاتحين الأبطال، وتم توزيع المجاهدين الأفغان العرب على مسارات متعددة، فهناك من مكث في أفغانستان وانخرط في الحروب الأهلية بين الفصائل الأفغانية المتحاربة بينما

(١) عبد الرحيم علي : القاعدة من التنظيم إلى الشبكة – كراسات استراتيجية – العدد ١٥٥، ٢٠٠٥م، ص٨.

(٢) عبد الرحيم علي : مرجع سابق ذكره، ص١١.

توجه مجموعة منهم إلى الدول الأوروبية ، فقد سعت إلى طلب اللجوء السياسي بإحداها بينما قرر آخرون العودة إلى بلادهم سرًا لإشعال الأرض تحت أقدام حكامهم وجعل نهارهم ظلاما بوصفهم طواغيت لا يحكمون بشرع الله بينما أصرت مجموعة أخرى إلى الذهاب إلى مناطق أخرى كالبوسنة والفلبين والقرن الأفريقي ، وهؤلاء هم الذين اعتمد عليهم أسامة بن لادن فيما بعد في بناء «تنظيم القاعدة» على أسس جديدة وخاصة بعد أن اصطدم بالحكام السعوديين عقب غزو الكويت واستدعاء المملكة العربية السعودية لقوات أجنبية لتحريرها.[(١)]

(٢) في نشأة التنظيم وأيديولوجيته :

هناك ثمة اتجاهات حول نشأة التنظيم وتوسعه وكل اتجاه له وجاهته ونوجز هذه الاتجاهات في الآتي:

الاتجاه الأول: يرى أن تنظيم القاعدة في جذوره ونشأته حركة أصولية (متعددة الجنسيات) تأسست لمحاربة الشيوعيين إبان الغزو السوفيتي لأفغانستان حيث ساندت وشجعت الولايات المتحدة الأمريكية وبعض الدول الإسلامية قتال السوفيت الشيوعي «الملحد» وجيشه الأحمر لاعتبار أن ما حدث من احتلال السوفيت لأفغانستان يهدد في الصميم المصالح الأمريكية والغربية في الخليج العربي ومنطقة وسط آسيا ومن ثمَّ كانت المساعدة للمجاهدين الأفغان في حربهم للسوفيت.[(٢)]

الاتجاه الثاني: ينسب تأسيس القاعدة للسلفية الجهادية وفكرها أي أن مرجعية القاعدة هذه «السلفية الجهادية» وهو مصطلح أطلق منذ نهاية الثمانينيات (من القرن الماضي) على بعض جماعات الإسلام السياسي التي اتخذت الجهاد أو العنف منهجا للتغيير وتكفير المجتمع ويربط منظرو السلفية الجهادية مفهوم الحاكمية بالتوحيد والعقيدة الإسلامية.. وينقسم مفهوم التوحيد إلى ثلاثة أقسام:

توحيد الألوهية ويعني إيمان المسلم بتفرد الله في استحقاق العبادة دون غيره وتوحيد الربوبية بأفعاله كالخلق والتدبير والإحياء والإماتة وتوحيد الأسماء والصفات

---

(١) عبد الرحيم علي: مرجع سابق ذكره، ص١٢.

(٢) جمال سند السويدي: السراب، أبو ظبي ، الطبعة الأولى، ٢٠١٥، ص٤٦٦.

ويعني إفراد الله بأسمائه الحسنى وصفات العليا والإيمان بها، ويرى منظرو «السلفية الجهادية» أن من لا يؤمن بأن حق التشريع لله وحده فهو «كافر» ومن لا يلتزم من الحكام بتطبيق الشريعة الإسلامية فهو «كافر» أيضا والمجتمعات التي لا تسود فيها حاكمية الشريعة ولا تحتكم إلى الإسلام في قوانينها وعاداتها وأحكامها العامة والخاصة هي مجتمعات جاهلية.[(١)]

كما يمثل مفهوم الولاء والبراء ركيزة أساسية لدى تيار «السلفية الجهادية» ويعني بشكل عام «موالاة المؤمنين» ونصرتهم والتبرؤ من الكافرين ومعاداتهم وهذا المفهوم (الولاء والبراء) يشكل معيارًا أساسيًا رئيسيًا لإيمان المسلم والتزامه بالإسلام.

وقد ارتبطت السلفية الجهادية بتنظيم القاعدة مثل انضمام (أبو مصعب الزرقاوي) وتنظيمه في العراق إلى القاعدة وتنظيم الجماعة السلفية للدعوة والقتال في الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية الذي تحول اسمه إلى تنظيم القاعدة في المغرب العربي.[(٢)]

الاتجاه الثالث: يرى هذا الاتجاه أنه من الخطأ نسبة تنظيم القاعدة إلى تيار الجهاد السلفي، فتنظيم القاعدة لا منهج له وقد ألف بعض منظري القاعدة مثل عبد الله يوسف عزام (١٩٤١-١٩٨٩) كتبا منها «في الجهاد آداب وأحكام وبشائر النصر» ويستعين هذا التنظيم بكتب محسوبة على تيار الجهاد السلفي في أمور فقهية معينة تخدم مراميه وأهدافه .. ويرى – هذا الاتجاه – أن تنظيم القاعدة صار مرتبطًا بشخص لا بمنهج فقد أصر مؤسس تنظيم القاعدة وزعيمه آنذاك أسامة بن لادن على عدم وضع منهج للتنظيم بشكل ثابت لتكون هناك مساحة من الحرية في تغيير الأهداف والتحالفات والخطط.. ووفقا لهذا الرأي فإن هناك روافد فكرية وفقهية مشتركة بين تنظيم القاعدة وبين السلفية الجهادية مثل: فتاوى أحمد بن تيمية والعديد من أفكار محمد بن عبد الوهاب، والعديد من الأفكار التي طرحها سيد قطب وأبو الأعلى المودودي حول الحاكمية وفتاوى أخرى عن تحريم الاحتكام إلى القوانين الوضعية وتكفير من يحكم بها في العالمين العربي والإسلامي.

(١) جمال سند السويدي: مرجع سابق ذكره، ص٤٧٤.

(٢) جمال سند السويدي: مرجع سابق ذكره، ص٤٦٧.

ويرى الباحث أنه لا توجد ثمة اختلافات بين الاتجاهات الثلاثة فهي تمثل دوائر متداخلة وتنويعات على لحن واحد ، فالبداية الحقيقية لتنظيم القاعدة – كما ذكرنا من قبل – نشأت من خلال « سجل القاعدة» وتسجيل المجاهدين العرب وحركتهم وقدومهم وذهابهم والتحاقهم بالجبهات والمشاركة في القتال وكانت مرجعية هؤلاء المجاهدين هي مرجعية «السلفية الجهادية» مهما اختلفت مشارب المجاهدين واختلاف أوطانهم ففتاوى أحمد بن تيمية وسلفية محمد بن عبد الوهاب وأفكار سيد قطب وأبو الأعلى المودودي والحاكمية والجاهلية تمثل الخلفية الفكرية لهؤلاء المجاهدين والذين يمثلون «نواة القاعدة» في مراحلها الأولى وقد استمرت معهم «السلفية الجهادية» بأفكارها كما أنّ التنظيمات الجهادية ترتبط بمفهوم زعيم الجماعة وأميرها ومؤسسها الأول ورؤيته واجتهاده كما حدث لتنظيم القاعدة وغيره من التنظيمات التي التزمت بمنهج السلفية الجهادية.

(٣) تنظيم القاعدة .. وتطور حركته :

يرى العديد من الباحثين والمهتمين بالفرق والجماعات والتنظيمات الإسلامية بأن تنظيم القاعدة مر بخمس مراحل هي:

المرحلة الأولى: المعسكر والجبهة : وكانت في أواخر عام ١٩٨٧ وهي مرحلة تمثلت في جمع الأموال وتنظيم التبرعات.

المرحلة الثانية: البناء التنظيمي عام ١٩٨٩ : تبلورت – هذه المرحلة – من خلال دخول كثير من الأتباع من جنسيات مختلفة زرافات ووحدانا في اليمن وبدأ بن لادن يطلب منه البيعة وإن كانت غالبيتهم من السعودية واليمن وبدأ بن لادن يطلب منهم البيعة باعتباره أميرًا عليهم وقائدًا لهم.. ومن ثم تحولت القاعدة من معسكر وجبهة إلى تنظيم.

المرحلة الثالثة: إعادة هيكلة التنظيم عام ١٩٩٠ : وهي مرحلة لاحظ فيها بعض أتباع أسامة بن لادن وكانوا من ذوي الخبرة في العمل الإغاثي والإنساني والتي كانت شعارا للتنظيم أن أسامة يغير أهداف التنظيم وخططه من الجهاد الأفغاني إلى الجهاد في أرض اليمن وإعداد التنظيم للاشتراك في حرب الخليج الثانية ضد نظام الرئيس العراقي صدام حسين (١٩٣٧-٢٠٠٦) الذي احتل الكويت في الثاني من أغسطس

عام ١٩٩٠) ، وتذكر بعض المصادر أن رغبته في تشكيل جيش من المجاهدين لمحاربة صدام حسين قوبلت بالرفض من الجانب السعودي). ولكن هذه الرغبة كانت تعكس بجلاء إحساسه بقوته التنظيمية والتي تدفعه للاشتراك في الحرب.. فقد طالب – بعض أتباع بن لادن – بأن يكون للقاعدة منهج ودستور يحدد أسس قيامها وأهدافها ولكن ابن لادن رفض التقيد بأية قواعد.[(١)]

المرحلة الرابعة: المواجهة العالمية لتنظيم القاعدة عام ١٩٩٣: وقد تبلورت هذه المرحلة في جمهورية السودان عندما كشف أسامة بن لادن عن رغبته في الصدام مع القوى الدولية الكبرى خاصة الولايات المتحدة الأمريكية فتخلى عنه بعض أتباعه وكان إعلانه «الجبهة العالمية لمحاربة اليهود والصليبيين» عام ١٩٩٨ مجرد تحصيل حاصل ونتيجة لما جرى الإعداد له من عام ١٩٩٣ من رصد الأهداف الأمريكية والأوروبية التي يمكن ضربها في أنحاء مختلفة من العالم.[(٢)]

المرحلة الخامسة: مرحلة الخلافات والانشقاقات في القاعدة: فقد شهد التنظيم من الخلافات والانشقاقات التي أفقدته بناءه الهرمي ونالت من مستوى عملياته وإمكاناته بفعل الضربات القوية التي تعرض لها في سياق الحرب العالمية على الإرهاب التي أعلنت ضده عقب الهجمات الخطيرة وغير المسبوقة التي نفذها التنظيم في الحادي عشر من سبتمبر ٢٠٠١ في الولايات المتحدة الأمريكية.

فقد تصاعدت حدة هذه الخلافات والانشقاقات وهو ما توضحه الرسالة التي أرسلها نعمان بن عثمان أبو محمد الليبي القيادي الأصولي «في مجلس شورى الجماعة الليبية المقاتلة» إلى أسامة بن لادن في ١٠ سبتمبر ٢٠١٠ بمناسبة الذكرى التاسعة لهجمات سبتمبر ٢٠٠١ حيث أكد فيها رفض المسلمين في جميع أنحاء العالم الجهاد على فهم القاعدة ومنهجها داعيًا ابن لادن إلى مراجعة استراتيجية العنف التي ينتهجها التنظيم والتي أضرت بالإسلام والمسلمين، كما برزت هذه الانشقاقات في إبريل ٢٠١٣م أي بعد مقتله في ٢ مايو ٢٠١١ بحوالي عامين حين أعلن تنظيم داعش

---

(١) السراب ، ص٤٨٠.

(٢) السراب، ص٤٨١.

بانضمام جبهة النصرة* لأهل الشام إليه وهو ما رفضته الجبهة وأميرها «محمد الجولاني» الذي حصل على تأييد تنظيم القاعدة بزعامة أيمن الظواهري *لموقفه[1].

* جاء الإعلان عن جبهة النصرة في بداية عام ٢٠١٢ بوساطة المسؤول العام عن الجبهة «أبي محمد الجولاني» من خلال البيان التأسيسي للجبهة في شهر يناير ٢٠١٢ وتتعدد الأدبيات التي تعبر عن الجبهة إلا أن كتابات أبي مصعب السوري (مصطفى بن عبد القادر الرفاعي) وأفكاره تعتبر محورية بالنسبة إلى الجبهة ومنها كتاب: دعوة المقاومة الإسلامية العالمية وكتاب أهل السنة في الشام في مواجهة النصيرية والصليبية واليهود، ويحدد فيه من يعتبرهم أعداء المشروع الجهادي في سوريا وهم – حسب رأيه – اليهود والعلويون والشيعة.. ويقدر البعض أن عدد مقاتليها يصل إلى تسعة آلاف مقاتل والجبهة رفضت الانضمام إلى داعش (الدولة الإسلامية في العراق والشام) وأبقت على علاقتها وطاعة أميرها لقائد تنظيم القاعدة أيمن الظواهري .. وقد أخذت الجبهة على «داعش» عدة أمور هي: التوسع في التكفير ، واستباحة دماء من خالفهم، والاستهتار بحياة المدنيين أثناء العمليات، وتفضيل العمليات (أي تفضيل المبادرة بشن عمليات عسكرية هجومية والتوسع فيها) رغم أن الخطاب بالقاعدة تحول من الجهادي إلى التكفيري ومعه جبهة النصرة باعتبارها امتداد للقاعدة في سوريا.. انظر : السراب، ص٤٨٨.

* ولد أيمن الظواهري عام ١٩٥١ في حي المعادي الذي تقيم فيه العائلات الغنية والعريقة بالقاهرة، ووالده الدكتور محمد الظواهري من أشهر أطباء مصر والعرب، وجده لوالده الشيخ محمد الظواهري أحد شيوخ الأزهر، وجده لوالدته هو عبد الوهاب عزام أحد أهم رجالات الأدب والنفوذ بمصر في مرحلة ما قبل ثورة ١٩٥٢ ، التحق أيمن الظواهري بكلية الطب وأكمل الماجستير في الجراحة من جامعة القاهرة عام ١٩٧٨ ثم حصل على الدكتوراه في الجراحة من الجامعات الباكستانية.. تزوج من عزة أنور الصادق وهي حاصلة على كلية الآداب قسم الفلسفة بجامعة القاهرة عام ١٩٧٧ وأصرت على أن تعيش معه في قندهار في ظروف صعبة ، وقد قتلت هي وابنها وابنتها عائشة في هجوم على المبنى.. تزوج بعدها بأم خالد زوجة القيادي طارق أنور مسؤول العمليات الخاصة في التنظيم ثم تزوج بأم تسنيم وهي أرملة «الجهادي» أحمد النجار.. وقد نشأ الظواهري في بيئة متزمتة دينيا وتربى على فكر السلفية الجهادية بما فيها أفكار سيد قطب وخاصة من خليل هراس... ويرى ماهر فرغلي أن الظواهري به عيبين خطيرين وهما: أنه يتأثر بمن حوله جدًا وأنه ليس لديه القدرة على أخذ القرارات المناسبة أي يفتقد حنكة القائد الفطري ولذلك اتهمته داعش بأنه أرجع التنظيم إلى الوراء.. ويرى سيد إمام زعيم تنظيم الجهاد سابقا أن ملخص حياة الظواهري هو تاريخ مظلم من الفشل المزمن بعد أن تخصص في فقه التبرير مرتين: الأولى في قضية الجهاد الكبرى عام ١٩٨١ حينما أوقع بأفراد مجموعته وأرشد عنهم وشهد ضدهم في المحكمة لينجو بنفسه، ثم تباكى عليهم كعادته، والثانية: في عام ١٩٩٣ حينما دفع إخوانه للصدام في مصر وبأموال المخابرات السودانية ففشلت أول عملية وامتلأت السجون بالمئات منهم.. لزيادة التفاصيل : انظر: ماهر فرغلي : أيمن الظواهري: أصدقائي جعلوني قاتلا ، جريدة البوابة، العدد ٥٥١، الخميس ٩ يونيو ٢٠١٦، ص٩.

(١) السراب ، ص٤٨٨.

(٤) الخطاب التكفيري لتنظيم القاعدة:

لا غرو أن القاعدة جعلت مرجعيتها تتمثل في السلفية الجهادية وهي التي تعتمد على الأصولية الإسلامية والتي تؤمن باستخدام القوة والعنف سبيلا إلى التغيير وإحداث تغييرات جذرية في المجتمعات ولاسيما أن هناك ثمة قيادات لتنظيمات تستند إلى هذه الركائز.. غير أن قراءة خطاب التنظيم يدل على أنه ينطلق من أفكار أقرب ما يكون إلى ما أفرزته جماعات التكفير والاعتزال التي اعتمدته «جماعة المسلمون» والتي عرفت إعلاميا باسم «التكفير والهجرة» من مصر في منتصف السبعينيات من القرن الماضي. [(١)]

والباحث يرى فعلا أن اتجاه القاعدة إلى الفكر التكفيري والاعتزال ففي خطابها ما يدل بشكل مباشر عند الحديث عن «الفئة التي خرجت تفر بدينها إلى الله سبحانه وتعالى تأبى أن تعطي الدنية في دينها» وكذلك الإشارة في هذه المقولة: «اجتمعت أمم الكفر على فئة المسلمين المجاهدين المرابطين» فقد تم استخدام أمم قصدا لتشمل الأمة الإسلامية المحكوم هنا بكفرها مثل غيرها إلا فئة صغيرة منها «الفرقة الناجية» وهي التي تمثل جوهر معتقد أهل التكفير والاعتزال.. ومن ثم يصبح طبيعيا أن يتجه خطاب (تنظيم القاعدة) إلى توسيع نطاق الكفر لتشمل العالم كله تقريبا.[(٢)]

ويظهر من أسلوب القاعدة أنه يعتمد على من يتحسر على قتلى «١١ سبتمبر ٢٠١١» بأنهم من المنافقين لأنهم يتحسرون على قتلهم.. والأخطر من ذلك – كما يذكر وحيد عبد المجيد – هو إباحة دماء سبعة ملايين مسلم لمجرد أنهم يعيشون في أمريكا، فقد توعد الولايات المتحدة الأمريكية لم يهدد حكومتها أو جيشها فقط بل خص بالذكر «ومن يعيش في أمريكا» ومن بينهم ملايين المسلمين الذين يجاهد بعضهم الآن جهادًا حقيقيا من أجل إزالة آثار الكارثة التي ترتبت على أحداث ١١

---

(١) وحيد عبد المجيد: الإرهاب وأمريكا والإسلام من يطفئ النار؟ مكتبة الأسرة، ص٨١.

(٢) وحيد عبد المجيد: مرجع سابق ذكره، ص٨١، ٨٢.

سبتمبر وهم لا يجاهدون فقط لحماية أنفسهم وذويهم من أهلنا هناك ولكن أيضا لاستعادة قوة الدفع التي كانت منظمات إسلامية أمريكية قد خلفتها في السنوات القليلة الأخيرة.(١)

وقد أفتى أسامة بن لادن – وهو في مقابلة مع صحيفة «داون»الباكستانية في أول نوفمبر بجواز قتل الصبية والأطفال الذين تجاوزوا الثالثة عشرة من عمرهم، فما قاله ابن لادن في هذا الصدد هو في الحقيقة امتداد لفتوى مفتي الجماعة الإسلامية في الجزائر عندما أجاز قتل النساء والأطفال في الوقت الذي كان مجرمو جماعته يذبحون الجزائريين المسلمين كل يوم بمن فيهم أطفال ونساء.

فما لا شك فيه أن إهدار الدم متعلق بفتوى التكفير وأن أسامة بن لادن والقاعدة قد وسعوا من شأن التكفير على مستوى الأمم وعلى كافة المستويات العمرية..!!

فذلكة أخيرة:

لا شك أن «القاعدة» باعتبارها أكبر شبكة مسلحة في العالم تتبنى أيديولوجيا «جهادية» في مواجهة فسطاط الكفر من الصليبيين واليهود وحلفائهم وأتباعهم من حكام الدول العربية والإسلامية والذين ساروا على نهج الغرب قد لعبت دورًا مهمًا في مواجهة «الاتحاد السوفيتي» مع حركة طالبان ومساندة الغرب وعلى رأسه أمريكا غير أنه حدث تغيرًا متوقعًا بعد أحداث ١١ سبتمبر ٢٠٠١ وظهور استراتيجية الحرب العالمية لمواجهة الإرهاب في العالم حيث حدث ما توقعه أسامة بن لادن من انقلاب الغرب عليه ومحاولة التخلص منه ومن «الأفغان العرب» بعد أن خرج المارد عن قمقمه وأصبح خطرًا عليهم.. ولكن من خلال هذا التاريخ – الصدامي – ومواقف القاعدة يمكن أن نحدد عديد من الملاحظات والتي تعطي دلالات مهمة وتتمثل في الآتي:

الملاحظة الأولى: ما ساعد تنظيم القاعدة على البروز كانت أمريكا والتي وجهت الدول الإسلامية لمساعدة المجاهدين من التنظيمات الإسلامية لمواجهة العدو المشترك لهما وهو «الاتحاد السوفيتي» وجيشه الأحمر في أفغانستان إيمانًا بمبدأ «عدو عدوي صديقي» رغم ما بين الموقفين من تباين في الأيديولوجيا والمصالح.

---

(١) وحيد عبد المجيد: مرجع سابق ذكره، ص٨٣.

الملاحظة الثانية: أن التنظيم تحول بفعل استخدام الوسائل الحديثة من استغلاله الجيد لشبكة المعلومات الدولية (الإنترنت) واستغلاله الواسع للتقنيات الحديثة وبخاصة في مجال الحاسوب الآلي والاتصالات الفائقة من توسيع مساحة تجنيد الأعضاء على المستوى العالمي ولاسيما داخل أوروبا وأمريكا عن طريق التجنيد عن بعد مما جعل القاعدة حالة تسري في نفوس المسلمين المعارضين للاستكبار الأمريكي والغربي وأيضا تحول القاعدة من «التنظيم» والذين يمكن محاصرة قياداته وأعضاءه إلى «شبكة» ممتدة ومعقدة والتي لا يمكن حصارها بسهولة في ظل «التقنية الحديثة».

الملاحظة الثالثة: أنه بالإضافة لما سبق فإن شخصية «أسامة بن لادن» كان لها أثر عميق في توجيه التنظيم وتطويره وتزايد شبكاته اعتمادًا على «شخصيته الكاريزمية» ولتوظيف أمواله وشركاته المنتشرة والمتخفية في تدعيم التنظيم وتدشين قواعده وتدريباته في أنحاء العالم تحت وجود خلاياه في العالم الافتراضي عبر شبكة «الانترنت» ووجود خلايا نائمة في عديد من الأقطار ووجود خلايا نائمة في عديد من البلدان العربية والغربية والتي قامت بالتفجيرات في عديد من مناطق العالم.

الملاحظة الرابعة: رغم تعرض التنظيم لحرب عالمية على الإرهاب وحدوث قتلى في صفوفه (ثلاثة آلاف قتيل ومئات المسجونين والمطاردين) أثناء الحرب في أفغانستان وبعد اغتيال أسامة بن لادن وافتقار التنظيم لشخصيته الكاريزمية وعجز أيمن الظواهري (الزعيم الحالي للقاعدة) عن قيادة التنظيم على شاكلة بن لادن وتعرض التنظيم لضربات متلاحقة ، وظهور تنظيم داعش (الدولة الإسلامية في العراق والشام) بزعامة البغدادي إلا أن تنظيم القاعدة لم تبل جدته ولم يفقد مفعوله على المستوى الدولي والإقليمي كلية ومازال يحاول الخروج من مأزق المحاصرة والتنافس مع التنظيمات المتأسلمة الأخرى لأنه مازالت شبكته معقدة وخلاياه منتشرة ويصعب إيقافها في العصر التقني الحديث والتي استفادت منه هذه التنظيمات.

الملاحظة الخامسة: لا شك أن سياسات أمريكا «البرجماتية» وانحيازها التام لإسرائيل وفشلها في حل القضايا الدولية المتفاقمة والمتأزمة والمزمنة مثل قضية الصراع العربي/ الصهيوني وكذلك مساعدة أمريكا لعديد من الحكام التابعين لها رغم استبدادهم مما أثار الشباب الغاضب كوامن فكرة «العداء» الأمريكي الغربي للشعوب العربية وتحديه للإسلام.

الملاحظة السادسة: إن تنظيم القاعدة تم طرحه في أوساط العرب والمسلمين باعتباره «مشروع إسلامي مقاوم» ضد قوى الاستكبار العالمي الصليبي/ اليهودي ومعهم حكام العرب، فقد ارتضى هذا التوصيف السواد الأعظم من الشعوب العربية والإسلامية بعد أن شارك هذا «المشروع المقاوم» في مواجهة الجيش الأحمر لأفغانستان وتصدى لمحاولات الهيمنة الأمريكية على الشرق الأوسط ولكن تحول هذا المشروع إلى كابوس الإرهاب بعد التفجيرات الشديدة والتي طالت المدنيين في أمريكا وأوروبا والدول العربية والإسلامية بشكل أظهر أن هذه التنظيمات تقتل المدنيين باسم الإسلام مما أعطى صورة إرهابية عن الإسلام ومبادئ الجهاد لدى غالبية الشعوب؛ لأن الإرهاب لا يصنع استقلالا ولا يقيم دولة على أسس صحيحة وأن المدنيين الأبرياء ما ذنبهم فيما فعل حكامهم من الغرب والعرب حتى تحصد أرواحهم ويتم تمزيق أجسادهم إربا إربا؟؟ وما كان ذلك يتم إلا بتكفير واسع شمل هؤلاء دون تمييز وفتوى أخرجتهم من ملة الإسلام والمستأمنين إلى مربع أعداء الإسلام ومحاربيه وشانئيه!!!

المطلب التاسع

داعش ... والخطاب التكفيري والتوحش الإرهابي!!

⌑⌑⌑⌑

(١)**المؤسس** : ولد إبراهيم بن عواد بن إبراهيم علي البدري السامرائي المشهور إعلاميا وشعبيا باسم «أبو بكر البغدادي» في مدينة سامراء العراقية عام ١٩٧١ ، وترجع أصوله إلى منطقة «ديالي» شرق العراق، وهو ينتمي إلى عشيرة السامرائي، وقد عاش طفولته في سامراء ، والمعروفة بوضعها بأنها معقل السنة في شمال بغداد.

قضى «البغدادي» سنواته الأولى في «بغداد» ودرس في الجامعة وحصل على درجتي الماجستير والدكتوراه من «الجامعة الإسلامية» بالأعظمية، وبعد أنّ أنهى رسالة الدكتوراه تزوج في عام ٢٠٠٠ وأنجب ولده الأول في أقل من عام..[١]

والجدير بالبيان أن «البغدادي» لم يظهر أي امتعاض أو معارضة لاحتلال أمريكا لبلده العراق عام ٢٠٠٣ إلا أن هناك ثمة متغير له حدث في حياته غير موقفه من الأحداث في بلده.. فقد وقع خلاف بين «البغدادي» وبين صاحب المسجد المحلي والذي كان هو أيضا صاحب المنزل الذي كان يعيش فيه «البغدادي» بعد أن طالب صاحب المسجد من البغدادي الانضمام إلى الحزب الإسلامي في العراق، إلا أنه كان يرى أن الأحزاب تمثل دنسًا وتحديًا لحكم الله وشريعته، فرفض الانضمام ، غير أنه قد حدثت مشادة عنيفة بين الطرفين وصلت إلى حد التشابك بالأيدي رغم أن «البغدادي» كان شخصًا هادئًا يمضي وقته وحيدًا أثناء وجوده في الجامعة الإسلامية – كما يذكر أحمد الدباش «قائد الجيش الإسلامي» والذي قاتلت قواته جنبًا إلى جنب داعش.[٢]

(١) مصطفى بكري : داعش الحقيقة والوهم ، دار نهضة مصر، يناير ٢٠١٥، ص٢٥.

(٢) مصطفى بكري: مرجع سابق ذكره، ص٢٦.

ومن الملفت في حياة البغدادي أنه رجلٌ عشائري وله تأثير في قبيلته وأحلافه في «ديالي» و«سامراء» وله جهود اجتماعية وإنمائية قديمة بين أفراد عشيرته وتميل شخصيته للعزلة والهدوء وحدة الطباع.[1]

ويرى عمرو فاروق أن «البغدادي» تأثر بالتيار الإخواني ونشأ بينهم في الجامعة مما ولّد إليه قضية الخلافة.. فموضوع الخلافة طرحه البغدادي منذ سنوات ونادى به ودعا إليه فهو ليس جديدًا عليه ، ثم انقلب على تيار الإخوان وبعدها انقلب على تيار السلفية العلمية وعلى الجهادية، فهذه التنظيمات لم ترض غروره.. وقد دلل فاروق على حقيقة انتمائه للإخوان بين أروقة الجامعة بتصريح يوسف القرضاوي (مفتي الإخوان والإرهاب) في حوار مع صحيفة «الشرق الأوسط» السعودية من انتماء زعيم داعش «أبو بكر البغدادي» إلى جماعة الإخوان المسلمين وأنه تركها لينشئ تنظيمه الخاص الذي وجد فيه ما يبحث عنه بعد إغرائه بالقيادة عقب خروجه من السجن.[2]

كان والد البغدادي الشيخ عواد من وجهاء عشيرة «البويدري» والتي قيل عنها: إن أصولها التاريخية تعود إلى «قريش» وقد ظهر الشيخ كقطب للسلفية الجهادية، بل كان من أبرز شيوخها في محافظتي ديالي وسامراء.

وغني عن البيان أن «البغدادي» قد بدأ نشاطه الديني من جامع أحمد بن حنبل ثم قام بتأسيس خلايا جهادية صغيرة ارتكبت عددًا من العمليات الإرهابية ثم أنشأ تنظيما أسماه «جيش أهل السنة والجماعة».[3]

يروى عن البغدادي أنه يتميز بالجرأة وقابلية التفاوض على (المصالح) فهو تبرأ من أقرب أصدقاءه المجاهدين وممن لهم فضل عليه في ترقيته من أجل الحصول على مصالح أخرى على رأسها السلطة، فلديه هذا الهاجس المسيطر عليه وهو (السلطة).[4]

---

(١) عمرو فاروق: داعش سفراء جهنم ، كنوز للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، ٢٠١٥، ص٢٧.

(٢) عمرو فاروق : داعش سفراء جهنم، ص٢٩.

(٣) مصطفى بكري: مرجع سابق ذكره، ص٢٦.

(٤) عمرو فاروق: مرجع سابق ذكره، ص٢٨.

بعد انضمام «البغدادي» لتنظيم القاعدة ترقّى في مستويات التنظيم بشكل سريع بل وتضخمت مهماته وأحلامه وطموحاته حتى نسف التنظيم وأعلن الاستقلال عن أيمن الظواهري (زعيم القاعدة) وانتقده بشكل صريح.

فقد استطاع البغدادي أن يضفي على نفسه داخل تنظيم «داعش» العديد من الصفات التي تزيد من هيبته وقوته وسيطرته على مريديه والذين يؤمنون به إيمانا مطلقا وبقدراته العسكرية والتكتيكية «الميدانية» على العكس من نده «أيمن الظواهري» الذي لا يملك كاريزما السيطرة والسلطة وتضاءلت قدراته على السيطرة بشكل كامل على أتباعه.(١)

وغني عن البيان في هذا الصدد أن البغدادي قد ربطته علاقة قوية بأسامة بن لادن وإن كان لم يلتقيه – كما تؤكد الكثير من الروايات – لكن بن لادن كان يميل بشكل كبير للبغدادي ويرى فيه أميرا نجيبا للعراق، وهذه نقطة الخلاف الأساسية بين «البغدادي» و«أقرانه» أو حتى من سبقوه في التنظيم مثل الجولاني وغيره من أمراء القاعدة وقادتها العسكريين.

ففي عام ٢٠٠٥ كان أبو بكر البغدادي قد انتقل إلى بلده القائم حيث قام بإصدار أحكام بالإعدام على الكثير من المواطنين المحليين، وشارك في تنفيذها بنفسه بعد أن سقطت هذه المنطقة في قبضة هذه الجماعات المتطرفة.(٢)

وهذا يدل على مدى دموية شخصية البغدادي أو ربما كانت السلطة الدافع الحقيقي في دموية شخصية وميلها للعنف الشديد.

(ب) البغدادي وأمريكا وإسرائيل:

حينما جرى اعتقال «البغدادي» في أحد السجون الأمريكية بالعراق والذي يطلق عليه معسكر «بوكا» (*) ويذكر أنه على اسم أحد رجالات الإطفاء الأمريكيين والذين

---

(١) عمرو فاروق: مرجع سابق ذكره، ص٣١.

(٢) مصطفى بكري: داعش.. الحقيقة والوهم، ص٢٧.

(*) معتقل بوكا: يقع بالقرب من مركز ناحية أم القصر (٧٥ كم جنوب غرب البصرة) أنشأت القوات البريطانية هذا المعتقل عام ٢٠٠٣ وأطلقت عليه اسم «فرايداي» ثم سلمته للقوات الأمريكية التي أطلقت عليه اسم «بوكا» تكريمًا لرجل إطفاء أمريكي من أصل أسباني يُدعى «رونالدبوكا» كان يعمل في =

ماتوا أثناء قيامهم بإطفاء نيران برجي التجارة في ١١ سبتمبر ٢٠٠١.

وقد قيل : إنه قد تم تجنيد «البغدادي» خلال فترة وجوده في السجن ليلعب دورًا مهما في أوساط الجماعات الإرهابية المتشددة فيها بعد.. فقد كان السؤال الملح حول حقيقة العلاقة بين أبو بكر البغدادي وأجهزة الاستخبارات الأمريكية CIA التي كانت موجودة بكثافة على أرض العراق غير أن الشهادة التي أدلى بها «إدوارد سنودن» الموظف السابق في وكالة الأمن القومي الأمريكي كشفت أن «أبي بكر البغدادي» تم تدريبه من قبل الـ«سي.. آي .. آيه» عندما كان معتقلا في عام ٢٠٠٤ حتى أصبح موظفًا في وكالة الاستخبارات الأمريكية وتلقى تدريبات خاصة جنبًا إلى جنب مع عناصر أخرى من نفس التنظيم.[١]

ويقول «سنودن» الهارب إلى روسيا : «إن أمريكا وبريطانيا وإسرائيل» تعاونت معا لخلق منظمة مسلحة قادرة على جذب المتطرفين من مختلف دول العالم إلى الالتقاء في مكان واحد حول استراتيجية يُطلق عليها «عش الدبابير» من أجل حماية إسرائيل وخلق تنظيم «سني» متطرف ومعادٍ لجميع الجهات الأخرى.

وكان ينظر لهذا العمل كما يرى «سنودن» على أنه الحل الوحيد لحماية إسرائيل وخلق عدد خارج حدودها يستطيع مهاجمة الدول العربية المعادية لإسرائيل»!![٢]

وقد نشر الموقع الأمريكي «**Veteranstaday**» تقريرًا يشير فيه إلى أن «أبو بكر البغدادي» ليس إلا عميلا للموساد الإسرائيلي ويسمى «سايمون إليوت» أو «إليوت شيمون» تم تدريبه ليرأس تنظيم «داعش» يهدف نشر الفوضى في الدول العربية لإسرائيل.. وقد أكد التقرير أن «البغدادي» زعيم داعش وُلد لأبوين يهوديين

=

مدينة نيويورك وقتل أثناء إخماد الحرائق التي اندلعت من جراء الهجمات التي شنتها تنظيم القاعدة في ١١ سبتمبر ٢٠٠١ ثم قامت تلك القوات في العام نفسه بإنشاء معتقل ضمن المعسكر حيث كانت تحتجز فيه آلاف العراقيين قبل أن يغلق نهائيا في ١٦ سبتمبر ٢٠٠٩، ويسلم معتقلوه إلى السلطات العراقية.. انظر داعش.. سفراء جهنم ، ص٦١.

(١) مصطفى بكري: مرجع سابق ذكره، ص٢٧.

(٢) مصطفى بكري: مرجع سابق ذكره، ص٢٨.

والتقطته المخابرات الإسرائيلية ليحصل على تدريب عالٍ على التجسس ومن ثمَّ تم زرعه في أحد البلاد العربية ليقيم تنظيم «داعش» الذي يتبنى نشر الفوضى في الدول العربية ويهدمها ليفرض سيطرة إسرائيل على منطقة الشرق الأوسط بأكملها.(١)

وبغض النظر عن حقيقة هذه التوهمات أو ما بها من أساطير أو خرافة فيما يتعلق بميلاده من أبوين يهوديين أو أن اسمه «سايمون إليوت» أو «إليوت شيمون» في سجلات العمالة الإسرائيلية إلا أنه من المؤكد أن تنظيم داعش خلق لحماية إسرائيل والحفاظ عليها بصناعة الفوضى والاضطراب والذعر في الدول العربية باسم وجود «خلافة إسلامية» جديدة في العصر الحديث!! ويبين ذلك بجلاء من عدم تعرض إسرائيل لأية اعتداءات من قبل تنظيم داعش رغم ما به من أسلحة وعتاد ومقاتلين من عديد من الأقطار العربية والغربية وما بداخله من شخصيات عسكرية من بقايا الجيش العراقي والذي تم حله بعد احتلال أمريكا للعراق مع التحالف الغربي وعلى رأسه بريطانيا(*) عام ٢٠٠٣ على يد «بول بريمر» بل يساهم «داعش» بفعلته في تقسيم المنطقة وجعلها دويلات لصالح إسرائيل وأمريكا والغرب ويصل إلى هذا المفهوم الباحثان ناجح إبراهيم وهشام النجار بقولهما: «تزعم داعش أنها تقيم دولة الخلافة – بما تحمله من مفاهيم الوحدة والتماسك والقوة – لكن الواقع والتاريخ والتنبؤات والمخططات والشواهد كلها تصب في كونها مجرد لاعب وورقة في سيناريو تقسيم المنطقة إلى دويلات متناحرة، استنادًا إلى أسس طائفية وعرقية تقضي على فكرة الدولة القومية التي تأسست في مرحلة ما بعد الاستعمار وما حدث في العراق حيث سيطرت

---

(١) عمرو فاروق: مرجع سابق ذكره، ص٣٥.

(*) بعد ١٣ عاما من غزو العراق وتدميره ومقتل وإصابة الآلاف وتشريد الملايين من سكان هذا القطر العربي وهدم وتخريب معظم مدنه ، أصدر رئيس لجنة التحقيق «جون شيلكوت» في حرب بريطانيا في العراق تقريرا يوم ٦ يوليو ٢٠١٦ – بعد سبعة سنوات من التحقيق – خلص إلى أن الرئيس صدام حسين لم يشكل أي «تهديد وشيك» على بريطانيا قبل الحرب، مشددًا على أن العمل العسكري لم يكن ينبغي أن يصبح الخيار الأخير للبلاد.. كما ذكر التقرير الذي صيغ في ٢.٦ مليون كلمة أن بريطانيا خاضت الحرب بمعلومات استخبارية خاطئة وأن توني بلير وعد الرئيس الأمريكي «بوش الابن» بالوقوف معه مهما حصل.. وقد انتقد التقرير رئيس الوزراء العمالي توني بلير ودوره في الحرب والذي اعتذر عن الحرب وأنه فعل ذلك بحسن نية !!! وقد تظاهر عراقيون وبريطانيون أمام منزل توني بلير يطالبون بمحاكمته.. انظر: الوطن: العدد ١٥٣٠ في ٧ يوليو ٢٠١٦.

داعش على بعض المناطق بعيد الحديث عن الاحتمال الأسوأ لتفكيك المنطقة العربية.. ما يحدث على الأرض اليوم في العراق وليبيا والسودان وسوريا والمحاولات في مصر كلها تذكرنا وتجعلنا نستدعي النصوص والكتابات والخرائط التي تحدثت وخططت لهذا الواقع قبل عقود.[1]

دموية البغدادي وتوسعاته:

وضع «أبو بكر البغدادي»[*] منذ تولية مقاليد تنظيم «داعش» الإرهابي مداميك التاريخ الدموي للدولة الإسلامية في العراق.. وبعيدًا عن ما اقترفه التنظيم في عهد الزرقاوي حيث نفذ «البغدادي» مجموعة كبيرة من الهجمات والعمليات التي حصدت أرواح الآلاف من العراقيين مما يدل على دمويته الشديدة وإرهابه ونزوعه إلى إراقة الدماء وحصد الرؤوس بغض النظر عن بدايات «البغدادي» والتي كانت تميل شخصيته إلى العزلة والهدوء.. فالسلطة لها شأن آخر وحينما تكون السلطة مقدسة «خليفة المسلمين» تكون الشأن كله حينما يشعر أنه يقوم برسالة نبوية تستهدف تثبيت الدعوة الإسلامية وتمكينها في الأرض، ويمكن شريعة الله من الوجود والانتشار.

وهاك ما فعله البغدادي بعد توليه السلطة من أعمال دموية:

---

(١) ناجح إبراهيم وهشام النجار: داعش السكين التي تذبح الإسلام، دار الشروق، الطبعة الأولى، ٢٠١٤، ص٥٥.

(*) أثير لغط شديد وجدال صاخب حول «البغدادي» لتغيبه عن الساحة فترة طويلة من الوقت، حتى ذكرت بعض المصادر أنه اغتيل في غارة جوية من القوات الأمريكية!! غير أن اسم «البغدادي» زعيم تنظيم داعش «الإرهابي» قد عاد مؤخرًا للظهور بعد أن تم الكشف عن تماثله للشفاء من إصابات خطيرة ألمت به وكادت تودي بحياته حتى أن بعض المراقبين الغربيين وصفوا الأمر بالقول: «عاد من الموت إلى الحياة» وقد تعددت الروايات والتحليلات حول أسباب الاختفاء ما بين هروبه خارج العراق ونجاحه في الوصول إلى ليبيا أو انتقاله إلى نيجيريا في حماية جماعة «بوكوحرام» أو حتى انتقاله من سوريا إلى تركيا في حماية المخابرات التركية.. غير أن الروايات الحديثة عن «البغدادي» زعيم داعش كشفها خبراء بريطانيين لصحيفة «الجارديان» البريطانية مشيرين إلى أنه كان يعاني من إصابات خطيرة ظل يعالج منها طوال الأشهر الماضية وأن إصابته كانت في قرية «الشرقاط» التي تبعد ١٩٠ ميلا عن «بغداد» وأنه نقل إلى مكان على الحدود التركية السورية للعلاج ثم عاد لممارسة نشاطه بعد أن تعافى من إصابته والتي استمرت شهورًا طويلة.. انظر: البوابة، العدد ٥٤٠ في ٢٩ مايو ٢٠١٦.

- هجوم يوم ٢٨ أغسطس ٢٠١١ على جامع أم القرى الذي أسفر عن مقتل (٦) أشخاص من بينهم النائب العراقي خالد الفهداوي.

- وخلال شهرين «فقط» بين شهري مارس وإبريل ٢٠١١ أعلن تنظيم داعش مسؤوليته عن (٢٣) عملية هجومية في جنوب بغداد بناء على أوامر «البغدادي».

- وعقب اغتيال زعيم القاعدة أسامة بن لادن (٢مايو ٢٠١١) هدد البغدادي بالانتقام العنيف وأعلن في ٥ مايو ٢٠١١ مسؤوليته عن الهجوم الذي وقع في مدينة الحلة وراح ضحيته (٢٤) عسكري من رجال الجيش والشرطة العراقية وإصابة (٧٢) آخرين.

- وفي ١٥ من شهر أغسطس ٢٠١١ نفذ تنظيم داعش مجموعة العمليات الانتحارية بدأت في مدينة الموصل ونتج عنها وفاة (٧٠) شخصا كما تعد بتنفيذ (١٠٠) عملية انتحارية انتقاما لاغتيال أسامة بن لادن زعيم القاعدة.

- وفي ٢٢ ديسمبر ٢٠١١ وقعت سلسلة انفجارات بالعبوات الناسفة والسيارات المخففة ضربت كثير من أحياء مدينة بغداد أسفرت هذه الانفجارات عن مقتل (٦٣) شخصا وإصابة (١٨٠) آخرين مما دفع وزارة المال الأمريكية إلى وضع التنظيم على لائحة الإرهاب.

- وفي عام ٢٠١٣ أعلن «البغدادي» بدء حملة «كسر الجدران» حيث داهم واقتحم فيها أكثر من ثمانية سجون منها سجن بغداد المركزي (أبو غريب سابقا) واستطاع أن يهرب مئات من القتلى من معتقلي تنظيم القاعدة لإرسالهم مجددا إلى سوريا وهي العمليات التي عززت كثيرًا من صفوف التنظيم وزادت هيبته بين المتعاطفين مع «الجهاديين».

- وفي شهر مارس ٢٠١٣ سيطر التنظيم على مدينة «الرقة» السورية التي كانت أول عاصمة إقليمية تسقط في قبضة المعارضة السورية المسلحة.

- وفي يناير عام ٢٠١٤ استفاد التنظيم جيدا من تنامي الصراع والتوتر بين الأقلية السنية في العراق والحكومة التي يقودها الشيعة من خلال السيطرة على مدينة الفلوجة ذات الأغلبية السنية من محافظة «الأنبار» غربي البلاد. كما استولى على قطاعات عريضة من مدينة الرمادي وانتشر في عدد من المدن القريبة من الحدود التركية والسورية.[1]

---

(١) عمرو فاروق: مرجع سابق ذكره، ص٣٠، ٣١.

هذا يدل دلالة قاطعة على أن تنظيم داعش بعد قيادة أبي بكر البغدادي له تحول إلى مسار أكثر عنفا ودموية فقد حصدت عملياته وهجماته البربرية أرواح الآلاف من العراقيين منذ تولية زعامة التنظيم في مايو عام ٢٠١٠.

(جـ) سبايا خليفة المسلمين.. وعودة الاسترقاق:

لقد مارس تنظيم «داعش» أبشع صور الاستغلال تجاه المرأة فقد حصلت على نصيب الأسد نساء العراق وسوريا في صور تتجلى عن وحشية تمثلت في الاغتصاب والضرب والزواج القسري تحت مسمى «سبايا» الحرب المقدسة لخليفة المسلمين.

فقد بدأ «داعش» بعد إعلان دولته بثلاثة أيام في إصدار وثيقة المدينة تحدد نظرة هذا التنظيم للمرأة.. فالوثيقة تنظر للمرأة بكاملها على أنها عورة وعليها الالتزام بالبيت وعدم الخروج من دون محرم، ويفرض عليها ارتداء «العباءة الفضفاضة» والنقاب.. وقد تم إغلاق صالونات التجميل ومنع استخدام «المانيكان» لعرض الملابس النسائية وبيع الملابس «المزخرفة أو الضيقة أو الشفافة» ويمنع بيع الملابس النسائية للرجال.. ولا يسمح للمرأة بالجلوس على الكراسي!!!

وتجدر الإشارة هنا أن التنظيم حدد أسعار للسبايا من النساء في مرسوم يرجع تاريخه إلى عام ٢٠١٤، ويتضمن أسعار النساء على النحو التالي: ٧٥ ألف دينار للمرأة البالغة من العمر (٣٠-٤٠) عام، و١٠٠ ألف دينار للمرأة البالغة من العمر (٢٠-٣٠) عام و١٥٠ ألف دينار للمرأة البالغة من العمر (١٠-٢٠) عام و٥٠ ألف دينار للمرأة البالغة من العمر (٤٠-٥٠) عام و٢٠٠ ألف دينار لجميع الأطفال..!!

ونقلت صحيفة «التايمز» البريطانية معلومات عن مصادر الاستخبارات الكردية تفيد أن آلاف المختطفات يعملن كعبيد في منازل قادة تنظيم داعش ويتم إجبار أخريات منهم على الزواج من مقاتليهم، أو يجري بيعهن لمهربي البشر للعمل في بيوت الدعارة في أنحاء عدة من «الشرق الأوسط» بما يتراوح بين (٥٠٠-٣٠٠٠ دولار).

وقد أعلن «محمد الخزاعي» المتحدث باسم «الهلال الأحمر» العراقي أن عناصر تنظيم «داعش» احتجزوا عشرات العائلات من التركمان والإيزيديه (*) والمسيحية في

* هناك اختلاف في تسميتهم هل هم إيزيديون أم يزيديون؟ جماعة أم طائفة مغلقة؟ مسلمون كما ينص الدستور الإيراني أم غير مسلمين؟ عرب أم أكراد؟ أهل كتاب أم لا كتاب لهم؟ هذه الإشكاليات تسبب
=

مطار «تلعفر» وقتلوا جميع رجالهم وعرضوا نسائهم في الأسواق.

وأضاف «الخزاعي» إلى أن المسيحيين والإيزيديين العالقين في الجبال بمدينة «سنجار» وصل عددهم إلى (٢٠٠ ألف نازح) بينهم (٢٥) ألف طفل..!!

وقد أعلن «روبرت كولفيل» المتحدث باسم مفوضية الأمم المتحدة لحقوق الإنسان في أوائل يونيو ٢٠١٤ بانتحار أربع نساء بعد تعرضهن للاغتصاب من قبل عناصر تنظيم «داعش» في مدينة الموصل.[1]

وتذكر إحدى الفتيات الإيزيديات والتي تمت إعادتها لأسرتها مقابل مبلغ مالي تم دفعه للتنظيم من خلال وسائط القبائل العربية : "كانوا يقولون لنا عقب قتل ذوينا من الرجال (أنتم كفار وحلال لنا) وفي بعض الأحيان كانوا يدعون أن الهدف من اختطافنا تعليمنا مفاهيم الإسلام ولم نجد من هذه التعاليم سوى اغتصابنا وهتك عرضنا!!..

فتاة أخرى في الرابعة والعشرين من عمرها تؤكد أن مقاتلي التنظيم قبضوا عليها مع زوجها وطفلها الذي لم يتجاوز الثلاث سنوات وبعد فصلها عن زوجها الذي لم

=

في إثارتها والجدل حولها بعض المؤرخين لعدم الإلمام الكافي بها وأيضا ولأن المجتمع الأيزيدي مجتمع مغلق وتحوطه السرية والغموض لما تعرضوا له من حروب وأهوال كما أن ليس هناك ثمة نصوص مكتوبة بشأنهم.. ويذهب محمد حافظ دياب إلى أن تسميتهم باليزيديين ترجع إلى الخليفة الأموي يزيد بن معاوية الذي يألهونه وينتسبون إليه وآخرون ينسبونهم إلى يزيد بن أنيسة الخارجي وهؤلاء وأولئك يؤكدون على أنهم فرقة إسلامية منشقة ويذهبون إلى أبعد من ذلك وهو «عروبة الإيزيدية» .. أما عن تسمية الإيزيديين التي أطلقت عليهم أيام سيطرة العثمانيين على كردستان فالمعتقد أنها تنحدر من الكلمة الفارسية «إيزيد» بمعنى الملاك أو «يزدن» بمعنى الله وهو ما يجعل تسميتهم تتراوح بين اليزيديين والإيزيديين.. وهم في المجمل – كما يذكر دياب – خلاصة محيط فسيفسائي يتكون من ثقافات ولغات ومعتقدات آشورية وسيثية وسريانية وعربية وهو ما جعل التهجين المتبادل لديهم يصل إلى ذروته بين ما يطلق عليه كمثال أديان كتابية وأخرى ذات تراث شفاهي كونت طبقات من العقائد المتباينة أو ما يخص الملبس حيث ملابس رجالهم قريبة من الزي العربي وأثواب نسائهم سريانية وأزياء أطفالهم آشورية وهو مل أكد بحدوث واحدة من أكثر الأساليب الحضارية التوفيقية في تاريخ البشرية.. انظر : محمد حافظ دياب: الإيزيديون شعب الكلمة المنطوقة، مجلة الهلال، أبريل ٢٠١٥ ، العدد ١٤٦٦ ، ص١٥٣ وما بعدها.

(١) عمرو فاروق: داعش سفراء جهنم، ص٢٢٢، ٢٢٣.

تعرف قتل أم لا تم بيعها لأحد المقاتلين الذي اغتصبها عدة مرات، وعندما هددته بالانتحار إذا لم يتركها في حالها فقام بفصل طفلها عنها وتركها «يوما كاملا» دون طعام أو شراب، فكانت ردة فعلها كما تقول: «استسلمت».

وتذكر إحداهن أيضا: «أحد قادتهم سألنى : لماذا لا توافقين على تقديمك لأبي بكر البغدادي فهو سيمنحك كل ما تريدين». ترويها ساخرة فتاة عائدة من جهنم «داعش» بعد إصابتها بشلل نصفي نتيجة ما تعرضت له على أيادي «المجاهدين الأشاوس» من تنظيم داعش!! وتسرد ما حدث لها قائلة: «خدعت المقاتلين وأخبرتهم أني مسلمة ولا يمكن أن أقبل على الانتحار لأن الانتحار في الإسلام حرام ولكن إذا أجبرتموني على الزواج من «البغدادي» وفصلي عن شقيقاتي فسوف أقوم بحلق شعري وتشويه وجهي فلم يرحموني وقاموا بتكتيفي وتقديمي هدية حبيسة للبغدادي.. وذكرت أيضا:" «لقد رأيت نساء يغتصبن ورأيت أطفالا يفصلون عن أمهاتهم وفي بعض الأحيان يتعرضن للاغتصاب صبية كانوا أو بنات ورأيت قتل ذوينا من الرجال فلا يوجد أي شيء من أشكال الرعب لم أشهده مما جعلني فقدت حواسي ولكن كل ما سبق ليس بشيء أكثر بشاعة من مشاهدة اغتصابي واغتصاب شقيقاتي في غرفة واحدة.. وتنهي الفتاة الكردية التي عادت من عذابات وجهنم «داعش» مشلولة حديثها قائلة: «يا ريت مت وما عدت».[1]

فما يقوم به تنظيم «داعش» وغيره من التنظيمات الإرهابية «المتوحشة» في حق النساء في العراق وسوريا وما يتعرض لنا نساء الأكراد والإيزيديات والمسيحيات من إجرام وحشي واغتصاب وتعذيب ومتاجرة جراء «تكفيرهن» بالإضافة إلى محاولات إيقاع واستغلال القاصرات الأجنبيات تحت لواء الإسلام يذكرك بموقف الإخوان ومتاجراتهم بـ«الأخوات» واستغلالهن في التظاهرات بما يدل على النظرة الدونية للمرأة من قبل هذه «التنظيمات المتأسلمة» وفي أعين راغبي الخلافة ومدعي التقوى والنقاوة والطهر ومحاولتهم إحياء الرق والاستعباد بعد أن تغيرت النظرة الدولية لذلك.

(١) سبايا «داعش» ... «ملائكة» في قبضة «الشياطين» تحقيق صحفي بجريدة البوابة ، الأحد ٢٤ أغسطس ٢٠١٥، العدد ٢٦٠.

(١) أصول التنظيم ونشأته وعلاقته بالقاعدة:

مر التنظيم خلال مراحله إلى عديد من المنعطفات قبل أن يكون تنظيم الدولة الإسلامية في العراق والشام «داعش» وتتمثل هذه المنعطفات في الآتي:

المنعطف الأول: أن أصول هذا التنظيم تعود إلى شهر سبتمبر ٢٠٠٣ حين شكل أبو مصعب الزرقاوي (١٩٦٦-٢٠٠٦) * تنظيما سماه «جماعة التوحيد والجهاد» حيث تزعم الزرقاوي هذا التنظيم واعتمدت جماعته على الهجمات بالعبوات الملغمة باستخدام الانتحاريين الذي يقودون الشاحنات «الملغمة» أو عن طريق تفجير السيارات المفخخة عن بعد.[(١)]

المنعطف الثاني: تمكنت الجماعة من تطوير أساليبها النفسية والسياسية والاستخباراتية عن طريق شن حملة عقائدية وسياسية من شرعية الحكومة والدولة ورغم هذه الحملة

---

* ولد أبو مصعب الزرقاوي (أحمد فاضل الخلايلة) بمدينة الزرقاء الأردنية ويُعدُّ من أكثر الشخصيات التي أثرت في فكر ومسيرة أبي بكر البغدادي.. ففي عام ١٩٨٩ سافر «الزرقاوي» إلى أفغانستان حيث شارك في القتال ضد قوات الاتحاد السوفيتي «الجيش الأحمر» وأمضى هناك ثلاث سنوات وهناك أطلق على نفسه اسم «أبو مصعب الزرقاوي» حيث كان قد انضم إلى جماعة «التوحيد والهجرة» السلفية المتطرفة وتتلمذ على يد زعيمها أبو محمد المقدسي.. وعندما عاد إلى الأردن عام ١٩٩٣ كان جهاز المخابرات العامة الأردنية يتابع كل خطوات «الزرقاوي» وسعيه من أجل بناء تنظيمه والتحضير للقيام بعمليات عنف واسعة النطاق ضد المنشآت الأردنية والأجنبية حيث نجح بالفعل في تأسيس تنظيم جهادي سلفي في الأردن عُرف إعلاميا باسم «بيعة الإمام» أو «تيار الموحدين» وكان من أهدافه: تكفير النظام الحاكم والكفر بالمشاركة السياسية كوسيلة من وسائل التغيير (الديمقراطية) فتم القبض عليه وتقديمه للمحاكمة عام ١٩٩٤ حيث صدر ضده حكم بالسجن ١٥ عامًا كما صدرت أحكام أخرى ضد بعض المتطرفين ومنهم – أبو محمد المقدسي وعصام البرقاوي وسميح زيدان وأبو قتيبة المجالي.. وقد حدث داخل السجن خلافات فكرية بين المقدسي وبين الزرقاوي حول محاولات التغيير السلمي ومحاربة الكفار والمرتدين وبعد قضائه عدة سنوات في السجون كان الزرقاوي واحدًا ممن شملهم قرار العفو الصادر من الملك الأردني حسين بن طلال (١٩٣٥-١٩٩٩) فتم الإفراج عنه ليغادر إلى بيشاور على الحدود بين باكستان وأفغانستان حيث تولى عام ٢٠٠٠ الإشراف على معسكر لتدريب القاعدة ثم دخل الزرقاوي العراق – بشكل غير شرعي – بعد الاحتلال الأمريكي للعراق ٢٠٠٣ والتحق بمعسكر تدريب في شمال العراق مع جماعة «أنصار الإسلام» ثم شارك في تأسيس تنظيم «التوحيد والجهاد في بلاد الرافدين» وفي أكتوبر ٢٠٠٤ بايع الزرقاوي أسامة بن لادن وبعدها بدأ في تأسيس تنظيم «القاعدة في بلاد الرافدين» .. لزيادة التفاصيل انظر: مصطفى بكري: داعش الحقيقة والوهم، دار نهضة مصر، ٢٠١٥، ص٢٥، ٣٠.

(١) السراب، ص٣٠٥.

أصر «جورج دبليو بوش» الابن على ربط الزرقاوي وتنظيمه بتنظيم القاعدة من أجل تبرير غزوه للعراق بتحالفه الغربي في محاولة منه لربط الرئيس العراقي صدام حسين بتنظيم القاعدة بزعامة أسامة بن لادن لإيجاد صيغة مقبولة لدى الرأي العام الغربي بارتباط صدام بالإرهاب الدولي ممثلا في القاعدة.!!

المنعطف الثالث: على الرغم من وجود علاقة بين تنظيم الزرقاوي وبين القاعدة إلا أنه كانت هناك ثمة خلافات بين التنظيمين حول عدد من القضايا الفكرية والقتالية وبرغم أن كليهما ينتمي إلى الأيديولوجية السلفية الجهادية .. فبينما كان الزرقاوي يكفر الأنظمة العربية دون تمييز أو استثناء كان أسامة بن لادن يستثنى بعض البلدان – في المراحل الأولى له – خصوصا المملكة العربية السعودية وبينما أسامة بن لادن قد بايع الملا محمد عمر* زعيم طالبان كان الزرقاوي متشددا بخصوص البيعة وكان أهم أسباب الخلاف البيِّن بين التنظيمين أنه في الوقت الذي طور فيه أسامة بن لادن وأيمن

* الملا محمد عمر: هو الملا محمد عمر مجاهد بن المولوي غلام بني آخوند بن الملا محمد رسول آخوند بن المولوي محمد أياز : أي أنه سليل أسرة من علماء الدين و«الملا» في أفغانستان هو الطالب الذي يدرس العلوم الشرعية أما «المولوي» فهو الذي أتم دراسته بالفعل.. ولد الملا عمر عام ١٩٥٩ في قرية «نوده» من قرى قندهار – وينحدر من قبيلة «هوتك» أحد أفخاذ قبيلة «غلزايي» البشتونية المعروفة، واشتهرت قبيلة «هوتك» في التاريخ المعاصر لأفغانستان عندما أسس كبيرهم القائد الأفغاني المعروف «مرويس بابا الهوتكي» امبراطورية أفغانية على أنقاض دولة شيعية .. ينحدر الملا عمر من أسرة فقيرة جدا ليس لها حتى الآن قطعة أرض ولا بيت سكني كان أجداده من المولوية الذين كانوا يشتغلون بالإمامة في المساجد ويعيشون على مساعدات ضئيلة تقدم لهم من أهل القرية. توفي أبوه عندما كان عمره ثلاث سنوات ولم ينجب أبوه غيره وتزوج عمه الأكبر «محمد أنور» من أمه وأنجب منها ثلاثة أولاد وأربع بنات كلهم ظلوا على قيد الحياة وتربى هو أيضا في حضن زوج أمه.. عندما دخلت القوات السوفيتية إلى أفغانستان كان عمر الملا محمد عمر حوالي ١٩ عاما.. ترك الدراسة والتحق بالمقاومة الشعبية الجهادية التي اندلعت فور دخول القوات السوفيتية إلى أفغانستان .. شارك في العديد من المعارك الضارية ضد الاتحاد السوفيتي «السابق» وجيشه الأحمر في ولايتي قندهار وأرزجان .. كان الملا عمر من المقاتلين الأشداء، اشتهر بأنه كان يحمل على كتفه مدفع 7RBG المضاد للدبابات السوفيتية في ولايتي قندهار وأرزجان وقد جرح مرتين أصابه العرج في إحدى هاتين المرتين وجرح للمرة الثالثة كما أصيب في إحدى عينيه إصابة مستديمة.. تم اختياره أميرًا لطالبان (وهي حركة طلاب المدارس الدينية بأفغانستان) في أغسطس ١٩٩٤م .. وفي ٢٦ سبتمبر ١٩٩٦ استولى «طالبان» التابعون للملا عمر على عاصمة البلاد كابول وأعدموا في تلك الليلة آخر حاكم شيوعي لأفغانستان الرئيس «نجيب» .. لزيادة التفاصيل.. انظر: جمال الشويخ: محاكمة المشاهير السياسية ، أطلس ، ٢٠٠٦، ص٢٢١، ٢٢٢.

الظواهري ساعده الأيمن استراتيجيتها من قتال العدو القريب (أنظمة الحكم في البلاد العربية والإسلامية) إلى قتال العدو البعيد المثل في اليهود والصليبيين بزعامة أمريكا .. كان الزرقاوي متمسكا – بشكل قاطع – بوجوب قتال العدو القريب.[1]

المنعطف الرابع: تطورت الأمور بعد سقوط نظام طالبان في جمهورية أفغانستان الإسلامية (بعد هجوم أمريكا عام ٢٠٠١) على نظام طالبان في أكتوبر من نفس العام (بعد هجوم سبتمبر ٢٠٠١ على برجي التجارة العالمي) ومن ثمّ فقدت القاعدة ملاذها الآمن هناك حيث استقر تنظيم القاعدة على مهاجمة السعودية بهدف زعزعة ثقة الولايات المتحدة الأمريكية بها وخلق فجوة في العلاقة بين البلدين وقد نشأت عمليات فرز واستقطاب داخل التيار السلفي الجهادي حيث نجح الأمن السعودي في مكافحة تنظيم القاعدة (والذي بدأ في عملياته الفعلية في شهر مايو ٢٠٠٣ بسلسلة من التفجيرات في المملكة) وهذا النجاح ولد داخل التنظيم تحولا فكريا لدى الكوادر في القاعدة حيث استشعروا أنّ الزرقاوي محقًا في استراتيجيته في العراق وأنها أكثر فعالية وصوابا وأنه لا جدوى من تنفيذ عمليات داخل السعودية.

المنعطف الخامس: بدأ عدد من كوادر تنظيم القاعدة بالانحياز إلى أبي مصعب الزرقاوي مما مهد الطرق إلى انضمامه لاحقا إلى تنظيم القاعدة.. ومن ثمّ تم تغيير اسم جماعته من «التوحيد والجهاد» إلى تنظيم القاعدة في بلاد الرافدين وأعلن في الرابع من أكتوبر ٢٠٠٤ مبايعته تنظيم القاعدة بزعامة أسامة بن لادن.

المنعطف السادس: أعلن الزرقاوي في ١٥ ديسمبر تشكيل «مجلس شورى المجاهدين» وهو المجلس الذي انبثق من تنظيم القاعدة بهدف توحيد العمل ضد الاحتلال الأمريكي وليكون نواة الدولة الإسلامية ، وأعلن «الزرقاوي» قرب إعلان قيام دولة الخلافة في العراق غير أنه سرعان ما تم قتله في الثامن من شهر يونيو ٢٠٠٦ في عملية قصف أمريكي في بعقوبة.

---

(١) السراب : ص ٥٠٤.

المنعطف السابع: في أعقاب مقتل الزرقاوي تم تعيين أبي حمزة المهاجر (١٩٦٨-٢٠١٠)* زعيما لتنظيم القاعدة في بلاد الرافدين (العراق) وفي ١٥ أكتوبر ٢٠٠٦ تم تشكيل تنظيم عسكري يختصر كل تلك التنظيمات ويجمع كل التشكيلات الأصولية الموجودة على أرض العراق.. وفي شهر إبريل ٢٠١٠ قامت القوات الأمريكية بتنفيذ عملية عسكرية – بعد أن رصدت – مكان اختباء «أبي عمر البغدادي زعيم الدولة الإسلامية (١٩٥٩-٢٠١٠) و«أبي أيوب المصري» واستطاعت الطائرات الأمريكية من مقتلهما بعد استدعائها نتيجة الاشتباكات العنيفة.. وبعد مقتلهما بعشرة أيام انعقد مجلس شورى الدولة الإسلامية في العراق ليختار أبا بكر البغدادي خليفة لسلفه أبي عمر البغدادي.

(٢) الهيكل التنظيمي لداعش:

لا شك أن شان الميليشيات المسلحة وأسلوب تحكمها على مستوى الأرض والسكان يختلف عن شأن الدولة والتي لها رعايا تحاول جاهدة احتواء رعاياها لفرض

---

* أثار أبو حمزة المهاجر أو «أبو أيوب المصري» جدلًا كبيرًا ولغطا صاخبا حول شخصيته الحقيقية ومن أي البلاد ينتمي، ولم يحدث لغطا حول إرهابيته «المتوحشة» في تاريخ تنظيم القاعدة الإرهابي.. ففي يوم ١٥ من شهر يونيو ٢٠٠٦ أعلن الجنرال «ويليام كالدويل» المتحدث باسم الجيش الأمريكي في العراق – في مؤتمر صحفي – أن «أبا أيوب المصري» هو في الحقيقة «أبو حمزة المهاجر» وأنه أصبح زعيًما لتنظيم القاعدة في بلاد الرافدين بعد مقتل «الزرقاوي» وعرض الجنرال «كالدويل» صورة لزعيم القاعدة الجديد وقال: «إن الجيش الأمريكي يلاحق هذا الرجل وأنه تم رصد خمسة ملايين دولار لمن يدلي بمعلومات تؤدي إلى القبض عليه.. وفي هذا الوقت وعقب نشر صورته أعلنت مصادر مصرية أن صاحبها هو الإخواني السابق والقيادي في جماعة الجهاد «محمد فؤاد حسن السيد هزاع» الشهير بالشيخ «شريف هزاع». ومن الغريب أن تعلن الجهات الأمنية المصرية أنّ هزاع لا يزال نزيلا في سجن استقبال طرة منذ سبع سنوات ولم يخرج منه أصلا حتى يذهب إلى العراق.. وبعد نشر خبر مقتله في العراق ونشر صورته الحقيقة أرسلت زوجته «أم بلال» والتي أبدت دهشتها من مقتل زوجها في حين أنه مازال في سجنه يعاني من أمراض في القلب وارتفاع الضغط.. غير أن المفاجأة جاءت من جمهورية اليمن على لسان الزوجة اليمنية «حسناء» التي اكتشفت أن زوجها «أبا أيوب المصري» يحمل جواز سفر باسم محمد فؤاد حسين السيد هزاع بالرغم أنه تزوجها في صنعاء عام ١٩٨٨ بجواز سفر باسم «يوسف لبيب حداد» وإن الأغرب من كل ذلك – كما يذكر مصطفى بكري – أنه ليس محمد هزاع ولا يوسف لبيب ولكن اتضح أن اسمه الحقيقي هو عبد المنعم عز الدين علي البدري من محافظة سوهاج في صعيد مصر وُلد في عام ١٩٦٨ وقد تدرج في المواقع القيادية في جماعة الجهاد ثم انضم إلى تنظيم القاعدة في اليمن وأصبح من قيادات التنظيم ثم أميرًا لمجلس شورى تنظيم القاعدة في بلاد الرافدين. انظر : مصطفى بكري: داعش، الحقيقة والوهم، ص٣٣، ٣٤.

الشرعية واكتسابها.. ومن ثمّ كان على زعيم «الدولة الإسلامية في العراق والشام» أن يطور من كيانه في خطوات هيكلية وإدارية بعد أن امتدت سيطرة «داعش» على المناطق السنية في العراق والتي كانت تابعة لحزب البعث ومناصره لصدام حسين وكذا في سوريا.. فسيطرة داعش على مناطق السنة – أيضا – قبل الرقة وحلب وريف اللاذقية وحمص وحماة وإدلب وغيرها.

فوضع داعش نظم إدارية لسد حاجة مواطنيه من مواد غذائية وأدوية ووقود وأنشأ أقساما للمالية والحكم المحلي والعمليات العسكرية وقام بتعيين عمد ومحافظين مقابل رواتب شهرية.

ويتربع على قمة التنظيم (الدولة) الخليفة ونائبه ومجلسه الاستشاري «الوزارات والمحافظين» فضلا عن مسؤول العلاقات العامة ومسؤول قطع الرؤوس،، وقد كشف الوثائق التي عثر عليها قوات الجيش العسكري أن مفاتيح قوة «أبو بكر البغدادي» وهي «أبو الأعلى الأنباري» و«أبو مسلم التركماني» أحد أركان جهاز الاستخبارات العراقي في عهد صدام حسين.

وتشير هذه التقارير والتي وجدها الجيش العراقي في إحدى اقتحاماتها على منزل القيادي «أبو عبد الرحمن البيلاوي» بأن الاثنين تمكنا – بالفعل – في تكوين هيكل حكومي لإدارة شؤون الدولة الجديدة في نطاق تدفق الكثير من الأموال بعد سيطرتهما على أموال البنوك والأسلحة التي خلفها الجيش العراقي الحكومي بعد هروبه وأغلبها أسلحة أمريكية حديثة تقدر بالمليارات من الدولارات.[1]

ومن الملفت أن البغدادي زعيم داعش حرص على عدم تكرار تجربة أسلافه من قادة التنظيمات «الجهادية» مثل أيمن الظواهري وأبو مصعب الزرقاوي (أحمد فاضل الخلايلة) وغيرهم في إدارة شؤون التنظيم حيث أديرت هذه التنظيمات بشكل عشوائي بينما حرص على إدارته للدولة بإدارة تتسم بالمركزية بدلًا من العشوائية.. فقد شكل البغدادي سلسلة من المجالس المنفصلة المكلفة بإدارة كافة أمور التنظيم فكون مجلسًا من الوزراء والمستشارين وفريق أخر مكون من (٢٤) محافظ إقليمي ويقع تحت

(١) عمرو فاروق: مرجع سابق ذكره، ص٥٩.

سلطة كل محافظ مجموعة من القادة لضمان تنفيذ التعليمات.. كما شكل البغدادي مجلس الشورى أو «مجلس الحرب» ودوره المهم في تقديم النصائح فيما يتعلق بالشؤون العسكرية.

كما عين البغدادي مجلسًا من (٧) أشخاص يقدمون له تقارير بشكل مباشر ويقدمون له المشورة بشأن سياسات العمل داخل التنظيم.. وبينما يعمل مجلس الوزراء كهيئة استشارية يتولى (١٢) محافظا في سوريا و(١٢) محافظا في العراق مسؤولية ضمان تنفيذ تعليمات الخليفة «البغدادي» ويتحمل كل محافظ مسؤولية منطقة محدودة من المناطق التي يسيطر عليها داعش.

ويعد «البغدادي» المتحكم في مفاصل الهيكل التنظيمي لـ«داعش» وصاحب «الأمر والنهي في القرارات» وقد حط وأتباعه من المهاجرين العرب في مناصب سائدة كالشورى والإعلام والتجنيد وجمع التبرعات واستحوذ على صلاحيات إعلان «الغزوات» وتأسيس المجلس العسكري وألغى مناصب وزير الحرب واستعان بضابط الجيش العراقي السابق لاسيما من صنوف الأمن والاستخبارات العراقية كما ذكرنا من قبل.

(٣) الاستراتيجية العسكرية والقتالية لتنظيم داعش:

منذ تولي أبو بكر البغدادي قيادة تنظيم الدولة الإسلامية في العراق والشام عام ٢٠١٠ تصاعد نشاط هذا التنظيم والذي يتخذ من سلاحي «التكفير» و«الإرهاب» وسيلة لتحقيق أهدافه التوسعية(*) وعدده في دولة سوريا حيث يعتبر تنظيم طفرة في تاريخ التنظيمات الجهادية (التكفيرية) من حيث الإدارة والتمدد وإعلان دولة الخلافة

(*) سيطر داعش على مدينة الموصل العراقية وهي مركز محافظة نينوي وهي ثانية المدن الكبرى في العراق وبعد فرض سيطرته على محافظة نينوي فرض سيطرته الداعشية على بعض أحياء مدينة سامراء في ٥ يونيو ٢٠١٤ كذلك سيطروا على مدينة تكريت وهي مركز محافظة صلاح الدين كما سيطر التنظيم على محافظة كركوك في وسط شمال العراق ومدينة بيجي العراقية التي تقع في محافظة صلاح الدين والتي تبعد عن شمال بغداد بنحو ٢١٠ كيلومترات. وفي سوريا سيطر داعش على مساحات كبيرة من شمال وشرق سوريا من بلدة منبج في محافظة حلب إلى مدينة البوكمال في محافظة دير الزور وهي أراضي متصلة ببعضها تضم كل محافظة الرقة وبعض المناطق في محافظة الحسكة وأجزاء كبيرة من محافظتي حلب ودير الزور.. فقد أصبحت محافظة الرقة تحت السيطرة الداعشية بالكامل بعد انسحاب قوات النظام السوري وسيطرت داعش على ٩٥٪ من محافظة دير الزور.

بيد أن هذا التنظيم لا يمتلك هيكلية ثابتة ومركزية للقيادة والسيطرة وفق المفهوم العسكري (التقليدي) حيث لا يوجد فصل أو تمييز في الحدود بين المستويات الاستراتيجية والعملياتية والتكتيكية. فالقائد العسكري والسياسي للتنظيم هو «أبو بكر البغدادي» (الخليفة) يرتبط به مجلسان عسكريان الأول في دولة العراق وأميره أو مسؤوله (أبو مسلم التركماني) والثاني والأخير في سوريا ويرأسه أو أميره (أبو الأعلى الأنباري) ويرتبط بكل مجلس عسكري عدد من الكتائب التي ترتبط به مجموعة قتالية تتألف من عدد من المفارز والمفرزة هي مجموعة من المقاتلين يبلغ عددهم من ثلاثة إلى خمسة يستخدمون عجلة لنقلهم وقد تكون العجلة مسلحة برشاش أحادي أو ثنائي بالإضافة إلى الأسلحة الشخصية لأفراد أو عناصر الفرزة.(١)

وتصنف المفارز - كما يذكر عماد علو - حسب الواجبات والمهام التي تؤلف من أجلها وكما يأتي(٢):

١- مفارز التحدي والأمن والاغتيالات.

٢- مفارز المتفجرات والسيارات المفخخة. (*)

---

(١) د. عماد علو: الاستراتيجية القتالية لتنظيم «داعش» ، مجلة السياسة الدولية، عدد يناير ٢٠١٥، العدد ١٩٩، ص١٧.

(٢) عماد علو: مرجع سابق ذكره ، ص١٧، ١٨.

(*) تعتبر «مجموعة الموت» هي الأخطر في تنظيم داعش وهي مجموعة من الكوادر الاحترافية في صناعة المتفجرات وزرع المفخخات وتلك المجموعة تتكون من ١١ عنصرًا هم: أيمن كامل البرجاوي مهندس ميكانيكي عين الجنسية (٣٧ عامًا) أقام في بريطانيا ٦ سنوات ثم عاش في بولندا سنة واحدة وعبد الله كريم دوها سويدي الجنسية (٣١ عامًا) ويعمل مهندسًا ميكانيكًا ويلقب بـ «أبو ماريا السويدي»، ويعمل في تصنيع العبوات والمفخخات وعبد الله الأمير وهو من بلدة موسهان التابعة لبلدية سيدني وهي من عائلة ثرية وكان يطلق على نفسه «أبو قتادة الاسترالي» ثم أصبح «أبو خالد» .. وعلي رافي حسين استرالي الجنسية يبلغ من العمر ٢٢ عامًا ويؤمن بالفكر السلفي ويعمل في مركز بحوث الرقة لتصنيع المتفجرات.. وعمر برازيلي استرالي الجنسية (٢٨ عامًا) ، ويلقب بـ «أبو بكر الاسترالي» ويعمل في تصنيع المتفجرات في ريف حلب.. وقصي بالي تونسي من أم أردنية فرنسي الجنسية مواليد ١٢/ ٧/ ١٩٩٠ محترف تصنيع المتفجرات وخاصة الثقيلة منها كما إنه محترف تصنيع المفخخات ويعمل في مركز بحوث الرقة ، وأبو ماريا الاسترالي وهو محسن الغامسي من أب كويتي وولد في استراليا من أم استرالية وتزوج أبو ماريا بفتاة من ألمانيا وهو الآن يقطن في ريف حلب .. ووحيد أبو قتادة محمد السلوم دخل سوريا عن طريق تركيا منذ عامين من =

٣- مفارز الانتحاريين (الاستشهاديين).

٤- مفارز الهيئة الشرعية والقضاء والمظالم وفصل النزاع والخصومات.

٥) مفارز التدريب البدني والعسكري والالكتروني والتصنيع (الميكانيكي والكيميائي).

٦- مفارز الإعلام المرئي والصوتي والالكتروني.

والجدير بالإشارة هنا أنه حدث تطور في استراتيجية المفارز في العمليات المسلحة بشكل واضح منذ أن تسلم «البغدادي» قيادة التنظيم فقد سبق أن استخدم المفارز (جمع مفرزة) في نصب الكمائن لاعتراض أو مقاطعة قوات الجيش أو الصحوات (في العراق) أو المسؤولين كما استخدمت في الإغارة والهجوم على معسكرات الجيش العراقي ومراكز الشرطة والأهداف الحيوية المهمة داخل المدن أيضًا غير أنه قد تطورت استراتيجية استخدام المفارز إلى الهجوم المنسق باتجاه اقتحام الأهداف الحيوية والسيطرة عليها والاحتفاظ بها من خلال السيطرة لفترات من الوقت.

ومن الملفت أنه ومنذ بدء ضربات التحالف الغربي الجوية في شهر أغسطس ٢٠١٤ قام داعش بنشر قواته على مسافات متباعدة ومساحات غير متقاربة وتم التوقف عن شن العمليات «المنسقة» التي تحشد لها قوات كبيرة... كما تم استخدام التمويه

=

كتائب أنصار الشريعة في ليبيا، وقد أحضر معه مبلغ مالي ضخم. وقد أعلن ولاءه لداعش بعد أن كان مع جبهة النصرة في حلب لمدة سنة كاملة وقام بقتل طفل سوري بعد توجيه تهمة له باللواط وهو الآن في الرقة يعمل في مركز البحوث.. ومحمد ربعي استرالي الجنسية (٣٥ عامًا) دخل سوريا عن طريق تركيا تزوج بفتاة عراقية وتوجه إلى الرقة وأعلن البيعة لأميرها.. ومحمد مالك استرالي الجنسية من أصول سعودية (٣٧ عامً) لقب بـ «أبو عمر المهاجر» ويعمل حاليا في مركز بحوث الرقية لصناعة المفخخات .. وجهاد بيكي سويدي الجنسية (٣٠ عامًا) لقب بـ «أبو قيس السويدي» ويعمل في مركز بحوث الرقة لتصنيع المتفجرات.. ويلاحظ على مجموعة الموت ثلاثة أمور .. الأمر الأول : أن أسنانهم صغيرة مما يدل على حرص التنظيم على ضم الشباب واندفاعاته واستغلال قدراته.. الأمر الثاني : أن معظمهم خريج كلية الهندسة قسم الميكانيكا، ومن ثمّ تخصص في صناعة المتفجرات من خلال دراسته ويتم تسكينهم في مصنع خاص بالرقة ، والأمر الثالث: أنهم من جنسيات غربية والقليل منهم له أصول عربية وإسلامية مما يعطي انطباعًا بنجاح التنظيم في تجنيد الكوادر الشبابية الغربية واستغلالها لصالح دولة داعش... انظر: المصور العدد رقم ٤٧٤٢ في ٢٦ أغسطس ٢٠١٥.

والاختفاء وتتم السيطرة على القوات والمفارز أو المجاميع التي تكلف بواجبات بواسطة رسالة (واتس أب) أو على (الفيس بوك) أو تغريدة على (التويتر) أو رسالة على (الموبايل) والأوامر بسيطة من خلال الرسائل ؛ لذلك فإن داعش هو أول تنظيم عسكري في التاريخ يستخدم وسائل الاتصال الجماعي في عمليات حربية.(١)

ويمكن أن تضاف إلى ما سبق عديد من المقومات التي تساعد تنظيم داعش على المقاومة والصمود، فقواته القتالية تتراوح بين ٢٠ و٣٠ ألف مقاتل موزعين بين سوريا والعراق ، ويستخدمون الأسلحة الخفيفة وهو يعتمد على استراتيجية السيطرة على أكبر مساحة من الأرض كما أن لديه قدرة عالية على المراوغة وتشتيت جهود التحالف، ويمتلك قدرة هائلة على الحصول على المعلومات التي تدعم تقدمه على الأرض، ورغم تعرض التنظيم لما يقرب من ١٥٠٠ طلعة جوية منذ ٢٣ سبتمبر ٢٠١٤ فإنه لا يزال صامدا ويستثمر عمليات القصف لصالحه حيث يصور إعلامه عمليات القصف بأنها حملة ضد «المجاهدين المسلمين» في الأراضي الإسلاميّة وأنها بمنزلة «حرب صليبية جديدة على الإسلام وذلك لاستثارة شباب الإسلاميين ودفعهم للالتحاق بالتنظيم».(٢)

ويبدو من الأمر الواقع أن «داعش» بما لديه من مقومات تواجه تحالف دولي ممتلئ أزمات وتناقضات في الرؤى والمصالح – كما يذكر أبو بكر الدسوقي – فتسود حالة من عدم الثقة بينهم ، فالشركاء الإقليميون تنتشر بينهم حالة من الشك في النيات الحقيقية للولايات المتحدة خاصة أنها لم تتحرك إلا متأخرة وتحديدًا عندما توجهت قوات «داعش» للسيطرة على مصافي البترول في كركوك وأربيل وأيضًا اقترابها من العاصمة العراقية «بغداد» في حين أنها لم تحرك ساكنًا عندما هاجم التنظيم قوى المعارضة السورية (المعتدلة) .. علاوة على أن الشركاء الأوروبيون ليسو على موقف واحد ففرنسا تتحرك بسياسة منفردة وألمانيا انتظرت حتى موافقة البرلمان كما أن هناك

---

(١)) أثناء إعداد الكتاب استطاعت روسيا ومعها بعض الدول الغربية والحشد الشعبي والأكراد من تحقيق عديد من النجاحات ضد داعش على المستوى العسكري بعد تخلي بعض البلاد في مساندة التنظيم، ولكن لا يعتبر هذا الأمر فوزًا ساحقًا على فكرة التكفير والتنظيم.

(٢) أبو بكر الدسوقي : التحالف المأزوم ، وفرص الانتصار ، السياسة الدولية يناير ٢٠١٥، العدد ١٩٩، ص٨١.

حالة من استبعاد القوى الدولية - روسيا والصين - بسبب عدم رضائهما عن التحالف.. وينضاف إلى ذلك وجود خلل في هيكل ومهام قوات التحالف إذ ليس له هيكل تنظيمي واضح الملامح أو قوات معروفة، ورغم تعيين الجنرال الأمريكي «جون آلن» قائدا لقوات التحالف الدولي فإنه لا يقوم إلا بدور المنسق بين الدول المشاركة ، كما أن هناك خللا في توزيع المهام فليس هناك ما يلزم أطراف التحالف بتقديم دعم ما، فهناك دول تقوم بالضربات الجوية في العراق وسوريا أو في سوريا فقط وأخرى تشارك في أعمال الإغاثة الإنسانية فقط أو تقديم الدعم اللوجيستي والمعلوماتي أو في توفير القوات العسكرية كل حسب استطاعته.(١)

ومن ثمّ.. فإن إطالة أمد التحالف وعملياته العسكرية ستكون سببًا في استنزاف قدرات أطراف التحالف - كما يذكر الدسوقي - مما سيعطي فرصة لـ «داعش» للاستقرار والتكيف في الأوضاع وفي هذه الحالة سوف تتحول «داعش» إلى «فزاعة» الإقليم التي يمكن أن تستفيد منها الولايات المتحدة متى شاءت لتحقيق أهدافها.(٢)

وتجدر الإشارة هنا أن داعش لديه مقومات أخرى تساعده على المقاومة واستمرار البقاء غير ما ذكرنا سالفًا.. فلدى داعش موارد الدعم اللوجيستي تقدر بملايين الدولارات شهريا من عائدات آبار البترول والغاز الواقعة في الرقعة الجغرافية التي تخضع لسيطرة «داعش» واللذين يتم بيعهما بأقل من سعريهما في الأسواق العالمية ويتم البيع لدول الجوار وكذلك يكون من الموارد ما يقوم به التنظيم من الحصول على عوائد سرقة وتهريب الآثار وبيعها في السوق السوداء والفدية كما تتأتى الموارد من سرقة البنوك وفرض الجزية والضرائب في المناطق الخاضعة لسيطرة التنظيم وسلطانه وأيضا من الرسوم الجمركية في النقاط الحدودية التي تخضع لسيطرته كما تعدد أصول التمويل المالي للتنظيم من خلال ما يتم إرساله من تبرعات بعض الأفراد في دول الخليج.. واليوم أصبح تنظيم داعش في حالة اكتفاء ذاتي - كما يقول علو - وتقدر ثروة الدولة الإسلامية «داعش» بملياري دولار من الأموال السائلة والأصول مما يجعله أغنى الجماعات المسلحة على مستوى العالم.(٣)

---

(١) أبو بكر الدسوقي : مرجع سابق ذكره، ص٨٠.

(٢) أبو بكر الدسوقي : مرجع سابق ذكره ، ص٨١.

(٣) الاستراتيجية القتالية لتنظيم داعش ، ص١٩.

غير أن هناك أطروحات للمواجهة من خلال التحالف الدولي والذي يمكن استثماره في مواجهة التوحش الإرهابي لـ «داعش» من خلال حرب شاملة لا تقتصر فقط على العمليات العسكرية، ولكن تضاف لها جوانب سياسية واقتصادية وفكرية لمواجهة هذا الفكر المتطرف مع إبراز الثقة من جانب الولايات المتحدة في تعاملها مع القضايا المتأزمة في الشرق الأوسط وعلى رأسها قضية فلسطين والصراع العربي الصيهوني ... فلابد أن تكون هناك مواقف جادة من قبل أمريكا للضغط على إسرائيل لحل الأزمة.. كما أنه لا يمكن إغفال القوى الدولية الأخرى والمهمة في الشأن الدولي مثل روسيا والصين وعدم مشاركتها بشكل فعال في هذا التحالف وتنسيق المواقف معهما كما يمكن أن تحيا المقاومة الداخلية في العراق وسوريا لمواجهة هذا التوحش الإرهابي لـ «داعش» وإظهار مدى تطرفه والتصدي كما يجب وقف التعامل ومحاصرة الدول التي تساند داعش وتقوي من شأن هذا التنظيم الإرهابي.(*)

(٥) داعش والقاعدة : اتفاق واختلاف:

هناك اتفاق في بعض المنطلقات الفكرية لتنظيم «القاعدة» مع دولة البغدادي وتتمثل في إقامة الخلافة الإسلامية على نهج النبوة وتطبيق شرع الله وممارسة الجهاد العالمي ضد اليهود والصليبيين من أجل تحرير الأراضي العربية في فلسطين ومواجهة الهيمنة الغربية خاصة الأمريكية على العالم الإسلامي ونصرة المستضعفين وتخليصهم من الظلم.. كما أن هناك اتفاق تام في المنطلقات الفكرية والعقيدية بين القاعدة وداعش، وتتمثل في فتوى أهل ماردين والتي استند عليها تنظيم القاعدة وغيره من تيارات «السلفية الجهادية» في إباحة قتال الحكام المسلمين.[١]

ويمكن تلمس السمات الفارقة بين التنظيمين (القاعدة/ داعش) على هذا النحو:

(١) داعش والقاعدة والثورات العربية:

حارب تنظيم داعش الثورة السورية وسارع لتكفير فصائلها وفي المقدمة منها فصائل الجيش السوري «الحر» والذي يراه التنظيم أكثر كفرا من نظام بشار الأسد

(*) لروسيا دور مهم في الوقوف بجانب النظام السوري ومنعه من السقوط ومعها إيران وحزب الله اللبناني في الآونة الآخيرة.

(١) محمد عبد العظيم الشيمي: الأسس الفكرية لتنظيم داعش ، السياسة الدولية، الأهرام، العدد ٢٠٣ ، يناير ٢٠١٦، ص٣٩.

وجيش ردة وصحوات وقفز عليه وقتل التنظيم منه الكثير من أفراده بل لم تحارب «داعش» النظام السوري وركزت فقط على حرب الثورة في مناطق سيطرتها هذا بعكس ما رأته القيادة المركزية لـ «القاعدة» التي رحبت بهذه الثورات إسقاطًا للأنظمة الحاكمة والتي كثيرًا ما لاحقت قيادات القاعدة وعناصرها. [1]

(٢) تكفير عموم الطائفة الممتنعة المخالفة:

من سمات داعش الأساسية الحسم القاطع في مسألة تكفير المخالفين وعموم الطائفة الممتنعة وليس فقط الحاكم فيها خاصة من يقبلون بغير الشريعة حكما ومرجعا.. وقد انتقد أبو محمد العدناني «المتحدث باسم داعش» في رسالته لزعيم القاعدة «أيمن الظواهري» في ١٢ مايو ٢٠١٤ متهمًا إياه بالالتفاف وعدم التكفير الصريح والقاطع قائلا له: «ندعوك ثانيا لتصحيح منهجك وتصدع بردة الجيش الباكستاني والمصري والأفغاني والتونسي والليبي واليمني وغيرهم من جنود الطواغيت وأنصارهم وعدم التلاعب بالأحكام والألفاظ الشرعية..». [2]

(٣) تقديم العدو القريب على البعيد:

يقدم تنظيم داعش قتال العدو القريب على العدو البعيد حيث يركز على توسيع نفوذه وتزايد رقعة وجوده أكثر من تجميع جهادي العالم للمواجهة بعكس القاعدة والتي تركز على محاربة أمريكا واليهود والصليبيين .. ومن ثم تتركز العمليات الانتحارية لداعش في العراق وسوريا بشكل كبير ولا يمارس العمليات الخاطفة ضد الغرب والأمريكان إلا بشكل استثنائي.

(٤) الحشد الطائفي:

حرص الزرقاوي ثم داعش بعد ذلك على استهداف جموع الشيعة وأصدر دراسات «فقهية» تتبنى كفر الشيعة جميعًا.. كما أصدر الزرقاوي عدة أشرطة يعلن فيها صحة موقفه وممارساته ضد الشيعة وتوجه بالنقد لمنتقديه وفي مقدمتهم شيخه «أبو محمد المقدسي».

---

(١) محمد عبد العظيم الشيمي: مرجع سابق ذكره، ص٣٩، نفس الصفحة.

(٢) محمد عبد العظيم الشيمي: مرجع سابق ذكر، ص٤٠.

(٥) فك الارتباط بإيران:

لم تستهدف «القاعدة» إيران يوما ولم تدعم أيا من التنظيمات السنية المناهضة لنظام إيران وهو في النهاية ما التزم به داعش، ولكن «داعش» يقيم علاقته بالقاعدة أولا ثم مع إيران.[(١)]

(٦) الخطاب التكفيري لداعش... وحقيقة بناء الدولة:

تعتنق داعش فكر التكفير * .. فهم يكفرون مرتكب الكبيرة (كالخوارج) ويلاحقون مرتكب المعاصي ولا يعذرون أحدًا من العوام يحملهم - كما يذكر الباحثان ناجح إبراهيم وهشام النجار - ويكفرون كل من لا ينضم لجماعتهم ودولتهم والتي يعتبرونها دولة المسلمين (مفهوم الفرقة الناجية) ومن لم يعلن ولاءه لها وانضمامه لها ومبايعته لرئيسها وقائدها (الخليفة) فهو كافر حلال الدم.. ويكفرون كل الحكام الذين لا يحكمون بما أنزل الله (كالخوارج أيضا في ذلك) وفق تصورهم لهذا المفهوم.. ويكفرون العلمانيين والليبراليين واليساريين والقوميين والناصريين وكذلك الحركات والمنظمات الإسلامية الأخرى التي لا تذعن وتعلن مبايعتها وولاءها لداعش وأميرها.. وكذلك يكفرون أعوان الحكام ومؤسسات دولهم العسكرية والمدنية والعاملين بها (حكم الطائفة الممتنعة).[(٢)]

---

(١) محمد عبد العظيم الشيمي: مرجع سابق ذكر، نفس الصفحة

* كثرت فتاوى السلفيين في التكفير وخاصة من زعماء الدعوة السلفية ودعاتها والتي يتولى نائبها ياسر برهامي من التنظير وإصدار الفتاوى، غير أن دعاوى التكفير لم تطل تنظيم «داعش» فقد اعترف برهامي بأن كثير من شباب التيار السلفي المتدين يقبلون «داعش» ويدافعون عنه، بل أكد برهامي في فتاويه مؤخرًا برفض تكفير داعش واكتفى بوصفهم بالضالين المغرر بهم، ثم استند موقفه على موقف الأزهر الشريف الذي رفض تكفيرهم أو إخراجهم من الملة!! وأطلق عديد من الفتاوى التي تصب في خانة التضامن مع داعش حيث ذكر أن إرهابهم أقل من إرهاب إيران التي تقتل «السنة»، و«البوذيين» الذين يقتلون المسلمين دون رحمة، وطالب أن تكون الحرب على الجميع.. ويبدو أن برهامي مع ظاهر كلامه يدافع عن المسلمين، لكنه تعمد استغلال ذلك للتخفيف من إجرام داعش بل رفض برهامي محاربة المجتمع الدولي لداعش وطالب أن تتم مواجهتهم من قبل المسلمين واصفًا المسلم الذي يؤيد ضرب أخيه المسلم - يعتبر مخطئًا وعليه أن يتوب، محرمًا موالاة المسلمين لغير المسلمين في ضرب داعش .. انظر: الصباح: يوم ١٤ ديسمبر ٢٠١٥، ص٦.

(٢) داعش السكين التي تذبح المسلمين، ص١٥.

ومن ثم... يتبين أن فكر داعش يقوم على «التكفير» و«التفجير» والذي نشأت عليه القاعدة من العراق وهو يكفر الجيوش العربية بلا استثناء وكذلك الحكام العرب والأحزاب السياسية ويكفر الشيعة جميعًا ولا يؤمن إلا بالقتال لإقامة الدين والدولة وطريق داعش لا يعرف العفو طريقًا ولا للرحمة في الحروب سبيلا.

ولكن يبقى السؤال المهم والذي طرحه الباحثان إبراهيم والنجار – وهو: هل يستطيع «تنظيم داعش» إقامة دولة؟؟

ونجد أنفسنا للإجابة عن هذا السؤال المهم نقف في مربع الباحثين لأنه لن يستطيع أي تنظيم يعتنق فكريّ «التكفير» و«التفجير» أن يقيم دولة.. والخوارج لم يقيموا دولة رغم جيوشهم الكبيرة ، ولم يحدث في تاريخ الإسلام أن أقام هذا الفكر دولة؛ لأنه يملك مقومات تفجير وتدمير الدول وليس إقامتها، ولأن الفكر يعادي الجميع ويكفره ويستبيح دمه.. فالدول في الغالب تقوم على فكريّ التعددية والتسامح مع الآخر المختلف عقائديًا وفكريًا.. حتى وإن حدث وأقام دولة (على غرار داعش) فإن هذه الدولة تتفجر من الداخل.. لأن فكر التكفير كالقنبلة الانشطارية التي تتمزق بين الحين والآخر إلى شظايا. [1]

بوكو حرام والمبايعون لداعش على طريق التكفير والتفجير:

ظهرت «بوكو حرام» ومعناها باللغة الأمهرية «تعلم اللغة الأجنبية حرام» عام ٢٠٠٢، غير أن جذورها التاريخية الحقيقية تعود إلى ١٩٩٥ عندما أنشأ «أبو بكر لاوان» جماعة أهل «السنة والهجرة» بولاية بورنو النيجيرية وانضم إليها وشكلها في الأصل مجموعة من الطلاب الذين تركوا دراستهم من أجل تأسيس الجماعة ونشر أفكارها وتدشين عقائدها وشهدت ولاية «يوبه» شمال شرق نيجيريا على الحدود مع النيجر أول قاعدة رئيسية للجماعة.

وظهرت «بوكو حرام» كحركة غير عنيفة والتزمت الجانب الدعوي، إلى أن تولى «محمد يوسف» قيادتها عام ٢٠٠٢، وهذا هو الميلاد الثاني للجماعة أو الميلاد الحقيقي على أرض الواقع، لتتخذ من ذلك الحين مع مرور الزمن وكرّ الأيام تحولات مع أسماء

(١) داعش السكين التي تذبح المسلمين ، ص٢٣.

مختلفة مثل : «حركة طالبان النيجرية» و«المهاجرون» و«اليوسفية» قبل أن يطلق عليها «بوكو حرام» ولكنها تفضل أن تُعرف بـ «جماعة أهل السنة للدعوة والجهاد» ، وكان الهدف الرئيسي من نشأة الجماعة عام ١٩٥٥ هو العمل الدعوي، وقد ظلت حركة غير عنيفة بعيدة عن استخدام القوة والعنف ، إلى أن تولى «محمد يُوسف» قيادتها عام ٢٠٠٢ لتشهد الجماعة منذ ذلك التاريخ تحولات فكريّة وتنظيمية مع إعلان «يوسف» العمل الجهادي المسلح لتبدأ الجماعة سلسلة من العمليات الإرهابية ضد الجيش والشرطة ، إلا أن تم تصفيته في عام ٢٠٠٩ في مركز للشرطة.

وفي أعقاب وفاة «يوسف» في عام ٢٠٠٩ أصبح «أبو بكر شيكاو» وهو أحد نواب زعيم الطائفة وتجلت زعامته في تغيير هيكلها التنظيمي إذ اعتمد أسلوب اللامركزية والسماح لكل مجموعة صغيرة بالعمل بشكل مستقل وقد أعلن «شيكاو» زعيم بوكوحرام مبايعته لتنظيم داعش في أغسطس ٢٠١٤ ، حيث أعلن في كلمة مصورة بدور «البغدادي» خليفة المسلمين بأنه يخدم الدين ويوحد الأمة ويحارب الكافرين.. وهذه الجماعة والتي يعتبرها الكثير من الباحثين أنها كالخنجر المسموم في قلب أفريقيا قد تحولت بعد ٧ سنوات من الدعوة إلى السلاح لتنتهج العنف والعمليات الإرهابية وتخوض حربًا مسلحة ضد الدولة والمواطنين ، ثم زادت وتيرة العنف في الفترة الأخيرة تحت زعامة «شيكاو» الذي أسفرت أعماله عن مقتل نحو ٣ آلاف شخص!!!

وليس جماعة «بوكوحرام» هي التي بايعت «البغدادي» خليفة المسلمين بل هناك ٣٧ جماعة في ٢٠ دولة بايعوه على أمرة المسلمين وعلى الطاعة في المنشط والمكره.. ففي العراق جماعة أنصار الإسلام وأنصار الإسلام الكردية وفي سوريا كتيبة الأقصى وجماعة خراسان ، وفي فلسطين الدولة الإسلامية في بيت المقدس ومجلس شورى المجاهدين في قطاع غزة ، وجماعة أنصار الدولة الإسلامية في بيت المقدس، وفي مصر أنصار بيت المقدس، وفي اليمن «مؤيدو الدولة الإسلامية» و«المجاهدون» ، وفي لبنان كتيبة أحرار السنة ، وفي الهند أنصار التوحيد ، وفي أفغانستان المنظمة الإسلامية وجماعة الأحرار، وفي باكستان تحريك طالبان، وفي أوزباكستان الحركة الإسلامية في أوزباكستان، وفي الجزائر جنود الخلافة و «جماعة أبو عبد الله عثمان العاصي» و«كتيبة الهدى في المغرب الإسلامي» ، وفي ليبيا «مجلس شورى شباب الإسلام» في درنة كتيبة أبي محجن الطائفي و«المجاهدون» و«أنصار الشريعة» ، وفي الصومال شباب

المجاهدين ، وفي مالي أنصار الدين، وفي السودان جماعة الاعتصام بكتاب الله والسنة ، وفي تونس كتيبة عقبة بن نافع وأنصار الشريعة ، وفي الفلبين «جماعة أبو سياف» و«جماعة أنصار الخلافة» و«حركة مقاتلو بانجسمور الإسلاميين وأندونيسيا «المجاهدون» و«منتدى نشطاء الشريعة الإسلامية» و«حركة الإصلاح الإسلامية» و«توحيد المجاهدين» وفي السعودية «مجاهدو جزيرة العرب».(١)

فذلكة أخيرة:

قد لا يختلف اثنان على أن تنظيم الدولة الإسلامية في العراق والشام «داعش» يتباين عن التنظيمات «الجهادية» والتي تتبنى العنف والتكفير والتي ظهرت خلال التاريخ المعاصر حيث أن ذلك التنظيم يبدأ من دولة خليفة المسلمين والذي يحاول أن يجمع الأمة دون مراعاة للحدود الجغرافية «المصطنعة» فالأمر له وجود بالعقيدة أي أنّ الحرص هنا على تمكين الدولة وبقائها واستمرار وجودها في أراضي المسلمين لتزويد الرقعة وليس من شأن التنظيم كما تفعل الجماعات والتنظيمات الأخرى والتي اهتماماتها بتقويض أركان الدولة التي تعيش فيها هذه الجماعة ومحاولة الانقضاض على الحكم بانقلاب شعبي أو انقلاب عسكري، ومن ثمّ يستتبع من ذلك أن المنتمي لـ«داعش» ينتمي لدولة الخلافة والتي استولت على ثلث مساحة العراق مهد الخلافة العباسية واستولت على محافظات عدة بمساحات شاشعة في سوريا مهد الدولة الأموية وكأن جمعهما في إطار سياسي واحد يدغدغ مشاعر الشباب «الغاضب» والمفتون بدولة الخلافة في العصر الحديث ويؤجج فيه مشاعر الانتماء لدولة «الخلافة» و«أميرها» .. ويعتبر من يعارضها هو عدو للإسلام وحليف للصليبيين واليهود والذين يتبنون حربا صليبية جديدة على أرض المسلمين ودولة الخلاف .. وهذا بخلاف ما ينتمي لجماعة أو تنظيم من التنظيمات «الجهادية» والتي ما فتئت أن تقوض الأنظمة وتحارب الجيوش ومؤسسات الدول..!!

ومن هذا المنطلق ورغم التحالف الدولي والتي زاد عن ٦٠ دولة (في بعض المصادر العسكرية) ومنذ عامين تقريبا لم يضعف «داعش» ولم يهزمه رغم الطلعات الجوية بكثافة والتي تزد في إضعافه إلا بعض الشيء ولكنها لن تهزمه نهائيًا لعديد من الأمور:

---

(١) جريدة الوطن يوم الاثنين ٩ مارس ٢٠١٥ ، العدد ١٠٤٤.

الأمر الأول: إن تنظيم داعش مع وجود ظروف موضعية وبيئية وتزايد نسبة الإرهاب والعنف والثأر في هذه المنطقة بعد احتلال العراق ٢٠٠٣ كما ذكر «توني بلير» رئيس وزراء بريطانيا الأسبق إلا أن أمريكا كان لها دور غير منكور في صناعة الإرهاب بشكل عام وفي صناعة القاعدة وداعش ومساندة الإخوان (الإرهابية) بشكل خاص، وقد أكد هذا الاتهام «مايكل فلين» مدير المخابرات العسكرية الأمريكية السابق، والذي أعلن أن صعود الإخوان وتنظيمي «القاعدة» و«داعش» الإرهابيين كان قرارًا معتمدًا من البيت الأبيض رغم التحذيرات الاستخباراتية التي تم توجيهها إلى إدارة الرئيس الأمريكي «باراك أوباما» والذي تجاهل تقارير المخابرات العسكرية DiA والذي دفع «فلين» إلى الاستقالة نظرًا لإحباطه من هذه الإدارة، والذي أكد أن الولايات المتحدة والدول الأخرى الراعية للإخوان والتنظيمات المتشابهة قامت بمنحهم الدعم السياسي واللوجيستي والعسكري.. كما أكد هذا المفهوم الكاتب الأمريكي «واين ماديسن» في الجزء الأول من كتابه «داعش هو أمريكا.. الحقيقة الصادمة وراء جيش الإرهاب» وقد أكد ماديسن – بالتوثيق التاريخي – ضلوع واشنطن في صناعة التنظيم الإرهابي..!! حيث كانت واشنطن تنسق عمليات نقل الأسلحة للأخوان والسلفيين والقاعدة قبيل ظهور داعش «الإرهابي» وهو الذي ساهم في نشأته.[1]

الأمر الثاني : إن ما دفع أمريكا لمواجهة داعش وصياغة تحالف دولي هو المشهد المأساوي لقتل الصحفيين الأمريكيين «جيمس فولي» و«روبرت ساتلوف».. فقد كان هذا المشهد المروع صادما لاوباما واعتبره بمثابة إعلان حرب ضد أمريكا كما كانت المصالح الأمريكية هي الدافع بعد محاولة «داعش» إسقاط «أربيل» ومحاصرة الأقليات.. ومن ثمّ انقلبت الإدارة الأمريكية على داعش بعد التعدي على المصالح الأمريكية في العراق والقتل الاستعراضي للصحفيين..!!

الأمر الثالث: مع الضربات الجوية للتحالف الدولي والذي تم صناعته على عجل وعلى كره منه وبدون استراتيجية واضحة وعدم وجود تنسيق بين أطرافه ولا خطة صحيحة لتحديد أهداف التحالف وغموض طبيعة الأدوار المطلوبة من أعضائه

(١) البوابة : الأحد ٩ أغسطس ٢٠١٥ ، العدد ٢٤٦، الإصدار الثاني.

وتباين مصالحهم واختلاف مواقفهم من قضية سوريا والعراق وافتقاد التحالف لمفهوم الاستراتيجية الشاملة في المواجهة والتي لا تقتصر على الجانب العسكري بل يتعداه إلى الجوانب الأخرى الاقتصادية والسياسية والفكرية التي تواجه الفكر المتطرف وتحصره وتجفف منابعه .. ومن ثمّ يتبين فعلا أن الضربات المتلاحقة دون إبرار للقوات قد يدفع التحالف الدولي إلى الاستنزاف وإرهاقه على المدى الطويل للحملة الجوية في حين أن اتساع الرقعة وقدرة داعش على التخفي والتكيف يجعل الوقت في صالح داعش وليس في صالح التحالف.. كما أن استشعار بعض أعضاءه بافتقاد الثقة من الولايات المتحدة وأنها المسؤولة عن إرهاب داعش وتدشينه يسبب فتورًا وعدم جدية في معالجة تجاوزات داعش وتمديدها.. كما أن حدوث تفجيرات في أوروبا (في باريس – ونيس – وبلجيكا) وقيل أن تفجيرات أمريكا قد نسبت لداعش تعطي رسالة تخويف بأن داعش لن يترك من اشترك في حربه والاعتداء على دولة الخلافة الإسلامية.

الأمر الرابع: إن نجاح داعش في استثمار واستغلال التقنية الحديثة في الاتصال وشبكات الإنترنت في تجنيد أعضاء من دول العالم بهرتهم قوة «داعش» وزخمها الإسلامي من وجود «دولة الخلافة» على رأسها أمير المؤمنين والذي يقيم دولة العدل على الأرض.. كما أن نجاح الأيديولوجية الإعلامية لداعش في طرح الأمر بأنه «حرب صليبية جديدة على الإسلام والمسلمين» وأن الاستكبار الغربي مُصر ومصمم على محاصرة دولة الخلافة وتقليص تمددها للعداوة القديمة بين الصليبيين واليهود وبين المسلمين (!!) مما يدفع الشباب المسلم «الغربي» من الانضواء تحت راية أمير المؤمنين وخليفة المسلمين لإنقاذ دعوة الإسلام وتمكينها في الأرض.

الأمر الخامس: إن اتساع الرقعة الجغرافية لداعش في العراق وسوريا ومساعدة بعض دول الجوار لهذا التمدد لأسباب سياسية ومصلحية ووجود موارد بترولية وأخرى موارد للدولة تعينها على مواجهة التحديات واستبعاد دول مهمة على اختلاف مع الولايات المتحدة في المصالح كروسيا والصين، كما أن هناك أسلحة تأتيها من دول عديدة وتترك لها أسلحة من قبل القوات الأمريكية كلها أمور تعضد من شأن داعش ولا تهزمه تقويه ولا تضعفه.

الأمر السادس: يعتمد داعش في منهجه وأطره الفكرية على أسس انغلاقية وضيقة وترتكن على منهج السلفية الجهادية والتي بدورها تستند على أفكار ابن تيمية وابن حنبل في فهم النصوص وتفسيرها بمنهج ضيق بعيدًا عن معطيات الحداثة ومقتضيات الواقع من مستحدثات وابتكارات حداثية تحتاج إلى المعالجة وليس الرفض.. فالعقلية الداعشية عقلية إقصائية ودجمائية تعتمد على أصول «المنهج السلفي» في فهم تعاليم الإسلام وترفض من واقعها مستحدثات الحياة وحداثة الواقع والمستقبل.

الأمر السابع: أنه لا يوجد ثمة تيار سلفي أو جهادي يدفعه ما حدث من توحش وإرهاب داعش وتغريق الخصوم في أقفاص حديدية وإحراقهم وسبي النساء وبيعها كرقيق وحرق المدنيين واعتبار من يخالفهم «كافر» وخارج عن الملة .. أن يخرج «داعش» عن ملة الإسلام ويتهمه بالكفر والجحود، ولعل السلفيون في مصر مثال واضح على ذلك.. فقد رفض «ياسر برهامي» تكفير الدواعش والداعشية، بل اعتبرهم قوم مسلمين تم التغرير بهم وأنه لا يجوز تكفيرهم أو إخراجهم من الملة.. وهذا الأمر من السلفيين لا تناقض فيه لأنه ليس هناك اختلاف بين التنظيمات (السلفية والداعشية) في النوع، إنما هي اختلافات في الدرجة لأنهم جميعا يعيشون على أرضية التكفير والتفجير ولكن بنسب ودرجات مختلفة فقط.

الأمر السابع: إن إدارة التوحش والمتمثلة فيما يفعله تنظيم داعش من إجرام غير مسبوق وإرهاب شديد التوحش والهمجية قد غطى على سماحة الإسلام ووسطيته واعتداله، وألغى الفروقات الواضحة بين الغلو والتطرف ، وبين الوسطية والاعتدال، وأظهرت صورة الإسلام بما فيها من بثور التطرف وغلو الخوارج الجدد والذي زرع بذرة التكفير وتوسع فيها بشكل طال المخالفين في الرأي ودمغهم بالكفر والتشريك والبعد عن الإسلام.. غير أن إدارة التوحش ودولة الخلافة على الجانب الآخر قد أبهرت «الشباب» من عديد من البلدان الإسلامية والغربية حيث أن إرهاب الدولة الداعشية هو إرهاب للعدو وإظهار لهيبة الإسلام من وجهة نظرهم وأن نشأتها مثال افتتان عديد من «الشباب المتأسلم» لظهور الدولة وتمكن أميرها من إقامة دولة العدل!!

المبحث الثالث

التكفير وموقف الإسلام منه وآثاره الخطيرة على المجتمعات والأوطان

المطلب الأول : الكفر لغة وشرعا واصطلاحا وأنواع الكفر ودرجاته

المطلب الثاني: ظاهرة التكفير والغلو وأسبابها وذهنية المكفّرين

المطلب الثالث: التكفير وموقف الإسلام منه

المطلب الرابع : آثار التكفير وأخطاره على المجتمعات والأوطان

المطلب الأول

الكفر لغة وشرعا واصطلاحا وأنواعه ودرجاته

⌑⌑⌑⌑

الكُفر لغة:

ذكر ابن منظور (٦٣٠ – ٧١١هـ / ١٢٣٢-١٣١١م) في كتابه (لسان العرب) في توضيح الكُفْر في اللغة بأنه: نقيض الإيمان آمنا بالله وكفرنا بالطاغوت .. كفر بالله يكفرُ كُفْرًا وكُفُورًا وكُفْرانًا.. والكُفْر: كَفر النعمة وهو نقيض الشكر والكُفْرُ: جُحود النعمة وهو ضد الشكر ورجل كافر جاحد لأنعم الله.. قال بعض أهل العلم: الكفر على أربعة أنحاء: كفر إنكار بأن لا يعرف الله أصلًا ولا يعترف به وكفر جحود وكفر معاندة وكفر نفاق من لقى ربه بشيء من ذلك لم يغفر له ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء. فأما كفر الإنكار فهو أن يكفر بقلبه ولسانه ولا يعرف ما يذكر له من التوحيد وكفر الجحود فإن يعترف بقلبه ولا يقر بلسانه فهو كافر أمّا كفر المعاندة فهو أن يعرف الله بقلبه ويقر بلسانه ولا يدين به حسدًا وبغيا ككفر أبي جهل وأقرانه وأما كفر النفاق فأن يقر بلسانه ويكفر بقلبه ولا يعتقد بقلبه...

والكفر بالفتح التغطية.. والكافر: الليل وفي الصحاح: الليل المظلم لأنه يستر بظلمته كل شيء، والكافر: البحر لستره ما فيه، والكافرُ: السحاب المظلم، والكافر والكفْرُ: الظلمة لأنها تستر ما تحتها، والكُفْر: القبر الذي تطلى به السفن لسواده وتغطيته.[1]

ويذكر مجد الدين الفيروزآبادي (٧٢٩-٨١٧هـ / ١٣٢٩-١٤١٥م) في القاموس المحيط في معنى الكُفْرُ (بالضم): ضدُّ الإيمان ويُفتحُ كالكُفُور والكُفران بضمهما وكفر نعمة الله وبها كُفورا وكُفرانا: جحدها وسترها وكافرُ حقَّهُ: جحده والمكَفَّر كمعظَّم: المجحود النعمة مع إحسانه وكافر: جاحِدٌ لأنعمُ الله تعالى ج: كُفَّارٌ (بالضم) وكَفَرة (محركة) وكفارٌ (ككتاب) وهي كافرة من كوافر.. والكافِرُ: الليلُ والبَحْرُ والوادي

(١) ابن منظور: لسان العرب، المجلد السابع، دار الحديث، ص٦٨٨.

العظيمُ والنهرُ الكبيرُ والسَّحابُ المظلمُ والزارعُ والدِّرْع و — من الأرض : ما بَعُد عن الناس كالكفر والأرض المستوية والغائط الوطيءُ والنبتُ. [1]

ويذكر أبو القاسم الزمخشري (٤٦٧ = ٥٣٨ / ١٠٧٥-١١٤م) في أساس البلاغة كفر الشيء وكفَّره: غطاه يقال الكفر السَّحابُ السماء وكفر المتاعَ في الوعاء وكفر الليلُ بظلامه وليل كافرٌ ولبس كافر الدَّروع وهو ثوب يُلبس فوقها وكفرت الريحُ.. وغابت الشمس في الكافر وهو البحر ورجل مكفَّر وهو المحسان الذي لا تُشكر نعمته .. فالكفر في اللغة معناه: الستر والتغطية ويسمى الليل كافرًا لأنه يغطى كل شيء والكافر : الزارع والجمع كفار . قال الله تعالى : ﴿ **كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ** ﴾ (الحديد : ٢٠) يعني الزارع سمُّوا (كفارًا) لأنهم يغطون الحبَّ. [2]

ومعنى التكفير: تفعيل من الكفر وهو مصدر كُفْر يقال كفّره تكفيرا وأيضا يقال التكفير في المحارب إذا تكفّر في سلاحه والتكفير أيضًا : أن ينحني الإنسان ويطاطئ رأسه قريبا من الركوع كما يفعل من يريد تعظيم صاحبه.

والكفر في الشرع : نقيض الإيمان وهو الجحود ومنه قوله تعالى : ﴿ **إِنَّا بِكُلٍّ كَافِرُونَ** ﴾ (القصص : ٤٨١) أي جاحدون وهو بهذا لا يخرج عن معناه اللغوي لأن الكافر ذو كفر أي ذو تغطية لقلبه . قال صاحب الدر المختار: الكفر شرعًا : تكذيبه صلى الله عليه وسلم في شيء مما جاء به الدين بالضرورة.. وتكفير الذنوب محوها بفعل الحسنات ونحوه . قال الله تعالى: ﴿ **إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ** ﴾(هود : ١١٤) والتكفير عن اليمين: فعل ما يجب الحنث فيها. [3]

---

(١) مجد الدين محمد بن يعقوب الفيروزآبادي: القاموس المحيط ، دار الحديث ، القاهرة، ص١٤٢٤.

(٢) أبو القاسم الزمخشري : أساس البلاغة ، الجزء الثاني، الهيئة المصرية العامة لقصور الثقافة، ص٣١٢، ٣١٤.

(٣) أحمد محمود كريمة: حرمة التكفير ، سلسلة قضايا إسلامية ، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، العدد ١٩٨ يوليو ٢٠١١، ص١٠.

التكفير اصطلاحًا:

هو إنكار شيء مما جاء به النبي صلى الله عليه وسلم ووصل إلينا يقيني قاطع.. ومن كفر بشيء مما يجب الإيمان به يسمى كافرًا. [1]

ويذكر أحمد كريمة أن مصطلح «التكفير» يعني: نسبة أحد من أهل القبلة إلى الكفر. وفي معنى شرح التكفير: التكفير (نسبة) بكسر النون ومعناها – هنا – العزو والإلحاق (أحد) بالتنكير: اسم لكل من يصلح أن يخاطب يقال: ليس في الدار أحد (يستوي فيه الفرد والمفردة ونوعهما) يقول الله تعالى: ﴿ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِنَ النِّسَاءِ ﴾(الأحزاب: ٣٢). وقوله تعالى: ﴿ مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِنْ رِجَالِكُمْ ﴾(الأحزاب: ٤٠) (من أهل القبلة) من إمّا بيانية للمنسوب إليه أو بعضية أي فرد من أفراد أهل القبلة. والقبلة (بكسر القاف): الجهة التي نتجه إليها من صلاتنا وقبلة المسلمين – وهي المراد هنا – الكعبة المشرفة. قال تعالى: ﴿ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا ﴾(البقرة: ١٤٤) واستقبالها في الصلاة وغيرها علامة صريحة على الإسلام لقول النبي صلى الله عليه وسلم: «**من صلى صلاتنا واستقبل قبلتنا وأكل ذبيحتنا فذلك المسلم الذي له ذمة الله وذمة رسوله فلا تخفرا الله في ذمته**». (أخرجه البخاري من حديث أنس بن مالك) [2].

ألفاظ ومصطلحات ذات صلة بالتكفير:

هناك مصطلحات ذات صلة بالكفر والتكفير نذكر منها:

(أ) **التَّشْرِيكُ**: مصدر شرك وشَرِكت النَّعْل: جعل لها شراكا والتَّشْرِيك في اللغة: بيع بعض ما اشترى بها اشتراهُ به ويقال: شركت بينهما في المال تشريكًا وشرعا: أن يجعل لله شريكا في ملكه أو ربوبيته قال الله تعالى: ﴿ يَا بُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴾(لقمان: ١٣).

والكفر أعم من الشرك فهو أحد أفراده.

---

(١) نشأت عبد الجواد ضيف: ظاهرة التكفير وموقف أهل السنة منها، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، عام ١٩٩٥، ص٥.

(٢) أحمد محمود كريمة: حرمة التكفير، ص١١.

(ب) التَّفسيقُ: ضِدُّ التعديل وهو تفعيل من الفِسْق بالكسر: الترك لأمر ربه والعصيان والخروج عن طريق الحق أو الفجور كالفسوق.. وفسقت الرطبة إذا خرجت من قشرتها.. ومنه الفويْسِقَة: الفأرة لخروجها من جُحرها على الناس.. وهو شرعا: العصيان والترك لأمر الله – تعالى – والخروج عن طريق الحق ومنه قوله تعالى: ﴿ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ ﴾(الكهف: ٥٠) أي خرج عن طاعة ربه وقد يكون الفِسق: شركًا أو كفرًا أو إثمًا. [١]

أنواع التكفير ودرجاته:

يظن بعض الناس أن الكُفْر على درجة واحدة استنادًا منهم على بعض النصوص النقلية (من الكتاب والسنة النبوية) والتي يفيد ظاهرها الخروج عن الملة أو المروق عن الدين.. ويمكن إيضاح أنواع التكفير في التالي:

(١) **كفر يتعلق بالعقيدة**: ويطلق عليه اسم (الكفر الاعتقادي) أو (الحقيقي) أو (الأصلي) وهذا الكفر يخرج عن ملة الإسلام – وأحيانًا يعبر عنه بالظلم – لقوله سبحانه وتعالى: ﴿ **وَإِذْ قَالَ لُقْمَانُ لِابْنِهِ وَهُوَ يَعِظُهُ يَا بُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ** ﴾(لقمان: ١٣) وهذا الكفر يؤدي إلى الخلود في النار وغضب الله سبحانه وتعالى لأن الله أرسل رسله هداه مرشدين وأنزل عليهم كتبه فارقة بين الحلال والحرام، ونهى فيه عن الكفر والظلم والفسوق والعصيان وهذا الكفر – لم يسبقه إيمان – والواجب على الدعاة أن يدعو الناس إلى الإسلام.. فالإيمان بالله – وعدم الكفر به – يجلب السعادة للإنسانية وإنكار المكلف عمدًا وعن علم ركنا من أركان الإسلام أو الإيمان صراحة يوجب الخلود في النار. [٢]

ويرى منصور الرفاعي عبيد أنه قد يبنى كفر العقيدة على الجهل الذي يؤدي إلى التكذيب فالكافر على بصره غشاوة فلم يبصر النور الإلهي ولم يبصر الحق فهو يكذب كل الحقائق التي يتعلق بالدين.. وقد أشار القرآن الكريم إلى ذلك في قوله: ﴿ **بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ** ﴾(يونس :٣٩) وقد يبنى هذا الكفر على التكبر وعدم الانصياع

---

(١) أحمد محمود كريمة: مرجع سابق ذكره، ص١٢.

(٢) نشأت عبد الجواد ضيف: مرجع سابق ذكره، ص٦.

إلى الحق رغم وضوحه.. فقد تكبر إبليس ورفض السجود لآدم عندما أمر الله الملائكة بالسجود له وقد ذكره في القرآن: ﴿ **قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ** ﴾(الأعراف : ١٢) [(١)]

ويقول الحق سبحانه وتعالى: ﴿ **وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ** ﴾(سورة البقرة : ٤٣).. وقد يبنى هذا التكفير الحقيقي والأصلي على النفاق ، فالمنافق هو من يقول بلسانه ما ليس في قلبه.. والمنافق أخطر من الكافر – لأن الكافر معروف – أما المنافق فهو مخادع مراوغ يعيش على أنه من المسلمين ولكنه ليس منهم ﴿ **يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ** ﴾(البقرة : ٩) وقد يبنى هذا الكفر على سابق إيمان وصاحبه هنا يسمى مرتدًا. [(٢)]

(٢) كفر لا يخرج من الملة: ويسمى (الكفر العملي) أو (المجازي) أو (كفر دون كفر) أو (الكفر الأصغر) ويقال عمن يرتكب بعض الأعمال السيئة ويأتي بأشياء تضعف إيمانه من ارتكاب معاصي يحاسب عليها أمام الله وينااله نصيبا من العذاب إلا إذا تاب وقبل الله توبته وغفر له.. وهاك أمثلة مما قاله رسول الله ﷺ: « **لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن ولا يسرق السارق حين يسرق وهو مؤمن، ولا يشرب الخمر حين يشربها وهو مؤمن»** » (حديث متفق عليه). وكقوله عليه الصلاة والسلام: «**يا معشر النساء تصدقن وأكثرن الاستغفار فإني رأيتكن أكثر أهل النار. فقالت امرأة منهن جزلة: وما لنا يا رسول الله أكثر أهل النار؟** فقال ﷺ : «**تكثرن اللعن وتكفرن العشير**» (رواه مسلم) . ويقول الرسول: «**ليس منا ذو حسد ولا نميمة ولا كهانة ولا أنا منه**» ثم تلا رسول الله ﷺ: «**كل المسلم على المسلم حرام دمه وماله وعرضه**». (حديث متفق عليه). [(٣)]

---

(١) منصور الرفاعي عبيد: التكفير والعنف والإرهاب، الهيئة العامة لقصور الثقافة ، ٢٠١٤، ص١٦.

(٢) منصور الرفاعي عبيد: مرجع سابق ذكره، ص١٧.

(٣) منصور الرفاعي عبيد: مرجع سابق ذكره، ص١٨.

ويذكر نشأت ضعيف أن هذا النوع من الكفر يوجب لصاحبه الوعيد دون الخلود في النار على أن لا ينقل صاحبه من ملة الإسلام إنما يدفعه بالفسوق والعصيان كأن يترك المكلف الصلاة المفروضة مع علم بوجوبها. (١)

ويرى عبيد أن مرتكب أي معصية – أمره بيدي الله – إن شاء عذبه وإن شاء عفى عنه لأنهم مؤمنون ناقصي الإيمان ومن أقيم عليه الحد في الدنيا مثل – السارق – إن قطعت يده فذلك عقابه وكالزاني إن نال جزاءه بالرجم أو الجلد فهو كفارة.. وأن الإنسان في مقدوره أن يتهرب من القوانين التي تسنها الدولة ولكنه لا يستطيع أن يتهرب من الله الواحد الأحد الذي يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور لكن إذا تاب وندم على ما فعل غفر الله له وأسقط عنه العقوبة.. فالتوبة والاستغفار والإكثار من فعل الأفعال الحسنة التي أمر الله بها والإكثار من الدعاء كما جاء في قوله تعالى: ﴿ **وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ** ﴾(غافر: ٦٠١).. كما أن الإكثار من الصلاة والسلام على سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم يحظى بشفاعته يوم القيامة لقوله ﷺ: «**خيرت بين الشفاعة وبين أن يدخل نصف أمتي الجنة فاخترت الشفاعة لأنها أعم وأكفى أترونها للمتقين ولكنها للمكذبين الخطائين المتلوثين**» (رواه ابن ماجه) . (٢)

(١) نشأت عبد الجواد ضيف : مرجع سابق ذكره، ص٦.

(٢) منصور الرفاعي عبيد: مرجع سابق ذكره، ص٢٢.

المطلب الثاني

ظاهرة التكفير وأسبابها وذهنية المكفرِّين

¤¤¤¤

من خلال تتبع التاريخ الإسلامي ومجريات أحداثه ومراحل تطوره نجد فيه ظاهرة «التكفير» لم يخل من تاريخ الأمة فترة من الفترات أو قرن من القرون منذ أن ظهرت بواكير التكفير في أحداث «الفتنة الكبرى» وصراع الخوارج مع الإمام علي وقضية التحكيم حتى أن المدارس العقلية والتي أعلت من شأن العقل إذا تعارض مع النقل ونخص بالذكر هنا «فرقة المعتزلة» والتي لم تنج من فتنة التكفير شأنها شأن الفرق الأخرى!!

إذن نستطيع أنّ نقول: إنه لم يترك «المكفّرون» عصرا دون أن يصيبوه بآفة «التكفير» الناتجة من مرض التطرف والغلو والاعتساف في التأويل والاستدلال بها ليس بدليل قط زاعمين لأنفسهم بقدرتهم على الاجتهاد «المطلق» والتحدث الرسمي باسم الإسلام والدين حتى لو اتهموا غيرهم بالكفر والكفران وأسالوا دم مخالفيهم وأزهقوا روحهم وأهدروا حياتهم ومنعوا دفن مخالفيهم – بعد وصمهم بالكفر – في مقابر المسلمين.. فالمبالغة في «التطرف» و«الغلو» يكون من آفاتها تكفير المسلمين وإطلاقه دون روية وإصدار أحكام التكفير ضده دون روية أو إحكام العقل .. فالعقلية المتطرفة والمتشددة والمتعسفة تنتج آفات عدة منها «التكفير» لأنها تعتمد على النص دون فهم تأويله ودون مراعاة مقتضيات الحداثة وتغير الأوضاع والسنون وترتكن على التعصب المقيت والذي يعطل العقل ويلغي المنطق.

وقد اجتهد الباحثون المحدثون في معرفة مكونات أسباب هذا الغلو والتطرف والذي يدفع دفعًا إلى التكفير وإخراج المسلمين من ملة الإسلام.. فلا شك أن التكفير أخطر مظاهر التطرف وآفاته وقمة الغلو وذروته: السقوط في هاوية التكفير وإسقاط عصمة دماء الآخرين واستباحة أعراضهم وأموالهم.

والجدير بالإشارة هنا أن نذكر أنّ ظاهرة «التطرف الديني» لا يمكن أن نعزوها لسبب واحد لأن ظاهرة «التطرف» و«الغلو في الأحكام» و«التشدد في الفتوى» ظاهرة معقدة ومركبة وأسبابها كثيرة ونتائجها السلبية «فادحة» و«كارثية» على المجتمع والأفراد والوطن .

وقد رأى عمر عبد الله كامل أن يفرد أسباب التطرف الديني إلى سبب علمي وأسباب نفسية واجتماعية وأوضاع اقتصادية.. فأما السبب العلمي يتمثل في ضعف البصيرة في فهم الدين وأخطاء منهجية في التفكير وقلة البضاعة في الفقه وفهم مقاصده.. كما ينضاف إلى ذلك أن من أسباب ضعف البصيرة في الدين الاتجاه الظاهري – للمتطرف – في فهم النصوص وهذا الاتجاه يرفض التعليل للأحكام وينكر «القياس» .. ويرى عبد الله كامل – أن أهم أسباب الغلو والانحراف في المنهج العلمي لدى هؤلاء «الغلاة» و«المتطرفون» هو اتباع المتشابهات وترك المحكمات وهذا شأن ﴿ **الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ** ﴾(آل عمران: ٧).

كما أن التباس المفاهيم وعدم فهم الإسلام ومقاصده مما أدى إلى التباس كثير من المفاهيم واضطرابها وفهمها مما أدى إلى آثار بالغة الخطورة في الحكم على الآخرين فكان لزاما عليهم فهم المصطلحات وتحديدها مثل : الإيمان والإسلام والكفر والشرك والبدعة والفسق والظلم والنفاق والجاهلية وغيرها من المصطلحات العلمية. [١]

ومن علامات ودلائل الضعف العلمي وضعف البصيرة في الدين الميل دائمًا إلى التضييق والتشديد والإسراف في التحريم وضعف المعرفة بالتاريخ والواقع وسنن الكون جعلهم أكثر تطرفًا وغلوا وأزاد ضعف بصيرتهم بالواقع والحياة والتاريخ وسنن الله في الخلق. ويرفض – كامل – فكرة التطرف النابع من عوج في نفسية «المتطرف» واضطراب شخصيته كما يقول بذلك عديد من الباحثين والعلماء.. وإنما يؤكد على أن كثير من الاضطرابات النفسية والتي يعيشها المتطرف تعود إلى الضغوط

(١) عمر عبد الله كامل: الخوارج الجدد «المتطرفون» ، مكتبة التراث الإسلامي، القاهرة، ١٤١٩هـ/ ١٩٩٨، ص١٤٦.

التي يتعرض لها الإنسان أي أنّ الأوضاع الاجتماعية هي التي تؤثر في السلوك الإنساني، فمثلا غياب شرع الله عن التطبيق السليم في معظم ديار المسلمين يؤثر على حياة المتطرف ونفسه وكذلك غربة الإسلام في ديار المسلمين وفرض (العلمانية) على المجتمع الإسلامي والفساد والتحلل الأخلاقي وغلبة الحياة الماديّة على حياة المسلمين كما أن سوء توزيع الثروات والهوة الكبيرة بين الطبقات وغياب روح التكافل الذي يجعل المجتمع كالجسد الواحد وشيوع موارد الكسب الخبيث كالاتجار بالمخدرات والرشوة واستغلال النفوذ وانتشار البطالة وضيق سبل العيش الكريم، وهناك أوضاع سياسية ساهمت بشكل كبير في التطرف - كما يذكر كامل - فقد أسهم الانحراف السياسي في بروز ظاهرة التطرف.. ونتيجة مظاهر الظلم التي لحقت بعض المسلمين في بعض البلاد وتحت ضغط التعذيب والظلم تفجرت ظاهرة التكفير من بعض الشباب.[1]

ويرى الباحث الأمريكي ريتشارد هرير دكجميان في دراسته عن «الأصولية في العالم العربي» أن الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية والسياسية والروحية والنفسية أي أن البيئة التي تعمل بمثابة محضن للمعتقدات والسلوكيات الأصولية.. والظاهرة المتكررة في التاريخ هي علاقة السبب بالنتيجة بين الأزمات الاجتماعية وظهور الحركات الدينية ثورية أو إحيائية.. فالبيئة الإسلامية العربية المعاصرة تكشف عن أزمة متعددة الأبعاد والأوزان.. والمجتمعات (الإسلامية والعربية) تعبر عن وجود أزمة في الهوية الفردية والجماعية بين المسلمين كما تشتمل أزمة الهوية على أزمة الروح والشخصية وتتميز غالبا بشعور حاد بالاغتراب مع إحساسات بعدم السوية وبالعجز وعدم الأمن وغربة النفس كما أن الفساد والقهر في حكم النخبة.. صنع الارتجال في صناعة السياسة وإداراتها، كما أن ممارسة السياسة في جو من الفساد الوظيفي واسع النطاق جعل الفشل متكرر للنخب مما أدى إلى عرقلة تطورهم وتآكل شرعيتهم لفشلهم في صياغة سياسات مفيدة اجتماعيا.. كما أن أول نتائج نقص كفاءة النخبة وفساد حكمها - كما يذكر دكجميان - هو تزايد سوء توزيع الثروة في كل قطر عربي كما أنّ وجود «ثروات البترول» وتأثير قوى السوق العالمية قد وسع كثيرًا من الفجوة

---

(١) عمر عبد الله كامل: مرجع سابق ذكره، ص١٦٣.

الاقتصادية بين الطبقات الاجتماعية في جو من الفساد والمظهرية المسرفة في الاستهلاك بين الحكام وعملائهم. (١)

ويقترب حسن حماد من سابقيه في وجود عوامل اقتصادية وسياسية وثقافية ونفسية تقف وراء تزايد وتجذر ظواهر التطرف والعنف والإرهاب في المجتمع.. وهذه العوامل تساعد على إعادة إنتاج الخطاب الأصولي المتشدد لجماعات الإسلام السياسي.. غير أنه يقسم تلك العوامل إلى عوامل ذاتية وأخرى موضوعية وتفاعلهما الجدلي لإنتاج الفكر المتطرف وتفاقمه وتزايد حدته.. فالعوامل الذاتية للتطرف – كما يذكر حماد – تتمثل في الأزمة الاقتصادية والخواء السياسي والتي أعادها إلى العهد الساداتي بصورتها الحادة في مناخ الانفتاح الاقتصادي الاستهلاكي وأثر ذلك على أغلاق المصانع الكبرى المنتجة ، وتحولت الصناعة إلى المنتجات الاستهلاكية وكذلك هيمنة الخطاب الأبوي وغياب الحرية وتدني السياسة التعليمية وتفشي الجهل والخرافة وتزايد مشاعر اليأس والخوف والتطلع لمجيء مخلص.. أما العوامل الموضوعية – كما يراها حماد – والتي ساعدت على وجود التطرف وتنتمي إلى العالم الخارجي فتتمثل في سقوط النظام الشيوعي والذي أدى إلى إعادة هيكلة وصياغة الواقع السياسي والاقتصادي والثقافي العالمي.. وكذلك غزو أمريكا للعراق حيث شكل الغزو الأمريكي للعراق عام (٢٠٠٣) مرحلة جديدة في تاريخ التطرف والإرهاب الدينيين وعولمة الإرهاب (في ١١ سبتمبر) والذي أدى إلى اتساع نطاق العمليات الإرهابية لتلك الجماعات واجتذاب عناصر للتنظيمات الإرهابية من عديد من الدول العربية والإسلامية وخاصة دول الخليج العربي نتيجة استشعار هذه العناصر بالسخط والغضب لارتباط أنظمتها الحاكمة بالولايات المتحدة الأمريكية. (٢)

ومن ثمّ .. يلاحظ أنّ الباحثين قد اتفقوا على أنّ البيئة بظروفها السياسية والاقتصادية والثقافية والاجتماعية حاضنة للإرهاب غير أنّ الصفات الذاتية من فهم نصوصي وتعصب أعمى والفهم الضيق لمصطلح «الفرقة الناجية» وإقصاء الآخرين

---

(١) الأصولية في العالم العربي ، ص٥٥.

(٢) حسن حماد : ذهنية التكفير ،الأصوليات الإسلامية والعنف المقدس ، الهيئة المصرية العامة للكتاب، مكتبة الأسرة ٢٠١٥، ص٤٠ إلى ٤٤.

من خلال النصوص «القرآن – السنة» .. غير أن التطرف وما به من فكر متجاوز الحد ومتشدد له سمات ناقشها الباحثون كثيرًا لفهم الذهنية التكفيرية وعقلية المكفّرين للوقوف على توجهاتها وفهم سلوكياتها وتصوراتها الذهنية عن الكون والحياة والناس.

فيرى – دكجميان – أن تركيب شخصية الفرد الأصولي وملامحه تنطوي على صورة وتركيب شخصية «المؤمن الحق» وهذه الشخصية لها ملامح تتمثل في: العزلة. فالأصولي (المتطرف) يميل إلى العزلة عن بيئته والانفصال عن المجتمع ويعوض انفصاله عن طريق الانضمام إلى نظام العقيدة الإسلامية.. كما يميل هذا الأصولي (المتشدد) إلى الالتزام الحاد إلى (اكتمال قبل الأوان) في سن مبكرة ومن ثمّ يتميز بتشدد متطرف ورفض لإدخال قيم جديدة إلى إطارهم المذهبي (الأيديولوجي) [1] وهو ما يسمى بالتعصب الأعمى.. كما يظهر من خلال سلوكهم أنهم يعانون من عقدتي (الدونية – الاستعلاء) فالشعور بالدونية بين الأصوليين هو نتيجة لعزلتهم وتتحول مشاعر الدونية إلى مظاهر الاستعلاء العدواني بمجرد أن يُضَمّ إلى العقيدة الإسلامية .. كما يميل الأصولي (المتطرف) إلى (الحركية – العدوانية) فهو يميل إلى العدوان في تعامله مع الكفار وغالبا على النمط السائد من المسلمين كتعويض لحرمانهم من المجتمع ولاعتقادهم بأن كل من ليس في جماعتهم إنما هو ضال.. والأصوليون في سعيهم إلى فرض معتقداتهم وقواعدهم السلوكية في المجتمع يظهرون درجة عالية من الحركية .. كما تنطوي شخصية الأصوليين على كثير من الملامح التي تميز «الشخصية الفاشية» ومن هنا كان اهتمامهم الشديد بالقوة وسعيهم إلى السيطرة السياسية والاقتصادية لإحداث التغيير الجذري في المجتمع.

وينبع عدم التسامح عند المتطرفين الإسلاميين من المحتوى المسلم به لعقيدتهم والتزامهم بمبادئهم المتشددة.. ويظهر على المتعصب ارتياب عميق في الناس وفي المؤسسات الحكومية التي ينسب إليها نوايا حاقدة .. كما أن ملامح الشخصية المتطرفة تميل إلى التآمر والاتجاه التآمري لأن نظرتهم للمجتمع نظرة سلبية تغيرهم هذه النظرة – دائمًا – بإنشاء تنظيمات سرية لمقاومة «الأعداء» وقلب السلطة الشرعية .. ويقتنع

(١) ريتشارد هرير دكجميان: مرجع سابق ذكره، ص٥٩.

تمامًا الأصولي (المتطرف) بأن الإسلام هو الحق المطلق في رسالته ومهمته ومن ثم يصبح تحطيم الدولة والمجتمع «الآثمين» أعظم الفضائل[1].

وينظر حسن حماد إلى الخصائص الذهنية للعقل الأصولي وتميزه عن غيره من العقول الأخرى فيجد أنّ العقل الأصولي هو في حقيقته عقل نكوصي ماضوي يقدس الماضي ويتحرق شوقًا للعودة للأرحام المرجعية في الفقه واللغة والأفكار.. فلديه حنين جارف لاستعادة الماضي التاريخي للأسلاف والعودة إلى «العصر الذهبي» للسلف الصالح.. كما يتسم العقل الأصولي بعداوته للتفكير العلمي وانجذابه للاعقلي الأسطوري وهي سمة تميز التفكير في المجتمعات قبل الصناعية أي المجتمعات ذات الثقافة الزراعية.. والذهن الأصولي يعاني من أحادية البعد فهو يعجز على أن للحقيقة عدة أوجه وليس وجهًا واحدًا.. إنه يعجز عن التفكير بشكل جدلي من خلال الـ «مع» والـ «ضد» والشيء ونقيضه.. فالذهن المتطرف يعطي لنفسه الحق في امتلاك المطلق للحقيقة.. وينضاف إلى ذلك أن العقل الأصولي عقل «دوجمائي» و«الدجمائية» أو الدوجماطيقية هي نوع من الاعتقاد المطلق في امتلاك الحقيقة التي تعلو فوق النقد والشك كما يتأسس العقل الديني الأصولي من خلال منطق الثنائيات المتقابلة الروح مقابل الجسد الآخرة مقابل الدنيا الجنة مقابل النار الإيمان مقابل الكفر.. هذه الثنائيات تعتمد على مقولة منطقية فاسدة هي مقولة: «أما - أو» فالأشياء إما أبيض أو أسود والبشر إما مؤمنون أو كافرون وإما إسلاميون أو علمانيون ، والحقائق إما حق أو باطل وإما خير أو شر وإما حلال أو حرام. [2]

وينظر - حماد - إلى الأبعاد السيكولوجية للإنسان المتطرف فوجدها ترتكن على:

(١) التعصب الشديد.

(٢) النزوع العدواني التدميري .

(٣) النرجسية والتمحور حول الذات.

---

(١) الأصولية في العالم العربي ، ص ٦٠ ، ٦١.

(٢) ذهنية التكفير، الأصوليات الإسلامية والعنف المقدس ، ص٨٥، ٨٦.

(٤) الارتباط السادي المازوجي بالعالم.[1]

خلاصة القول: هناك ثمة اتفاق بين الباحثين حول الأسباب الموضوعية لظهور وانبثاق التطرف والفرد الأصولي وما تتمخض عنه بيئته من ظروف سياسية واقتصادية واجتماعية وثقافية باعتبارها حاضنة للتطرف والتشدد والإرهاب والعنف المقدس علاوة على صفات ذاتية تتسم بالتعصب والطاعة العمياء لأمر الجماعة في المنشط والمكره والعدوانية وامتلاك ناصية الحقيقة والنظرة الأحادية للأمور والنظرة الماضوية النكوصية واستشراف «الماضي الذهبي» للدولة الإسلامية والخلافة ووجود الثنائيات المتقابلة ورفع ما عداها والتحدث الرسمي باسم الإسلام والدين واحتكار الحقيقة المطلقة نتيجة قصر قراءتهم على كتب بعينها وتفسيرها بشكل نصوصي دون اعتداد لتغيرات الأحداث ومقتضيات الأمور وتغير الأزمان.. وأنّ ما يشغل الأصولي المتطرف أن يعود بالأمة بزمانها إلى فترة الحكم الرشيد والخلافة الراشدة.. فالماضوية والتي تحرض على عودة السلف وعودة الأمة بأكملها إلى تاريخ السلف فهو «الحكم المرتجى» و«الأمل المبتغى» أن تعود الخلافة الإسلامية تحت سنابك هؤلاء المكفِّرين بدعوى «الجهاد» و«مقاتلة الكافرين» و«الصادين عن دين الله» ، وأن الهدف تطبيق شرع الله على الأمة ونشر الدعوة الإسلامية في ربوع المعمورة فهم أجناد الله على الأرض يخلصونها من الكافرين والملحدين والعلمانيين والقوميين.. ونشر الدعوة بحد السيف والغزو والعنف المقدس وإظهار هيبة المسلمين وقوتهم ودحرًا للكافرين والفاسقين والعصاة والمارقين عن ملة الإسلام، وهذا ما يعطي دلالات فاسدة عن الإسلام ومناحيه ومقاصده.. أي أن هذه التنظيمات بتطرفها ومغالاتها وتكفيرها للمسلمين هم يعملون – في حقيقة الأمر – ضد الدين ويشوهون أهدافه النبيلة ومقاصده الكريمة في التسامح والتعاون والترابط وتحقيق رسالة الإسلام في خلافة الأرض وتعميرها.. كما يعبر سلوك المتطرفين إلى إصابتهم بأمراض نفسية من العدوانية التدميرية والنرجسية والتمحور حول الذات والسادية الشديدة في تعذيب الآخرين وقتلهم وتعصبهم المقيت وانفصاميتهم وتناقض سلوكهم .

---

(١) حسن حماد: مرجع سابق ذكره، ص٩٢.

المطلب الثالث

التكفير وموقف الإسلام منه

¤¤¤¤

لعل – نشأت ضيف – قد أصاب في رؤيته لمعرفة دوافع التكفير حينما قرر أنّ اجتراء بعض الناس على إصدار الأحكام – خاصة في الأمور العقيدية – من خلال نظرتهم غير المتعمقة في بعض الآيات القرآنية أو الأحاديث النبوية دون علم ببقية النصوص المتصلة بمناط الاستشهاد أو أخذهم بالمتشابهات وترك المحكمات أي قلة تفقههم في الدين.. كذلك استعلاء – هؤلاء المتطرفين – على الناس بعبادتهم وأنّ نظرتهم فيها شيء من السخرية والتحقير.. كما أنّ التمسك بظواهر النصوص جعل مجموعة من الشباب المتأسلم قد زادت دوافع تكفيرهم لغيرهم من ظواهر نصوص القرآن فقد أصبح – في نظرهم – كل من لا يحكم بما أنزل الله فهو «كافر» وكل من لا يطبق تعاليم السماء فهو «كافر» وإن صلى وصام وزعم أنه مسلم ولم يكتفوا بتكفير الحكام بل انتقلوا إلى تكفير المحكومين ذلك بأنهم ينطقون بالشهادتين ولكن لا يعرفون معناهما ولا يعملون بمقتضاهما.[(١)]

كما أن فقدان الثقة من الشباب لبعض العلماء كانت أيضًا من دوافع «التكفير» فقد رأى – هؤلاء – أنّ بعض العلماء يتسمون بالسلبية في مواجهة الحكام فدفعهم ذلك إلى تكفير العلماء .. وازداد خلطهم بين الكفر الأكبر والكفر الأصغر وجهل البعض منهم التفرقة بينهما حيث يظنون – وهم في مضمار التكفير- أن الكفر معناه واحد ومن ثمَّ .. فقد حكموا على بعض الناس بالكفر.[(٢)]

بيد أنه ما يدفعهم لذلك قلة فقههم وتقليدهم الأعمى وتعصبهم لمذهب معين أو متحمسًا لاتجاه محدد أو منتميا لفرقة يحبها ومن ثم يكون تقليده بغير علم وإن قرأ ففي كتب بعينها دون سواها ولا يقرأ ما يناقضها من مذاهب أخرى.

---

(١) نشات عبد الجواد ضيف: مرجع سابق ذكره، ص٣٠.

(٢) نشات عبد الجواد ضيف: مرجع سابق ذكره، ص ٣١ ، ٣٢.

ولعل خطورة «التكفير» على الناس من إسالة دمائهم وإزهاق أرواحهم .. وانتشاره كظاهرة تعشعش في جنبات التاريخ الإسلامي منذ بواكير ظهوره على يد الخوارج وما تلى ذلك من عصور التاريخ المختلفة وتعاقب الأزمان وكرّ الدهور ودفع العديد من العلماء المسلمين وفقهاء الدين إلى التحذير منه والتثبت من نسبته ومراعاة عدم التسرع فيه لخطورته.. وللإمام أبي حامد الغزالي (٤٥٠-٥٠٥هـ / ١٠٥٨-١١١١م) كلمة تحذيرية في كتابه «الاقتصاد في الاعتقاد» قال فيها: «والذي ينبغي أن يميل المحصل إليه ... الاحتراز من التكفير ما وجدإليه سبيلا فإن استباحة الأموال والدماء من المصلين إلى القبلة المصرحين بقول: «لا إله إلا الله محمد رسول الله» خطأ والخطأ في ترك ألف كافر في الحياة أهون من الخطأ في سفك محجة من دم امرئ مسلم وقد قال صلى الله عليه وسلم: «**أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا: لا إله إلا الله محمد رسول الله فإذا قالوها فقد عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحقها**» (أخرجه البخاري (٧٢٨٤) و(٧٢٨٥).

ويقول ابن تيمية (٦٦١-٧٢٨هـ / ١٢٦٣-١٣٢٨م): «وهذا مع أني دائما ومن جالسني يعلم ذلك مني أني أعظم الناس نهيا عن أن ينسب معين إلى تكفير وتفسيق ومعصية إلا إذا عُلم أنه قد قامت عليه الحجة الرسالية التي من خالفها كان كافرًا تارة وفاسقا وعاصيًا أخرى». [(١)]

ويقول محمد بن علي بن محمد الشوكاني (ت ١٢٥٥هـ) في كتابه «السيل الجرار»: «اعلم أن الحكم على رجل مسلم بخروجه عن دين الإسلام ودخوله في دين الكفر لا ينبغي لمسلم يؤمن بالله واليوم الآخر أن يقدم عليه إلا ببرهان أوضح من شمس النهار فإنه قد ثبت في الأحاديث الصحيحة المروية عن طريق جماعة من الصحابة أن من قال لأخيه يا كافر فقد باء بها أحدهما.. وأورد عددًا من الأحاديث.. ثم قال: ففي هذه

(١) مجموع الفتاوى (٣/ ٢٢٩).. فإنه على الرغم أن السلفيين بفصائلهم المتعددة يعتمدون على فتاوى ابن تيمية في التكفير وإصدار الفتاوى بناء على فتاويه إلا أن الخطأ في نظري يتعلق بمن تأثر بالفتوى وليس مصدرها لأنه هناك فارق زمني بين الاثنين ولكن فهم النصوص والتمسك بالفتاوى على غير قياس أو مطابقة بين الأمرين يقع ذلك على عاتق السلفي المتعصب والقاصر في قراءاته على كتب ابن تيمية دون سواها من مذاهب أخرى.

الأحاديث ما ورد موردها أعظم زاجر وأكبر واعظ عن التسرع في التكفير».[1]

ويقول الفقيه الشافعي ابن حجر الهيثمي في كتابه «تحفة المحتاج في شرح المنهاج» : ينبغي للمفتي أنّ يحتاط في التكفير ما أمكنه لعظيم أثره وغلبة عدم قصده سيما من العوام ولا أزال أئمتنا – يعني الشافعية – على ذلك قديما وحديثا ثم نقل عن الإمام الزركشي قوله: «فلينتبه لهذا وليحذر من يبادر بالتكفير فيخاف عليه أن يُكفُرّ لأنه كفّر مسلمًا».[2]

ولعل هذه التحذيرات من الفقهاء القدامى وأيضا لخطورة انتشار ظاهرة التكفير ونتائجها دفعت الباحثين المحدثين أن يحاولوا وضع ضوابط للتكفير وقد جمعها عمر عبد الله كامل في كتابه : «المتطرفون» في ثمانية وهي:

الضابط الأول : التثبت في نسبة الكفر إلى المسلم.

الضابط الثاني: العلم.. فلكي يحكم على شخص بالكفر لأنه عمل عملًا أو قال قولًا أو اعتقد اعتقاد هو كفر.. لابد قبل الحكم من التأكد من تعريف هذا الشخص بأن ما يفعله كفر وأنه مخالفا لما يجب فعله من الحق والصواب.

الضابط الثالث: العمد.. لا يجوز الحكم عليه بالكفر إلا بعد استقباء شرط آخر وهو العمد.. أي أنه ليس مخطيء متأول وقد عرضت له بعض الشبه.

الضابط الربع: القصد والاختيار فيما لا يحتمل وجودها عدة في التأويل أي التحقق من قصد واختيار المنقول عنه الكفر.. وهذا الضابط متمم للثالث وهو «العمد».

الضابط الخامس : انتفاء الإكراه من شروط التكفير: الحرية والاختيار في اقتراف الفعل أو العمل المكفرِّ.. فلا يؤاخذ المكره والمضطر والعاجز.

الضابط السادس: لازم المذهب ليس بمذهب أو التفريق بين الكفر الصريح والكفر الاستلزامي.

---

(١) الخوارج الجدد «المتطرفون» ، ص١٨١.

(٢) المتطرفون، ص١٨١.

الضابط السابع: ملاحظة ما إذا كان الكلام يحتمل غير الكفر ولو على وجه ضعيف.

الضابط الثامن: التفريق بين تكفير المقالة وتكفير القائل أو بتعبير آخر التفريق بين تكفير النوع وبين تكفير الشخص بعينه فيما يعذر المسلم بجهله أو فيما يشتبه عليه دليله».[1]

موقف الإسلام من التكفير (مناقشة الحكم التكليفي) *

يتعلق التكفير بالمسلم في حكمه على نوعين:

الأول : التحريم: وهو من الحرام (وهو ما طلب الشارع الكف عنه على وجه الإلزام والتحتيم) وهذا يكون في المسلم الباقي على إسلامه.. لأن الأصل بقاء المسلم على إسلامه حتى يقوم الدليل على عكس ذلك لنصوص شرعية منها:

(أ) قوله تعالى: ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا ضَرَبْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَتَبَيَّنُوا وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ أَلْقَى إِلَيْكُمُ السَّلَامَ لَسْتَ مُؤْمِنًا** ﴾(النساء :٩٤).

ودلالتها : تدل الآية الكريمة على أن الإنسان إذا أعلن إسلامه بأي إعلان شرعي معتبر (السلام عليكم) لأن سلامه بتحية الإسلام مؤذن بطاعته فيقبل إسلامه.. ومن ثمّ يكون معصوم الدم والعرض والمال ويحرم تكفيره فالأحكام الشرعية تناط بالمظان

---

(١) المتطرفون ، ص١٨٢.

* الحكم التكليفي : هو خطاب الله تعالى المتعلق بأفعال المكلفين بالاقتضاء أو التخيير..وسمي هذا الحكم بالتكليف لأن فيه كلفة ومشقة على الإنسان وهذا ظاهر فيما طلب فيه الفعل أو الترك والمقصود بـ(خطاب الله): كلامه مباشرة وهو القرآن الكريم أو بالواسطة وهو سائر الأدلة الشرعية كالسنة والإجماع والقياس فهي خطاب من الشارع ولكنه غير مباشر والخطاب أعم من أن يكون مباشرا أو غير مباشر.. ومعنى (المتعلق): أي الصالح لأن يتعلق بفعل المكلف إذا وجد تعلقًا معنويًا أو تعلقًا لفظيًا عند وجوده، والمراد بأفعال المكلفين: ما يصدر عن المكلفين سواء أكان عملًا للجوارح كالقيام والركوع والسجود في الصلاة أم عملًا بالقلب كالاعتقاد والنية أم عملًا للسان كقراءة الفاتحة للصلاة وتحريم الغيبة.. و(المكلفين) : جمع مكلف وهو البالغ العاقل الذي بلغته الدعوة ولم يوجد به مانع من تعلق الخطاب به كالغفلة والإكراه ... والمقصود بالاقتضاء: الطلب مطلقًا سواء أكان طلب فعل أم طلب ترك وكل منهما إما أن يكون جازمًا أو غير جازم فيشمل الأحكام التكليفية. وأقسام العمل التكليفي: الإيجاب والندب والتحريم والكراهة والإباحة.. انظر : محمود حامد عثمان: القاموس المبين في اصطلاحات الأصوليين ، دار الزاحم ، ٢٠٠٢ ، ص١٤٠، ١٤١.

والظواهر لا على القطع وإطلاع السرائر.[1]

(ب) قول الرسول ﷺ: **«من صلى صلاتنا واستقبل قبلتنا وأكل ذبيحتنا فهو المسلم له ما لنا وعليه ما علينا»** (فتح الباري ١/ ٤٩٦)

الدلالة من الحديث: إن فعل الإنسان للصلاة الشرعية واستقباله القبلة ومشاركة المسلمين في دبائحهم أمارات ودلائل على إسلامه فلا يحكم بنقيضه (الكفر) متى عمل بها وحافظ عليها وغيرها مما هو ثابت في الشرع.

خبر (إذا قال الرجل لأخيه يا كافر فقد باء أحدهما فإن كان كما قال وإلا رجعت عليه) (فتح الباري ١٠/ ٥١٤) (وصحيح مسلم ١/ ٧٩ طبعة الحلبي).

- خبر (من دعا رجل بالكفر أو قال: عدو الله وليس كذلك إلا حار عليه) (صحيح مسلم ١/ ٨).

وجه الدلالة: يجب اجتناب تكفير المسلم والفرار منه وعدم اللجوء إليه لخطره العظيم.

الثاني: الوجوب: وهو من الواجب (هو ما طلب الشارع فعله على وجه اللزوم بحيث يذم تاركه ومع الذم العقاب ويمدح فاعله ومع المدح الثواب) وذلك في حق المسلم المكلف المختار عند صدور ما هو مكفر منه من له صلاحية إصدار الحكم كالقضاء والإفتاء لمصلحة شرعية معتبرة تترتب على الحكم بتكفيره.[2]

ونظرًا لما يتركه تكفير المسلمين من آثار عظيمة الخطورة فقد تحرر الإسلاميون من تكفير المسلمين لأن الأصل بقاء المسلم على إسلامه حتى يقوم الدليل على خلاف ذلك لقوله ﷺ: **«من صلى صلاتنا واستقبل قبلتنا وأكل ذبيحتنا فذلك المسلم له مالنا وعليه ما عليه»**. (أخرجه البخاري عن حديث أنس بن مالك) ولا خلاف بين الفقهاء - كما يذكر أحمد كريمة - في أنه لا ينبغي أن يكون أمكن حمل كلامه على محمل حسن أو كان في كفره خلاف ولو كان رواية ضعيفة.. وأن ما يشكك في كفره لا يحكم به فإن

---

(١) أحمد محمود كريمة: مرجع سابق ذكره.

(٢) حرمة التكفير، ص١٤.

المسلم لا يخرج من الإيمان إلا جحود ما أدخله فيه إذ الإسلام «الثابت» لا يزول بالشك مع أن الإسلام يعلو فإن كان في المسألة وجوه توجب الكفر ووجه واحد يمنع «التكفير» فعلى المفتي أن يميل إلى الوجه الذي يمنع التكفير لعظم خطره وتحسينا للظن بالمسلم ولأن الكفر نهاية في العقوبة فيستدعي نهاية في الجناية ومع الشك والاحتمال لا نهاية .. واتفق الفقهاء على أنه لا يفتى بردة المسلم إذا قال قولًا أو فعل فعلًا يحتمل كفره وغيره. (١)

١ – من القرآن الكريم:

وهناك نصوص قرآنية وأدلة شرعية تثبت ذلك:

(أ) قوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا ضَرَبْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَتَبَيَّنُوا وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ أَلْقَى إِلَيْكُمُ السَّلَامَ لَسْتَ مُؤْمِنًا ﴾(النساء : ٩٤)... ودلالة الآية أن الإنسان إذا أعلن إسلامه كقوله : «السلام عليكم» فتحية الإسلام مؤذن بطاعته وانقياده وقبوله للإسلام فالحكم عليه بالظاهر وليس بالاطلاع على السرائر.

(ب) قوله تعالى : ﴿ وَلَا تَلْمِزُوا أَنفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ بِئْسَ الِاسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيمَانِ وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴾(الحجرات : ١١).

والدلالة هنا تتمثل في نهي الله – تعالى – المسلمين عن اللمز والنبز للمسلم وذم فاعله.

(جـ) قوله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ ﴾(الحجرات : ١٢) .. وهنا وجه الدلالة: إن محل التحذير والنهي إنما عن تهمة لا سبب لها كمن اتهم بالفاحشة أو شرب الخمر ولم يظهر عليه ذلك فتكفير المسلم أولى وأدعى في تحذير النهي منى فقد اليقين. (٢)

(د) قوله تعالى: ﴿ وَلَا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ هَٰذَا حَلَالٌ وَهَٰذَا حَرَامٌ لِّتَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ ﴾(النحل: ١١٦) .. ودلالة الآيةَ هنا: نهي الله تعالى عن اختلاف الكذب ونسبته إليه بدعوى التحليل

(١) حرمة التكفير ، ص١٥.

(٢) أحمد محمود كريمة : مرجع سابق ذكره، ص١٧.

(إشارة إلى ميتة بطون الأنعام) والتحريم (إشارة إلى العجائر أو السوائب) وهذا إذا كان في الأمور الفرعية الظاهرة فالتكفير والذي يمس أصول الدين وثوابته من باب أولى.

(هـ) قوله تعالى: ﴿ **وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ بِغَيْرِ مَا اكْتَسَبُوا فَقَدِ احْتَمَلُوا بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُبِينًا** ﴾(الأحزاب : ٥٨) .. ووجه الدلالة هنا : تتمثل في أن أذية «المؤمنين» و«المؤمنات» بالأفعال والأقوال القبيحة كالبهتان والتكذيب المختلق أو شيء يثقل عليه إذا سمعه محرمة والتكفير للمسلم من أشد أنواع الإيذاء فيجب تركه بالكلية في حق المؤمنين والمؤمنات. [1]

٢- من السنة النبوية:

(أ) ما روي عن جابر عن رسول الله ﷺ: «**أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله فإذا قالوها عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحقها وحسابهم على الله**». ثم قرأ ﴿ **فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ** ﴾(سورة الغاشية : الآية ٢١) .

ووجه الدلالة في هذا الحديث: أن الأحكام الفقهية تبنى على الظواهر والله يتولى السرائر وما تخفى الصدور فمن قال لا إله إلا الله فقد عصم نفسه بالأصالة وعرضه دما له باليقين فيحرم استباحته بل ويحرم تكفيره.. [2]

(ب) ما روى عن أبي ذر الغفاري قال: أتيت النبي ﷺ وهو نائم عليه ثوب أبيض ثم أتيته فإذا هو نائم ثم أتيته وقد استيقظ فجلست إليه فقال: « **ما من عبد قال: لا إله إلا الله ثم مات على ذلك إلا دخل الجنة**» . **فقلت: «وإن زنا وإن سرق» قال: «وإن زنا وإن سرق» قلت: «وإن زنا وإن سرق» وإن زنا وإن سرق (ثلاثا) ثم قال الرابعة: (على رغم أنف أبي ذر)، فخرج أبو ذر وهو يقول: «وإن رغم أنف أبي ذر»** (صحيح مسلم ١/ ٢٨٦).. ووجه الدلالة هنا - كما يذكر كريمة - إن ارتكاب بعض الآثام أو التعصير في أمور الالتزام بالدين لا تخرج المسلم عن إسلامه ولا تنقص من إيمانه ومن

---

(١) أحمد محمود كريمة : مرجع سابق ذكره، ص٢٠.

(٢) حرمة التكفير ص٢٩.

ثم فيحرم تكفيره بسبب كبيرة من الكبائر. [1]

(جـ) عن أسامة بن زيد – رضي الله عنهما – قال: بعثنا رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى الحُرَقَة (بطن من جهينة) فصبحنا القوم على مياههم ولحقت أنا ورجل من الأنصار رجلا منهم فلما غشيناه قال: لا إله إلا الله فكف عنه الأنصاري وطعنته برمحي حتى قتلته فلما قدمنا المدينة بلغ ذلك النبي صلى الله وسلم فقال لي: «يا أسامة أقتلته بعدما قال: لا إله إلا الله ؟» قلت: «يا رسول الله إنما كان متقوزًا . فقال: أقتله بعدما قال لا إله إلا الله؟ فمازال يكررها حتى تمنيت أني لم أكن أسلمت قبل ذلك اليوم. (صحيح مسلم ١/ ٦٧) .

وهنا يتبين وجه الدلالة ان إجراء أحكام الناس على الظاهر وسرائرهم على الله تعالى.

(د) خبر (إذا قال الرجل لأخيه: يا كافر فقد باء بها أحدهما فإن كان ما قال وإلا رجعت عليه) (فتح الباري ١٠/ ٥١٤) و(صحيح مسلم ١/ ٧٩). وحديث: (من دعا إلى رجل بالكفر وقال: عدو الله وليس كذلك إلا جار إليه) (صحيح مسلم ١/ ٨٠ طبعة الحلبي).. ويظهر من ذلك أن وجه الدلالة هنا: أن يحرم اتهام المسلم بالكفر ومنه القول له: يا كافر وما أشبه.. [2]

وغني عن البيان أنه مما ذكر من آيات قرآنية وأحاديث نبوية وما دلت عليه من أدلة شرعية على وجوب «التحرز» من تكفير المسلم ومنعه بالنسبة للمسلم اعتمادًا على الاحتمال والظن والشك.

وما يعنينا الآن هو أن نطرح ما قدمه فقهاء المذاهب الأربعة (الحنفي – المالكي – الشافعي – الحنبلي) من ضوابط وتحذيرات من تكفير المسلم بالظن والشك:

١ – الفقه الحنبلي:

(أ) قال ابن نجيم المصري: «والذي تحرر أنه لا يفتى بتكفير مسلم أمكن حمل كلامه على محمل حسن أو كان في كفره اختلاف ولو في رواية ضعيفة (البحر الرائق ٥/ ١٢٥).

---

(١) حرمة التكفير ص٢٢.

(٢) حرمة التكفير، ص٢٣.

(ب) وروى الطحاوي : «لا يخرج الرجل من الإيمان إلا بجحود ما أدخله فيه ثم ما تيقن أنه ردة يحكم به وما يشك أنه ردة لا يحكم به إذ الإسلام الثابت باليقين لا يزول بالشك وينبغي للعالم إذا رفع إليه هذا ألا يبادر بتكفير أهل الإسلام» (البحر الرائق ٥/ ١٢٤).

٢- الفقه المالكي:

قال القرافي : «فليس إراقة الدماء بسهل ولا القضاء بالتكفير (الذخيرة للقرافي ١٢/ ٣٧).

٣- الفقه الشافعي:

قال الشربيني: «الحكم بالردة شيء عظيم فيحتاط له (معنى المحتاج ٤/ ١٣٨).

قال الغزالي: «والذي ينبغي أن يميل المحصل إليه.. الاحتراز من التكفير ما وجد إليه سبيلا فإن استباحة الدماء والأموال من المصلين إلى القبلة والمصرحين بقول : لا إله إلا الله محمد رسول الله خطأ».

٤ – الفقه الحنبلي:

قال ابن تيمية: «لا يجوز تكفير المسلم بذنب فعله ولا بخطأ أخطأ فيه كالمسائل التي يتنازع فيها أهل القبلة».

إني من أعظم الناس نهيًا عن أن ينسب معين إلى تكفير أو تفسيق أو معصية إلا إذا علم أن قد قامت عليه الحجة الرسالية.. (الفتاوى الكبرى ٣/ ٢٨٢).

المطلب الرابع
آثار التكفير وأخطاره على المجتمعات والأوطان

⌘⌘⌘⌘

لا شك أن التسرع في إلقاء تهمة التكفير وإطلاقها على الآخر وعدم التثبت من مخاطرها الكبيرة وآثارها على الأفراد والمجتمعات والأوطان يكون ذلك من قبيل النزق الذي يسرع بأصحابه إلى الحكم على العقائد وتكفير المخالفين الذين لا يقرون بالكفر أو يتأولون ما يشبه الكفر في أقوالهم وأفعالهم – فهذا مما يخالف ثوابت الإسلام وروح شريعته – بل أنه مما يؤدي بأصحابه إلى الهاوية – هاوية الكفر – التي أرادوها لمن تسرعوا في تكفيرهم دون إقرار أو برهان على «الكفر البواح» ! .[1]

فالتكفير له مزالق خطيرة تحدث من الواقع في هوة التكفير وتظهر المخاطر في جانبين:

الأول : جانب ديني (دنيوي وأخروي).

الثاني : جانب اجتماعي.

أولا : الجانب الديني : فإن التسرع في التكفير والذي يطلق بدون ضوابط أو تحذيرات أو تثبيت من وقوعه يكون على خطر عظيم يتمثل في وقوعه هو في هاوية التكفير إذا لم يحتاط في تكفير المسلم أو يتثبت من وجود حجة يقينية وبرهان قاطع على كفره وردته من إنكاره ما هو معلوم من الدين بالضرورة وأنه يجعل مع الله – سبحانه وتعالى – شريكا في ملكه أو أنكر النبوات وأنكر أن الرسول قد ختم الرسالة أو أنكر البعث واليوم الآخر والحساب والجزاء والجنة والنار أو أنكر الصوم والصلاة والحج والقرآن الكريم أو قال – أموت على غير الإسلام – أو قال : أنا كافر.[2]

---

(١) محمد عمارة : التفسير الماركسي للإسلام ، دار الشروق ، الطبعة الثانية ١٤٢٢هـ، ٢٠٠٢م / ص١٦.

(٢) منصور الرفاعي عبيد: التكفير والعنف والإرهاب ، الهيئة العامة لقصور الثقافة، ٢٠١٤ ، ص٥٧.

(١) الأحكام الدنيوية:

أولاً: وجوب استتابته: يستتاب وتزال من ذهنه وتقام عليه الحجة ثم يحاكم أمام القضاء الإسلامي لينفذ فيه حكم المرتد (*) طبقا لقواعد الفقه الإسلامي ولقوله عليه الصلاة والسلام: «من بدل دينه فاقتلوه» (أبو داود (٤٣٥)، البخاري جـ ٨ ص١٩).

ثانيا: فسخ عقد زواجه وتحريم نكاحه المرأة المسلمة: لا يحل لزوجته البقاء معه ويفسخ العقد بينهما لأن المسلمة لا يصح أن تكون زوجة لكافر لقوله تعالى: ﴿ لَا هُنَّ حِلٌّ لَّهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ ﴾(الممتحنة: ١٠) ولو ظلت معه يكون وجودها غير شرعي وأولاده منها – بعد ردته – يعدون أولاد غير شرعيين.(١)

ثالثا: سقوط ولايته: فإذا كان للكافر أبناء أو بنات قاصرون لا يجوز بقاؤهم تحت سلطانه وتصرفه لأنه لا تجوز له الولاية ولأنه غير مؤتمن عليهم ويخشى أن يؤثر فيهم

(*) يرى عديد من الباحثين الإسلاميين المعاصرين أن القرآن لم يقرر عقوبة دنيوية للردة وأنه لم يحدث أن تم قتل مرتد أيام الرسول وبالتالي لم يتم تنفيذ العقوبات الدنيوية المقررة فقهيا مثل استتابته وفسخ عقد زواجه وسقوط ولايته وسقوط إرثه من أقاربه وغيره من العقوبات الدنيوية الأخرى.. ومن الباحثين الذين قدموا رأيا في هذا الأمر الدكتور محمد عمارة وطرح رؤيته في الآتي: لقد تحدثت الكثير من آيات القرآن الكريم عن «الردة.. والمرتدين» كظاهرة من ظواهر المجتمع المدني على عهد الرسول صلى الله عليه وسلم ومع ذلك لم يرد في القرآن نص على عقوبة دنيوية لهؤلاء الذين ارتدوا على أعقابهم إلى الكفر بعد الإسلام أو أولئك الذين يؤمنون أول النهار ثم يكفرون آخره ولا الذين تكررت منهم الردة عدة مرات .. وذلك لأن ردتهم كانت اعتقادا ذاتيا ستروه بالنفاق ولم يكشفوا عنه فضلًا عن أن يسعوا إلى إشاعة فاحشته بين الناس.. وبرغم معرفة الرسول صلى الله عليه وسلم بالكثير منهم – بخبر السماء – أو بفلتات ألسنتهم – فلم يحدث أن أقام للردة عقوبة دنيوية على أحد من هؤلاء المرتدين .. لقد كانوا «زنادقة» ارتدوا على الإسلام بعد أنّ دخلوا فيه لكنهم أسروا الكفر وأظهروا الإيمان.. وبعبارة الإمام الشافعي (١٥٠-٢٠٤ هـ / ٧٦٧-٨٢٠م) : «فإن الزنديق هو الذي يسر الكفر ويظهر الإيمان» وهذا هو النفاق الذي قال فيه الإمام مالك (٩٣-١٧٩هـ / ٧١٢-٧٩٥هـ): «إن النفاق في عهد رسول الله ﷺ هو الزندقة فينا اليوم».. ولأنهم لم يشيعوا زندقتهم بين الناس وإنما ستروها في خاصة اعتقادهم عوملوا – في الدنيا – معاملة المسلمين وترك حسابهم الأخروي إلى الله سبحانه وتعالى فخلت آيات القرآن التي تحدثت عنهم – مستخدمة مصطلح «الكفر» ومصطلح «الردة» في وصف حالهم من تقرير عقوبة القتل وخلت تجربة دولة النبوة في المدينة من إقامة حد للردة على أحد هؤلاء المرتدين.. انظر: محمد عمارة: التفسير الماركسي للإسلام ، دار الشروق ، الطبعة الثانية، ٢٠٠٢، ص٢٤، ٢٥.

(١) ظاهرة التكفير وموقف أهل السنة منها ، ص٤٨.

بردته وكفره.. كما لا يجوز أن يتولى تزويج إحدى بناته أو غيرهن مما كانت له ولاية عليهن لأنه لا ولاية لكافر على مسلمة.

رابعًا: وجوب مقاطعته: يجب على المجتمع المسلم مقاطعته طالما بقى على كفره وردته وخروجه عن ملة الإسلام.

خامسا: تحريم الصلاة عليه: إذا مات «المرتد» لا تجرى على أحكام المسلمين في الوفاة، فلا يغسل ولا يُكفن ولا يصلى عليه بعد موته ولا يدفن في مقابر المسلمين لأنه ليس منهم.

سادسًا: سقوط إرثه من أقاربه وإرث أقاربه منه: الكافر لا يرث المسلم والمسلم – أيضًا – لا يرث الكافر لأن الشرط الأساسي من شروط الميراث عدم اختلاف الدين بين الوارث والمورث.. ومن ثمّ يودع ماله وتركته باكملها في حوزة بيت المسلمين.[1]

سابعًا: تحريم دخول الكافر مكة المكرمة: يحرم على المرتد دخول مكة المكرمة لقوله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَذَا﴾(التوبة: ١١٣).

ثامنًا: تحريم الدعاء له بالرحمة والمغفرة: لا يُدعى له بالرحمة ولا يجوز الاستغفار للكافر أو التصدق عليه لقوله تعالى: ﴿ مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولِي قُرْبَى مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ﴾(التوبة : ١١٣).

أما في الأحكام الأخروية فمنها ما يلي:

أولا: إحباط عمله: يحبط عمل الكافر بسبب ردته لقوله تعالى: ﴿ وَمَنْ يَرْتَدِدْ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾(البقرة : ٢١٧).

ثانيا: توبيخ الملائكة له: لقوله تعالى : ﴿وَلَوْ تَرَى إِذْ يَتَوَفَّى الَّذِينَ كَفَرُوا الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ (٥٠) ذَلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ﴾(الأنفال : ٥٠، ٥١).

---

(١) نشأت عبد الجواد ضيف: مرجع سابق ذكره، ص٥٠.

ثالثا : يحشر مع أهل الكفر والشرك: لأن «المرتد» منهم بدليل قوله تعالى : ﴿احْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ وَمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ (٢٢) مِنْ دُونِ اللَّهِ فَاهْدُوهُمْ إِلَى صِرَاطِ الْجَحِيمِ﴾(الصافات : الآية ٢٢ ، ٢٣).

رابعًا : استحقاق لعنة الله والخلود في النار: فكل من يموت على الكفر يستوجب لعنة الله وطرده من رحمته وخلوده في النار لقوله تعالى : ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ اللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ (١٦١) خَالِدِينَ فِيهَا لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنْظَرُونَ﴾(البقرة : ١٦١ ، ١٦٢) وإذا ارتد ثم عاد إلى الإسلام فإن الأعمال الصالحة التي أداها يحبط ثوابها عند بعض الفقهاء ، وعند الحنفية يحبط الثواب والعمل معًا، لذلك عندهم إن عاد إلى الإسلام وكان قد أدى فريضة الحج فعليه أن يعيد هذه الفريضة. (١)

ثانيًا : مخاطر الجانب الاجتماعي: فإنه بالنسبة لمخاطر التكفير والنزق المتسرع بإطلاقه على عقائد الناس وآرائهم وأقوالهم فإن المخاطر من ذلك تكون في الجانب الاجتماعي على النحو التالي:

الأولى : إن التسرع بإطلاق مصطلح «التكفير» من دون أسباب يقينية تستوجب ذلك أو النزق بالحكم على العقائد والآراء دون روية وتكفير المخالفين من شأن هذا التسرع وهذا النزق يستطيع أن يمزق المجتمع المسلم ويغذي الفرقة والشحناء بين المسلمين وكل ذلك يخالف لأوامر الله تعالى وتعاليم النبي الكريم فقد قال الله تعالى في محكم آياته: ﴿ وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا ﴾(آل عمران : ١٠٣). وقوله تعالى: ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ ﴾(الحجرات: ١٠).. ومعلوم من الدين بالضرورة – كما يذكر عمر عبد الله كامل – أن المسلمين إخوة في الدين وهذا يقتضي منهم التراحم والتعاون والتعاضد والتوادد.. والأصل الطبيعي في المسلمين أن يكونوا كما قال المولى عز وجل: ﴿ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ ﴾(الفتح : ٢٩) فالأصل إذا أن يكون

(١) نشأت عبد الجواد ضيف : مرجع سابق ذكره، ص٥٢، والمغنى لابن قدامة ج٧ ، ص٣٦٣.

المسلمون رحماء فيما بينهم متعاضدين متعاطفين وأن يكونوا أشداء على أعداء الله تعالى، أما إذا انقلبت المعادلة فإن ذلك ينبئ عن شذوذ في الفكر وانحراف في النفس وزيف عن هدى النبوة.[(١)]

الخطوة الثانية : هي تأجيج التعصب بين المسلمين والأصل في التعصب أن يكون لله بمعنى : أن يكون للصواب للحق للدليل الشرعي بينما النزق في إطلاق مصطلح التكفير على عقائد وأفكار الناس والتسرع بالتكفير يجعل من المسلمين فرقًا مزقًا تتنازع فيما بينها ويكون ولاء كل فرقة لشخص يقدسونه أو لآراء يمجدونها أو لاجتهادات لا يخرجون عنها فيتحول التعصب بذلك من التعصب للدليل الشرعي إلى التعصب للهوى بل إن التعصب بجهل وعدم علم من يتعصب به يصاب بأمراض نفسية وعضوية الأمر الذي يؤثر فيه.. هناك تعصب للحق لكن نتعصب له بهدوء ، نتمسك بالحق وتكون الأدلة واضحة.. فالتعصب المقيت في المجتمع المسلم يحرف المسلمين عن الجادة ويحول تعصبهم المشروع إلى تعصب مذموم .

الخطوة الثالثة: الأصل أن يستنفذ جهد المسلمين في العمل الصالح والنافع وفي البناء الشامل للمجتمع المسلم في كل ميادينه ومجالاته وفي إدارة الصراع بين المسلمين وأعدائهم ولكن بتزايد حالة التكفير والتسرع فيه تتحول المعركة من معركة بين الإسلام والكفر إلى معركة بين المسلمين بين فئاتهم وطوائفهم ومذاهبهم ، فإن هذا الأمر خطير ويستنزف طاقة المسلمين فيما لا طائل تحته..!![(٢)]

وغني عن التوكيد أنه إذا كانت آثار تكفير بعض المسلمين «حرام» و«جريمة» اجتماعية خطيرة . وإن كان هذا يقتصر على من وجهت إليه هذه الكلمة «الخطيرة» وهو محصور في دائرة ضيقة – رغم خطورته – فإن تكفير الحكام أعظم خطرًا وأشد عقوبة حيث أن تكفير الحكام دائرته أوسع وآثاره أخطر .. فكلمة الكفر إذا أطلقت على «الحكام» فآثارها تطول الأمة كلها وتطول نتائجها الوطن كله فخطورتها شديدة جدًا – كما يذكر منصور الرفاعي عبيد – لأنهم صمام أمان المجتمع وحتى لا ندفع

(١) المتطرفون ، ص١٧٣.

(٢) المتطرفون ، ص١٧٥.

بالمجتمع للضياع والانهيار بسبب فتوى متعجلة يقولها بعض أدعياء العلم بدون وعي وعدم إدراك.. فخطورتها شديدة لأن الأمر يتطلب فسخ حكمه وبطلان ولايته مما يدفع الأوضاع إلى الانهيار.!! [1]

فذلكة أخيرة:

من خلال متابعة واستقراء «ظاهرة التكفير» وخطورتها مع المستويين الديني والاجتماعي والنزق في إطلاقها وإلصاقها على المسلمين من خلال الفرق والجماعات والتنظيمات والأحزاب الإسلامية والتي تشدقت بامتلاكها التحدث الرسمي باسم الإسلام ومن ثمّ تكفير المسلمين وإخراجهم من الملة لمجرد نزقهم وتسرعهم الأحمق في الأحكام ولاختلافهم في الرأي مع المخالفين.

وقد يكون من الأصوب أن نسجل ملاحظات على هذا الموضوع المهم في التالي:

الملاحظة الأولى: أن ظاهرة التكفير منذ ظهور بواكيرها الأولى في عهد الإسلام الأول على يد الخوارج والخلاف على الحكم وإدارة الدولة واستحقاقات الحكم.. لم يخل عصر من العصور أو قرن من القرون من التكفير والتسرع فيه حتى وقت التنظيمات والأحزاب المتأسلمة في مرحلتنا الراهنة وحتى إعلان دولة داعش ومن يسير على نهجها في التفكير مثل بوكوحرام وأنصار بيت المقدس.. إلخ.. كما أن أضرار التكفير على مرّ التاريخ أصاب الأمة الإسلامية بانتكاسات وصراعات أثرت على مسيرتها وأظهرت الإسلام باعتباره معادل للإرهاب والتوحش والعنف لأنه لم يكن هناك ثمة وجود لإسلام معتدل وإسلام متطرف بعد أن ظهرت الجماعات والتي تدعى الاعتدال مثل «الإخوان» بأبشع صورها في التدمير والحرق بلجانها النوعية بعد إزالتها عن حكم البلاد بانفجار ثورة شعبية في الثلاثين من يونيو ٢٠١٣.

الثانية : رغم أن دولة المدنية في عهد الرسول صلى الله عليه وسلم لم يحدث أنّ تم قتل مرتد بل قرر عديد من الباحثين المعاصرين أن القرآن الكريم لم يقرر عقوبة للمرتد بل جعلها في الآخرة.. ونظر الباحثون إلى حديث النبي : « من بدل دينه فاقتلوه» واعتبروه من الأحاديث الضعيفة التي لا ترقى لإصدار أحكام بشأنها لأنه لو كان

(١) التكفير والعنف والإرهاب، ص٢٩.

صادرا من الرسول لكان هناك عديد من المرتدين قد أقام عليهم حد القتل إلا أنّ الفقهاء في المذاهب الأربعة قد قرروا عقوبات دينية في الدنيا والآخرة للمرتدين «الكفار» تتمثل في فسخ عقد زواجه وعدم دفنه في مقابر المسلمين ولا الترحم عليه ولا تستحق أن تكون له ولاية على غيره ولا يرث ولا يورث.. إلخ استنادًا على الحديث المذكور وقياس «المرتد» على الكافر في الحكم.

الثالثة : إن انتشار ظاهرة التكفير لدى الجماعات والتنظيمات «المتأسلمة» المعاصرة وتنفيذ الأحكام المتعلقة بالمرتد والكافر «بمعرفتهم» مثل قطع الرؤوس وذبح المخالفين وإحراقهم بالنار وإغراقهم في المياه في أقفاص حديدية وسبي النساء أظهر الإسلام والمسلمين بصورة بشعة وبشكل فج ممجوج وأن كل المسلمين يتميزون بالإرهاب والعنف والقتل وما ساهم في ذلك عدة أمور :

حدوث تفجيرات في أوروبا قتلت المئات من المدنيين بصورة وحشية.

والأمر الثاني: سكوت وصمت المؤسسات الدينية في العالم الإسلامي وخاصة «مؤسسة الأزهر» تجاه ما يحدث من هذه التنظيمات من بشاعة تخالف قواعد الإسلام الصحيح مع ضعف الخطاب الديني لهذه المؤسسات المهمة مما أثر على عدم القدرة على محاصرة «ظاهرة التكفير» وكذا «التدمير» المتلازم معه والذي طال الدول العربية والإسلامية وكذا الأوروبيين المدنيين..

الأمر الثالث: أن التنظيمات المتأسلمة والتي تطرح نفسها أنها معتدلة وتنبذ العنف والتكفير لم تشأ أن تواجه ما فعله «الدواعش» في المسلمين وفي الأقليات بل في الناس جميعًا فهم يعتبرون تنظيم داعش لم يخلع ربقة الإسلام من عنقه ولكنهم آثمون ظالمون بُغاة بل رفض السلفيون هجوم التحالف الدولي ضدهم!!

الرابعة: أن ظاهرة التكفير على مرّ التاريخ وكرّ الدهور وخطورتها ونتائجها قد شغلت أذهان بعض الفقهاء القدامى لما لها هذه الظاهرة من سلبيات جمة على المجتمعات وخطورة انتشار «التكفير» تسبب أضرار فادحة للأمة الإسلامية وإن ترك تكفير ألف كافر أهون من الخطأ في سفك محجة من دم امرئ مسلم – كما يذكر الإمام الغزالي – وابن حجر الهيثمي الفقيه الشافعي وغيره من الفقهاء كابن تيمية ولذلك وضعوا المحاذير للحد من خطورة التكفير والتي لم تستطع إخفائها ، كما حاول بعض

الباحثين «المعاصرين» الاجتهاد في وضع ضوابط للتكفير للحد من خطورته وتأثيراته البليغة ولكنها في الحقيقة اجتهادات شخصية يحول دون تعميقها في وجدان الناس وعقولهم ضعف المؤسسات الدينية والمنوط بها تصحيح المفاهيم ومواجهة أخطار المفاهيم المغلوطة والاتجاهات المتطرفة والفرق المتشددة والتي يكون لها بالغ التأثير على الناس.

الخامسة: يبدو من تتبع ذهنية المكفّرين وسماتهم على مر التاريخ وكرّ العصور أنهم يتسمون بصفات متقاربة كالتعصب الأعمى والتناقض الشديد وانفصامية الفكر والواقع والتشدد على النفس والغير والنظرة النصوصية الضيقة والنزق في الحكم على عقائد الناس وأفكارها وإصدار فتاوى التكفير سراعا والاعتساف في التأويل والتفسير والتمذهب المقيت وامتلاك الحقيقة المطلقة والتحدث الرسمي باسم الدين باعتبارها أنها «الفرقة الناجية» ووصم الغير بالتكفير لمجرد المخالفة في الرأي والاستعلاء بالعبادة والتقوى والعدوانية والبحث عن الفردوس المفقود على اعتبارات الخلافة الإسلامية هي الدولة الإسلامية العادلة في ظل وجود أمير المؤمنين وخليفة المسلمين .. كلها صفات متقاربة بين هذه التنظيمات منذ بواكير ظهورها وحتى الآن!!

خاتمة

نحو محاولة لفهم أخطار التكفير وذهنية التكفيريين ونتائج فتاويهم الضالة على الأفراد والمجتمعات والأوطان

⌑ ⌑ ⌑ ⌑

لا ريب أنّ الإبحار في لجج الفرق والجماعات والتنظيمات الإسلامية به مشاق كثيرة ومزالق جمة نظرًا لما ساد لديها من تُرهَّات التكفير والتطرف والغلو واتسم سلوكها وأسلوبها بالعنف والإرهاب والقتل وإسالة الدماء حتى لتحار في جماعات إسلامية تتسم بالعقل وإعلاء شانه أن تنحدر لمزالق التكفير ويتسم أسلوبها بالعنف والتحريض على القتل.. كما أن جماعات تظهر نفسها بالاعتدال والوسطية ونبذ العنف والدعوة إلى الاصطلاح في حين لا تجد يومًا من تاريخها يمر دون عنف أو إرهاب أو سفك دماء بريئة أو تحريض على نظام سياسي.

فالسمة لدى الجماعات المتشددة (من الخوارج إلى داعش) والتي عرضنا لتكفيرها ولتفكيرها ولتفجيرها أيضا.. فهذا المنهج في الحقيقة فرض من مسلمات فكرها وأيديولوجياتها بعد أن أيقنت أنها صاحبة الحق في امتلاك «الحقيقة المطلقة» و«الفكر الصحيح للإسلام».

ولعله يكون من الأصوب أن نطرح ما توصلنا إليه من قناعات فكريّة ونتائج من خلال دراستنا لهذه الفرق والجماعات المغالية في التفكير والتي تتمثل في الآتي:

(١) أن هناك تشابه إلى حد كبير في وجود الجماعات المتطرفة على مر التاريخ العربي الإسلامي من الخوارج القدامى إلى الخوارج الجدد (داعش وشقيقاتها) بل نستطيع أن نقول أن هناك ناظم مشترك بين هذه الفرق والجماعات والتنظيمات الإسلامية من تشدد نصوصي وانغلاق في الفكر وتحجر في المذهب ورفض التأويل وإعلاء شأن النص على العقل إلى درجة التقديس – مهما كانت درجة روايته – كما أن هناك صفات سلبية في الشخصية المتطرفة من قلة العلم والفقه والاستعلاء بالعبادة والدوجمائية المنغلقة.

(٢)إن الجماعات المتشددة والمغالية في الفكر من بدايات الخوارج ارتبطت بالتكفير وإكفار المسلمين مما أدى إلى العنف والإرهاب باسم الدين.. وإن هذا الإقصاء والتكفير وما ارتبط بهما وتزامن معهما من قتل وسفك وتدمير للآخرين وسبي وإرهاب تسبب في مذابح جمة على مر التاريخ وكرّ الدهور وتفتتت الجماعة العربية الإسلامية بين الذين يحرصون على وحدتها وبين الذين انتصروا لأنفسهم وجعلوا من ذواتهم أوصياء على الدين والعقيدة ومعهم توكيل من رب العباد في قتل العباد والتحكم في شؤون المسلمين بالباطل وهم يشعرون أنهم يحسنون صنعا.

(٣) أنّ ما فعلته الفرق والجماعات والتنظيمات الإسلامية من مذابح وخلافات منذ الفتنة الكبرى ومقتل عثمان بن عفان والصراع في عهد الإمام علي ومقتله على يد الشقي عبد الرحمن بن ملجم وحتى مرحلة داعش آنيا وأخوتها من بوكوحرام وأنصار بيت المقدس والمرابطين وأجناد مصر.. قد شوهت صورة الإسلام الصحيح وأعادت إلى الأذهان مقولة أنّ الإسلام منذ تاريخه الأول وحتى الآن لم يبتعد عن السيف والدماء في بنائه وفي صراعاته هذه المقولة والتي رددها المستشرقون مما تسببت في تشويه حقيقة الإسلام وازدادت نسبة الملاحدة كما شوهت حقيقة الدين وصورة الإسلام والذي جعلته قرين السيف والدماء..!!

(٤) أن هاجس السلطة أو الخلافة أو الإمامة العظمى كان مثار الفرقة والانقسام والتشظي وظهور الفرق والجماعات والملل والنحل كما تسبب في إزهاق الأرواح تحت بريق دولة «الخلافة» الخلابة للعقول وعودتها لامتلاك الأرض ومن عليها.. فالخليفة يمكن أن يكون في عصرنا من «ماليزيا» أو «نيجيريا» لإقامة دولة الإسلام مما أضاع فكرة «الوطنية» ووجود الدول والأوطان والحدود والتخوم واهتزت الولاءات وضاعت الانتماءات وسقط «مسقط الرأس» رغم أنه لا توجد ثمة خلاف بين الوطنية والفكرة الإسلامية ولا توجد ثمة خلاف بين مفهوم العروبة والقومية والفكرة الإسلامية الصحيحة البعيدة عن التشويه إلا في أذهان هؤلاء الذين ينعتون الأوطان بأنها حفنة تراب عفنة ولا يعترفون بالحدود ويجعلون الوطنية ضد الأممية الإسلامية ومتناقضة معها!!

(٥) إن مواجهة التطرف في الجماعات والمذاهب والملل والفرق لا يتوقف على رد فعل عنيف أو بالقتل أو بالمواجهة الأمنية الصارمة وفقط.. فقد استطاع الإمام عليّ أن

يجادل الخوارج والذين خرجوا عليه وهو الإمام الشرعي وزادوه رهقا وقد أرسل لحوارهم عبد الله بن عباس (٣ق.هـ - ٦٨هـ / ٦١٩-٦٨٧هـ) والذي أعاد منهم الآلاف إلى حظيرة الإسلام، فالحوار والنقاش والحجاج الفكري والنجاح في إزالة أسباب الإرهاب والعنف والتطرف من ظروف اقتصادية متدهورة واجتماعية وسياسية بإقامة مجتمع العدل ومجتمع الحريات وإشاعة الأمن يمكن أن يخفف منابع الإرهاب والتطرف وتوقع نزيف العنف وإسالة الدماء.

(٦) إن التطرف في الإسلام والتشدد في الدين وتجاوز الحد في الغلو والعنف وسفك الدماء والإرهاب من الجماعات المتطرفة منذ ظهور الخوارج وحتى ظهور داعش ليس حالة تاريخية في فترة زمنية وفقط وإنما هناك «خوارج العصر» و«خوارج لكل عصر» إذا لم يتم إزالة ظروفهم الموضوعية والتي تساعد على انفجار العنف وانبثاق التطرف المقيت علاوة على تجفيف منابع التطرف والتشدد.. فداعش هي امتداد فكري وسلوكي للخوارج وكذا بوكوحرام وأيضا أنصار بيت المقدس.. فليس ثمة اختلاف بين استخدام السيف والرمح وبين استخدام «التدمير» و«التفجير» واستخدام صواريخ «الهاون» وطائرات التجسس وسي فور و TNT واستخدام الرموت كنترول فاختلاف أدوات القتل والتدمير والقضاء على المخالفين هي في حقيقتها اختلاف عصور وتقدم وحداثة ولكن لم يتغير ما بداخل النفوس من فكر متطرف وضيق أفق والتشدد على النفس والغير وتسلط ذهنية التحريم وحب السلطة والهيام بالإمامة والتمسك بأهدابها لآخر نفس!!

(٧) يظهر من خلال استقراء التاريخ العربي الإسلامي وأحداثه ووقائعه ومن خلال ما كتب من تأريخ مدونات الملل والنحل وما سطره كتابها عن إطلاق مصطلح «التكفير» و«الخروج على الملة» و«المروق من الديانة» لم يكن سمة متعلقة بفرقة من الفرق دون أخرى بل نستطيع أن نقول بكل اطمئنان وقناعة فكرية أنها كانت ظاهرة جعلت التكفير ليس قصرًا على فرقة بعينها أو مذهب أو جماعة إنما طال التكفير كل الفرق وكل المذاهب والجماعات إلا من رحم ربي وكان بمثابة النذر اليسير.. فنجد أن الفرقة أو الجماعة قد كفرت الأخرى وطالها أيضًا التكفير من فرقة ثانية وهو ما أطلقنا عليه «التكفير المعكوس» حتى تمتلكك الدهشة ويصيبك الاستغراب بدوار من خلال القراءة التاريخية لتبحث عن فرقة أو جماعة لم يصبها «التكفير» بسهامه الطائشة والمميتة

فلن تجد إلا كما ذكرنا - النذر اليسير - كأن الفرق والجماعات والملل والنحل لا تعيش إلا به ولا تعرف إلا من خلاله رغم خطورته على الإنسان والمجتمع والوطن فإهدار دم المسلم (المرتد/ الكافر) وفسخ زواجه والتفريق بينه وبين زوجه وقطع ما بينه وبين المسلمين من أواصر وصلته وعلائق، فلا يرث أحدًا ولا يورث وإذا مات لا يغسل ولا يكفن ولا يصلى عليه ولا يدفن في مقابر المسلمين «قاطبة» لأنه كافر مرتد!! كما تتأثر المجتمعات والأوطان من انتشار ظاهرة التكفير والمكفّرين فيحدث الصدام بين الناس بدلًا من الوئام وتتزعزع الأوطان ويتصدع أركانها ويتصارع أفرادها وتتقاتل بناء على فتاوي ضالة مضلة.

(٨) لم يحدث خلال العهد النبوي أن قُتل مرتدا بعد أن أعلن إسلامه حتى لو أضمر الكفر داخله وأظهر إسلامه فلم يكن الرسول يفتش عن الصدور وخفايا السرائر من عقائد وأفكار.. كما أنه لام أسامة بن زيد لأنه قتل مسلما قال: لا إله إلا الله تحت حد السيف.. لأن خصائص الإسلام معرفة الظاهر وليس من خصائصه تكفير السرائر وما تخفيه الصدور لأن هذا لله وحده لأنه يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور.. ولذلك قرر كثير من الباحثين أن القرآن لم يقرر عقوبة دنيوية للمرتد وترك أمره لله في الآخرة وأن الرسول لم يعاقب مرتد بالقتل في حياته وإن كان يعرف أنّ هناك كفر نفاق لدى العديد من المسلمين حتى لا يخلق فتنة تقضي على لحمة الدولة الإسلامية وسداها.

(٩) لم يدرك كثير ممن يطلقون الفتاوى في الجماعات والفرق والتنظيمات الإرهابية والتكفيرية أن الكفر ليس على درجة واحدة فهناك كفر النعمة وكفر النفاق وكفر إنكار وكفر جحود.. ويمكن أن نقول مثل بعض الفقهاء أن هناك كفر حقيقي وكفر مجازي أو معنى آخر هناك كفر يخرج من الملة وكفر دون الكفر أي لا يخرجه من ملة الإسلام ولكن شاء أصحاب الفتيا أن يطلقون الكفر دون أن يفرقوا نوعية ثم ينفذون الحكم بقطع الرؤوس والحرق والتدمير.. وهذا ما دأبت عليه الفرق والجماعات والتنظيمات «الإسلامية» منذ الخوارج وحتى داعش.

(١٠) رغم المحاذير من التسرع في التكفير والنزق في إطلاقه هذه «اللفظة» على المسلمين دون تمييز بل اجتهد العديد من العلماء في وضع ضوابط ومحاذير تحول دون الإسراع في التكفير.. إلا أنه في القديم حذر الإمام الغزالي من الإسراع في التكفير وأن

ترك ألف كافر أفضل من إسالة محجة لمسلم وكذا حذر ابن تيمية ولكن مع هذا فقد وقع العالمان في فخ التكفير وشرك الإسراع في الحكم على عقائد وآراء المسلمين مما يجعلنا في دهشة من هذا التناقض الذي لازم حياة فقهائنا القدامى والمحدثين أيضا من جراء الإسراع في التفكير.. انظر في عالمنا اليوم كيف ليوسف القرضاوي والمعروف بكتبه في مواجهة التطرف والحرص على الاعتدال ونبذ العنف يوصف الآن بأنه «مفتي الإرهاب» في العالم العربي وأكثر الشيوخ تحريضًا على الجيش والشرطة في مصر وعديد من الدول العربية!!

مصادر ومراجع الكتاب

١- أبو الفتوح محمد بن عبد الكريم الشهرستاني : الملل والنحل – تقديم وتحقيق : أحمد حجازي السقا – محمد رضوان مهنا – مكتبة جزيرة الورد – الطبعة الأولى ١٤٢٧هـ – ٢٠٠٦م.

٢- أبو الحسن الأشعري: مقالات الإسلاميين واختلاف المصلين ، مكتبة النهضة المصرية ، تحقيق: محمد محيى الدين عبد الحميد.

٣- محمد أبو زهرة: تاريخ المذاهب الإسلامية في السياسة والعقائد وتاريخ المذاهب الفقهية – دار الفكر العربي – ١٩٩٦م.

٤- عامر النجار: في مذاهب الإسلاميين – الهيئة المصرية العامة للكتاب – ٢٠٠٥.

٥- محمد إبراهيم الفيومي : الفرق الإسلامية وحق الأمة السياسي – دار الشروق ١٩٩٨.

٦- محمد الأنور حامد عيسى : الخوارج بين الأمس واليوم – مكتبة الإيمان – ٢٠١١.

٧- علي سامي النشار : نشأة الفكر الفلسفي في الإسلام – الأجزاء الثلاثة – دار المعارف.

٨- مصطفى الشكعة : إسلام بلا مذاهب – دار الشروق.

٩- محمد عمارة: تيارات الفكر الإسلامي – دار الشروق ١٩٩٧.

١٠- أبو منصور عبد القاهر البغدادي: الفرق بين الفرق – دار الطلائع ٢٠٠٩ – تحقيق محمد محيى الدين عبد الحميد.

١١- طه حسين: الفتنة الكبرى – جزآن – عثمان وعلي وبنوه – دار المعارف.

١٢- أحمد إدريس : الفكر السياسي في الإسلام – وجهة نظر آخرى – الهيئة المصرية العامة للكتاب.

١٣- أحمد أمين : فجر الإسلام – مكتبة الأسرة ١٩٩٦.

١٤- عمر عبد الله كامل: الخوارج الجدد «المتطرفون» - مكتبة التراث الإسلامي ١٩٩٨م.

١٥- عبد المنعم الحفني : موسوعة الفرق والجماعات والمذاهب والأحزاب والحركات الإسلامية – مكتبة مدبولي – ٢٠٠٥م.

١٦- محمد الدمرداش العقالي: الإسلام السياسي في مصر من عام الجماعة إلى حكم الجماعة – سما للنشر – يناير ٢٠١٤.

١٧- مصطفى حلمي : نظام الخلافة بين أهل السنة والشيعة – دار الدعوة – ١٩٨٨م.

١٨- محمود إسماعيل: الفكر الإسلامي الحديث بين السلفيين والمجددين – رؤية – ٢٠٠٦م.

١٩- وحيد عبد المجيد : الإخوان المسلمون بين التاريخ والمستقبل – مركز الأهرام – ٢٠١٠.

٢٠- عبد الرحيم علي: الإخوان المسلمون – قراءة في الملفات السرية – الهيئة المصرية العامة للكتاب.

٢١- محمد عمارة: الإسلام وفلسفة الحكم – دار الشروق.

٢٢- جمال محمد غيطاس : مصر في زمن الإخوان – المركز العربي للبحوث.

٢٣- حسين بن محسن بن علي جابر: الطريق إلى جماعة المسلمين – دار الوفاء – ١٩٨٩م.

٢٤- رفعت سيد أحمد : قرآن وسيف – من ملفات الإسلام السياسي – مكتبة مدبولي ٢٠٠٢.

٢٥- دليب هيرو: الأصولية الإسلامية في العصر الحديث – ترجمة : عبد الحميد فهمي الجمال – الهيئة المصرية العامة للكتاب.

٢٦- صالح الورداني: السيف والطاغوت (مصر بين الإخوان والسلفية) – طبعة ٢٠١٣.

٢٧- السيد يوسف: الإخوان المسلمون وجذور التطرف والإرهاب في مصر – الهيئة المصرية العامة للكتاب .

٢٨- محمد مورو : الإسلام السياسي – شخصيات – مكتبة جزيرة الورد ٢٠١١.

٢٩- فرحان صالح: حول تجربة الإخوان المسلمين من جمال عبد الناصر إلى عبد الفتاح السيسي – الهيئة المصرية العامة للكتاب ٢٠١٥.

٣٠- عبد الغني حماد : حاكمية الله وسلطان الفقيه – دار الطليعة – بيروت ١٩٩٧.

٣١- حسن البنا : مذكرات الدعوة والداعية – مركز الإعلام العربي ٢٠١٢.

٣٢- جيلز كيبل: النبي والفرعون ، مكتبة مدبولي ١٩٨٨م.

٣٣- منصور الرفاعي عبيد: التكفير والعنف والإرهاب - الهيئة العامة لقصور الثقافة – ط ٢٠١٤.

٣٤- رفعت سيد أحمد: وثائق وتنظيمات الغضب الإسلامي في السبعينيات – مكتبة مدبولي – دون تاريخ للنشر.

٣٥- محمود عبد الحليم: الإخوان المسلمون – أحداث صنعت التاريخ – الأجزاء الثلاثة – دار الدعوة – طبعة ٢٠٠٤.

٣٦- جهاد عودة : سقوط دولة الإخوان – كنوز للنشر – الطبعة الأولى ٢٠١٣.

٣٧- حسن حماد : ذهنية التكفير – مكتبة الأسرة ٢٠١٥.

٣٨- عمرو فاروق : بنات المرشد – كنوز ٢٠١٤.

٣٩- ابن منظور : لسان العرب – دار الحديث.

٤٠- أبو بكر الرازي : مختار الصحاح.

٤١- الفيروزآبادي: القاموس المحيط.

٤٢- الزمخشري: أساس البلاغة – جزآن – الذخائر.

٤٣- محمد يوسف النجرامي: الشيعة في الميزان – دون تاريخ للنشر.

٤٤- إيهاب كمال محمد : الشيعة شعب الله المختار – الحرية للنشر ٢٠٠٦.

٤٥- عبد الله بن سعيد الجنيد: حوار هادئ بين السنة والشيعة – دار المنارة.

٤٦- محمد عمارة : حقائق وشبهات حول السنة والشيعة – دار السلام.

٤٧- موسى جار الله : الوشيعة في نقد عقائد الشيعة - دار الحرم للتراث ٢٠١٠.

٤٨- مرتضى العسكري : عبدالله بن سبأ وأساطير أخرى – المجمع العلمي الإسلامي ١٩٩٧.

٤٩- محمد الحسين آل كاشف الغطاء: أصل الشيعة وأصولها – دار البيان.

٥٠- مصطفى حلمي: قواعد المنهج السلفي في الفكر الإسلامي – دار ابن الجوزي ٢٠٠٥.

٥١- محمد فياض : فرق الشيعة بين النشأة والتطور والعمل السياسي – الهيئة العامة لقصور الثقافة – ٢٠١٣.

٥٢- إحسان إلهي ظهير: الشيعة والسنة – دار ابن حزم – ٢٠٠٨.

٥٣- عمر أبو النصر: الخوارج في الإسلام – مكتبة المعارف – بيروت عام ١٩٤٩.

٥٤- محمد الحلفاوي: وكلاء الوهابية في مصر – جزآن.

٥٥- فتاوى داعش وبوكوحرام (جولة في العقل السلفي) ط ٢٠١٤.

٥٦- زكريا سليمان بيومي : الإخوان المسلمون والجماعات الإسلامية في الحياة السياسية المصرية ١٩٢٨- ١٩٤٨.

٥٧- أحمد محمود كريمة : جماعة الإخوان – رؤية نقدية وشرعية – ط ٢٠١٤.

٥٨- ريتشارد هرير دكجميان: الأصولية في العالم العربي – دار الوفاء – ١٩٩٢.

٥٩- وحيد عبد المجيد: الإرهاب وأمريكا والإسلام – مكتبة الأسرة ٢٠٠٤.

٦٠- رضوان أحمد شمسان الشيباني : الحركات الأصولية في العالم العربي – مدبولي ٢٠٠٦.

٦١- شحاته صيام : العقل التكفيري من التشدد إلى ما بعد المراجعات – رؤية.

٦٢- محمد عمارة : فتنة التكفير بين الشيعة ---والوهابية والصوفية – قضايا إسلامية .

٦٣- محمد عبد الستار التونسي: بطلان عقائد الشيعة.

٦٤- جعفر السبحاني: مع الشيعة الإمامية في عقائدهم – منشورات الثقلين الثقافية ط ١٩٩٧.

٦٥- آمنة محمد نصير: الشيخ الإمام محمد بن عبد الوهاب ومنهجه – دار الشروق – ط ١٩٨٣.

٦٦- اليماني الفخراني : النزعة التكفيرية في فكر الوهابية – مكتبة مدبوي – ط أولى ٢٠١٢.

٦٧- أحمد خليفة (إشراف) سهر لطفي (تحرير) : المتشددون المحدثون – دراسة لحركات إسلامية معاصرة – الهيئة المصرية العامة للكتاب – ٢٠١٣ (مجموعة باحثين) – جزآن.

٦٨- أحمد الكاتب : الفكر السياسي الوهابي – قراءة تحليلية – مكتبة مدبولي ٢٠٠٨.

٦٩- أحمد أمين : زعماء الإصلاح في العصر الحديث – مكتبة الآداب – ٢٠٠٩.

٧٠- محمد عبد الحليم عبد الفتاح : عقائد الشيعة – دار الحياة ط ٢٠٠٨.

٧١- أحمد أمين : ضحى الإسلام – الأجزاء الثلاثة – المكتبة العصرية – بيروت.

٧٢- أحمد فؤاد الأهواني : الفلسفة الإسلامية – المكتبة الثقافية – ١٩٦٢.

٧٣- جمال بدوي : في محراب الفكر – الهيئة المصرية العامة للكتاب – ط ١٩٩٨.

٧٤- أبو الحسن الندوي: صورتان متضادان عند السنة والشيعة الإمامية – الأزهر.

٧٥- محب الدين الخطيب : الخطوط العريضة لدين الشيعة – مطابع الأزهر.

٧٦- شحاته صيام : العنف والخطاب الديني في مصر – سينا للنشر – ط ١٩٩٤.

٧٧- هاني نسيرة : أزمة النهضة العربية وحرب الأفكار ٠ الهيئة المصرية العامة للكتاب ٢٠٠٩.

٧٨- محمود إسماعيل : الإسلام السياسي بين الأصوليين والعلمانيين – مؤسسة الشراع العربي.

٧٩- أحمد محمود كريمة: تهافت السلفية – مكتبة جزيرة الورد – ٢٠١٥م.

٨٠- أحمد زغلول شلاطة: الحالة السلفية المعاصرة في مصر – مكتبة مدبولي – ٢٠١١.

٨١- ماهر فرغلي: سراديب السلفيين – كنوز للنشر – الطبعة الأولى ٢٠١٤.

٨٢- منير أديب: خريطة الجهاد المسلح في مصر – الهيئة المصرية العامة للكتاب ٢٠١٥.

٨٣- حمدي رزق: فتح مصر – وثائق التمكين الإخوانية – دار نهضة مصر ٢٠١٣.

٨٤- رفعت السعيد: حسن البنا متى.. كيف.. ولماذا؟ - الهيئة المصرية العامة للكتاب.

٨٥- محمد سعيد رمضان البوطي: السلفية مرحلة زمنية مباركة لا مذهب إسلامي – دار الفكر المعاصر – بيروت ٢٠٠٧.

٨٦- محمد يوسف بلال: بدع السلفية الوهابية في هدم الشريعة الإسلامية – مكتبة جزيرة الورد – الطبعة الأولى ٢٠١٥.

٨٧- محمد رضا المظفر : عقائد الإمامية – المجمع العلمي لأهل البيت ٢٠١٢.

٨٨- محمود المراكبي : تسرب الفكر الباطني إلى الشرائع السماوية – ١٩٩٦.

٨٩- هـ. ا. رجب ، د ح. هـ. كالمرز : الموسوعة الإسلامية الميسرة – جزآن – ترجمة راشد النبراوي ، طباعة عام ٢٠١٢ – الهيئة المصرية العامة للكتاب.

٩٠- محمد عمارة: الإسلام السياسي – الرد على شبهات العلمانيين – دار التوزيع والنشر الإسلامية- الطبعة الأولى ١٩٩٣.

٩١- تامر السامرائي : نحو تفسير قومي للتاريخ الإسلامي – منشورات دار النضال للطباعة والنشر – بيروت ١٩٨٨.

٩٢- محمد محمود ربيع ، إسماعيل صبري مقلد (محرران) : موسوعة العلوم السياسية – جامعة الكويت – طبعة خالد بمصر.
٩٣- رفعت سيد أحمد : الدين والدولة والثورة – كتاب الهلال – العدد ٤١٠ عام ١٩٨٥ .
٩٤- طارق البشري: الحركة السياسية في مصر (١٩٤٥-١٩٥٢) – دار الشروق ١٩٨٣ .
٩٥- عبد الله عبد الباقي أبو عيانة :الإخوان المسلمون في التحرير – شروق للنشر – ٢٠١٢ .
٩٦- حسام تمام : تحولات الإخوان المسلمين – مكتبة مدبولي – ١٩٨٧ .
٩٧- عبد الله النفيسي (تقديم – تحرير) : الحركة الإسلامية رؤية مستقبلية – مدبولي – ١٩٨٩ .
٩٨- عبد الله شلبي: الدين والصراع الاجتماعي في مصر (١٩٧٠-١٩٨٥) كتاب الأهالي ٦٧ .
٩٩- نشأت عبد الجواد ضيف: ظاهرة التكفير وموقف أهل السنة منها – ١٩٩٥ .
١٠٠- عبد العاطي محمد : شيوخ بلا خناجر – مكتبة الأسرة ٢٠٠٤ .
١٠١- سلوى محمد العوا: الجماعة الإسلامية المسلحة في مصر ١٩٧٤ – ٢٠٠٤ – مكتبة الشروق الدولية.
١٠٢- مصطفى بكري: سقوط الإخوان - اللحظات الأخيرة بين مرسي والسيسي – الدار المصرية اللبنانية.
١٠٣- ناجح إبراهيم / هشام النجار : داعش السكين التي تذبح الإسلام – دار الشروق ٢٠١٤ .
١٠٤- يسري فودة: في طريق الأذى من معاقل القاعدة إلى حواضن داعش – دار الشروق – الطبعة الأولى ٢٠١٥.
١٠٥- عبد الرحيم علي: القاعدة من التنظيم إلى الشبكة – كراسات استراتيجية – العدد ١٥٥ عام ٢٠٠٥.
١٠٦- رولان جاكار: اسمي أسامة بن لادن –ترجمة منار الشوربجي.
١٠٧- رفعت سيد أحمد: «الأخسرين أعمالا» داعش «ولاية سيناء» - مركز يافا.
١٠٨- عصام بسيوني : نهاية الإخوان – الجماعة إلى أين – مكتبة جزيرة الورد.
١٠٩- مصطفى بكري: داعش الحقيقة والوهم – الوطن.
١١٠- علي الوردي : مهزلة العقل البشري – دار كوفان.
١١١- إبراهيم بيضون: تكون الاتجاهات السياسية في الإسلام الأول – من دولة عمر إلى دولة عبد الملك – دار اقرأ للنشر والتوزيع – بيروت.
١١٢- ابن قتيبة : الإمامة والسياسة – المكتبة التوفيقية.
١١٣- هالة مصطفى : الإسلام السياسي في مصر من حركة الإصلاح إلى جماعات العنف – الأهرام – مركز الدراسات السياسية والاستراتيجية ١٩٩٢ .
١١٤- نجاح محسن: الفكر السياسي عند المعتزلة – دار المعارف.
١١٥- مجدي سيد عبد العزيز : الموسوعة في أعلام الدنيا – مكتبة الآداب.

١١٦- جمال سند السويدي : السراب - ٢٠١٥ - أبو ظبي - الإمارات.

١١٧- محمود حامد عثمان: القاموس المبين في اصطلاحات الأصوليين - دار زاحم.

١١٨- علي الوردي : وعَّاظ السلاطين - دار الوراق ٢٠٠٩.

١١٩- علي حسني الخربوطلي : الإسلام والخلافة - دار بيروت عام ١٩٦٩.

١٢٠- عبد العظيم حماد : الوحي الأمريكي - مكتبة الأسرة ٢٠١٤.

١٢١- أبو العلا ماضي : جماعات العنف وتأويلاتها للإسلام - الجذور التاريخية - مكتبة الشروق الدولية، ٢٠٠٦.

١٢٢- مختار نوح: موسوعة العنف في الحركات الإسلامية المسلحة - سما .

١٢٣- سيد قطب : معالم في الطريق - دار الشروق.

١٢٤- رفعت السعيد: المتأسلمون ماذا فعلوا للإسلام ؟ مكتبة الأسرة ٢٠٠٤.

١٢٥- مرتضى المراغي: مذكرات شاهد على حكم فاروق - دار المعارف.

١٢٦- علي عشماوي: التاريخ السري لجماعة الإخوان المسلمين - دار الهلال.

١٢٧- عمرو فاروق : داعش سفراء جهنم - كنوز.

١٢٨- جمعة أمين عبد العزيز : أوراق من تاريخ الإخوان - أربعة مجلدات.

١٢٩- عادل حمودة : قنابل وسيف - سينا للنشر - الطبعة الثالثة ١٩٨٩.

١٣٠- فؤاد زكريا: الصحوة الإسلامية في ميزان العقل - دار الفكر للدراسات.

١٣١- ثروت الخرباوي : سر المعبد - الأسرار الخفية لجماعة الإخوان المسلمين - دار نهضة مصر.

١٣٢- عبد الخالق فاروق : اقتصاديات جماعة الإخوان المسلمين في مصر والعالم - الهيئة المصرية العامة لكتاب.

١٣٣- أحمد عبد الرحيم مصطفى: شخصيات مصرية - كتاب الهلال - العدد ٥١٦-١٩٩٣م.

١٣٤- محمد سعيد العشماوي: الخلافة الإسلامية - مكتبة مدبولي الصغير ٠ ط ١٩٩٦.

١٣٥- نجاح العشري: الخروج على الإمامة والخلافة الإسلامية - مكتبة جزيرة الورد.

١٣٦- الشورى والديمقراطية بين الإسلام والسياسة - مكتبة جزيرة الورد.

١٣٧- أبو حامد الغزالي : تهافت الفلاسفة - دار المعارف.

١٣٨- أبو حامد محمد بن محمد بن محمد الغزالي: الاقتصاد في الاعتقاد - مكتبة الجندي.

١٣٩- يوسف الجهماني : توارا بورا - أولى حروب العصر - دار الكتاب العربي ٢٠٠٢.

١٤٠- علي بن محمد الجرجاني : كتاب التعريفات - مؤسسة التاريخ العربي - دار إحياء التراث العربي - بيروت - الطبعة الأولى ١٤٢٤هـ - ٢٠٠٣م.

١٤١- حافظ دياب: السلفيون والسياسة - الهيئة المصرية العامة للكتاب ٢٠١٤.

١٤٢- محمد سعد أبو عامود: جماعات الإسلام السياسي والعنف في الوطن العربي – دار المعارف.

١٤٣- ممدوح الشيخ : السلفيون من الظل إلى قلب المشهد – أخبار اليوم.

١٤٤- علي عبد العال وآخرون : الحركة السلفية في مصر – مركز النيل للدراسات ٢٠١٢.

١٤٥- صلاح سالم: الأساطير المؤسسة للإسلام السياسي – جزآن – الهيئة المصرية العامة للكتاب.

١٤٦- علي محمد الصلابي: حقيقة الخلاف بين الصحابة في معركتي الجمل وصفين وقضية التحكيم – مكتبة الإيمان – المنصورة.

١٤٧- خليل كلفت: الإطاحة بحكم المرشد لتفادي حرب أهلية مدمرة .

١٤٨- شريف عارف : الإخوان في ملفات البوليس السياسي – الهيئة العامة لقصور الثقافة.

١٤٩- سليمان الحكيم – أسرار العلاقة الخاصة بين عبد الناصر والإخوان – مركز الحضارة العربية للإعلام.

١٥٠- رفيق حبيب : الاحتجاج الديني والصراع الطبقي في مصر – سينا للنشر ١٩٨٩.

١٥١- عامر محمود : الإخوان المسلمون – كشوف البركة .. والمحاكمات الداخلية – ط ٢٠١٠.

١٥٢- عاطف معتمد عبد الحميد: الشيعة في المشرق الإسلامي – نهضة مصر ٢٠٠٨.

١٥٣- ابن جونسون: مسجد في ميونيخ – مكتبة الأسرة ٢٠١٥.

١٥٤- عبد الله سالم مليطان: الحقيقة السبئية وعمق صلتها بالفكر الشيعي – مكتبة مدبولي ٢٠١١.

١٥٥- كمال حبيب: أزمة الحركة الإسلامية في مصر – كتاب الجمهورية – ٢٠١٦.

١٥٦- مكرم محمد أحمد : مؤامرة أم مراجعة حوار مع قادة التطرف في سجن العقرب – مكتبة الأسرة ٢٠٠٨.

١٥٧- حسام تمام: الإخوان المسلمون – سنوات ما قبل الثورة – دار الشروق ٢٠١٢.

١٥٨- توحيد مجدي: مؤامرات الإخوان من واقع ملفات CiA وملفات Mi6 – منتهى السرية – أخبار اليوم .

١٥٩- أحمد البرديسي: الملفات السرية للإخوان – المصرية للنشر والتوزيع ٢٠١٣.

١٦٠- محمود إسماعيل: الحركات السرية في الإسلام – رؤية للنشر والتوزيع ٢٠٠٦.

١٦١- ماهر فرغلي : الخروج من بوابات الجحيم – دار الانتشار العربي – ٢٠١٢.

١٦٢- فاطمة سيد أحمد: ماذا لو حكم الإخوان- الحرية – العدد ٥٣ طبعة٢٠٠٨.

١٦٣- علي مبروك : في لاهوت الاستبداد والعنف والفريضة الغائبة في خطاب التجديد الإسلامي – ٢٠١٤.

١٦٤- شريف يونس: سيد قطب والأصولية الإسلامية – مكتبة الأسرة ٢٠١٢.

١٦٥- عمرو هاشم ربيع: الإخوان والبرلمان – كراسات استراتيجية – الأهرام

١٦٦- رفعت سيد أحمد : الحركات الإسلامية في مصر وإيران – سينا للنشر ١٩٨٩.

١٦٧- أبو بكر بن محمد بن العربي: العواصم من القواصم – مكتبة الصفا.

١٦٨- وحيد عبد المجيد : ثقافة العنف في العالم العربي – مكتبة الأسرة ٢٠٠٦.

١٦٩- عبد الحكيم العفيفي: موسوعة تاريخ الإعدام السياسي – مدبولي الصغير.

١٧٠- رجب مدكور : التكفير والهجرة – مكتبة الدين القيم – طبعة ١٩٨٥.

١٧١- موسى الموسوي : المتآمرون على المسلمين الشيعة من معاوية إلى ولاية الفقيه – مكتبة مدبولي ١٩٩٦.

١٧٢- أبو الوفا التفتازاني : دراسات في الفلسفة الإسلامية – ١٩٥٧.
١٧٣- جلال الدين السيوطي : تاريخ الخلفاء.
١٧٤- زكي نجيب محمود : المعقول واللا معقول في تراثنا الفكري – دار الشروق.
١٧٥- ابن حزم الأندلسي: الفصل في الملل والأهواء والنحل – ثلاثة أجزاء – المكتبة التوفيقية.
١٧٦- أحمد محمود صبحي : في علم الكلام - المعتزلة والأشاعرة – دار النهضة العربية.
١٧٧- محمد خالد: أعلام الصحابة – المكتبة الثقافية العدد ٩
١٧٨- محمد حسنين هيكل : خريف الغضب – الأهرام.
١٧٩- محمد عمارة: التفسير الماركسي للإسلام – دار الشروق.
١٨٠- أحمد سالم : إقصاء الآخر –صناعة التكفير في علم العقائد - الهيئة المصرية العامة للكتاب ٢٠١٣.
١٨١- رفعت سيد أحمد : الإسلامبولي – رؤية جديدة لتنظيم الجهاد – مدبولي.
١٨٢- جمال الشويخ : محاكمة مشاهير السياسة – أطلس ٢٠٠٦.
١٨٣- أحمد محمود كريمة: حرمة التكفير – قضايا إسلامية.
١٨٤- عبد المنعم منيب: مراجعات الجهاديين – مكتبة مدبولي ٢٠١٠.
١٨٥- علاء بكر : ملامح رئيسية للمنهج السلفي – مكتبة فياض – المنصورة

دوريات وصحف :

عالم الفكر – الكويت – شؤون عربية – جامعة الدول العربية.-
السياسة الدولية – الأهرام
الهلال (شهرية من دار الهلال)
المصور أسبوعية
البوابة جريدة يومية
الوطن (يومية)
المصري اليوم (يومية).

المؤلف في سطور

- نجاح السيد العشري من مواليد الجمالية - دقهلية
- كتب المئات من الدراسات والمقالات في الصحف المصرية منها : الأهرام – الشعب – الأحرار – النبأ – القاهرة – العربي الناصري..
- مارس العمل السياسي منذ عام ١٩٧٩ حينما كان عضوا بحزب العمل الاشتراكي وحتى تجميد الحزب بتعليمات من مبارك عام ٢٠٠٠.
- اشترك في معظم الحركات الاحتجاجية وفي مقدمتها حركة كفاية وكذلك اللجان الشعبية لمناصرة الشعب العراقي والشعب الفلسطيني.
- حضر مؤتمر المائدة المستديرة للأساتذة والباحثين العرب بطرابلس – ليبيا – لمدة أربع سنوات منذ عام ١٩٩٧ وحتى عام ٢٠٠٠ وكانت ورقته أساسية.. والمائدة المستديرة تظاهرة ثقافية تشرف عليها جامعة ناصر الأممية.

صدر له:

١- أفريقيا والعرب. (بالجماهيرية الليبية)

٢- نهر النيل ونزاع الموارد المائية العربية (جزيرة الورد)

٣- شخصية عبد الناصر وحياته (جزيرة الورد)

٤- عبد الناصر وحركات التحرر العربي والإفريقي (جزيرة الورد)

٥- السادات له وما عليه (جزيرة الورد)

٦- الرئيس القادم لمصر (بالاشتراك) (جزيرة الورد)

٧- الخروج على الإمام والخلافة الإسلامية (جزيرة الورد)

٨- الشورى والديمقراطية بين الإسلام والسياسة. (جزيرة الورد)

الفهرس

الموضوع الصفحة

مقدمة لابد منها ---------------------------------- ٥
المبحث الأول : الفرق والجماعات والتنظيمات الإسلامية في الإسلام الأول وقضية إكفار المسلمين -------------------- ١٣
المطلب الأول : الخوارج.. وبواكير تكفير المسلمين والمخالفين في الرأي. - ١٥
المطلب الثاني: الشيعة .. وقضية التكفير «المعكوس» -------------- ٥٥
المطلب الثالث: المعتزلة.. وإشكالية التكفير ----------------- ٧٩
المطلب الرابع : الأشاعرة.. وإشكالية الإقصاء والتكفير ----------- ١٠٥
المبحث الثاني: الفرق والجماعات والتنظيمات الإسلامية في العصر الحديث والمعاصر.. وقضية العنف التكفيري ------------ ١٤١
المطلب الأول : الوهابية ونزعة التكفير ومنهجهم العقيدي!! -------- ١٤٣
المطلب الثاني: السَّلفية والسَّلفيون وفتنة التكفير ----------------- ١٦٥
المطلب الثالث: الإخوان المسلمون وصياغة أيديولوجيا التكفير «وهم الاعتدال والإصلاح» -------------------- ١٩١
المطلب الرابع : الفنية العسكرية.. رسالة إيمان أم رسالة كفر!! -------- ٢٦٧
المطلب الخامس: جماعة التكفير والهجرة -------------------- ٢٨١
المطلب السادس: تنظيم الجهاد وتكفير النظام السياسي والحاكم ------ ٢٩٧
المطلب السابع: الجماعة الإسلامية وقضية تكفير أنظمة الحكم ------- ٣١١
المطلب الثامن: تنظيم القاعدة وخطابه التكفيري -------------- ٣٢٧
المطلب التاسع: داعش.. الخطاب التكفيري والتوحش الإرهابي!! ---- ٣٤٥
المبحث الثالث: التكفير وموقف الإسلام منه وآثاره الخطيرة على المجتمعات والأوطان ------------------- ٣٧٥
المطلب الأول : الكفر لغة وشرعا واصطلاحا وأنواع الكفر ودرجاته --- ٣٧٧

الموضوع الصفحة

المطلب الثاني: ظاهرة التكفير والغلو وأسبابها وذهنية المكفرّين ------ ٣٨٣
المطلب الثالث: التكفير وموقف الإسلام منه ---------------- ٣٩١
المطلب الرابع : آثار التكفير وأخطاره على المجتمعات والأوطان ----- ٤٠١
خاتمة -- ٤٠٩
المصادر والمراجع ----------------------------------- ٤١٥
المؤلف في سطور ----------------------------------- ٤٢٣
الفهرس -- ٤٢٥

